

البحرين وعلاقتها الخارجية إبان القرن السادس عشر

د. بشير زين العابدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البحرين وعلاقتها الخارجية إبان القرن السادس عشر
د. بشير زين العابدين
الطبعة الأولى ٢٠٠٩
حقوق الطبع محفوظة

مركز الدراسات التاريخية
جامعة البحرين - مملكة البحرين
الصخير، ص. ب. ٣٢٠٣٨
هاتف: ١٧٤٣٧٥٥٤ (٠٠٩٧٣)
فاكس: ١٧٤٤٩٦٥٣ (٠٠٩٧٣)

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: الأنسة بسمة قائد البناء
مطبعة جامعة البحرين

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلفين.

رقم الإيداع في إدارة المكتبات العامة: د.ع 2009 / 7609 م
رقم الناشر الدولي: 4-79-06-99901-978 ISBN

فهرس الكتاب

| | |
|-----|---|
| ١١ | مقدمة الكتاب |
| ١٧ | الفصل الأول: مصادر تاريخ البحرين في القرن السادس عشر |
| ١٩ | المبحث الأول : المصادر البرتغالية |
| ٢٣ | المبحث الثاني : المصادر العثمانية |
| ٢٧ | المبحث الثالث : المصادر الإقليمية والمحلية |
| ٣٣ | المبحث الرابع : الإشكاليات المتعلقة باستخدامات المصادر |
| | الفصل الثاني: الأوضاع العامة في الخليج العربي وأهم أحداث |
| ٤٣ | القرن السادس عشر |
| ٤٧ | المبحث الأول : الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي |
| ٦٩ | المبحث الثاني : مملكة هرمز ونفوذها التجاري |
| ٨٣ | المبحث الثالث : ظهور الدولة الصفوية وموقفها من التوسع البرتغالي |
| ٨٩ | المبحث الرابع : البحرية العثمانية في مواجهة البرتغاليين |
| ٩٩ | الفصل الثالث: البحرين في السنوات الأخيرة من حكم الجبور (١٥٠٠-١٥٢٩) |
| ١٠١ | المبحث الأول : وصف البحرين في مطلع القرن السادس عشر |
| ١١١ | المبحث الثاني : الأطماع الهرمزية-البرتغالية في البحرين |
| ١٣٣ | المبحث الثالث : نهاية حكم الجبور في البحرين |
| ١٣٩ | المبحث الرابع : مسمى «البحرين» بين الإقليم والأرخبيل |
| ١٥٧ | الفصل الرابع: البحرين في عهد جلال الدين مراد محمود شاه (١٥٢٩-١٥٧٧) |
| ١٥٩ | المبحث الأول : تولي مراد شاه الحكم في البحرين |
| ١٦٩ | المبحث الثاني : الصراع مع آل فضل في البصرة والأحساء |
| ١٧٩ | المبحث الثالث : العلاقة بين البحرين والدولة العثمانية |
| ١٩٣ | المبحث الرابع : البرتغاليون والبحرين |

| | |
|-----|--|
| ٢٠٣ | الفصل الخامس: البحرين في عهد ركن الدين محمود شاه (١٥٧٧-١٦٠٠) |
| ٢٠٥ | المبحث الأول : تولي ركن الدين محمود الحكم عام ١٥٧٧ |
| ٢١١ | المبحث الثاني : العلاقات الخارجية للبحرين في عهد ركن الدين محمود |
| | المبحث الثالث : الأوضاع الداخلية في البحرين إبان الربع الأخير من |
| ٢١٩ | القرن السادس عشر |
| ٢٢٩ | المبحث الرابع : نهاية حكم ركن الدين محمود شاه |
| | |
| | الفصل السادس : شهادات معاصرة ووثائق حول البحرين في القرن |
| ٢٣٧ | السادس عشر |
| | أولاً : البحرين في القرن السادس عشر من خلال كتابات |
| ٢٣٩ | الرحالة والمعاصرين |
| ٣٤٥ | ثانياً : وثائق تتناول الأوضاع في البحرين إبان القرن السادس عشر |
| | |
| ٢٩٧ | مصادر ومراجع الكتاب: |
| ٢٩٩ | أولاً : المصادر |
| ٣٠٤ | ثانياً : المراجع |

مقدمة الكتاب

شكل الوجود البرتغالي في الخليج العربي إبان القرن السادس عشر تحدياً ثقافياً وحضارياً للشعوب التي وجدت نفسها في مواجهة الأساطيل الغازية، فمنذ عام ١٥٠٧ شرعت الإمبراطورية البرتغالية الشرقية في ترسيخ وجودها في المنطقة، وعملت على إخضاع حكامها المحليين.

وعلى الرغم مما أحدثته المدافع من تخريب ودمار، إلا أنه كان للوجود البرتغالي بعض النتائج الإيجابية، والتي تمثلت في ترك مادة تاريخية كبيرة، لا تزال قادرة على مد البحث العلمي بمزيد من التقارير والمراسلات التي تكشف الغموض عن فترة تاريخية حاسمة مرت بها شعوب المنطقة، وعلى أساس هذه المصادر ظهرت مجموعة من المصنفات التاريخية المعاصرة التي تحدثت عن: «الاحتلال»، أو «الهيمنة»، أو «النفوذ» البرتغالي في الخليج العربي، ابتداء من حملة أفونسو دلبوكيرك وانتهاء بسقوط هرمز من يدهم عام ١٦٢٢.

لقد انتهى الوجود العسكري البرتغالي في المنطقة منذ مطلع القرن السابع عشر، ولكن التحدي الثقافي لا يزال قائماً. فقد تقبلت قطاعات واسعة في الثقافة المحلية الرواية البرتغالية لأحداث الفترة بكل تفاصيلها، واكتفت بعض المصنفات المعاصرة بالمادة البرتغالية كمصدر وحيد لكتابة تاريخ تلك الفترة، بحيث أصبح تاريخ البحرين الحديث جزءاً من تاريخ الإمبراطورية البرتغالية، وألقى القادة البرتغاليون الكبار بظلالهم على تاريخنا الوطني، في حين غابت الرواية المحلية، واطمحل ذكر قادة المنطقة في ثقافتنا المحلية.

وتأتي هذه الدراسة لتقديم جهد مواز يقوم على جمع المادة التاريخية من مصادرها المختلفة، وإعادة صياغتها بصورة أكثر توازناً، ولتثبت -من منظور محلي- بأن البحرين قد حظيت بقيادة أكفاء قاموا بإدارة دفة الحكم بها، وفي الوقت الذي ادعت فيه عدة قوى إقليمية خضوع البحرين لها، فإن البحرين كانت تشكل كياناً سياسياً مستقلاً يتمتع بنظام حكم محلي، ونظام دفاعي دقيق، وسياسة خارجية تعكس قدرة فائقة في التعامل مع مختلف القوى المتصارعة في الخليج العربي إبان القرن السادس عشر.

وتقوم هذه الدراسة على أساس الموازنة بين مختلف المصادر البرتغالية، والعثمانية والإقليمية والمحلية التي تناولها الفصل الأول من هذا البحث بالدراسة والتحليل.

وعني الفصل الثاني بتحليل موقف القوى الرئيسية في الخليج العربي، وتحديد طبيعة العلاقات بينها، ومعرفة مستوى الهيمنة التي ادعتها هذه القوى على البحرين وغيرها من الجزر.

وتناول الفصل الثالث السنوات الأخيرة من حكم الجبور إبان الثلث الأول من القرن السادس عشر، وتطور مسمى البحرين في تلك الفترة.

وتتبع الفصل الرابع أهم ملامح عهد جلال الدين مراد شاه، وما بذله من جهود لتحقيق سياسية خارجية متوازنة تجاه القوى الرئيسية في الخليج العربي، وما تحقق للبحرين من استقرار داخلي وازدهار اقتصادي إبان فترة حكمه التي استمرت نحواً من نصف قرن.

أما الفصل الخامس فقد عني بعهد ركن الدين محمود شاه الذي سار على نهج سابقه في السعي إلى تحقيق التوازن في علاقاته مع القوى الإقليمية والدولية على حد سواء، وما شهدته عهده من حراك ثقافي ونشاط تجاري.

ويورد الفصل السادس مجموعة من الاقتباسات التاريخية من مختلف المصنفات التي ظهرت في القرن السادس عشر، بالإضافة إلى تضمين مجموعة من الوثائق البرتغالية والعثمانية والمحلية التي تنشر لأول مرة في البحرين.

ولا يفوتني في نهاية هذا العمل أن أتقدم بجزيل الشكر، للسيد فؤاد نور القائم بأعمال إدارة المتاحف، وأبلغ مشاعر العرفان للسيدة الفاضلة مريم الغرير مشرفة صيانة المقتنيات، ولجميع العاملين بمتحف البحرين الوطني، لما تميزوا به من حسن التعامل، والحرص على دعم الباحثين بما يتوفر لديهم من مادة علمية رغم ما يقتضيه ذلك من مشقة وعناء.

والشكر موصول للزميلين الكريمين؛ الدكتور محمد أحمد عبد الله مدير مركز الدراسات التاريخية بجامعة البحرين، والأستاذ خليفة بن عربي بقسم اللغة العربية على تفضلهما بقراءة مسودة البحث وإبداء ملاحظتهما التي أفدت كثيراً منها.

ولم يكن لهذه الدراسة أن ترى النور دون الرجوع إلى جهود مؤرخين وباحثين كان لهم السبق في كتابة تاريخ البحرين إبان القرن السادس عشر، فلهم جميعاً أهدي هذا الكتاب.

د. بشير زين العابدين

مركز الدراسات التاريخية

جامعة البحرين

الأربعاء: ٧ يناير ٢٠٠٩

الفصل الأول



مصادر تاريخ البحرين في

القرن السادس عشر

تتناول مباحث هذا الفصل المصادر التاريخية التي اعتمد عليها الكتاب وعلى رأسها: المصادر البرتغالية في لشبونة، والمصادر العثمانية في اسطنبول، بالإضافة إلى المصادر الإقليمية والمحلية من مخطوطات وكتب منشورة، ووثائق محفوظة في متحف البحرين الوطني وقلعة البحرين.

ونظراً لوجود الكثير من المصادر التاريخية غير المستفاد منها بصورة كاملة في البحث العلمي المعاصر، فإن المبحث الأول من هذا الفصل يهتم باستعراض المصادر البرتغالية، من مخاطبات وتقارير منشورة باللغة العربية، كما يتتبع أهم ما نشر من كتب المسؤولين والرحالة البرتغاليين، ويقدم عرضاً موجزاً لهذه المصادر وكيفية التعامل معها.

وفي المبحث الثاني تم تفصيل أهم المصادر العثمانية المتعلقة بتاريخ البحرين في اسطنبول، وبالأخص منها: دفاتر المهمة التي تتضمن مجموعة قيمة من المراسلات المتعلقة بالبحرين في القرن السادس عشر، بالإضافة إلى تقارير المسؤولين ومدونات الجغرافيين العثمانيين، وعلى رأسهم الرئيس بييري وسيدي علي، علماً بأن المصادر العثمانية قد انفردت عن جميع المصادر الأخرى في تقديم معلومات غاية في الأهمية عن حكام البحرين، وعن بعض الأحداث التي جرت فيها إبان القرن السادس عشر.

أما المبحث الثالث فيتطرق للحديث عن المصادر الإقليمية التي تناولت حكام البحرين من الجبور، وأشارت لبعض الأحداث في البحرين، ويفصل المبحث بعد ذلك في المصادر المحلية من مصنفات في الأدب والتراجم، والوثائق المحفوظة في قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني، بالإضافة إلى الكتابة المنقوشة على الحجارة والتي تقدم معلومات غاية في الأهمية حول الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالبحرين، وخاصة في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

وقد تم تخصيص المبحث الرابع من هذا الفصل لنقد المصادر البرتغالية والعثمانية والإقليمية، والتعرض لأهم الإشكاليات التي تطرأ لدى التعامل معها، وما يمكن أن تؤدي إليه عملية الاقتصار على نمط من المصادر دون غيرها.

كما تمت الإشارة إلى مصادر غربية أخرى مثل كتابات بعض الرحالة الهولنديين، واستعراض مجموعة من الخرائط المهمة التي تعود إلى مراحل مختلفة من القرن السادس عشر.

المبحث الأول: المصادر البرتغالية

تعود بداية التطلع البرتغالي للسيطرة على البحرين منذ دخول سفنهم منطقة الخليج العربي عام ١٥٠٧، حيث بدأت تظهر تقارير تتحدث عن رغبتهم في السيطرة على هذه الجزر بعد إخضاع مملكة هرمز، وذلك لأسباب استراتيجية تتعلق بالسيطرة على الحركة الملاحية داخل الخليج العربي، والقضاء على قوة الجبور التي أصبحت تهدد النفوذ البرتغالي في المنطقة.^(١)

كما تحدث الجغرافيون والرحالة البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر عن تميز البحرين بآبار المياه العذبة وتوفر الأراضي الزراعية التي تثبت فيها النخيل وغيرها من المحاصيل الزراعية، فضلاً عن تجارة اللؤلؤ التي تدر على البحرين إيرادات كبيرة، قدرت في النصف الأول من القرن السادس عشر بأكثر من أربعين ألف أشرية.^(٢)

وبناء على ما تميزت به البحرين من موقع استراتيجي وموارد طبيعية وحركة تجارية نشطة؛ فقد بذل البرتغاليون محاولات عدة لبيسط نفوذهم عليها خلال القرن السادس عشر.

وعلى الرغم من الآثار السلبية التي خلفها التواجد البرتغالي على الحركة التجارية والملاحية في الخليج العربي عامة والبحرين بصفة خاصة، إلا أن البرتغاليين قد تركوا مادة وثائقية هامة في وقت ندرت فيه جهود التأريخ لهذه المنطقة من قبل سكانها المحليين.

وتحتوي المكتبة الوطنية في العاصمة البرتغالية لشبونة اليوم على عدد كبير من الوثائق التي يمكن أن تكشف الغموض الذي اكتنف الحياة الاجتماعية والنظم السياسية والإدارية في البحرين إبان القرن السادس عشر، كما تتوفر مجموعة كبيرة من المخطوطات ومذكرات القادة العسكريين والرحالة البرتغاليين، ومن أهمها مجموعة: (Corpo Chronologico)، التي تحتوي على عدد كبير من التقارير التي صنفها

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد ٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص ١٢٢-١٢٣، وقد أعيد نشر هذا البحث باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٣ تحت عنوان:

“The contribution of Portuguese sources and documents in recording the history of Bahrain in the first half of the sixteenth century”, in A. Al-Khalifa and M. Rice, ed. (1993); **Bahrain through the ages, the History**, Kegan Paul International, London and New York.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٣. والأشرفي هو نقد ذهبي وزن ٢,٥٦ غرام منسوب إلى السلطان المملوكي الأشرف قايتباي وكان منتشرًا في العمليات التجارية والمالية في تجارة الشرق.

مسؤولون برتغاليون، ومراسلاتهم مع بعض الزعماء المسلمين والتجار اليهود. وقد اهتم بهذه المجموعة -التي تضم ٨٢٩٠٢ وثيقة- عدد من الباحثين، منهم الباحث البرتغالي بياو الذي قام بنشر عدد من وثائق هذه المجموعة عام ١٩٢٥ بأمر من أكاديمية العلوم البرتغالية تحت عنوان: (Documetos Do cronologico Relativos A Marrocos).

كما قام عدد من المؤرخين الفرنسيين والبرتغاليين بنشر عدد من وثائق هذه المجموعة في كتاب: (Arquivo Nacional da Torre do Tombo)، الذي صدر في خمسة أجزاء في باريس خلال الفترة ١٩٣٤-١٩٥٣، وتحتوي هذه المجموعة على وثائق باللغتين: العربية والفارسية، دونت من قبل سلاطين الأقاليم العربية التي خضعت للنفوذ البرتغالي في الهند وهرمز والساحل المغربي، وقد اهتم بها الراهب لويس دو سوزا Louis De Sousa ونشر العديد منها عام ١٧٨٩ في كتابه: (Documentos Arabicos Para Historia Portuguesa) أي: "وثائق عربية تساهم في كتابة التاريخ البرتغالي".

أما المجموعة الثانية من وثائق الأرشيف البرتغالي فهي مجموعة: (Cartas de Affonso de Albuquerque Setguidas de Documentos que as Elucida)، التي تقع ضمن الوثائق الخاصة برسائل نواب الملك بالهند، وقد قامت الأكاديمية الملكية للعلوم في لشبونة بنشرها تحت عنوان: رسائل أفونسو دلبوكيرك تليها وثائق تساعد على فهمها، وتتضمن مجموعة الرسائل التي دونها أفونسو دلبوكيرك بصفته نائباً للملك في الهند خلال الفترة (١٥٠٩-١٥١٥) مع وثائق أخرى متعلقة بأحداث هذه الفترة نشرت في سبعة مجلدات، وقد صدر الجزء الأول منها عام ١٨٨٤. وتتحدث هذه الرسائل -التي بعث بها دلبوكيرك إلى الملك مانويل- عن مجهوداته في سبيل تحقيق الاحتكار البرتغالي لبضائع الشرق وقطع طرق التجارة بين العالم الإسلامي والهند، وفيها مجموعة من المراسلات والتقارير المتعلقة بالبحرين وتجارها والمخططات البرتغالية لفرض السيطرة عليها.

وقد تولت جمعية هاكلايت نشر الأوراق الخاصة بأفونسو دلبوكيرك بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية في أربعة أجزاء عام ١٨٨١،^(١) والجدير بالذكر أن الذي تولى جمع هذه الأوراق هو أفونسو دلبوكيرك المتوفى عام ١٥٨٠، وهو الابن غير الشرعي لأفونسو دلبوكيرك الكبير (المتوفى عام ١٥١٥)، وقد قام بجمع مادة هذا الكتاب من أرشيف لشبونة، ومن مصادر الأرشيف الملكي، ونشره للمرة الأولى عام ١٥٥٧ في ثمانية مجلدات باللغة البرتغالية، ونظراً لأن مادته قد استخرجت من الوثائق الخاصة بأفونسو دلبوكيرك

(1) Birch, W.G., translator (1881) *The Commentaries of Great Afonso Dalboquerque*, Hakluyt Society London.

الكبير، فقد نسبه المؤرخون إليه مباشرة، وقد صدرت منه عدة طبعات، لعل أهمها الطبعة الملكية التي اختصر فيها الكتاب إلى أربعة مجلدات فقط.

وتعتبر هذه المذكرات من أهم مصادر الإمبراطورية البرتغالية الشرقية، حيث أن أفونسو دلبوكيرك قد تولى منصب نائب الملك في الهند خلال الفترة ١٥٠٩-١٥١٥، وعمل قبل ذلك قائداً عسكرياً في الأسطول البرتغالي ويعود له الفضل في إخضاع هرمز وغيرها من موانئ الخليج العربي، وقد تولى نشره باللغة العربية المجمع الثقافي في أبو ظبي عام ٢٠٠٠، وقام بترجمته من النص الإنجليزي إلى اللغة العربية عبد الرحمن الشيخ.^(١)

وتشكل مؤلفات الرحالة البرتغاليين مصدراً مهماً لتاريخ البحرين والخليج العربي إبان القرن السادس عشر، وإن كان ذكرهم للبحرين مقتضباً في معظم الأحيان، إلا أن إشارتهم لها لا تخلوا من معلومات سياسية واقتصادية غاية في الأهمية، ومن أبرز هذه المصنفات:

رحلة تومي بيريز (١٥١٢-١٥١٥)^(٢)

وفيهما وصف للبلدان المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي، مع مادة حول أحداث الغزو البرتغالي في مراحل الأولى خلال الفترة ١٥١٢-١٥١٥، ولكن المعلومات الواردة فيه عن الخليج العربي تفتقر إلى الدقة، وقد نشرت جمعية هاكلايت ترجمة إنجليزية للكتاب قام بها لونغورث دامس عام ١٩٤٤، وقد تطرق بيريز إلى وصف البحرين بقوله: «إن الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها ويشكل جزءاً مهماً من تجارة هرمز».^(٣)

رحلة دوراتي باربوسا (١٥١٨)^(٤)

يعود تاريخ تصنيفها إلى عام ١٥١٨، وقد نشرتها جمعية هاكلايت عام ١٩١٨، ويعتبر الكتاب الذي صنفه باربوسا في وصف هذه الرحلة أكثر أهمية من سابقه لأنه يعتمد على خبرته الشخصية ويتسم بالدقة في وصفه لعدد من مدن الخليج العربي بساحليه الشرقي

(١) ترجمة عبد الرحمن الشيخ (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المجمع الثقافي، ٤ أجزاء، أبو ظبي.

(2) Hakluyt Society, (1944) *The Suma Oriental of Tom Pires, An Account of The East, From the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515*, 2 Vols, London.

(3) طارق نافع الحمداني (١٩٨٩)، «الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، ص ١٦٣.

(4) Dames, Mansul Longworth translator (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Vol. 1, London Hakluyt Society.

والغربي، ويعطي الكتاب صورة أكثر وضوحاً عن أوضاع تلك المدن في القرن السادس عشر، وقد قام عيسى أمين بترجمتها إلى اللغة العربية ونشرها مع رحلة جون هيونان لينخوتن ومقالة تشالزبوكر عام ١٩٩٦.

رحلة بيدرو تينحسيرا (١٦٠٤)^(١)

قام تينحسيرا بالعديد من الرحلات إلى الشرق خلال الفترة ١٥٨٦-١٦٠٤، ثم دون سجل رحلاته في كتاب نشر لأول مرة عام ١٦٠٤، ونشرت جمعية هاكلايت الترجمة الإنجليزية التي قام بها ويليام سينكلاير مع بعض التعليقات على الكتاب عام ١٩٠٢، وقد نالت هذه الرحلة حظها من الاهتمام من قبل الباحثين العرب حيث كتب عنها طارق نافع الحمداني،^(٢) ومن ثم قام عيسى أمين بترجمتها إلى اللغة العربية ونشرت في العديدين ٣١ و٣٣ من مجلة الوثيقة.^(٣)

كما اعتمد بعض المهتمين بكتابة تاريخ النفوذ البرتغالي في الخليج العربي على مصنفات المؤرخين البرتغاليين، ومن أشهرهم:

١. جواو دي سوزا في كتابه: وثائق عربية، الذي نشر في لشبونة عام ١٧٨٩، وقد ضمّن سوزا في كتابه العديد من الرسومات والخرائط بالإضافة إلى المخاطبات والمراسلات.^(٤)
٢. مقتطفات من كتاب جواو دي باروس بعنوان: تاريخ الخليج العربي في الوثائق البرتغالية، وهو عبارة عن فصول مترجمة من كتاب باروس بعنوان: عن آسيا، تحدث فيه عن وصول البرتغاليين إلى الخليج العربي وتعرضهم للموانئ الواقعة على شاطئيه، وقد تحدث بكنجهام عن هذا الكتاب بتفصيل في بحث نشر بسلطنة عمان.^(٥)
٣. فاريا دي سوسا في كتابه: آسيا البرتغالية، وقد ترجمه جون ستيفنز إلى اللغة الإنجليزية ونشره عام ١٦٩٥. يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء ويحتوي على تاريخ مفصل للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي وجنوبي شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر.^(٦)

(1) *The Travels of Pedro Teixeira*, Translated and Annotated by William F. Sinclair, London Hakluyt Society, 1902.

(٢) طارق نافع الحمداني (١٩٨٩)، «الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩. ص ص ١٦٩-١٧١.

(٣) عيسى أمين (١٩٩٨) «تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا»، الفصل الأول، الوثيقة، العدد ٣١، يناير ١٩٩٧، ص ص ١٤٠-١٧٦، الفصل الثاني، الوثيقة، العدد ٣٣، يناير ١٩٩٨، ص ص ١٣٢-١٧١.

(4) Joao De Sousa (1789), *Documentos Arabicos*, Lisboa.

(٥) بروفييسور سي بكنجهام (١٩٨١)، «بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان»، *حصاد الندوة العمانية، سلطنة عُمان*، ١٩٨١، ص ١٨٥، وراجع كذلك طارق نافع الحمداني: «دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي»، الوثيقة، العدد ١٢، يناير ١٩٨٨، ص ٨٨.

(٦) طارق الحمداني (١٩٨٩) مرجع سابق، ص ص ٨٨-٨٩.

المبحث الثاني: المصادر العثمانية

لا تقل المصادر العثمانية أهمية عن المصادر الغربية بالنسبة للباحثين في تاريخ البحرين الحديث، فقد وصل العثمانيون إلى منطقة الخليج العربي عام ١٥٣٤، عندما خضعت لهم البصرة وتبعها إقليم الأحساء، واستمر التواجد العثماني في المنطقة حتى مطلع القرن العشرين، ولذلك فإن المصادر العثمانية تغطي معظم الفترة الحديثة، وتوفر للباحثين مادة مهمة حول الأحداث التي جرت في الخليج العربي إبان القرن السادس عشر؛ فقد وقع العثمانيون في منافسة مريرة مع البرتغاليين في مياه الخليج العربي، وأقاموا علاقات قوية مع القبائل العربية التي استنجدت بهم ضد الخطر البرتغالي، ووصلت القوات العثمانية إلى البحرين في أكثر من مناسبة، وخاض جنودها معارك طاحنة مع البرتغاليين بالقرب من مياها خلال الفترة ١٥٥١-١٥٥٩.

وعلى الرغم من إعلان الدولة العثمانية تبعية البحرين لسلطتهم في الأحساء، إلا أن هذه التبعية كانت تحمل طابعاً رمزياً، إذ لم تكن البحرية العثمانية بالحجم أو القوة التي تسمح لها بدحر الأسطول البرتغالي الذي فرض سيطرته على المنطقة طوال القرن السادس عشر، واقتصرت السيادة العثمانية على البصرة وإقليم الأحساء وشبه جزيرة قطر، في حين بقيت جزر البحرين تمثل الحد الفاصل الذي لم يستطع العثمانيون تجاوزه جنوباً.^(١)

ويعتبر أرشيف رئاسة الوزراء بحي السلطان أحمد في مدينة إسطنبول هو الأهم بالنسبة للباحثين في تاريخ البحرين والخليج العربي،^(٢) إذ يتناول تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها عام ١٢٩٩ وحتى انهيارها عام ١٩٢٤، ويتضمن وثائق غاية في الأهمية حول الأنظمة الإدارية والاقتصادية، والحياة الاجتماعية في الأقاليم العربية التي حكمها العثمانيون لأربعة قرون.

ويتضمن تصنيف الدفاتر بأرشفيف رئاسة الوزراء مجموعات كبيرة من: دفاتر المالية المعروفة بالباب الدفتري ودفاتر الباب العالي، إلا أن المجموعة الأهم بالنسبة لتاريخ الخليج العربي هي دفاتر الديوان الهمايوني، ومن أبرز أقسامها: دفاتر الأحكام، ودفاتر الشكاوى، ودفاتر الدول الأجنبية، ودفاتر أذن السفر، وغيرها من الدفاتر الخاصة بالأقليات ودفاتر التحجير.

(١) يلماز أوزتونا (١٩٨٨) تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، إسطنبول، ص.ص ٣٢٣-٣٣٩.

(٢) سهيل صابان (١٩٩٧) «الأرشيف العثماني مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٣، ١٤، مايو - أكتوبر ١٩٩٧، ص.ص ٥٤-٧٦.

وقد اعتمد البحث بصورة أساسية في استقصاء المادة التاريخية حول البحرين من مجموعة دفاتر المهمة التي يبلغ عدد المتعلق منها بالجزيرة العربية ٢٦٦ دفترًا، تغطي الفترة ١٥٥٣-١٩٠٥، وتتناول العديد من الجوانب التاريخية للوجود العثماني في المنطقة العربية، وتحتوي على ملخصات موجزة عن الأحداث التي جرت في تلك المناطق، ومن أبرز هذه الدفاتر:

دفتر المهمة رقم ٣: يحتوي على مراسلات يعود تاريخها إلى الفترة ١٥٥٨-١٥٦٠، وتتضمن الحديث عن حاكم البحرين مراد شاه (١٥٢٩-١٥٧٧)، ومحاولات حاكم الأحساء الاستيلاء على البحرين عام ١٥٥٩، وهجرة تجار القطيف والأحساء إلى البحرين، وأملاك بعض وجهاء البحرين في الأحساء، ومواجهات القوات العثمانية مع البرتغاليين في المنطقة، وغيرها من الشؤون الإدارية المتعلقة بأرزاق الجنود ومرتباتهم، وأوضاع الحصون والسفن المرابطة في إقليمي البصرة والأحساء.

دفتر المهمة رقم ٧: يتضمن رسالة مهمة من بعض وجهاء البحرين للسلطة العثمانية بطلب تشييد قلعة في المنامة، عام ١٥٦٧.

دفتر المهمة رقم ٢٢: يتضمن مراسلات يعود تاريخها إلى عام ١٥٧٣، وتتناول الأوضاع الأمنية في الخليج العربي كتعرض البرتغاليين للسفن المحلية، وحملات البرتغاليين ضد البحرين.

دفتر المهمة رقم ٢٧: يتضمن مراسلات يعود تاريخها إلى عام ١٥٧٥، تتناول تقارير عن الأوضاع الأمنية في البحرين، ودراسة إمكانية تشييد قلعة عثمانية بها، وتعليمات من السلطة المركزية بتقديم الدعم العسكري لحاكم الأحساء العثماني حتى يتمكن من مواجهة الخطر البرتغالي، بالإضافة إلى توجيه تعليمات له حول كيفية التعامل مع أملاك الوجيه البحريني خميس بن رحال في القطيف.

دفا تر المهمة ٣١ و ٣٥ و ٤٥ و ٧٣: وتتضمن مراسلات يعود تاريخها إلى الفترة: ١٥٧٧-١٥٩٥، وتتناول مواضيع مختلفة حول البحرين، حيث تتحدث عن إرسال شحنة من الأخشاب لتشييد قلعة بالمنامة، وعن مقتل مراد شاه حاكم البحرين (١٥٢٩-١٥٧٧)، وتولي ابنه خضر شاه وعزله من قبل وزير هرمز، ومن ثم تعيين محمود بن خضر شاه (١٥٧٧-١٦٠٠) حاكماً على البحرين، وكيفية التعامل مع أملاك محمود شاه في القطيف، ودراسة إمكانية تحويل البحرين إلى إيالة مستقلة لكونها مصدراً أساسياً للؤلؤ، ومركزاً تجارياً مهماً في الخليج العربي.^(١)

(١) زكريا كورشون ومحمد القريني (٢٠٠٥) سواحل نجد «الأحساء» في الأرشيف العثماني، الدار العربية للموسوعات، بيروت. صص ٣٥-١٤.

كتب الجغرافيا البحرية

أدى التنافس العثماني-البرتغالي إلى تواجد عدد من البحارة العثمانيين في مياه الخليج العربي في القرن السادس عشر، كما صنفت في هذه الفترة العديد من التقارير العسكرية، وكتب الجغرافيا البحرية باللغة العثمانية، ومن أبرزها:

الريس بييري (١٥٢١-١٥٢٥)^(١)

يعتبر الريس محيي الدين بييري من أشهر المصنفين العثمانيين في الجغرافيا البحرية، فقد بدأ حياته في السلك البحري العثماني وعين بمنصب قبطان في أول شبابه، وأتيح له مقابلة السلطان بايزيد الثاني وكذلك مقابلة ابنه السلطان سليم، وفي عام ١٥٤٧ عين قائداً لأسطول الهند العثماني فحقق العديد من الإنجازات العسكرية إضافة إلى إنجازاته العلمية، ومن ذلك استخلاص ميناء عدن من البرتغاليين عام ١٥٤٨. وفي عام ١٥٥١ توجه بييري نحو الخليج العربي منطلقاً من السويس بأسطول يضم ٣٠ سفينة، وتمكن من السيطرة على مسقط وعلى جزيرة قشم سنة ١٥٥٢، وكانت لديه أوامر أن يحتل جزيرة البحرين إن أمكن، ولكنه تعرض لعدة نكسات في تلك الحملة، منها: فشله في إخضاع هرمز، وغرق بعض سفن أسطوله، وتمكن الأسرى البرتغاليين بحوزته من الفرار، فاضطر للتراجع بما تبقى من أسطوله إلى البصرة تاركاً العديد من سفنه في مواجهة رد الفعل البرتغالي. وعلى إثر عودته عن طريق السويس استدعي الريس بييري إلى القاهرة وأعدم فيها بناء على أوامر من السلطان سليمان القانوني وكان عمره آنذاك ثمانون عاماً.

وقد ترك الريس بييري في مؤلفه: كتاب بحرية مجموعة من الخرائط، كما رسم خرائط أخرى لا تزال محفوظة في دور الأرشيف العثمانية. وفي الوقت الذي استحوذت فيه خرائط الريس بييري على اهتمام العديد من الجامعات الغربية لا يزال اسمه في العالم العربي مرتبطاً بالحملة العثمانية الفاشلة خلال عامي ١٥٥٢-١٥٥٣، دون النظر إلى أن أهمية ما تذكره المصادر العثمانية من زيارته للموانئ العمانية وموانئ شرقي شبه الجزيرة العربية وتوقفه في البحرين وحصوله على اعتراف اسمي من حاكمها بتبعية للحكم العثماني.^(٢)

(١) صنف الريس بييري كتابه تحت عنوان: «كتاب بحرية ودنيا خريطه سي»، وأهداه إلى السلطان سليم الأول، وقد نشره المجمع التاريخي التركي عام ١٩٣٥.

(٢) انظر على سبيل المثال: يلماز أوزتونا، (١٩٨٨) تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص.ص ٣٣٣-٣٣٤.

سيدي علي (١٥٥٣-١٥٥٦)^(١)

عهدت البحرية العثمانية إلى ريس سيدي علي قيادة الأسطول العثماني عام ١٥٥٣، على إثر فشل الريس بييري في مهمته، وكان عليه تخليص السفن الراسية في ميناء البصرة وإعادتها إلى مصر، فوصل إلى البصرة براً من طريق بغداد عام ١٥٥٤، وبعد إصلاح السفن العثمانية غادر بالأسطول متجهاً إلى مصر، ومر في طريقه بالبحرين والقطيف، ولكنه فوجئ بخمس وعشرين سفينة برتغالية تقطع عليه الطريق في مضيق هرمز، ووقعت بين الطرفين معركة طاحنة استمرت حوالي ١٨ ساعة غرقت فيها سبع سفن تركية وست سفن برتغالية، وبفعل الرياح العاتية انفض الاشتباك دون حسم المعركة، فاضطر الريس علي للتوجه بسفنه إلى سواحل الهند حيث دفعته الرياح إلى ميناء سورات الذي كان يحكمه خدأوند خان باسم الدولة العثمانية، فترك سيدي علي لديه السفن وهي في حالة سيئة وقل راجعاً عن طريق البر مروراً بالهند وأفغانستان وفارس والعراق إلى أن وصل إلى اسطنبول عام ١٥٥٧. وبخلاف ما تعرض له الريس بييري، قام السلطان سليمان القانوني باستدعاء سيدي علي وأكرم وفادته، وأمره بكتابة مذكراته التي سماها: «مرآة الممالك»، وله كتب أخرى في الجغرافيا والرياضيات والفلك.^(٢)

وقد تعرض سيدي علي في «مرآة الممالك» لوصف البحرين، حيث أشار إلى توقفه فيها عام ١٥٥٤، واجتماعه مع حاكمها الريس مراد الذي أخبره بعدم وجود أي سفن برتغالية في الخليج العربي آنذاك، وقد تعجب سيدي علي من أن البحارة يجلبون المياه العذبة للحاكم من قاع الخليج العربي، ولما شرب من هذه المياه لاحظ بأنها أكثر برودة وعذوبة من غيرها، واستنتج بأن هذا هو سبب إطلاق تسمية البحرين على هذه الجزر.^(٣)

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم نشر بعض المصادر العثمانية المتعلقة بالبحرين، إلا أن الكثير من هذه الوثائق لا تزال غير متاحة للباحثين، ولا شك بأن القراءة المتمعنة للمصادر العثمانية يمكن أن تساعد على تشكيل رؤية أكثر وضوحاً حول الأوضاع المحلية في البحرين إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر، كما تتعرض هذه المصادر للحديث بصورة تفصيلية عن العلاقات بين القوى الرئيسية في المنطقة، وبالأخص منها موقف البحرين تجاه الصراع العثماني-البرتغالي، وكيفية تعامل مراد شاه وحفيده محمود شاه مع القوى الطامعة في البحرين.

(١) نشر كتاب «مرآة الممالك» لمؤلفه سيدي علي في اسطنبول، إقدام مطبعة سي سنة ١٣١٣هـ، وقد ترجمه إلى اللغة الإنجليزية المستشرق الهنغاري فامبري ونشره في لندن سنة ١٨٩٩، تحت عنوان:

Sidi Ali (1899) *The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis, in India Afghanistan Central Asia and Persia, During the Years 1553-1556*. London.

(٢) لمزيد من المعلومات حول مصنفات سيدي علي يمكن مراجعة: يلماز أورتونا، (١٩٨٨) تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٤-٣٣٧.

(3) Salih Ozbaran (1989), «*Bahrain in the Sixteenth Century as Reflected in Turkish and Portuguese Sources*», *al-Watheeqa*, v.19, July 1989, Bahrain. p. 227.

المبحث الثالث؛ المصادر الإقليمية والمحلية

أ- المصادر الإقليمية

تعتبر المصادر العربية لأحداث القرن السادس عشر شحيحة بالمقارنة مع المصادر البرتغالية أو العثمانية، ويغلب عليها استخدام التعبيرات الإنشائية والألفاظ المنمقة والسجع المتكلف وتجاهل الكثير من الأحداث المهمة، مما أثر بصورة كبيرة على مصداقية هذه المصادر ودقة المعلومات الواردة فيها.

كما أن السلطات السياسية المحلية في تلك الفترة لم تبذل جهوداً تذكر لتوثيق فترة حكمها بالمقارنة مع الحكومات الغربية، والشركات التجارية الأوروبية الكبرى التي تركت سجلات ضخمة لتوثيق أدق تفاصيل أعمالها في المستعمرات.

ويمكن ملاحظة غياب الرواية العربية لأحداث القرن السادس عشر في منطقة الخليج العربي من خلال النظر إلى المؤلفات التاريخية العُمانية؛ فعلى الرغم من قيام بعض المؤرخين العُمانيين بتصنيف مؤلفات تاريخية خلال مرحلة الغزو البرتغالي للخليج العربي، إلا أن جميع هذه المؤلفات قد تجاهلت أحداث هذا الغزو، ولم تشر بأي صورة للبرتغاليين، حتى بداية عهد السلطان ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤ عندما بدأت تظهر أولى الإشارات إلى الوجود البرتغالي في المنطقة.

وقد حاول المؤرخون المعاصرون تفسير ظاهرة تجاهل المصادر العُمانية للوجود البرتغالي؛ فجادل بعضهم بأن الكتابات العمانية لم تكن تعتنى بتدوين الأحداث التاريخية لذاتها وإنما تأتي عرضاً في سير الأئمة ومناقشة القضايا الدينية، كما أشار آخرون إلى أن الجرائم التي ارتكبتها البرتغاليون في سواحل الخليج العربي لم تكن مما يشرف المؤرخين العُمانيين، الذين أعرضوا عن تدوينها في الوقت الذي سجلوا فيه انتصارات اليعاربة على الأسطول البرتغالي بحماس كبير.^(١)

ومن ناحية أخرى فإنه يمكن رصد عبارات موجزة حول حكام الجبور في مؤلفات بعض المؤرخين المعاصرين لتلك المرحلة، وعلى رأسهم السمهودي في كتاب: **وفاء الوفا بأخبار المصطفى**، حيث ترجم للشيخ أجود بن زامل بن جبر العقيلي بقوله:

(١) طارق نافع الحمداني (١٩٨٨) «دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي»، الوثيقة، العدد ١٢، يناير ١٩٨٨، ص. ٩٠-٩١.

«رئيس أهل نجد ورأسها، وسلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعته صلاحاً وأفضالاً وحسن عقيدة، أبو الجود أجود بن زامل بن جبر أيده الله وسدده».^(١)

كما تطرق محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ١٤٩٧) لترجمة بعض شخصيات الجبور في كتابه: **الضوء اللامع**،^(٢) وكذلك محمد بن إياس (ت ١٥٢٣) الذي تحدث باقتضاب عن الغزو البرتغالي للبحرين ومقتل مقرن بن زامل بن أجود الجبيري ضمن أحداث سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م.^(٣)

وتتوفر معلومات مهمة حول البحرين في مصنفات الجغرافيين المسلمين وعلى رأسهم، ابن ماجد في كتابه: **الفوائد** الذي تعرض فيه للحديث عن الأوضاع السياسية في البحرين،^(٤) وعلاقتها مع حكام هرمز، وكذلك عبد القادر الجزيري الذي تحدث باقتضاب عن العلاقة بين الجبور حكام البحرين وبين الأشراف في مكة.^(٥)

أما في المصادر الفارسية فقد اعتمدت الدراسة على كتاب نصر الله فلسفي: **زندكاني شاه عباس أول**،^(٦) الذي يعد من أهم المراجع الفارسية في التأريخ لعهد الشاه عباس الكبير، وذلك لأن المؤلف قد رجع إلى عدد كبير من المؤلفات الفارسية وغير الفارسية التي أرخت للدولة الصفوية في عهدها الذهبي، فقد تناول فلسفي في كتابه الأوضاع الداخلية والخارجية للدولة الصفوية، وأفرد لسيرة الشاه عباس قسماً كبيراً من الكتاب تناول علاقاته مع البرتغاليين والقوى الغربية الأخرى، بالإضافة إلى تفصيل الحديث حول اقتصاديات الدولة الصفوية وشؤونها المالية والحركة التجارية من خلال رجوع المؤرخ إلى مصادر يربو عددها على الألف كتاب.

الخرائط

ومن ضمن المصادر المهمة: مجموعات الخرائط التي قام بنشرها الشيخ سلطان القاسمي، في كتاب ظهر لأول مرة عام ١٩٩٦، ثم أعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٩٩، وتضمنت مجموعة تزيد عن عشرة خرائط يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، وفيها

(١) أبي الحسن بن عبد الله السمهودي (١٩٠٨) **وفاء الوفا بأخبار المصطفى**، دار المصطفى، القاهرة. ج ٢/٢٢٨.

(٢) محمد بن عبد الرحمن السخاوي (١٩٣٦) **الضوء اللامع في علماء القرن التاسع**، القاهرة، ١٢ جزء.

(٣) محمد بن أحمد بن إياس (١٩٦١) **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق وتقديم محمد مصطفى زيادة، القاهرة. ٤٣١/٥.

(٤) شهاب الدين أحمد بن ماجد (١٩٨٩) **الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول**، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري مركز الدراسات والوثائق، راس الخيمة.

(٥) عبد القادر بن محمد الجزيري (١٩٨٣) **درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة**، تحقيق أحمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض.

(٦) قام محمد فتحي يوسف الرئيس بترجمة كتاب نصر الله فلسفي إلى اللغة العربية، ونشرته دار الثقافة للطباعة والنشر في القاهرة عام ١٩٨٩ تحت عنوان: **إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي ١٥٠٠-١٧٣٦**.

تفصيل مهم حول تسمية البحرين، وتضمن بعضها رسماً لقلعة البحرين.^(١)

كما قام ب.ج. سلوت بنشر خرائط أخرى في كتابه: نشأة الكويت، تضمنت معلومات مهمة عن الخرائط في القرن السادس عشر، ومن أهمها خريطة جاكومو غاستالدي التي ظهرت سنة ١٥٦١.

وغاستالدي هو جغرافي من البندقية اعتمد في رسم خريطته لجنوبي شبه الجزيرة العربية بصورة أساسية على المعلومات التي وردت في كتاب الرحالة البرتغالي الشهير دوراتي باربوسا الذي قام برحلته إلى الشرق سنة ١٥١٨،^(٢) ويعتبر الكتاب الذي صنفه في وصف هذه الرحلة من أهم ما دون في القرن السادس عشر لأنه اعتمد على خبرته الشخصية، واتسم عمله بالدقة، خاصة عندما تعرض لوصف المدن العربية على الساحل الشرقي والغربي من الخليج العربي، وقد قام سلوت بنشر الجزء الخاص بالخليج العربي من خريطة غاستالدي والتي تظهر فيها جزيرة البحرين وقلعتها بوضوح.

كما قام سلوت بنشر خارطة الرحالة الهولندي جون هيوجن فان الذي قام برحلته الشرقية عام ١٥٩٦.^(٣)

رحلة جون هيوجن فان لنخوتن (١٥٩٦)

قام لنخوتن برحلته نحو الشرق عام ١٥٩٦ حين كان في خدمة البرتغاليين في جوا بالهند، ونشر نتائج رحلته مع دليل ملاحي وصف فيه الطريق من لشبونة عاصمة البرتغال إلى جوا، كما وصف التيارات والرياح والموانئ التجارية والجزر الموجودة في الطريق البحري إلى الهند، وكان لهذه الرحلة أثر كبير في تشجيع التوجه الرسمي الهولندي نحو الشرق، وقد نشر لنخوتن تفاصيل رحلته آنذاك باللغة البرتغالية، وتولت جمعية هكلايت نشره باللغة الإنجليزية عام ١٨٨٥ في مجلدين، وتحدث لنخوتن في ثانيا رحلته عن تجارة اللؤلؤ في البحرين، ودخلها الكبير الذي كانت تحققه من هذه التجارة.^(٤) ونشر عبد الهادي التازي سنة ١٩٨٤،^(٥) خارطة للبحرين يعود تاريخها إلى سنة ١٥٣٨، رسمها أحد البرتغاليين الذين

(1) Sultan Al-Qasimi (1999) *The Gulf in Historic Maps 1478-1861*, 2nd Edititon, Leicester, England.

(2) Dames, M. L. translator (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Vol. I, Hakluyt Society, London.

(3) سلوت، ب.ج، (٢٠٠٣). نشأة الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ص.ص ٢٦-٣٣.
(٤) عيسى أمين، (١٩٩٦) تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوراتي بربوسا وجون هيوجن لنخوتن ومقالة تشالز بوكس، البحرين.

(٥) عبد الهادي التازي (١٩٨٤) "وثيقة لم تنشر عن البحرين"، الوثيقة، العدد الرابع، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص ٧٣-٥٨. كما نشرت الخارطة نفسها بصورة أنيقة في غلاف كتاب مونيك كيرفران: البحرين في القرن السادس عشر جزيرة حصينة.

صاحبوا نائب الملك البرتغالي دون غارسيا دا نورونها (١٥٣٨-١٥٥٠) في إحدى حملاته في الخليج العربي.

ويمثل الرسم تصويراً مفصلاً لجزر البحرين، حيث بين الرسام المياه الضحلة على الساحل الشمالي للبحرين مع مصب القناة حيث كانت ترسو السفن أمام القلعة، ويوضح الرسم من جهة الشمال: البديع والمنامة وبينهما سوق الخميس، ورسم في الخلفية جبل الدخان وقبور التلال وحقول النخيل، وعلى الجانب الأيسر من الخارطة يمكن رؤية جزيرة المحرق بدون قلعتها، وجزيرة سترة، وجزيرة أبو ماهر، ويظهر على اليمين تصوير دقيق لجزيرة أم النعسان.

ب- المصادر المحلية

تنقسم المادة المحلية حول تاريخ البحرين في القرن السادس عشر إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يمكن تفصيلها فيما يأتي:

١- المصنفات الأدبية وكتب التراجم

يعد ديوان الشاعر جعفر بن محمد بن حسن الخطي (ت ١٦١٨) من أهم مصادر تاريخ البحرين خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر،^(١) فقد ولد الخطي في قرية التوبي بالقطيف سنة ١٥٧٢، ثم نزح إلى البحرين واستقر بها عام ١٥٩١، ومدح حاكمها محمود شاه في عدة قصائد، كما قامت بينه وبين أهل البحرين علاقات وطيدة، وشارك في حياتها الأدبية، فكتب بها قصائد عدة في المدح والثناء والوصف والغزل، ثم رحل إلى شيراز عام ١٦٠١ ضمن وفد من أهل البحرين، فأقام بها مدة عامين، وتقل ما بينها وبين أصفهان حتى عام ١٦٠٤، حيث عاد إلى البحرين. وقد أمضى معظم حياته في التنقل ما بين القطيف والبحرين وبلاد فارس إلى أن وافته المنية في شيراز عام ١٦١٨.^(٢)

ويقدم ديوان الخطي مادة مهمة حول تاريخ البحرين في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، إذ أنه كتب قصائد في مواضيع متعددة تعرض فيها لوصف الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في البحرين، فمدح حكامها ووجهائها وعلمائها، وتحدث عن الأوضاع الاقتصادية والثقافية بها، كما تحدث عن العديد من مدنها وقراها،

(١) جعفر بن محمد بن حسن الخطي (٢٠٠٢) ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، دراسة وتحقيق أنيسة المنصور وعبد الجليل العريض، الكويت. وكذلك تحقيق عدنان السيد محمد العوامي لديوان الخطي الذي نشرته مؤسسة الانتشار العربي في مجلدين عام ٢٠٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص.ص ٢٠-٣١.

كما أنشد الشاعر الخطي في حاكم البحرين محمود شاه أربع قصائد خلال الفترة ١٥٩٢-١٦٠٠، وتضمنت أبياتها معلومات مهمة عن أصل أسرة محمود شاه، وبعض صفاته ومزاياه.^(١)

ويمكن العثور على تراجم بعض وجهاء البحرين وشخصياتها الدينية في مصنفات يوسف بن أحمد الدرازي البحراني (ت ١٧٧٣). وعلى الرغم من أن الدرازي لم يكن معاصراً لأحداث القرن السادس عشر إلا أنه ترجم لمجموعة من أعيان البحرين في تلك الفترة.^(٢)

٢- الوثائق المحفوظة في قسم المخطوطات بالمتحف الوطني

يحتوي قسم المخطوطات بالمتحف الوطني بالبحرين على ستة وثائق، يعود تاريخها إلى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، ويمكن تفصيلها فيما يأتي:

- وثيقة بيع أرض زراعية فيها نخيل، عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م.
- وثيقة بيع أرض زراعية فيها نخيل، ووقف جزء منها، عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م.
- وثيقة تقسيم أرض زراعية بها نخيل بين مالكين مشتركين في ملكيتها، عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م.
- حجة بيع أرض زراعية بها نخيل، ووقف بعض أموالها لخدمة مسجد، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م.
- وثيقة بيع أرض زراعية بها نخيل بتاريخ ١ محرم ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م.
- وثيقة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م.

ويبدو أن هذه الوثائق هي مجموعة من مقتنيات شخص واحد هو السيد جمال بن محمد الهرجي، حيث تتعلق جميع الحجج المذكورة به أو بأفراد أسرته، وتحتوي هذه الوثائق على معلومات قيمة حول مؤسسات القضاء والأوقاف، وأنظمة التوثيق وتسجيل الأراضي، وطرق جمع الخراج، وغيرها من المعلومات حول الأوضاع الداخلية في البحرين، وتكشف عن معلومات لم يكتب عنها من قبل.

٣- الكتابة المنقوشة على الحجارة

درج أهل البحرين على استخدام النقش على الحجارة لأغراض عدة، حيث يمكن العثور على مجموعة كبيرة من الحجارة المنقوشة في المتحف الوطني، وفي مسجد الخميس، وفي قلعة البحرين.

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٨-١٢٩.

(٢) يوسف بن أحمد الدرازي البحراني (١٩٦٦) لؤلؤتي البحرين في الإجازة لقرتي العين، مطبعة النجف، النجف. وكتاب: الكشكول، (د.ت) مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

وتشير المصادر إلى أن بعض وجهاء البحرين كانوا يستكتبون الشاعر الخطي للنقش على حجارة في القصور التي كانوا يشيدونها بقصد الزينة ، كما كانت تنقش بعض الأبيات الشعرية على محاريب المساجد وعلى شواهد القبور؛ فقد التمس بعض الوجهاء من الخطي نظم أبيات تنقش على حجر قبر الشيخ عبد الله بن ناصر بن مقلد الذي توفي عام ١٥٩٢ ،^(١) وطلب منه كذلك أن ينظم أبياتاً ليتم نقشها على قبر عبد الرؤوف الحسيني المتوفى سنة ١٥٩٧ ،^(٢) كما التمس منه أحد الأثرياء أن ينظم أبياتاً تنقش على دهليز بيته.^(٣)

ومن أهم الحجارة المنقوش عليها بغرض التوثيق والتأريخ في البحرين إبان القرن السادس عشر:

وقف بكرّانة

وهو حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني ، يتضمن نص وقف أوقفه محمد بن ناصر بن عبد الله بن ربيع لقراءة القرآن على روح والديه ، ولتوصيل الماء إلى مسجد الرسان في ديوان بوري ، وذلك عام ١٥٥٨ .

تأريخ ترميم قلعة البحرين

وهو حجر محفوظ في قلعة البحرين ، يؤرخ لترميمها عام ١٥٦١ ، ويذكر فيه اسم حاكم البحرين مراد شاه ، ويحصى عدد الحجارة التي استخدمت في تلك العملية .

وقف مسجد الخميس

وهو حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني ، يتضمن نص وقف أوقفه حاكم البحرين محمود شاه عام ١٥٨٦ ، ويذكر فيه جملة من ألقابه منها : «حضره خلاصة الوزراء الأعظم ، ونخبة الأوصاف الأفخم ، وركنا الوزراة والإيالة والإقبال» .

وقد استفاد الباحث من المادة المنقوشة على الحجارة المذكورة أعلاه ، حيث تضمنت معلومات حول الأوضاع السياسية والدينية في البحرين خلال فترة البحث .

(١) الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩١ .

المبحث الرابع

الإشكاليات المتعلقة باستخدامات المصادر

يتبين من خلال الاطلاع على كتابات المؤرخين المحدثين حول تاريخ البحرين في القرن السادس عشر وجود مجموعة من الإشكاليات المتعلقة بالاستفادة من النصوص التاريخية، ومدى القدرة على توظيفها للخروج بصورة واضحة عن حقيقة الأوضاع في البحرين إبّان القرن السادس عشر، ومن أهم هذه الإشكاليات:

أ- عدم تحقيق التوازن بين الروايات التاريخية

يتوفر للباحث في تاريخ البحرين إبّان القرن السادس عشر ثلاث روايات رئيسة حول الأحداث التي وقعت في تلك الفترة، وهي:

١- الرواية البرتغالية: التي يمكن جمع أطرافها من: التقارير والمراسلات الرسمية، وكتب الرحالة ومصنفات المؤرخين البرتغاليين، وأكثر ما يلفت نظر القارئ للمصادر البرتغالية روح التعصب الديني الصليبي ضد السكان المحليين في الخليج العربي؛ ففي تحليله للمصادر البرتغالية في تاريخ الخليج العربي، أشار طارق الحمداني إلى وجود: «روح تعصبية ظاهرة» في كتابات باروس، حيث كان يبرر كل ما ارتكبه البرتغاليون من تخريب وتدمير في موانئ الخليج العربي.^(١)

وتتبع الحمداني النمط نفسه عند دوراتي باربوسا الذي: «يظهر تعصباً سياسياً للبرتغاليين عندما يتحدث عن مواقفهم السياسية المتطرفة تجاه سكان المنطقة».^(٢)

أما المؤرخ فارياد دا سوزا فإنه قد تميز بتعصب للقادة البرتغاليين، وأظهر حقداً وكراهية تجاه المسلمين، ولذلك فإنه كان يميل إلى المبالغة في تصوير عدد القتلى من المسلمين في المعارك التي جرت ضد البرتغاليين، ويسهب في تصوير الممارسات الإرهابية والوحشية التي مارسها البرتغاليون على أنها أعمال بطولية ذات طابع ديني.^(٣)

(١) طارق نافع الحمداني (١٩٨٨) «دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي»، الوثيقة، العدد ١٢، يناير، ١٩٨٨ مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٨-٨٩.

وعلى الصعيد الرسمي فإن مراسلات وتقارير نواب الملك بالهند، وبالأخص منهم أفونسو دلبوكيرك (١٥٠٩-١٥١٥)، يطغى عليها طابع التعصب الصليبي، والكراهية المفرطة تجاه السكان المحليين، بالإضافة إلى اعتبار التنكيل بهم وتعذيبهم من الأعمال الصالحة التي تقربهم من الرب، بل كان أغلب القادة البرتغاليين مسكونين بمصاحبة القديسين لهم في معاركهم ضد المسلمين.

كما يمكن ملاحظة سلوك المصادر البرتغالية مسلك الانتقائية في الكتابة حول تاريخ الأقاليم التي خضعت لهم، حيث يببالغ البرتغاليون في الحديث عن انتصاراتهم، ويتجاهلون الحديث عن هزائمهم، ويغيبون الصورة المشرفة للمقاومة المحلية للغزو البرتغالي. وبسبب تلك الانتقائية؛ تغيب فصول كثيرة من تاريخ الخليج العربي، نظراً لانشغال الضباط البرتغاليين في مهمات أخرى كتوطيد نفوذهم في الهند على سبيل المثال، وبذلك فإنه لا يمكن الاقتصار على المصادر البرتغالية دون غيرها في التأريخ لأحداث الخليج العربي في القرن السادس عشر.

بل إن بعض الكتاب البرتغاليين قد أظهروا جهلاً واضحاً لدى كتابتهم عن الأقاليم العربية التي وصلت إليها قواتهم لأول مرة في مطلع القرن السادس عشر، فمنهم من جعل البحرين في الساحل الشرقي للخليج العربي، ومنهم من اعتمد على الأساطير والخيال لدى التأريخ لأحداث المنطقة.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإنه لا ينبغي التقليل من أهمية المادة البرتغالية كمصدر أساسي من مصادر تاريخ البحرين والخليج العربي بصورة عامة، إذ أنها تنفرد بمعلومات لا يمكن توفرها في أي مصدر آخر، إلا أن أغلب المادة البرتغالية قد وصلتنا باللغة الإنجليزية، إذ اهتم البريطانيون بترجمة كتب الرحالة والمسؤولين البرتغاليين، ومن ثم ترجمت بعض هذه المصنفات من الإنجليزية إلى اللغة العربية، وأدت عملية تكرار الترجمة إلى وقوع أخطاء فادحة في تحديد بعض المواقع والأسماء والألقاب، إذ يمكن ملاحظة تسمية قائد القلعة البرتغالية بهرمز: «حاكم هرمز»، مما أدى إلى استنتاجات خاطئة تتمثل في اعتبار غياب سلطة هرمزية محلية في بعض الكتابات، وعلى الصعيد نفسه أضيفت على الحكام المحليين ألقاباً متباينة، فيلاحظ إطلاق مسميات: «ملك»، و«سلطان»، و«حاكم» و«وزير» على الشخص نفسه، ونتج عن ذلك تذبذب بعض الكتابات التاريخية المعاصرة في تحديد مكانة الزعماء المحليين ومستوى سلطتهم.

٢- الرواية العثمانية: المتمثلة في التقارير الرسمية الصادرة من اسطنبول، والمراسلات المتعلقة بالبحرين في سجلات الولايات العثمانية في ولايتي البصرة والأحساء، وتميل هذه المصادر إلى تضخيم الوجود العثماني في الخليج العربي، وبالأخص في البحرين التي اعتبرها العثمانيون جزءاً من النظام الإداري العثماني خلال الفترة ١٥٣٤-١٦٠٠، فقد نجح حكام البحرين في تلك الفترة في الحصول على اعتراف السلطة العثمانية بحكمهم، وتقبلوا الألقاب الرمزية التي أضفيت عليهم من قبل السلاطين العثمانيين، ودخلت البحرين في سجلات الدولة العثمانية باعتبارها إحدى الولايات التابعة لإيالة الأحساء، وسار العثمانيون على شاكلة البرتغاليين في تضخيم دورهم في الخليج العربي، وكتابة التقارير والمصنفات التي تبالغ في تقدير حجم قوتهم ونفوذهم في المنطقة.

والملاحظ في المصادر العثمانية أنها لا تتحدث عن البحرين إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، إذ تظهر معلومات مقتضبة ومتباعدة من حيث الفترة التاريخية، وذلك وفق ما يتزامن مع تجدد اهتمام القادة العثمانيين بتوطيد نفوذهم، ومواجهة الأساطيل البرتغالية في الخليج العربي، فلا يظهر اسم البحرين إلا عندما يقع حدث مهم بالنسبة للوجود العثماني في الأحساء، ولا يبذل المسؤولون العثمانيون جهداً كبيراً في كتابة تقارير مفصلة عن الأوضاع المحلية في البحرين على الرغم من اعتبارها جزءاً من دولتهم مترامية الأطراف، وحتى عندما ترد البحرين في السجلات الإدارية فإنه يمكن ملاحظة غياب اسم القائد العثماني المفترض لها، مما يعني بأنها كانت تخضع لسلطة حاكم محلي.

وعلى الرغم مما تقدمه المصادر العثمانية من مادة حول تاريخ البحرين، وما تنفرد به من معلومات حول حكامها المحليين إلا أن يد البحث العلمي لا تزال بعيدة إلى حد كبير عن الوثائق العثمانية، التي يندر وجود الخبراء في قراءتها وترجمتها إلى اللغة العربية، إذ يمكن القول بأن الرواية العثمانية لأحداث الخليج العربي لا تزال غائبة عن البحث العلمي إلى حد كبير.

٣- الرواية المحلية: التي قام الباحث بجمع مادتها من المصنفات التاريخية المعاصرة لأحداث تلك الفترة، والقليل من كتب الأدب والتراجم، والوثائق المحفوظة بقسم المخطوطات في متحف البحرين الوطني، بالإضافة إلى الكتابة المنقوشة على الحجارة في المواقع التاريخية بالبحرين. وتمثل هذه المادة في مجموعها كنزاً ثميناً لا يزال غائباً عن جهود البحث التاريخي المحلي. فالمصادر المحلية تجبر نقص المادة البرتغالية والعثمانية من حيث تعلقها بالأوضاع المحلية، وتقدم في الوقت ذاته وجهة نظر مغايرة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالبحرين.

وتظهر المصادر المحلية بصورة أوضح في النصف الثاني من القرن السادس عشر، من خلال النقوش وحجج البيع وبعض كتب التراجم والأدب.

وعلى الرغم من أن البحرين لم تحظ في تلك الفترة بمؤرخ محلي، معاصر لأحداث القرن السادس عشر، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يؤدي إلى الاستنتاج الخاطئ بأن أهل البحرين قد أهملوا تاريخهم، فالقرائن التاريخية تشير إلى أن الحكام والمسؤولين والقضاة قد قاموا بتوثيق الأحداث المهمة وتخليدها، ولكن يد البحث العلمي لا تزال قاصرة عن سبر أغوارها والبحث عنها في مظانها.

ب- عدم إعطاء القوى المحلية حقها من الدراسة والتحليل

في تقييمه للمصادر البرتغالية في كتابة تاريخ الخليج العربي، أشار أحمد بوشرب إلى أن هذه المصادر لا تغطي:

«تاريخ السواحل العربية الإسلامية تغطية كاملة، فهي لا تتحدث عنها إلا حينما تشير اهتمام المسؤولين البرتغاليين، وكما أشارت إليها، نظرت إليها من وجهة نظر المستعمر، وحسب مصالحه، لا من وجهة نظر السكان العرب، فهي لذلك تهتم بأحداث وأشياء قد لا تهمنا نحن بالضرورة، كما أنها حررت على يد أناس كانوا يهدفون من ورائها إلى تمجيد أنفسهم ودينهم وبلادهم، الأمر الذي يجعلها تفتقر إلى الموضوعية افتقاراً صارخاً لا يحتاج إلى إثبات»^(١).

وقد وقعت العديد من المصنفات التاريخية المعاصرة تحت تأثير المصادر البرتغالية، حيث وجدت بعض الكتابات المحلية التي تؤرخ للإمبراطورية البرتغالية الشرقية، وتعدد إنجازات قادتها الكبار، باعتبارها جزءاً من تاريخ البحرين الحديث.

ويمثل هذا النمط من التدوين التاريخي تحدياً ثقافياً خطيراً، يكمن في تقمص بعض المؤرخين المحليين للرواية الاستعمارية التي نظرت بصورة سلبية إلى أنظمة الحكم والإدارة المحلية وعمدت إلى تشويهها. وعلى الرغم من ضرورة عدم تجاهل الدور البرتغالي أو العثماني أو الصفوي في المنطقة، إلا أنه لا بد في الوقت نفسه من تحقيق التوازن بين مختلف المصادر، والمقارنة بينها، والأخذ في الاعتبار ماهية الدوافع التي حدت بكتّاب القوى الاستعمارية إلى نشر أعمالهم.

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص.ص ١١٨-١١٩.

ففي الوقت الذي مارست فيه الأساطيل البرتغالية أعمال القرصنة بكل تفاصيلها، عمد بعض الكتاب المحليين إلى الإشادة بدور البرتغاليين في: «تنظيم الحركة الملاحية في مياه الخليج العربي».

وعلى الرغم من أعمال التدمير والحرق التي افتخر البرتغاليون بها، أثبت بعض المصنفات المحلية المعاصرة على دور البرتغاليين في تطوير قطاعات الزراعة والتجارة ومهنة الغوص في البحرين.

ولا ينبغي أن يؤدي ذلك بالبحث العلمي إلى انتهاج أسلوب التجني والاقتصار على ذكر سلبيات الوجود الاستعماري، بل يجب أن يدفع بالمؤرخ المحلي إلى تحقيق الموضوعية التاريخية المتضمنة لرواية الحدث من مختلف أبعاده، والبحث في أتون الروايات المتضاربة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وحتى الثقافية التي قامت عليها مملكة البحرين، وذلك بحيادية وإنصاف لا يمكن تحقيقهما من خلال الاقتصار على المصادر الغربية، أو النظر بعين المستعمر في تقييمه المنحاز للشعوب العربية الإسلامية التي بذلت قصارى جهدها للمحافظة على هويتها واستقلالها عن أطماع الغزاة.

ومن الوفاء للشعوب المحلية وقادتها، أن يقوم البحث التاريخي المعاصر بتقصي تلك الجهود التي شيدت على أسسها مملكة البحرين، لا على الأسس الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تشييد أمجاد إمبراطوريات أخرى تقع في أقصى الغرب.

ج- عدم فهم طبيعة المرحلة والخروج بنتائج غير دقيقة

تشتمل الروايات التاريخية المعاصرة على جملة من الأخطاء المبنية على قصور التأصيل التاريخي، وعدم تحقيق التوازن في الاعتماد على مصادر دون غيرها، ومن أهم المغالطات التاريخية التي يهدف البحث إلى مناقشتها وتفنيدها:

١- الادعاء بأن البحرين قد خضعت للاحتلال البرتغالي في القرن السادس عشر

فالمصادر البرتغالية تؤكد عدم وجود أي قوة عسكرية برتغالية في البحرين إبان القرن السادس عشر، بل إن تعليمات نواب الملك البرتغالي بجوا في الهند كانت تشدد على عدم توريث القوات البرتغالية بتواجد عسكري طويل الأمد في البحرين، وذلك لأسباب عدة منها: انتشار الأوبئة في أرضها، وضحالة مياهها، وبعدها عن مركز الإمدادات بهرمز.

وقد وقع الخلط لدى بعض المؤرخين بين تعرض البحرين لسلسلة حملات عسكرية برتغالية تهدف إلى حمل حكامها على دفع الإتاوة السنوية المفروضة وتأسيس مكتب تمثيل تجاري من جهة، وبين خضوع البحرين لسلطة احتلال برتغالية من جهة أخرى، وهو أمر تنفيه المصادر البرتغالية بصورة قاطعة.

٢- الادعاء بأن البحرين قد خضعت لسلطة هرمز

اعتبر البرتغاليون البحرين أحد الأقاليم التابعة لهرمز، وهو أمر كان موضع نزاع بين الهرمزيين والجبور، وعندما قام البرتغاليون بمهاجمة البحرين ساعدتهم قوات هرمزية، ونتج عن ذلك تكليف مسؤولين هرمزيين بمهمة جمع الضرائب، ولكن وجود موظفي الجمارك الهرمزيين لم يستمر في البحرين لفترة طويلة، في الوقت الذي أخذت تفقد فيه هرمز مكانتها السياسية والاقتصادية. ونتيجة لذلك فإن الوجود الهرمزي في البحرين قد اقتصر على الفترة ١٥٢١-١٥٢٩، ثم ظهر مرة أخرى عام ١٦٠٠. أما في السنوات الواقعة بين هاتين الفترتين فإن الاهتمام الهرمزي بالبحرين كان يقتصر على حملة برتغالية-هرمزية مشتركة لطرد العثمانيين من البحرين، وحملة أخرى محدودة عام ١٥٧٧، وتشير المصادر إلى أن الإتاوة السنوية المفروضة على البحرين لم تكن تدفع لهرمز في أغلب سنوات تلك الفترة.

٣- افتراض عدم وجود نظام إدارة وحكم محليين

دفعت النتائج الخاطئة (المبنية على افتراض وجود احتلال برتغالي-هرمزي في البحرين) إلى استبعاد قيام نظام حكم وإدارة محليين، حيث أسهبت بعض الكتابات المعاصرة في الحديث عن: «الحكام الهرمزيين للبحرين»، وعن: «البحرين تحت الاحتلال البرتغالي»، دون محاولة النظر في تطورات الأوضاع على الصعيد المحلي، إذ أن البحرين قد حظيت بمجموعة من الحكام المحليين الذين تميزوا ببراعة سياسية في التعامل مع الظروف الدولية، ومواجهة التحديات الأمنية ونجحوا في ترسيخ سيادة البحرين واستقلالها عن النفوذ الأجنبي.

٤- الاعتقاد بعدم وجود مادة محلية حول تاريخ البحرين

نظراً لتغلب نزعة النمطية والتكرار في بعض المصنفات المعاصرة؛ فقد ظهر قصور في تقصي المصادر المحلية، وبذل الجهد للبحث عنها، والسعي إلى سبر أغوارها، والاستفادة مما هو متاح منها في البحث العلمي، ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى ظاهرة الانقسام

السلبى بين الباحثين في مجال الآثار من جهة، وكتاب التاريخ من جهة أخرى. ولتحقيق الموضوعية والتوازن فإنه لا بد أن يستفيد البحث التاريخي من مختلف المصادر المعاصرة كالنقوش، والآثار، والعملات، وكتب التراجم والأدب، وغيرها من المادة العلمية التي تعد من أهم مصادر تاريخ البحرين إبان القرن السادس عشر.

الفصل الثاني



الأوضاع العامة في الخليج العربي
وأهم أحداث القرن السادس عشر

شهدت منطقة الخليج العربي تحولات كبرى في القرن السادس عشر الميلادي، حيث ظهرت، ولأول مرة، ثلاث قوى كبرى في مياه الخليج العربي:

ففي سنة ١٥٠٠ تأسست الدولة الصفوية التي تزامن مع ظهورها حالة من الدمار في المنطقة، فقد اعتمد مؤسس الدولة؛ الشاه إسماعيل الصفوي أساليب وحشية لتوطيد حكمه، ونتيجة لذلك، فقد كان القسم الشرقي من الخليج العربي مشغولاً في حروب داخلية مثلت مرحلة انتقالية نحو العصر الحديث.

وفي سنة ١٥٠٧ شهدت سواحل عُمان طلائع الغزو الأوروبي المتمثلة في الأسطول البرتغالي بقيادة أفونسو دلبوكيرك الذي لم تكن دولته بأقل دموية من الدولة الصفوية، فقد شن البرتغاليون حملة عسكرية واسعة النطاق بهدف تدمير جميع القوى البحرية المحلية وإخضاع الموانئ العمانية.

وعندما تمكن البرتغاليون من السيطرة على حركة الملاحة والتجارة، فرضوا نظاماً جديداً يقوم على الاحتكار والفساد المالي والإداري، وامتد هذا النظام طيلة القرن السادس عشر، كما فتحت السيطرة البرتغالية على المحيط الهندي البوابة واسعة لموجات الغزو الأوروبي التي دمرت اقتصاديات القوى العربية والإسلامية وفرضت عليها التبعية للغرب.

أما في الشمال الغربي للخليج العربي فقد ظهرت الدولة العثمانية منذ سنة ١٥٣٤، وتحول اهتمام سلاطينها نحو الشرق للانخراط بصورة أكبر في شؤون المنطقة العربية، وكان هذا التحول نذيراً ببدء سلسلة معارك طاحنة بين الصفويين والعثمانيين استمرت طوال القرن السادس عشر، وفي هذه الأثناء بذل العثمانيون محاولات عدة للسيطرة على الحركة الملاحية في المحيط الهندي وبحر العرب إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل.

ولم تكن الأوضاع في عُمان تختلف عن الأوضاع العامة في منطقة الخليج العربي؛ فقد اندلع صراع طويل الأمد بين النبهانيين والإباضيين، وتمكن الإمام محمد بن إسماعيل الإباضي من قتل الملك سليمان النبهاني والاستيلاء على حكمه بصورة مؤقتة سنة ١٥٠٠، وفي عهده (١٥٠٠-١٥٣٥) ازدادت الفرقة الداخلية وتشدت الكلمة، حيث توزع الحكم في عُمان أربع مراكز رئيسة للقوى، وهي الإمامة الإباضية في نزوى، والنبهانية غالباً في بهلا، وبنو جبر الذين كانوا ينازعون الهرمزيين في السيطرة على المناطق الساحلية.

وفي خضم هذا البحر المتلاطم من الصراعات، كان على حكام البحرين مواجهة أطماع القوى الإقليمية والدولية التي كانت كل واحدة منها ترى في جزر البحرين مفتاحاً للسيطرة على حركة الملاحة والتجارة داخل الخليج العربي، ونتيجة لذلك فإنه لا يمكن التأريخ للبحرين في معزل عن الصراع الدائر في الخليج العربي، حيث كان أرخبيل الجزر نفسه من أهم محاور هذا الصراع. ولا يمكن فهم سياسة البحرين المحلية والإقليمية إلا باستكمال أجزاء المشهد الإقليمي بكل تفاصيله وصراعاته، فقد سقطت القوى الإسلامية التقليدية في عُمان، وفقدت هرمز مكانتها في التجارة الدولية، وانهار حكم الجبور في شرقي شبه الجزيرة العربية، وأخذ الخليج العربي يمر بمرحلة تحول كبرى تؤذن بالانتقال إلى العصر الحديث.

ويعنى هذا الفصل باستعراض أهم ملامح الواقع الإقليمي في محاولة لإعادة تفسير الكثير من الظواهر التي أثرت بصورة مباشرة على الأوضاع المحلية في البحرين، ومن أهم هذه المراجعات تحديد طبيعة السيطرة البرتغالية على هرمز والموانئ العمانية، ومقارنتها مع نظام الحماية البريطانية في القرن التاسع عشر، وبالإضافة إلى ذلك فإن تفسير نمط الإدارة الهرمزية للكيانات التابعة لها في القرن السادس عشر هو أمر أساسي لفهم أحداث المنطقة، ولا يمكن التغاضي عن حالة التعصب الديني والمذهبي المقيت الذي ساد منطقة الخليج العربي والذي تبنته العديد من القوى كسياسة رسمية تم توظيفها في تأجيج نيران الصراع.

المبحث الأول

الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي

تعود بدايات قصة الغزو البرتغالي للخليج العربي إلى عام ١٤٩٨، عندما نجح فاسكودي غاما في العبور بسفنه إلى الهند عبر جنوب إفريقيا، ومن ثم العودة سنة ١٤٩٩ حيث استقبل استقبال الأبطال الفاتحين، وكان في مقدمة مستقبليه الملك مانويل الثاني (١٤٩٥-١٥٢١) الذي عقد معه عدة اجتماعات مطولة عرض فيها دي غاما خططه الاقتصادية والعسكرية التي تهدف إلى الإطاحة بالوجود العربي-الإسلامي في المحيط الهندي.^(١)

ونتيجة لتلك التقارير قرر الملك مانويل الثاني إيفاد المزيد من الحملات العسكرية بهدف توجيه ضربات لحركة التجارة الإسلامية، والعمل على تأسيس مراكز تجارية للبرتغاليين في الهند. وسرعان ما اصطدمت السفن البرتغالية بأساطول المماليك في المحيط الهندي، حيث اتخذ البرتغاليون من السفن الإسلامية في المحيط الهندي هدفاً لحملاتهم؛ ففي سنة ١٥٠٤ أرسل المماليك أسطولاً تجارياً إلى ساحل المليبار الهندي لجلب التوابل، ولكن هذه السفن تعرضت لعدوان برتغالي فلم تتمكن من العودة إلى مصر، وما عاد منها كان فارغاً بسبب نهب البرتغاليين لها، ونقل ركاب السفن قصصاً مروعة عن سلوك البرتغاليين، وكانت هذه الحادثة إيذاناً ببدء سلسلة من أعمال القرصنة البحرية التي شنّها البرتغاليون في المحيط الهندي والتي تهدف إلى ضرب حركة التجارة الإسلامية.

وأمام هذه الأعمال العدوانية قرر السلطان المملوكي قانصوه الغوري إيفاد بعثة برئاسة الأسقف ماوروس دي سان برنادينو رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس ومعه راهبان إلى البابا بروما وملوك أوروبا للوقوف على الأوضاع السياسية وإقناع البابا على حث البرتغاليين لوقف أعمالهم العدوانية في المحيط الهندي، وإلا فإن الغوري سيجد نفسه مضطراً لإغلاق كنيسة القيامة ومنع الحجاج المسيحيين من دخول بيت المقدس، وما إن بلغ البابا يوليوس الثاني هذه التهديدات حتى أوفد مبعوثين يابويين إلى ملكي إسبانيا والبرتغال لينقلوا لهما مضمون الرسالة التي بعث بها السلطان المملوكي، وكان رد فعل الملك البرتغالي مانويل الثاني (١٤٩٥-١٥٢١) أنه أرسل يطمئن البابا بعدم القلق من تلك التهديدات لأنه قرر القضاء على أي قوة إسلامية تقف في وجهه، وأخبره بعزمه على مهاجمة سواحل الهند الشرقية وبحر العرب ليتمكن من غلق مضيق باب المندب والبحر الأحمر، وأكد نيته احتلال هرمز وما جاورها ليغلق الخليج العربي في وجه الملاحة الإسلامية.

(١) فالخ حنظل (١٩٩٧) العرب والبرتغال في التاريخ ٧١١-١٧٢٠، المجمع الثقافي، أبو ظبي. ص ١١٥.

وقد شرع مانويل في تنفيذ خطته، فأوفد فرنسيسكو دالميدا سنة ١٥٠٥ في بعثة تهدف إلى إحكام السيطرة البرتغالية على حركة التجارة البحرية وإغلاق معايرها التقليدية عبر البحر الأحمر والخليج العربي، ومحاولة حرقها عبر رأس الرجاء الصالح، واستحدث منصب نائب الملك الذي تولاه دالميدا (١٥٠٥-١٥٠٩) للمرة الأولى.

وبحلول شهر سبتمبر من العام نفسه نجح دالميدا في بسط السيطرة البرتغالية على ساحل المليبار بصورة نهائية واتخاذ كوشين عاصمة له، ولمواجهة الخطر البرتغالي جهز الممالك أسطولاً ضخماً، كما قام السلطان الغوري بتحصين الموانئ الرئيسية في البحر الأحمر وبسط السيطرة على عدن، ومن ثم ملاحقة السفن البرتغالية في المحيط الهندي وتعقبهم في الهند للقضاء على أعمال القرصنة التي كانوا يقومون بها هناك. وفي سنة ١٥٠٧ نجح الأسطول المملوكي -بالتحالف مع القوى الإسلامية في الهند- في إلحاق هزيمة بالأسطول البرتغالي في ميناء شول قتل فيها قائد الحملة لورنزو ابن فرنسيسكو دالميدا.

وأمام هذه الهزيمة النكراء قرر مانويل تدعيم وضع دالميدا في الهند عن طريق إرسال حملة جديدة بقيادة تريستيان داكونها، ومعه أفونسو دلبوكيرك، في ١٦ سفينة حربية وكان هدفها إنهاء السيطرة الإسلامية على تجارة الهند واحتلال موانئ عمان، وإغلاق الممرين المائين العربيين وهما: البحر الأحمر والخليج العربي.^(١)

اتجه داكونها بأسطوله نحو سواحل شبه الجزيرة العربية مستولياً على جزيرة سوقطرة وأقام فيها قلعة برتغالية، ثم غادر متجهاً إلى الهند تاركاً أفونسو دلبوكيرك على رأس سبع سفن، وأوكل إليه مهمة مهاجمة عدن وإعاقة تجارة المسلمين عبر البحر الأحمر، إلا أن دلبوكيرك خالف تلك التعليمات واتجه بأسطوله الصغير نحو جزيرة هرمز وأخذ يدمر في طريقه كل سفينة إسلامية تقابله، وفي طريقه إلى هرمز شن دلبوكيرك حملة عسكرية استهدفت موانئ عمان؛ ففي شهر أغسطس ١٥٠٧ سيطر على قلعات، ثم انتقل إلى قريات التي احتلها عنوة، واتجه بعد ذلك نحو مسقط التي انهارت تحصيناتها أمام مدافعه، وبعد سقوط مسقط، خضعت صحار، وخورفكان، ثم وصل الأسطول البرتغالي إلى هرمز التي تم إخضاعها بعد معركة تكبد فيها الهرمزيون خسائر فادحة، واضطروا لتوقيع معاهدة تنص على خضوع ملك هرمز سيف الدين للتاج البرتغالي، وتعهده بدفع إتاوة سنوية للبرتغاليين، بالإضافة إلى إعفاء السفن البرتغالية من رسوم الجمارك وتخويلهم حق السيطرة على الحركة الملاحية في الخليج العربي من خلال فرض نظام التراخيص.^(٢)

(١) المرجع السابق، ص ١٤٧-١٥٧.

(٢) بدر الدين عباس الخصوصي (١٩٧٨) دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، منشورات دار السلاسل، الكويت، ص ١٧.

وبعد إحكام السيطرة على هرمز شرع دلبوكيرك في تشييد قلعة برتغالية بها، مما أدى إلى سحق مجموعة من الضباط تحت إمرته، والذين ارتأوا بأن دلبوكيرك قد ذهب بعيداً في مخالفة التعليمات التي وجهت له من لشبونة، فاضطر دلبوكيرك للذهاب إلى الهند حيث اختلف مع الميدا، الذي كان يعتقد بأن إمكانيات البرتغاليين لا تسمح لهم بإقامة مستعمرات بعيدة عن مركزهم في الهند، وبأنه يتوجب عليهم الاعتماد بصورة أكبر على دوريات أساطيلهم التي يسيرونها في تلك المناطق للقضاء على حركة التجارة الإسلامية. وتبين فيما بعد بأن الملك مانويل كان يميل إلى وجهة نظر دلبوكيرك في العمل على إجبار القوى المحلية للاعتراف بسلطة البرتغاليين وإنشاء المراكز التجارية التي تدعمها القوة العسكرية في المواقع الاستراتيجية في المحيط الهندي، ولذا فقد وقع الاختيار على دلبوكيرك ليتولى منصب نائب الملك في الهند خلال الفترة ١٥٠٩-١٥١٥، وسرعان ما نقل دلبوكيرك مركزه من كوشين إلى جوا.

وبعد أن نجح في توطيد سلطته في الهند قام دلبوكيرك بشن سلسلة عمليات عسكرية بهدف السيطرة على عدن لإغلاق البحر الأحمر، كما عمد إلى توطيد نفوذه في الخليج العربي من خلال تسيير حملة جديدة إلى هرمز والتوغل بأسطوله في مياه الخليج العربي، وفي هذه الأثناء نجحت المساعي الدبلوماسية للبرتغاليين في إقامة علاقات قوية مع الدولة الصفوية، والحصول على اعتراف من الشاه إسماعيل بالسيادة البرتغالية على الحركة الملاحية والتجارية في المحيط الهندي وبحر العرب.^(١)

وبعد ست سنوات قضاها دلبوكيرك في منصب نائب الملك وافته المنية في ديسمبر ١٥١٥ ودفن في عاصمته جوا، وخلفه لوبو سواريز (١٥١٥-١٥١٨) الذي عمد إلى تغيير السياسة البرتغالية تجاه القوى المحلية، إذ كان يهدف إلى إنعاش التجارة البرتغالية سلمياً ودون اللجوء إلى التتكيل أو البطش، فقام بإطلاق المجال للنشاطات التجارية التقليدية في الخليج العربي ولكن بشرط أن يتم ذلك تحت إشراف البرتغاليين، وتمكن البرتغاليون بفضل هذه السياسة من تحقيق العديد من المكاسب منها: الاستفادة من الأنماط التجارية التقليدية، حيث بدأت تتدفق كميات كبيرة من البضائع عبر الخليج العربي، ونتج عن ذلك الانفتاح تغير في معالم السياسة البرتغالية في الشرق؛ حيث انغمس الضباط البرتغاليون في ممارسة النشاط التجاري، وأدى ذلك إلى زيادة معاناة السكان المحليين من الاحتكار الذي مارسه البرتغاليون، بالإضافة إلى رفع الضرائب التي كانوا يفرضونها على الموانئ الإسلامية، مما أجاج العديد من الثورات المحلية التي كان أغلبها ناتجاً عن المبالغة في زيادة الضرائب المفروضة على موانئ الخليج العربي.^(٢)

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) جمال زكريا قاسم (١٩٨٥) دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧-١٨٤٠، دار الفكر العربي، القاهرة. ص ٧٣-٧٤.

وقد عانت البحرين بصورة خاصة من تعسف البرتغاليين الذين شنوا حملة لإخضاعها في يوليو ١٥٢١، وكانت هذه الأحداث سبباً في اندلاع تمرد عام في المناطق الخاضعة للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي في نوفمبر ١٥٢١، وشملت هرمز ووظفار ومسقط وغيرها من سواحل شبه الجزيرة العربية الممتدة من البحرين حتى ميناء قريات. ولكن البرتغاليين نجحوا في القضاء على ذلك التمرد الذي انتهى بمقتل الملك الهرمزي تورانشاه في قشم، وعزز البرتغاليون بعد ذلك موقفهم وضاعفوا قيمة الضرائب المفروضة على عُمان والقطيف والبحرين.

وفي العام ١٥٢٦ و١٥٢٧ تمكن البرتغاليون من إخماد حركات تمرد أخرى في مسقط وقريات ثم في البحرين عام ١٥٢٩، وفي ذلك العام أيضاً ظهرت السفن البرتغالية للمرة الأولى في البصرة وطالب قائد الحملة الحاكم العربي بتقديم سبعة سفن تجارية عثمانية لهم، ومنع الرعايا العثمانيين من ارتياد المنطقة للقيام بأعمال تجارية، وعندما قوبل هذا الطلب بالرفض قصف البرتغاليون مدينة البصرة وتوغلوا صعوداً في شط العرب وأحرقوا عدداً من القرى.^(١)

وبعد أن ثبت البرتغاليون سلطتهم في عُمان وشرقي شبه الجزيرة العربية تمركزوا في مواقع تجارية على سواحل المنطقة فبنوا فيها الحصون المشرفة على المدن وفرضوا رقابة على حركة الجمارك، وأخذوا يتقاضون الضرائب والرسوم الجمركية الباهظة، وفي هذه الأثناء كانوا يهاجمون السفن الإسلامية في عرض البحر. لكن البرتغاليين -بعد أن أخضعوا هرمز وموانئ عُمان- لم يتدخلوا في الشؤون الداخلية لتلك البلاد، بل اقتصر تصرفاتهم على حيك الدسائس وقبض الرشاوى ومنح الرخص. أما على اليابسة فإنه نادراً ما كان البرتغاليون يخرجون إلى مسافات تزيد عن مدى مدفعية سفنهم، ولم يكن يهملهم في الواقع إلا السلب والنهب.^(٢)

ولكن الامبراطورية البرتغالية الشرقية تلقت ضربة قاصمة عندما أعلن خضوع البرتغال لإسبانيا سنة ١٥٨٠، وآل تاج البرتغال إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا، فتحوّلت المستعمرات البرتغالية في ما وراء البحار لتكون من مسؤولية الملك الإسباني الذي لم يكن شديد الحرص عليها كحرص ملوك البرتغال السابقين، وأدى ذلك إلى ضعف السيطرة البرتغالية على المستعمرات الشرقية، حيث انغمست الإدارة البرتغالية الشرقية في الفساد بعد أن أصبح الإثراء الشخصي السريع لأفرادها على حساب السكان المحليين هو هدف قومهم إلى المستعمرات.

(1) S. Miles (1966) *The Countries and Tribes of the Persian Gulf*, London. pp. 156-160.

(٢) نيقولايف إيفانوف (٢٠٠٤) الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، دار الفارابي، بيروت. ص.ص ١٠٥-١٠٦.

وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر بدأت الأمور تتغير بصورة كبيرة؛ حيث شهد المحيط الهندي قدوم منافسين جدد، وعلى رأسهم البريطانيين الذين تمكنوا من عبور رأس الرجاء الصالح للمرة الأولى عام ١٥٩١، وتبعهم الهولنديون الذين سجل أسطولهم أول عبور لذلك الميناء سنة ١٥٩٥، وفي أقل من خمس سنوات أصبح للهولنديين أكثر من ستين سفينة تجارية تبخر في المحيط الهندي، وبدأت المنافسة بين هذه القوى للبحث عن مصادر التجارة الشرقية، وما لبث أن تحول هذا التنافس إلى اشتباك عسكري مسلح بين الأطراف الاستعمارية الثلاثة وكان البرتغاليون هم الخاسر الأوحده من هذا الصراع، حيث هاجم الصفويون البحرين سنة ١٦٠٢، ثم تحالفوا مع الأسطول البريطاني لطرد البرتغاليين من هرمز سنة ١٦٢٢.^(١)

أهم ملامح الغزو البرتغالي للمنطقة

إن الوقفة المتأنية حيال المصادر المنشورة حول حقبة النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، تفرض على الباحث التوقف عند أهم ملامح ذلك النفوذ، ومراجعة بعض الروايات التاريخية التي يتكرر سردها في المؤلفات المعاصرة، وبخاصة منها ما يتعلق بطبيعة فرض الهيمنة البرتغالية؛ فالقصور في استيعاب نمط الإدارة البرتغالية لكيانها في الشرق قد دفع ببعض الباحثين لافتراض قيام البرتغاليين باحتلال الموانئ التي خضعت لنفوذهم وتصيب حكام برتغاليين عليها، كما أدى ذلك القصور إلى إضفاء نمط من المثالية الإدارية على الوجود البرتغالي في الخليج العربي، والبحرين بصفة خاصة.

والحقيقة هي أن مراجعة الروايات التاريخية المعاصرة للوجود البرتغالي في الخليج العربي -بعيداً عن اجتهادات المؤرخين المحدثين وتفسيراتهم المتباينة لتلك المرحلة- تساعد على تقديم صورة أكثر وضوحاً حول النقاط الجدلية التي يكثر طرحها في الكتابات التاريخية المعاصرة، ومن خلال ذلك يمكن تناول أهم ملامح الغزو البرتغالي في المحاور الثلاثة الآتية:

أ- الروح الصليبية وتأثيرها على حركة الملاحة والتجارة

يكثر نقاش المؤرخين حول دوافع الغزو البرتغالي للخليج العربي من حيث تغليب العناصر الاقتصادية أو الدينية، وأي واحدة منها شكلت العامل الأكثر تأثيراً في دفع الغزاة البرتغاليين نحو الشرق، فقد تحدثت المصادر التاريخية عن سعي البرتغاليين لنفادي

(١) عصام سخيني (١٩٩٧) مملكة هرمز: أسطورة الخليج التجارية، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، ص.ص ١٢٠-١٢١.

الضرائب الباهظة التي فرضتها القوى الإسلامية على تجارة أوروبا، وذلك من خلال البحث عن معبر آخر للتجارة مع الهند بعيداً عن السيطرة الإسلامية على حركة التجارة بين القارات عبر البحر الأحمر والخليج العربي، بالإضافة إلى محاولة التخلص من احتكار تجار جنوة والبندقية لتجارة الشرق ومغالاتهم في أسعار البضائع التي كانوا يوردونها إلى أوروبا.^(١)

ومن جهة أخرى فإن الدوافع الدينية لدى الغزاة البرتغاليين قد استحوذت على اهتمام بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن: تواجد رجال الدين في الحملات البرتغالية بهدف نشر المسيحية في الشرق، ومباركة البابا للحملات البرتغالية ضد المسلمين، وإيعازه برسم الصليب على أشرعة السفن البرتغالية وملابس بحارتها، وغيرها من مظاهر الحقد الصليبي على العالم الإسلامي.^(٢)

يضاف إلى ذلك: العامل السياسي المتمثل في رغبة البرتغاليين بتأسيس إمبراطورية توسعية في آسيا وإفريقيا، وذلك بعد أن فشل البرتغاليون في توسيع حدود دولتهم البرية، فاتجهوا نحو البحر لزيادة نفوذهم السياسي والاقتصادي، وتم استحداث منصب نائب الملك في الهند سنة ١٥٠٥ تأكيداً لأهمية الوجود البرتغالي في المحيط الهندي.^(٣)

وفي حديثها عن أهمية الموازنة بين هذه الأهداف، وضرورة عدم الاقتصار على واحدة من تلك العوامل، ناقشت فوزية الجيب بأن:

«الرغبة القوية في تبرير حماس البرتغاليين ومآثرهم القتالية بالتعصب الديني قادت إلى تضيق الفتحة التي ينظر منها المؤرخون العرب إلى الأحداث التي رافقت الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج [العربي] أو نتجت عنه، وحكمت على جميع أشكال البحث بأن تتوقع داخل نظرية الحملات الصليبية ضد المسلمين».^(٤)

ورأت فوزية الجيب بأن هذه النزعة تؤدي إلى خسارة الكثير من عناصر التفسير الأخرى التي قد تساعد في فهم تطور الأحداث في تلك الفترة فهماً أكثر واقعية يساعد بدوره على كشف أسرار بعض الأحداث، وانتهت بعد مناقشة مطولة لدوافع الغزو البرتغالي إلى أنه:

(١) صلاح العقاد (١٩٧٤) التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة. ص ١٤.
 (٢) فتحية النبراوي ومحمد نصر مهنا (د.ت) الخليج العربي، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية. ص ١٠٧.
 (٣) بشير احمد كاظم (١٩٨٨) «حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها»، مجلة الوثيقة، ع ١٢، يناير ١٩٨٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
 (٤) فوزية الجيب (٢٠٠٣)، تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين ١٥٢١-١٦٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص ٢٢.

«على الرغم من غزارة الكتابات حول الهدف الصليبي للغزو البرتغالي، يبقى من الصعب على القارئ المتمعن بالأحداث الاقتناع بهذه النظرية طالما أن الغاية الأولى والواضحة للكشوف الجغرافية البرتغالية كانت الوصول إلى مصدر التوابل والأفاويه والعمل على احتكار تجارتها سواء على مستوى النقل أو البيع أو التوزيع»^(١).

ولكن القراءة المتمعنة للمصادر البرتغالية تدفعنا إلى مراجعة ما توصلت إليه الباحثة، والتأكيد على ضرورة عدم غض الطرف عن الدوافع الدينية التي كانت حاضرة طوال فترة الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي، بل إن الواقع هو أن الأهداف الاقتصادية بالنسبة للبرتغاليين لم تكن واضحة خلال تلك الفترة التي شهدت خلافات كبيرة بين فرنسيسكو دالميدا وأفونسو دلبوكيرك ولوبو سواريز في تحديد طبيعة السيطرة الاقتصادية على المنطقة؛ فقد ارتأى دالميدا ضرورة اتخاذ مركز قوي في الهند كقاعدة لشن هجمات على التجارة الإسلامية للقضاء عليها، في حين رأى دلبوكيرك بأن نشر سلسلة من المراكز التجارية التي تدعمها قوة عسكرية في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي هو السبيل الأمثل لفرض الوجود البرتغالي في المنطقة، بينما لجأ لوبو سواريز إلى استبعاد خطة حرفة التجارة الهند عبر رأس الرجاء الصالح وسعى إلى تنشيط تجارة الترانزيت عبر طرقها التقليدية في البحر الأحمر والخليج العربي. وقد أدت تلك السياسات إلى خلافات واسعة في البلاط الملكي بلشبونة، دفع ثمنها عدد من كبار المسؤولين البرتغاليين في الشرق.

أما الهدف الصليبي فقد كان واضحاً في أذهان البرتغاليين طوال فترة تواجدهم في الشرق، فالبرتغاليون لم يكتفوا ببسط هيمنتهم على موانئ الخليج العربي وفرض خضوع الزعامات المحلية للتاج البرتغالي فحسب، بل كانوا يعتبرون قتل المسلمين والتكامل بهم أعمالاً صالحة يتقرب بها إلى الرب. وهذا ما كانت ترسخه المصادر البرتغالية وتؤكد عليه لدى الحديث عن الحملات العسكرية على الموانئ الإسلامية.

والحقيقة التي لا يمكن نفيها هي أن التعصب الديني عند الأوروبيين كان يدفعهم بصورة مستمرة نحو الشرق ويزج بهم في أتون معارك عديدة منذ بداية الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر وحتى تاريخنا المعاصر.

فقد شنت أوروبا أكثر من عشر حملات صليبية في العصور الوسطى وفشلت جميع هذه الحملات في تحقيق أهدافها في مصر والشام، ولا شك بأن التوسع النصراني في

(١) المرجع السابق، ص ١٣٣.

الأندلس وطرده المسلمين منها فيما أطلق عليه مسمى: «حركة الاسترداد» كان يحمل أبعاداً صليبية، حيث أسبغت الكنيسة الكاثوليكية رعايتها الروحية على جهود الأمير هنري الملاح، وأعطته الحق الكامل لغزو الشعوب التي يسودها «أعداء المسيح».

وقد دفع الضغط العسكري للدولة العثمانية في شرق أوروبا البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) لإعداد مخطط لضرب المسلمين في عقر دراهم عن طريق إعداد حلف صليبي جديد، وكانت الرحلات الكشفية وسيلة فعالة للوصول إلى قلب العالم الإسلامي، وانتشرت في أوروبا أسطورة بطريرك مسيحي يسيطر نفوذه في الشرق ويحارب أعداء المسيح اسمه برستور جون (أو القديس يوحنا)، وساد الاعتقاد بأن الحبشة هي المملكة النصرانية التي سيتحالف الأوروبيون معها لضرب العالم الإسلامي، ويحث المكتشفون البرتغاليون بجد ومثابرة عن هذه المملكة وأقاموا الاتصالات مع الحبشة لأجل هذا الغرض، وكانت تلك المساعي تحظى بدعم الكنيسة في روما ومباركتها.^(١)

ويمكن القول بأن حركة التوسع البرتغالي في الشرق كانت أقرب إلى الهمجية وتغليب النزعة الصليبية من محاولة بسط الهيمنة الاقتصادية، فقد كانت دوافع الحقد الديني عاملاً محركاً لجميع القادة البرتغاليين في تعاملهم مع العالم الإسلامي، وسيطرت الروح الصليبية على ضباط البحرية البرتغالية الذين نشأوا في وقت كان الصراع فيه يدور على أشده بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أيبيريا فأشربوا في قلوبهم الرغبة في الانتقام من المسلمين، ويجسد هذه الحقيقة الضابط البحري أفونسو دلبوكيرك الذي استهل حياته العسكرية في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في المحيط الهندي.^(٢)

ففي بواكير مرحلة التوسع البرتغالي أظهر فاسكو دي غاما وحشية كبيرة في التعامل مع القوى الإسلامية بعد تمكنه من عبور رأس الرجاء الصالح، ولا أدل على ذلك من القصة التي يرويها أحد المصاحبين لحملة دي غاما الذي أمر باعتقال بحارين مسلمين بالقرب من ممباسا في أبريل ١٤٩٨، ولما حاولوا الفرار من الأسر، أمر دي غاما:

«بربطهما بالحبال ثم أمر بتعذيبهما بسكب زيت الزيتون الملتهب على جسميهما العاريين، حيث يياشر بالسكب على الظهر ثم الصدر ثم البطن ثم الأعضاء التناسلية، ثم قاموا بكسر كتف الأول، فلما علموا أنه يوشك أن يموت ألقوه في البحر، أما الثاني فقد

(١) راشد توفيق أبوزيد ووداد خليفة النابودة (١٩٩٨) تاريخ الخليج العربي، دبي، ص ٦٦.

(٢) جمال زكريا (١٩٨٥)، مرجع سابق، ص ٥٢.

مات في صباح اليوم التالي وألقوا بجثته في البحر أيضاً»^(١).

ولم تكن الحملة البرتغالية الثانية بقيادة بيدرو ألفاريز غابريال سنة ١٥٠٠ بأفضل في سجلها الإجرامي من حملة سابقه دي غاما، فعندما عبر غابريال رأس الرجاء الصالح، وتوجه منه إلى مدينة كاليكوت؛ أمر بالسفن العربية الراسية في الميناء فأحرقها بكل من فيها من البحارة العرب، وبعد أن غادر المدينة عثر على سفينتين عربيتين أخريين فقام بحرقهما في وسط البحر.^(٢)

أما الحملة البرتغالية الخامسة التي غادرت لشبونة في إبريل ١٥٠٤ بهدف دعم القوات البرتغالية في البحر الأحمر، فقد قام قائدها لوبو سواريز لدى وصوله إلى كوشين بالهند بجرد مساكن ومخازن من دخل المسيحية من الهنود، ولما تم له ذلك أمر جنوده بنهب وحرق مساكن المسلمين، وتمكنت سفنه من إلقاء القبض على سبع عشرة سفينة تحمل تجاراً مصريين ويمانيين فأمر بإغراقها بركابها.^(٣)

وتصل الوحشية الصليبية لدى البرتغاليين ذروتها في سنة ١٥٠٧، متمثلة في حملة أفونسو دلبوكيرك الشهيرة، والتي كان يتفاخر من خلالها بقتل المسلمين والتكليف بهم، معتبراً ذلك عملاً صالحاً، وقد صرح دلبوكيرك بأنه يهدف في حملته إلى تحقيق أمرين رئيسيين:

«أحدهما: تحويل مجرى النيل إلى البحر الأحمر لمنع وصول الماء إلى مصر ليجعل أرض السلطان التركي خراباً، والمشروع الثاني هو أن ينقل من مكة المكرمة عظام الكريه مافوما،^(٤) وذر رمادها علناً حتى يقتنع أصحاب هذا المذهب الغبي البغيض»^(٥).

وعندما سقط ميناء قلهاة العماني بيد دلبوكيرك في شهر أغسطس عام ١٥٠٧، لم يكتفي بحرق المدينة وهدم مسجدها، بل أمر جنوده بتعقب المسلمين الفارين:

«فأعملوا السيف في رقابهم رجالاً ونساء وأطفالاً وهم في طريقهم هاربين إلى المناطق الداخلية».

ثم صعد دلبوكيرك إلى التل ووجد فيه بعض المسلمين:

(١) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ١١٥ و ١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص.ص ١٢٧-١٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص. ١٣٥.

(٤) يقصد بذلك قبر الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك دليل على الحقد الصليبي الممزوج بالجهل حيث إنه لا يخفى على أحد أن قبر الرسول عليه الصلاة والسلام موجود في المدينة وليس في مكة.

(٥) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المجمع الثقافي، أبو ظبي. ٦٠/١.

«فأعمل فيهم السيف جميعاً ، وبقي فوق التل حتى الغروب حتى رتل دعوات المساء»!!!

«أما المسلمون الذين تم القبض عليهم فقد أمر بقطع أنوفهم وآذانهم وإرسالهم إلى هرمز ليكونوا شاهداً على ما حاق بهم من خزي»^(١).

وتزداد وتيرة الحقد الصليبي لدى دلبوكيرك وجنوده كلما توغل في الساحل العُماني ، فعندما وصل أسطوله إلى مدينة مسقط ، وانهارت تحصيناتها أمام نيران مدافعه ، دخل دلبوكيرك المدينة :

«وتابع حشداً من النساء كن يتراجعن إلى التلال وقتل منهن نسوة كثيرات ، بينما جمع جوار دانوفا عدداً قليلاً من الرجال وتعقب بعض المسلمين الذين احتموا في واد أدنى المدينة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، كذلك قتل النساء والأطفال الذين كانوا معهم ، من دون أن يبقي منهم أحداً ، فقد أعدمهم جميعاً في مجزرة هائلة».

ثم أمر دلبوكيرك رجاله بنهب المدينة وحرق مسجدها الكبير.^(٢)

ولدى اقتحام ميناء خورفكان أمر دلبوكيرك بتعقب السكان المحليين :

«وقتل من المسلمين خلقاً كثيراً ... أما بالنسبة للأسرى المسلمين من كبار السن ممن لا يصلحون للعمل فقد أمر أفونسو دلبوكيرك بقطع آذانهم وجذع أنوفهم ثم تخلية سبيلهم إذ كان لا بد أن يسم كل من أبقى علي حياتهم بهذه الطريقة».^(٣)

أما في هرمز فقد كانت المعركة حامية الوطيس ، ولم تصمد سفن الأسطول الهرمزي أمام مدافع البرتغاليين فغرق معظمها ، مما دفع بالبحارة المسلمين أن يلقوا بأنفسهم إلى البحر للنجاة بأرواحهم ، فلم يكن من المقاتلين البرتغاليين إلا أنهم :

«راحوا يطعنونهم بالرماح ويقطعون رؤوسهم بالسيوف فقتلوا منهم عدداً كثيراً جداً حتى تعب رجالنا لكثرة من قتلوا ، ولم يعودوا قادرين على إتمام مهمتهم كاملة بقتل كل السابحين فاستطاع بعضهم الإفلات بحياته ، واصطبغ البحر بلون الدم فغدا منظره مرعباً ، حتى خدم السفن لم يكن لهم عمل سوى طعن أجساد المسلمين تحت الماء بالكالليب وانتزاع أحشاهم فقتلوا منهم بهذه الطريقة خلقاً كثيراً ، بل إن خادماً واحداً قتل ثمانين مسلماً».

(١) المصدر السابق، ١٦٨/١-١٦٩.

(٢) المصدر السابق، ١٧٥/١-١٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ١٩٥/١-٢٠٠.

ويعلق دلبوكيرك على هذا الحدث بقوله:

«وقد استمرت المعركة البحرية بين رجالنا والمسلمين من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، وقتل فيها ما لا حصر له من المسلمين، ولم تخب طلقة واحدة مما قذفها رجال المدافع فهي إما هوت بسفينة إلى القاع أو أوردت رجالاً كثيرين موارد التهلكة، فقد كان ربنا مبهتجاً وهو يساعدهم»^(١).

وعندما بدأت تطفوا جثث الغرقى من المسلمين على سطح الماء بدأ الجنود البرتغاليون يسلبونهم ملابسهم وأسلحتهم المحلاة بالذهب والفضة، وكانوا سعداء بالحصول على هذه الغنائم السهلة، ولكن دلبوكيرك رأى في المسألة أمراً آخرًا:

«لقد بدا أن ربنا في يوم المعركة كان راغباً أن يحقق هذه المعجزة ليبري القباطنة الذين ترددوا في خوض غمار المعركة أن النصر الأكيد حليف لأولئك الذين يحاربون الكفار بإخلاص حقيقي»^(٢).

أما في قشم فقد تواجعت قوات دلبوكيرك مع السكان المحليين للسيطرة على موارد المياه فيها، وقتل البرتغاليون من السكان المحليين عدداً كبيراً، ولما دخل دلبوكيرك الساحة الرئيسية للمدينة:

«ورأى كم هي كثيرة دماء المسلمين، وكم هي كثيرة جثثهم بدأ في رفع صوته مادحاً القباطنة وكل الرجال الآخرين، مؤكداً أنه إذا استطاع سيده ملك البرتغال أن يرى قتلهم من هذه الشرفات لكان من المؤكد أن يكافئهم ... ثم أمر مجموعة من الجنود بركوب الخيل لاستكشاف المنطقة، وأن لا يرحموا أي شخص يقابلونه، فنفذوا الأمر وقتلوا مسلمين كثيرين كما قتلوا نساء وأطفالاً وجمعوا كل الماشية التي وجدوها»^(٣).

وقد وصلت الوحشية البرتغالية ذروتها عندما اقتحم دلبوكيرك بقواته مدينة جوا بالهند بعد أن تمرد سكانها عليه، وعلى شاكلة سابقه من القادة البرتغاليين كان دلبوكيرك يميز بين المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، فكان يخص المسلمين بأسوأ أنواع القتل والتكيل، بينما عفا عن الهندوس، وتصف المصادر البرتغالية الطريقة التي انتقم بها دلبوكيرك من المسلمين على النحو التالي:

(١) المصدر السابق، ٢٢١/١-٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢٤٩/١-٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ٣١٧/١.

«وبعد أن سلبت المدينة أمر أفونسو دلبوكيرك القباطنة والقادة بالتطواف في الجزيرة كلها وإعمال السيف في كل المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً، وألا يذروا منهم أحداً لأنه قد عقد العزم على ألا يبقى لهذا الجنس (أي المسلمين) بذرة في الجزيرة كلها، وهو لا يفعل ذلك لضمان أمن الجزيرة فحسب، حتى لا يبقى فيها غير الهندوس، وإنما عقاباً لهم لخيانتهم له عندما كانت الجزيرة في حوزته أول مرة أيضاً، وظل البرتغاليون يريقون دماء المسلمين الذين وجدوهم في الجزيرة دون انقطاع طوال أربعة أيام، ومن المؤكد أن عدد من قتلوهم من رجالهم ونسائهم وأطفالهم يزيد على ستة آلاف... وأمر أفونسو دلبوكيرك بحشد أحد المساجد بالمسلمين الذين أسرهم الهندوس وإشعال النار في المسجد وكان من بينهم مسيحي ترك مسيحيته وفر لمعسكر العادل خان عندما استولى البرتغاليون على جوا للمرة الأولى».

وفي أثناء ارتكاب الجنود البرتغاليين تلك المجرزة،^(١) حدث أمر غريب ذرفت منه عيون دلبوكيرك وملأت قلبه بالرهبة والخشوع...

لقد عثر جنوده على صليب من نحاس تحت جدران أحد بيوت المدينة أثناء تهديمها:

«وفي هذه الأثناء كان بعض الرجال يعملون في هدم بعض الجدران القديمة للحصول على أحجارها لاستخدامها في أعمال الدفاع فاكتشفوا في أساس الجدران صليباً من نحاس، فلما انتشر خبر هذا الصليب خلال المدينة أقبل على التو أفونسو دلبوكيرك ومعه كل رجاله ورجال الدين المسيحي الذين كانوا معه وحملوا الصليب بعاطفة جياشة والدموع تذرف من عيونهم مدراراً ونقلوه إلى الكنيسة... وساد الاعتقاد بأن ربنا قد أنزل هذا الصليب من السماء كعلامة على أن مشيئته هي أن تكون جوا ملك البرتغال وليس للعادل خان وأن مساجد المسلمين لا بد أن تصبح كنائس يعبد فيها اسمه... وكان البرتغاليون يعتقدون بأن الرب كان يساعدهم في معركة جوا، بل إن القديس سانكتياجو قد نزل من السماء بدروع لامة وهو يحمل الصليب، وكان يتقدم القوات المسيحية في قتل المسلمين».^(٢)

وعلى إثر الانتصارات الكبيرة التي تحققت للبرتغاليين في الشرق، قام الملك البرتغالي مانويل الثاني بإرسال خطاب للبابا ليو العاشر يعرض فيه إنجازات البرتغاليين ضد «أعداء

(١) لا يختلف نمط البرتغاليين في الانتقام الجماعي من المسلمين والتنكيل بهم مع الطريقة التي دخل بها الصليبيون بيت المقدس في القرن الحادي عشر؛ إذ يروي الراهب روبرت الذي مصاحباً للحملة الصليبية آنذاك ما رآه وشاهده بنفسه قائلاً: «وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرؤوا غليلهم من التقتيل... وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستيقنون إنساناً، وكانوا يشنفون أناساً كثيرين بحبل واحدة بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون على كل شيء، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجنث». غوستاف لوبون (١٩٦٤) حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، القاهرة. ص ص ٣٢٤-٣٢٧.

(٢) عبد الرحمن الشيخ (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٧٢/٢-٦٩.

المسيح»، فسعد البابا لذلك كثيراً، ومن فرط سروره أمر بتسيير موكب اشترك فيه بنفسه في شهر أكتوبر ١٥١٣، تقديراً لهذه الجهود.^(١)

لقد أدت الحملات الدموية التي شنّها دليوكيرك على البحر والأحمر والخليج العربي طوال الفترة ١٥٠٧-١٥١٥ إلى إضعاف حركة التبادل التجاري على مستوى قارات العالم القديم، ولم يكن ذلك سبباً في إضعاف اقتصاد القوى الإسلامية فحسب بل إن الاقتصاد البرتغالي قد تأثر كثيراً من هذه الحملات التي كانت كلفتها باهظة ولكنها لم تعد على الخزانة البرتغالية بمردود يتناسب مع حجم الإنفاق، وذلك لأن الرغبة في الانتقام من المسلمين قد تغلبت على التفكير السوي عند دليوكيرك وجنوده، وأعمتهم عن إدراك المغزى الاقتصادي لحملتهم العسكرية. وعندما أدرك الملك مانويل الثاني عقم هذه السياسة، وما تسببت به من خسائر للاقتصاد البرتغالي اتخذ قراره الشهير بعزل دليوكيرك عن منصب نائب الملك سنة ١٥١٥، وقام بتعيين لوبو سواريز خلفاً له وحثه على تبني نمط جديد في التعامل مع القوى الإسلامية والتخفيف من غلواء سياسة البطش، والعمل على إعادة تنشيط الحركة التجارية في الخليج العربي، لإصلاح ما أفسده دليوكيرك وجنوده بسياساتهم الرعناء.

وعلى الرغم من إدارك الملك مانويل ما يسببه التعصب الديني من أضرار على اقتصاد مملكته واستقرارها، إلا أن روح الحقد الصليبي ومشاعر الضغينة ضد المسلمين، كانت راسخة في نفوس القادة البرتغاليين من بعده، وقد استمرت هذه المشاعر بالتسبب في كوارث كبيرة على الإمبراطورية البرتغالية الشرقية، ولا يمكن النظر إلى الأحداث في الخليج العربي آنذاك في معزل عن التطورات السياسية في البرتغال، فعندما توج دوم سباستيان (١٥٥٧-١٥٧٨) ملكاً على البرتغال عقب وفاة والده دون جوان الثالث (١٥٢١-١٥٥٧) قام بجولة في أرجاء مملكته، ثم التقى بمجموعة من الرهبان وجنود هيكل الرب وأمضى عندهم عدة خلوات، ثم صارحهم برغبته في القضاء على الدولة السعودية في المغرب، وتوجه إليهم متسائلاً: «هل أنتم مستعدون للموت في حب يسوع؟»، فأجابوه بصوت واحد: «قسماً بالله إننا مستعدون أيها الملك، في سبيل الانقضاء على الحيوان الكافر».

وكانت هذه الحادثة إيذاناً ببداية الحملة البرتغالية على الدولة السعودية والتي انتهت بمقتل الملك سباستيان في معركة وادي المخازن الشهيرة في أغسطس ١٥٧٨.^(٢) وفي غضون ثلاث سنوات من تلك الحادثة فقدت مملكة البرتغال استقلالها لصالح التاج الإسباني،

(١) المصدر السابق، ٢٤٧/٢-٢٦٣.

(٢) فالخ حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص.ص ٣٨٢-٣٨٣.

فبعد أن كان دوم سباستيان يعد أتباعه بالقضاء على أعداء اليسوع: «بالنار والحديد، وبنار المدافع والبنادق، وبحد السيف»، تكبدت القوات البرتغالية خسائر باهظة قدرت بحوالي أربعة عشر ألف قتيل وما يزيد عن عشرين ألف أسير، وأدت هذه السياسة الرعناء إلى مقتل الملك سباستيان، وانهيار مملكته، وتفكك مستعمراتها في الشرق، والتي أصبحت منذ ١٥٨٠ في عهدة التاج الإسباني.^(١)

ب- ضعف الإدارة البرتغالية في الشرق واستشراء الفساد

أدت ظاهرة الاعتماد على المصادر الأوروبية بصورة أساسية في كتابة تاريخ البحرين الحديث إلى تبني روايات تاريخية تختلف مع واقع الأحداث، بحيث أخذ المستعمر الغربي يظهر بمظهر المطور والمحدث للشعوب الإسلامية المتخلفة والمتصارعة فيما بينها، والحقيقة هي أن الغزو البرتغالي لم يكن يحمل في طياته جذور التحديث والتطوير، بل كان الفساد الإداري والمالي من أهم ملامح الامبراطورية البرتغالية الشرقية.^(٢)

والحقيقة هي أن البرتغاليين لم يتركوا الكثير من الآثار الحضارية في منطقة الخليج العربي، وإنما تسرد لنا مصادرهم ولوغ كبار قادتهم في الفساد وسوء الإدارة والتدبير. ووصلت الخلافات بينهم إلى حد تقاذف الاتهامات بالخيانة والمواجهة فيما بينهم بالسيوف، وذلك منذ المراحل الأولى من الغزو البرتغالي؛ فقد واجه دلبوكيرك تدمراً واسعاً من ضباطه وقباطنة سفنه عقب استيلاءه على هرمز سنة ١٥٠٧، واتهم من قبلهم بالخيانة وسرقة غنائم المعركة والسعي لبناء أمجاد الشخصية.^(٣) ولما أمرهم دلبوكيرك بالاستعداد لمواجهة عسكرية مع أسطول محلي بالقرب من هرمز قام القبطانان لوبيز دا كوستا ومانويل تيليز بالتخلي عن المهمة وانسحبوا بسفينتيهما وغادرا باتجاه الهند دون معرفته، وكانت هذه الحادثة سبباً في وقوع خلافات كبيرة بين دلبوكيرك وبين نائب الملك فرنسيسكو داميدا، وانتهى ذلك الخلاف بعزل داميدا وتعيين دلبوكيرك نائباً للملك سنة ١٥٠٩، وذلك بعد أن كان قد أصدر كلاً من القائدين مذكرة باعتقال الآخر، ولم يفصل بينهما سوى

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦٧.

(٢) انظر على سبيل المثال تقييم ناصر الخيري للوجود البرتغالي في البحرين بقوله: "فأصلحوا الري وغمروا الأراضي بالماء العذب، وحسنوا حالة البلاد الزراعية تحسیناً عظيماً، فزرعوا فيها الحنطة والشعير والقطن وجلبوا إليها أنواع أصول الفواكه من الهند وغيرها فترفعت الحالة الزراعية وصدرت منها المحصولات إلى بلاد الهند وغيرها بالمقادير الكبيرة". ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري (2003) *قلائد البحرين في تاريخ البحرين*، تقديم ودراسة عبد الرحمن بن عبد الله الشقيير، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين. ص.ص 195-196. ويمكن الاطلاع كذلك على ما كتبه محمد التاجر حول الإنجازات المزعومة للبرتغاليين في البحرين بقوله: "وتوحد هؤلاء بحكم البلاد الوافر والخير الكثير وحسنوا حالة مغاص اللؤلؤ وسهلوا أسباب إخراجهم ورتبوا أوزانه وقدروها وأصلحوا الأراضي وشجعوا الزراعة فزرعوا فيها القطن والحنطة والشعير والرز وشادوا فيها القصور العالية والحدائق الغناء الناضرة وجلبوا إليها أنواع الفواكه والأزهار وغير ذلك". محمد علي التاجر (1994) *عقد اللؤلؤ في تاريخ أوال*، إعداد وتقديم إبراهيم بشمي، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين. ص.94.

(٣) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) *السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك*، مصدر سابق، ٢٩٦-٢٦٦/١.

مبعوث الملك الذي جاء بخطاب عزل داميدا.^(١)

وعندما علم أفونسو دلبوكيرك في شهر ديسمبر ١٥١٥ بورود تعليمات من الملك البرتغالي مفادها عزله عن منصب نائب الملك وتعيين لوبو سواريز خلفاً له، أدرك بأن أعداءه قد أصبحوا أكثرين في البلاط الملكي بلشبونة، فرفع يديه إلى السماء وصاح: «في ظل أناس سيئين أفسدوا الملك، وفي ظل ملك سيء أفسده الرجال، من الأفضل أن تأخذني يا رب». وما لبث أن وافته المنية بعد أيام قليلة من تلك الحادثة، وتم دفنه في الكنيسة التي شيدها بجوا.^(٢)

وما لبث أن انتشر الفساد بصورة أوسع في عهد لوبو سواريز ومن جاء بعده من نواب الملك، ولازمت هذه الظاهرة الإدارة البرتغالية طوال فترة تواجدها في الشرق، فكان الضباط البرتغاليون يعمدون إلى نهب السكان المحليين وتخريب الموانئ التي ينزلون فيها، وأدين الكثير منهم بتهمة سرقة أموال الخزانة الملكية، حيث وجهت هذه التهمة بصورة خاصة إلى نحو خمسة من نواب الملك في الهند. ويمكن العثور في الأرشيف البرتغالي على عدد كبير من الوثائق التي تصور حالة الفساد التي لازمت الامبراطورية البرتغالية الشرقية طوال القرن السادس عشر؛ ففي خطاب موجه إلى نائب الملك بجوا بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٥١٩، اشتكى وزير هرمز شمس الدين من تعدي البرتغاليين على سفنه وأملاكه على الرغم من ولاءه المطلق لهم، وورد في ذلك الخطاب قوله:

«ولكن عن قريب خرجوا من بندر هرموز مراكب تخص لرعيتي وساكنين في بندركم هذا، وكانوا مسافرين على بندر آخر في الساحل، ولأجل الأمان والاطمئنان من ناس مراكيكم أعطيتهم خطأ بيدي لكي يعرفوا أنهم رعيتي، وبعد ما خرجوا من البندر المذكور أخذوهم وأتوا بهم إلى كوا، وأهل المال جاءوا يشتكون لي ولاموني بذلك، قائلين: إنهم ما خرجوا من البندر إلا تحت أمانني الذي أعطيتهم، وبسبب الوقعة التي صارت لهم وشكاوتهم عرضت عليكم هذه العريضة، وأنا يا سيدي ما أريد إلا عمار البلاد وزيادة المتجر فيه، وإن كانت هذه محبتك لي وعهدك معي فأعلمني بخاطرك لأن بعد هذه المصيبة تركوا التجار بندري ولا يصل إليه أحد، وأنا كل جهدي في عمارة البلاد وقبول الناس فيه، ورفع الظلم والجور عن الرعية، لو ما كان هذا اعتباري لكانت خربت البلاد، فلأجل ذلك والحصرة التي أخذتها نفسي كتبت لك هذا الكتاب لتعلم الظلم الذي فعلوه ناسك مع أنفاري وخدامك، وهذا البلاد بلادك، فإن سمحت أن تفعل به أفعال

(١) المصدر السابق، ٣١٩/١-٣٢٢.

(٢) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٦٦١/٢.

قبيحة مثل هذا لا بد أن يخرب ويتغير خاطر الجميع، لأن هذا شيء يجلب العيب علينا وأنت عالم ولا يخفى عليك أفعال المكروهة التي فعلوها ناسك قبل هذا، وأنا ساكت على حالي حتى يأتيني جوابك لأن أعدائي يضحكون علي قائلين هذه سواف محبة الري دون منويل لكولتري، وأنا مستحي منهم ومنكم أكثر لأنني خديمك وما أريد إلا بياض وجهك ورفع جاهك، وإن كان ناسك يستطيعون في بندري على أفعال مثل هذه فقد تمت محبتنا، وأخيراً لا أستريح ولا آكل ولا أشرب إلا متى يأتيني جوابك وأعرف بخاطرك والسلام، في ٢٨ من جمادى سنة ٩٢٥ للهجرة، الخديم لك بالعبادة شمس الدين»^(١).

ولم تكن سيرة البرتغاليين في الهند أفضل من سيرتهم في هرمز، فقد وردت العديد من المخاطبات التي وجهها الزعماء المحليون في المنطقة يشتكون من الفظائع التي يرتكبها الجنود البرتغاليون في بلادهم، ومن ذلك ما كتبه قائد حامية هرمز كريستاو دي مندوسا في خطاب إلى الملك دون جوان الثالث بقوله:

«لقد سبق لي إشعار جلالتك بالضرر الذي ينتج عن مجيء الولاة إلى هنا فمنعتم ذلك عليهم، ولم تسمحوا بمجيئهم إلى هرمز إلا في حالة الضرورة، لذا فإنهم يأتون إليها جميعاً. أعود مرة أخرى لتذكير جلالتك أنه لا يوجد شيء أخطر على مصالحكم من ذلك، لأن مجيئهم هذا يؤدي إلى إفراغ هرمز من جل سكانها، لأنهم يستولون على الدور التي ما إن يدخلوها حتى يحرقوا أبوابها ويخربوها، وكلما تحطم شيء ما لا يهتمون بإصلاحه قط، فضلاً عما يلحقونه بالمسلمين من أضرار وأذى، الأمر الذي ينبذه كل الأجانب، إلا أن أي أحد لا يقدر على معاقبتهم لكثرتهم»^(٢).

والحقيقة هي أن تهم الفساد والتلاعب المالي لم تكن تقتصر على صفار الضباط بل كانت تتعداهم لتشمل أعلى المناصب في جوا متمثلة في منصب نائب الملك، ففي ديسمبر ١٥١٨ عزل الملك البرتغالي نائبه في الهند لوبو سواريز وعين مكانه ديجو لوبيز دي سكويرا (١٥١٨-١٥٢٢)، وذلك عقب أنباء عن تلاعبات مالية قام بها سواريز^(٣). وفي فترة تولي سكويرا تؤكد المصادر بأن البرتغاليين قد اكتسبوا سمعة سيئة في أوساط السكان المحليين، بسبب قيامهم بالسلب من خلال سيطرتهم على إدارة الجمارك، مما

(١) فالخ حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٤١٧-٤١٩. نقلاً عن مجموعة الوثائق العربية المحفوظة بالأرشيف البرتغالي بعنوان:

Documentos Arabicos Para Historia Portuguesa

(٢) خطاب من حاكم قلعة هرمز كريستاو دو مندوسا إلى نائب الملك في جوا، بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٥٢٩، نشر في: أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد ٤، يوليو ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ص ١٢٨-١٣٢.

(٣) فالخ حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

دفع بالهنود إلى إرسال شكاوى إلى ملك البرتغال فقام الملك باستبداله بحاكم جديد هو دوارت دي منزيس (١٥٢٢-١٥٢٤)،^(١) ولم يكن دي منزيس أفضل سمعة من سابقه إذ يصفه أحد المؤرخين البرتغاليين بقوله:

«إن أساليب دي منزيس وطريقة حكمه كانت غير مرضية أبداً، فقد بدا بأن غرضه الرئيس من وجوده على رأس السلطة هناك هو جمع الأموال لنفسه فقط، وقد نجح في هذا المسلك مما أدى إلى انحلال الضباط في المعسكرات والقلاع العسكرية، كما أن نظام المحاكم والعدالة أصيبا بالفساد والخراب، وقد وصفه فاسكو دي غاما قائلاً: إن دي منزيس أضحى فضيحة البرتغال».^(٢)

ونتيجة لذلك فقد تم عزل منزيس الذي رفض العودة إلى البرتغال، وفضل البقاء في هرمز حيث أخذ يعمل في مجال التجارة هناك. ويبدو أن البلاط البرتغالي قد عجز عن السيطرة على أطماع القادة البرتغاليين في الشرق، حيث تزايدت وتيرة الشكوى والتذمر من قبل السكان المحليين مما أدى إلى تأجيج الثورات وحركات التمرد ضد الوجود البرتغالي في الشرق، وللتعامل مع هذه الحالة وصل إلى الهند في شهر نوفمبر ١٥٢٩ نائب جديد للملك هو نونو دا كونها (١٥٢٩-١٥٣٨)، فكان أول ما فعله: اعتقال نائب الملك السابق لوبو فاز (١٥٢٦-١٥٢٩) وتوجيه تهمة التلاعب بأموال الدولة إليه ومن ثم أرسل لوبو فاز مخفوراً إلى لشبونة.

وبعد أن قضى داكونها عشر سنوات في منصبه، وصل إلى الهند حاكم جديد هو دون غارسيا دي نورونها، الذي بادر إلى توجيه اتهامات إلى سابقه دا كونها بالتلاعب في أموال الدولة، وأمر بحجزه ثم أجبره على العودة إلى لشبونة على ظهر سفينة نقل عادية وبصفة راكب برتغالي عادي، ويبدو أن الإهانة التي لحقت بدا كونها وخوفه من مواجهة الملك قد قضت عليه إذ مات وهو في طريق العودة إلى البرتغال.^(٣)

وعندما خضعت مملكة البرتغال للتاج الإسباني سنة ١٥٨٠ تم تعيين دون فرنسيسكو دي فيللا بمنصب نائب الملك للهند ممثلاً السلطة الإسبانية والبرتغالية في آن واحد، فكان أول إجراء يقوم به لدى وصوله إلى الهند هو مهاجمة العديد من الموانئ والمدن الهندية منزلاً بأهلها أنواعاً من القتل والحرق والتدمير بهدف فرض استعادة الهيبة للحاكم هناك، بعد أن تفشت الرشوة بين الحكام البرتغاليين، وهيمن على الجهاز الإداري مجموعة من الضباط

(١) المرجع السابق، ص ٣١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٧ و ٣٥٧-٣٥٨.

الذين انخرطوا في التجارة مستغلين مناصبهم الرسمية، وكان هؤلاء الضباط يتلهفون للظفر بمنصب حاكم قلعة هرمز، لأن دخل الحاكم الخاص بها كان مرتفعاً فأصبحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بعلم المسؤولين أنفسهم، وقد أدى ذلك التراخي وانتشار الفساد إلى هبوط تجارة البرتغال بصورة ملحوظة في النصف الثاني من القرن السادس عشر.^(١)

ونتيجة لانشغال البرتغاليين بمحاولات يائسة لإصلاح جهازهم الإداري فإنهم لم يتركوا الكثير من الآثار العمرانية التي تدل على اهتمامهم بالأقاليم التي خضعت لنفوذهم في القرن السادس عشر، ولم تترك لنا مصادرهم سوى روايات لا تحصى عن الحقد الصليبي الدفين الذي كان يكنه الغزاة البرتغاليون تجاه السكان المحليين، وتفاخرهم بحجم الدمار الذي ألحقوه في موانئ الخليج العربي باعتبار ذلك من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى اليسوع!

بل إن مشاعر الدونية تجاه الغرب - والتي ورثتها ثقافة التدوين التاريخي عن الكثير من الكتاب العرب، قد دفعت ببعض المؤرخين إلى نسبة قلعة البحرين إلى البرتغاليين والادعاء بأنهم هم الذين عملوا على تشييدها،^(٢) علماً بأن القلعة كانت قائمة خلال العصور القديمة والإسلامية، وقد قام بترميمها في القرن السادس عشر حاكم البحرين المخضرم جلال الدين مراد شاه، ولا بد من الاعتراف بأن تقييم بعض المؤرخين المحليين لإنجازات البرتغاليين في البحرين مبالغ فيه بصورة كبيرة، وينبع ذلك من عدة عوامل أبرزها عدم فهم طبيعة النفوذ الذي مارسه البرتغاليون على مياه الخليج العربي.

ج- السيطرة المحدودة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للمستعمرات

نتلخص الرواية الشائعة لتاريخ البحرين في القرن السادس عشر بأن البرتغاليين قاموا في سنة ١٥٢١ باحتلال البحرين التي بقيت تحت نفوذهم حتى سنة ١٦٠٢ عندما هاجمها الصفويون وأنهوا الوجود البرتغالي فيها.^(٣)

(١) مصطفى عقيل الخطيب (١٩٨١) التنافس الدولي في الخليج العربي، بيروت. ص ٥٥.
(٢) انظر على سبيل المثال، جمال زكريا (١٩٨٥) مرجع سابق، ص ٥٢، وورد فيها: «وإلى أفونسو دلبوكيرك ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التي وصفت بالحصون التي لا تقهر في كل من هرمز ومسقط والبحرين، ولا تزال هذه الحصون باقية إلى يومنا هذا»، وإذا أخذنا في الاعتبار أن أفونسو دلبوكيرك قد مات سنة ١٥١٥، ولم تطأ قدماه أرض البحرين، فما هو المسوغ أن ينسب له بناء قلعة البحرين التي كانت موجودة منذ العصور القديمة في البحرين، وهل يستحق منا دلبوكيرك كل هذه الإشادة التي تصل إلى حد نسبة إنجازات له في الحقيقة من إنجازات شعب البحرين وجزء من تراثه العريق؟ ثم ينتقل المصنف في ص ٦٧ ليتحدث عن الغزو البرتغالي للبحرين سنة ١٥٢١، قائلاً: «وتم تعيين حاكم من هرمز على البحرين يستند على جامية برتغالية، وفضلاً عن ذلك فقد بادر البرتغاليون ببناء قلعة ضخمة في الجزيرة الكبرى لا تزال أطلالها قائمة حتى يومنا هذا»، علماً بأن المؤلف في ص ٧٧ من الكتاب نفسه يشير إلى وجود قلعة البحرين قبل قدوم البرتغاليين؛ حيث يسوق نص ابن إياس الذي يتحدث فيه عن تملك البرتغاليين لقلعة البحرين بعد قتلهم مقرن بن زامل، والتي يقول فيها ابن إياس: «وملكوا قلعته التي هناك».

(٣) انظر على سبيل المثال: عبد الله بن خالد الخليفة وعلي أبا حسين (٢٠٠٥) مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ٢٢٣، والذي ورد فيه: «ثم أرسل أفونسو دلبوكيرك القائد أنطونيو كوريا ١٥٢١، فاحتل البحرين وبقيت تحت

وقد أوقع المضي على هذا النسق من السرد التاريخي العديد من المؤرخين في جملة أخطاء من أبرزها؛ تصوير البحرين وكأنها كيان جزري لا إرادة له، فلا يكاد يخرج من نفوذ سلطة استعمارية حتى يدخل في سيطرة قوة استعمارية أخرى، وبالتالي فإن العديد من الروايات التاريخية المعاصرة تنظر إلى تاريخ البحرين من خلال: الاستعمار البرتغالي، ثم الهيمنة الصفوية، التي تبعتها نظام الحماية البريطانية في القرن التاسع عشر.

وتعمد هذه النظرة إلى إهمال دور أهل البحرين عبر مختلف العصور، وعدم دراسة دور قياداتها التاريخية في التعامل مع الأطماع الإقليمية والدولية، مما يفوت على البحث العلمي فرصة مهمة لدراسة نظم الحكم والإدارة المحلية عبر العصور الحديثة بصورة أكثر تفصيلاً.

ولتعويض ذلك النقص الكبير في التأريخ لجزر البحرين خلال العصور الحديثة، يلجأ بعض المؤرخين إلى الإسهاب في ذكر دور القوى الاستعمارية، والتوسع في الحديث عن قادتها وسياساتهم في المنطقة. بل إن الأخطر من ذلك كله هو أن يعتبر المؤرخ العربي التفاصيل الدقيقة من التاريخ الاستعماري لكل من البرتغال وإسبانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا جزءاً من تاريخ البحرين الحديث، وهذه النظرة القاصرة تفقد تاريخ البحرين (بصورة غير مباشرة) الكثير من عناصره الأساسية، وتوقع المؤرخ في مأزق تفصيل تاريخ المستعمر وإنجازاته الوهمية في المستعمرات باعتبارها جزءاً من تاريخ البحرين الحديث.^(١)

ومن ناحية أخرى فإن عدم فهم طبيعة الغزو البرتغالي قد تسبب في خروج بعض المؤرخين بافتراضات غير دقيقة، ومن ذلك الادعاء بأن البحرين قد خضعت خلال الفترة ١٥٢١-١٦٠٢ لاحتلال برتغالي مباشر، وهذه النظرة تحتوي على كثير من الأخطاء؛ فالقوى الاستعمارية الغربية كانت قوى بحرية ولم تكن في مراحلها المبكرة تسعى لتحقيق التوسع البري، فقد كان البرتغاليون يدركون محدودية قدراتهم المتمثلة في: قلة العنصر البشري، وعدم معرفتهم بالموانئ والجزر التي كانت سفنهم توصلهم إليها للمرة الأولى، بالإضافة إلى أن نمط تسليحهم كان يفرض عليهم عدم التوغل لمسافات تبعد كثيراً عن مدى مدافع سفنهم، ومراكز إمداداتهم.

النفوذ البرتغالي حتى ١٦٠٢». علماً بأن أفونسو دلبوكيرك كان قد توفي سنة ١٥١٥، أما نائب الملك البرتغالي الذي أصدر أوامره لأنطونيو كوريا بغزو البحرين فهو: ديبجو لوبيز دي سكويرا (١٥١٨-١٥٢٢).

(١) قد يفهم من ذلك بأن الباحث يدعو لتجاهل دور القوى الاستعمارية في تاريخ الخليج العربي والبحرين بصفة خاصة، والحقيقة هي أنه لا يمكن إنكار دور القوى الاستعمارية في تاريخ المنطقة، إلا أنه في المقابل لا بد من نقصي ما قامت به القوى المحلية لمواجهة المد الاستعماري، خاصة وأن دور المستعمر في الإدارة المحلية كان محدوداً ولا يتجاوز في أغلب الحالات مهمة قبض الإتاوة السنوية كدليل على خضوع القوى المحلية للسلطة الاستعمارية.

وقد أدرك الملك مانويل الثاني عدم قدرة أساطيله البحرية على التوغل البري فأوعز إلى أفونسو دلبوكيرك أن يسعى إلى السيطرة على الموانئ والجزر الاستراتيجية في المحيط الهندي وبحر العرب ويشيد فيها القلاع والحصون، ومن ثم يقوم بانتزاع اعتراف الحكام المحليين بالبرتغال كسلطة مهيمنة، ولتحقيق ذلك المشروع، كان لا بد من تدمير الأساطيل المحلية والتخلص منها، وتقييد حركتها التجارية من خلال الإغارة على السفن المحلية المبحرة نحو الهند.^(١)

إذن فالامبراطورية البرتغالية الشرقية كانت تقوم على قوة أساطيلها البحرية ولم تكن دولة استعمارية تهدف إلى إنشاء مستوطنات لها من خلال الامتداد البري في آسيا أو إفريقيا. وقد أدرك القادة البرتغاليون في وقت مبكر بأن بسط سيطرتهم على البحار والكيانات الجزرية لا يمكن أن يقوم على الاحتلال العسكري للأقاليم، فالأساطيل البحرية لا يمكن أن تحافظ على تواجد قوات في البر لفترة طويلة من الزمان، بل يتوجب عليها اللجوء إلى تقنيات أخرى للإبقاء على سيطرتها كاستخدام السلاح الاقتصادي والاستيلاء على المضائق وغيرها من المواقع الاستراتيجية بغية اتخاذها قاعدة لتسيير الدوريات.

وبعد السيطرة على المعابر المائية تعمد القوى الاستعمارية إلى منع سفن خصومها من ممارسة التجارة، وتمنع وصول البضائع إلى موانئها، مما يؤدي إلى خنقها اقتصادياً، ويدفع بها إلى الإذعان والتسليم بالشروط الاستعمارية التي عادة ما تتمثل في دفع إتاوة سنوية وتقديم تسهيلات جمركية دون اللجوء إلى الاحتلال المباشر الذي لا تستطيع القوى البحرية فرضه على الجزر بصورة خاصة.

وتشير العديد من الوثائق البرتغالية لتلك الفترة إلى أن الضباط البرتغاليين كانوا يدركون حقيقة عجزهم عن فرض احتلال طويل الأمد على الجزر النائية عن مراكزهم الرئيسية، ولذلك فإنهم قد اكتفوا بالحصول على إتاوة سنوية من البحريين دون محاولة فرض احتلال طويل الأمد عليها، وفرض الحكام عليها،^(٢) لأن ذلك متعذر عليهم من حيث قلة العدد وصعوبة الوصول إلى مراكز الإمداد وعدم توفر القوة العسكرية الكافية التي تسمح بتواجد بحري وبري متزامن ومكثف لبسط السيطرة على الجزر والمدن الساحلية وهذا أمر لا يمكن تخيله.

(١) جمال زكريا (١٩٨٥) مرجع سابق، ص ٥٢.

(٢) نتحدث المصادر البرتغالية في القرن السادس عشر بأن نواب الملك في الهند كانوا يحذرون قباطنتهم من مغبة تفكيك أساطيلهم محدودة العدد، وتقسيمها على موانئ الخليج وجزره لأن ذلك سيضعف قواهم ويحد من قدرتها على مواجهة الأخطار، وسيأتي فيما بعد التفصيل بأن البحريين لم تخضع للاحتلال البرتغالي في أي وقت من الأوقات، وإنما تعرضت لحملة عسكرية خاطفة انتهت بإعادة تنصيب حكام محليين متعاونين بعد التخلص من الزعامات المتمردة، ومن ثم استحداث ترتيبات جمركية تهدف إلى ضمان إيرادات كافية تغطي قيمة الحملة وتحقق الجدوى منها.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن البرتغاليين كانوا أول قوة أوروبية تصل إلى المحيط الهندي عبر رأس الرجاء الصالح، فلا بد من التأكيد على أن أساطيلهم قد اعتمدت نمطاً فريداً لتحقيق سيطرتها في المحيط الهندي، وقد استفادت القوى الغربية الأخرى من هذا النمط الذي أصبح مثلاً يحتذى في بسط الهيمنة البحرية.

فقد انتهج البرتغاليون أسلوب شن الحملات الدموية التي تهدف إلى تدمير أساطيل القوى المحلية وبث الخوف والرعب في نفوس السكان المحليين، وبعد توطيد وضعها في هرمز قامت بفرض حظر على المتاجرة بالأسلحة.^(١)

ولتثبيت وضعهم في المنطقة فرض البرتغاليون على القوى المحلية توقيع سلسلة معاهدات تمنحهم امتيازات تجارية وإعفاءات جمركية، وتزامن ذلك مع تعيين وكلاء تجاريين في المناطق الخاضعة لهم، وبذل جهود لفرض السيطرة على الجمارك بصورة مباشرة.^(٢)

وفي المرحلة الثالثة من بناء الامبراطورية الشرقية قام البرتغاليون بتأسيس نظام للحركة الملاحية في الخليج العربي من خلال حمل جميع السفن للحصول على الرخص والجوازات التي تمنحها سلطتهم في هرمز، وكان هذا الإجراء في ظاهره يمثل محاولة تنظيمية للحركة الملاحية في الخليج العربي، ولكنه في الحقيقة كان يهدف إلى إخضاع الحركة الملاحية بأسرها للسلطة الاستعمارية واحتكار حق ممارسة النشاط المسلح لسحب الشرعية من أي مقاومة لأطماعهم.^(٣)

ولا بد من التأكيد على أن البرتغاليين المتواجدين في المراكز التجارية الرئيسية الخاضعة لسلطتهم لم يكونوا في الحقيقة حكاماً على تلك الأقاليم وإنما كانوا مسؤولين عن حفظ الأمن البحري ومراقبة حركة الملاحة وحراسة القلاع التابعة لهم، وتوصيل المعلومات بالإضافة إلى قبض الجمارك، أما الحكم والإدارة المحلية فكان يعهد بها إلى الزعماء

(١) نصت الاتفاقيات التي وقعت مع القوى المحلية على حظر السلاح عن السكان المحليين أو إجراء تجارب على أسلحة نارية من قبل الأهالي المسلمين، وفي أعقاب القضاء على تمرد تورانشاه في هرمز سنة ١٥٢١ قام البرتغاليون بحملة لنزع الأسلحة من جميع السكان المحليين، وحظر حمل السلاح إلا على عدد محدود من رجال البلاط بغرض جراسة الملك الجديد. وعندما علمت السلطات البرتغالية بأن الزعيم المحلي في البصرة راشد بن مغماس كان لديه ست سفن مسلحة تسليحاً جيداً بالمدافع وتضم ٥٠ مقاتلاً عثمانياً، طلب البرتغاليون منه تسليمها ولما رفض الإذعان لهم قاموا بحرق المستوطنات الواقعة على الساحل المجاور للبصرة. صالح أوزبران (١٩٧٩) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عبد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة. ص.ص ٢٢-٢٥.

(٢) في سنة ١٥٢١ أمر مانويل الثاني بتعيين موظفي جمارك برتغاليين وعندما قاوم تورانشاه هذا القرار وأعلن تمرداه قام البرتغاليون بالقضاء على تمرده وعين ابنه محمد شاه عقب مقتله حاكماً على هرمز، ثم رفعت الضريبة من خمسة عشر ألف أشرفي إلى خمسة وعشرين ألفاً، واستمرت في تزايد إلى أن تجاوزت مبلغ مائة ألف أشرفي في منتصف القرن السادس عشر.

(٣) بعد القضاء على تمرد هرمز سنة ١٥١٥ استحدثت دلبوكيرك نظام إصدار التصاريح وفق نظام الجوازات الذي سنته الحكومة البرتغالية في الهند، حيث تحصل أي سفينة على جواز مرور عبر الموانئ التابعة للبرتغاليين مقابل دفع ضريبة معينة، وعلى السفينة التي تحمل الجواز أن تلتزم بخط المرور المحدد لها ولا تخالفه، أما السفن التي لا تحمل جوازاً فهي عرضة للنهب والمصادرة والتدمير. عصام سخيني (١٩٩٧) مملكة هرمز أسطورة الخليج التجارية، دبي. ص ٩٧.

المحليين دون تدخل مباشر من قبل البرتغاليين، ونتيجة لذلك فإن هرمز على سبيل المثال لم تفقد ملوكها ووزراءها، الذين استمروا في ممارسة الحكم والإدارة على الرغم من ضعفهم وتدهور مكانتهم تحت السلطة البرتغالية، فقلة العنصر البشري لدى البرتغاليين كانت تفرض عليهم إيجاد نمط من التعاون مع الزعامات المحلية لإدارة الأقاليم الخاضعة لهم.

المبحث الثاني

مملكة هرمز ونفوذها النجاري

نفوذ هرمز ومكانتها التجارية في مطلع القرن السادس عشر

يرجح المؤرخ البرتغالي فاريبا دا سوزا بأن قيام مملكة هرمز على جزيرة جرون كان في عام ١٢٧٣، وذلك عندما استولى ملك هرمز على هذه الجزيرة بعد أن أخرج كرهاً من الساحل، وتشير إحدى الوثائق البرتغالية إلى أن مملكة هرمز نشأت سنة ١٢٨١ عند انتقال حاكم هرمز القديمة إلى جزيرة جرون.^(١)

وقد تبوأَت مملكة هرمز طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين مركزاً تجارياً هاماً في تجارة العبور، وتمكن ملوكها من بسط سيطرتهم على الحركة الملاحية والتجارية في المنطقة، وذلك بعد أن نجحوا في القضاء على نفوذ حكام جزيرة قيس الذين سيطروا على حركة التجارة البحرية في الخليج العربي خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين؛ فقد خاض حكام هرمز مع حكام جزيرة قيس حرباً تجارية تخللتها صدامات مسلحة انتهت بتمكن هرمز من تجريد قيس من سيطرتها إلى حد بعيد، وتشير المصادر إلى أن حاكم هرمز الشيخ قطب الدين تهتمم الثاني قد توغل بأسطوله الضخم في الخليج العربي سنة ١٣٣٠ واستولى على جميع الجزر ومن بينها جزر البحرين، وأصبحت البحرين من أقاليم هرمز التي كانت تصدر عوائد البحرين وثرواتها من أسماك ولؤلؤ وتمور إليها.^(٢) وكانت هذه السنة هي بداية العصر الذهبي لمملكة هرمز بعد أن أصبحت لها السيادة المطلقة على الحركة التجارية والملاحية في الخليج العربي. وقد قامت عدة حركات تمرد فاشلة ضد سلطة الهرمزيين في البحرين حيث تشير المصادر إلى شخوص أحد القادة الهرمزيين (توران شاه) بعد ذلك بخمسة عشر عاماً لقمع ثورة في البحرين.^(٣)

(١) الحديث هنا عن هرمز الثانية وليس هرمز الأولى التي كانت تقع على البر قريباً من مصب نهر ميناب على الساحل الشرقي للخليج العربي وقد قامت على أنقاضها مدينة بندر عباس فيما بعد، وقد تمتعت هذه المدينة بمكانة تجارية كبيرة حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي عندما هجرها سكانها بسبب الاجتياح المغولي للشرق في تلك الفترة مما دفع بسكانها للارتحال إلى جزيرة جرون التي لم تكن تبعد عنها سوى عشرين ميلاً ليعطوها اسم هرمز ويحولوها إلى إميراطورية تجارية كبرى حتى مطلع القرن السادس عشر. عصام سخنيي (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ١٣-١٨.

(٢) عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك يوسف الحمير (١٩٨٢) البحرين عبر التاريخ، ج ١، البحرين، ص ١٢٤.

(٣) The Encyclopedia of Islam (1979) Bahrain, Leiden, 1/942.

غير أن هذه المملكة واجهت في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي تحدياً لنفوذها السياسي والتجاري من جانب إمارة بني جبر التي تمكن زعيمها زامل بن جبر من السيطرة على الأحساء، ثم شرع خلال الفترة الممتدة ما بين ١٤٣٩ و ١٤٦١ في توحيد القبائل العربية المتناحرة في شرقي شبه الجزيرة العربية وتسخيرها لبناء دولته الناشئة. وترسخت أركان هذه الدولة في عهد خلفه سيف بن زامل الجبري الذي بسط نفوذه على عُمان. وفي سنة ١٤٧٧ استغل الجبور حالة الصراع التي اندلعت بين أفراد الأسرة الحاكمة في هرمز للتدخل في الشؤون الداخلية للمملكة وانتزاع ما يمكنهم من أملاكها، وذلك بعد أن استتجد الأمير سلغور بأجود سيف بن زامل لمساعدته على تولي الحكم عقب وفاة والده الملك فخر الدين تورانشاه، فقام أجود بنصرته على إخوته وتتصيبه ملكاً على هرمز مقابل أن يتنازل ملك هرمز عن جزيرة البحرين - باستثناء بعض بساتينها - وكذلك عن القطيف.^(١)

وعلى الرغم من خسارتها للبحرين إلا أن مملكة هرمز استمرت تبسط سيطرتها على حركة الملاحة والتجارة في الخليج العربي، وخضعت لها مناطق ممتدة من ساحل عُمان وبر فارس، حيث امتد نفوذها في مطلع القرن السادس عشر ليشمل موانئ عُمان، ومن أهمها: صور وقلهات وقربات ومسقط وصحار وخورفكان وكلبا، وكذلك رأس مسندم وجلفار ورأس الخيمة وأم القيوين، أما على الساحل الشرقي فكانت هرمز تبسط نفوذها على المنطقة الممتدة من مصب نهر مينا (قرب هرمز القديمة) إلى نهر نابند.^(٢)

ويصف الرحالة الأوروبيون مكانة هرمز التجارية، فيذكرون أنه كان يرسو في مينائها أكثر من ٣٠٠ سفينة من مختلف موانئ آسيا وإفريقيا ويقيم بها بصفة دائمة ٤٠٠ تاجر ووكيل من جنسيات مختلفة، وأنها جميلة وتكثر فيها الأبنية، وقد أسهبت كتب الرحالة الأوروبيين في وصف جمالها وثراء أهلها ومستوى معيشتهم المتقدم، وقد بسطت هرمز سيطرتها التجارية والسياسية على معظم الموانئ والمدن الساحلية والجزر، ومن بين هذه الجزر البحرين.^(٣)

وهناك إجماع تاريخي على أن ملوك هرمز كانوا عربياً يتحدرون من أسرة عربية موطنها القديم كان قلهاة على الساحل العُماني، وقد ظهرت هذه الأسرة لأول مرة على المسرح السياسي على يد شيخ عربي عرف باسم محمد درهم كوب أسس حكمه في هرمز

(١) عصام سخيني (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٢٤.

(2) Dames M. L. (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Translated from the Portuguese Text by Mansul Longworth Dames, Hakluyt Society, London. 1/68-79.

(٣) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ترجمة وتعليق (١٩٩٤) رحلات فارتيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٩٥.

القديمة في القرن العاشر الميلادي، وهي نفسها التي استمرت في الحكم عندما انتقلت إلى هرمز الجديدة ولكن هؤلاء غلبت عليهم الثقافة الفارسية فتسموا بأسماء فارسية، مع اتخاذهم ألقاباً عربية ذات طابع ديني مثل شهاب الدين وقطب الدين وفخر الدين وسيف الدين.^(١)

وعلى النسق ذاته نجد تداخلاً في ألقاب وزراء هرمز فتارة يسمى: «وزير هرمز» وتارة يسمى: «حاكم هرمز»، وقد يكون هناك مجموعة وزراء لهرمز في آن واحد، وكان لهم نفوذ تجاري يستمدون منه سلطتهم السياسية، وفي أغلب الأحوال كانت سلطة الملك محدودة حيث كان الوزير الرئيسي يمارس الحكم بصورة مباشرة وكانت صلاحيات الملك محدودة، ومن أبرز هؤلاء الوزراء خوجه عطار وشرف الدين.

وبالنظر إلى موقع هرمز الاستراتيجي عند أهم مفاصل التجارة العالمية، بالإضافة إلى سيطرتها على الأقاليم المجاورة لها، فقد وفرت هذه الميزات لحكام هرمز عوائد مالية مجزية كانت تجنيها في صورة ضرائب جمركية ورسوم تفرضها على التجارة العابرة بمينائها، وتقدر أحد المصادر البرتغالية بأن مجموع ما كانت تجنيه هرمز من الرسوم الجمركية في بداية القرن السادس عشر: مائة ألف أشرفي، كما قدرت الضرائب التي تجنيها من المناطق التابعة لها بأكثر من ٤١ ألف أشرفي سنوياً.^(٢)

ومثلت الإتاوات التي تدفعها الموانئ التابعة لهرمز مصدراً مهماً للدخل؛ ففي العقد الأول من القرن السادس عشر، كانت إيرادات هرمز من الإتاوة التي تدفع لها من ميناء قلهاة تقدر بحوالي أحد عشر ألف أشرفي، وجلفار ٧٥٠٠ أشرفي ومسقط خمسة آلاف أشرفي وصحار ١٥٠٠ أشرفي وخورفكان ١٥٠٠ أشرفي ودبا خمسمائة أشرفي.^(٣)

أما المصدر الثالث للدخل فكان يتمثل في انخراط تجار هرمز في حركة التجارة العالمية التي وفرت لها عوائد مالية ضخمة وثراءً عريضاً.

ولا بد من التنبيه إلى أن مكانة هرمز لم تكن تنبع من قوتها العسكرية وسيطرتها على الأنظمة الإدارية للكيانات الخاضعة لها، بل كانت تقوم على مكانتها التجارية وموقعها الجغرافي، فقد كانت الجزيرة جرداء وأرضها سبخة وخالية من أي نوع من أنواع

(١) أحمد العناني (١٩٨٤) «البرتغاليون في البحرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، مجلة الوثيقة، ٤٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٧٩.

(٢) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد ٤، يناير ١٩٨٤، ص ١٢١.

(٣) عصام سخيني (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣٩.

الزراعة، ولا توجد فيها مياه، كما أنها كانت تخلو من أدنى مقومات الدفاع؛ إذ أن سفنها صنعت لأغراض تجارية بحتة، ولكن الجغرافيا لعبت دوراً كبيراً في تلك المرحلة حيث كانت الجزيرة تتحكم في مفصل من أهم مفاصل تجارة العالم القديم بوقوعها في مدخل الخليج العربي الذي كانت تدخل منه التجارة الشرقية قادمة من الهند والشرق الأقصى من جهة، ومن الموانئ الإفريقية على البحر الأحمر من جهة أخرى لتنتهي في البصرة حيث تتوجه من هناك براً إلى البحر الأبيض المتوسط.

الغزو البرتغالي

يرتبط الغزو البرتغالي لهرمز باسم القائد الشهير أفونسو دلبوكيرك الذي أمضى قبل ذلك الغزو نحو ثلاث سنوات أمام سواحل جنوبي شبه الجزيرة العربية، وعند مدخل الخليج العربي والبحر الأحمر، مما مكّنه من تكوين فكرة جيدة عن منافذ التجارة العالمية وضرورة إحكام السيطرة عليها، وعندما عهد تريستيان دا كونها إلى أفونسو دلبوكيرك أن يتقدم بأسطوله نحو عدن، خالف دلبوكيرك الأوامر وبدأ في حملته الشهيرة سنة ١٥٠٧ متقدماً باتجاه هرمز، فقد كانت المهمة التي اضطلع بها وسعى إلى تنفيذها بقوة هي السيطرة على مضيق هرمز باعتباره أحد أهم خطوط التجارة العالمية، وعندما وجد بأن عدن محصنة ويصعب السيطرة عليها بسهولة قرر التقدم باتجاه هرمز، باعتبارها مفتاح الحركة الملاحية في الخليج العربي والتي من خلالها يستطيع السيطرة على مياهه.

كانت خطة دلبوكيرك لاحتلال هرمز هي إضعاف المملكة قبل الوصول إلى عاصمتها باستنزاف قواها المتمركزة في المدن والموانئ التابعة لها والقائمة على الساحل العماني، فبدأ بقلعات التي استسلمت له، ثم تحرك نحو قرينات التي تمكن منها بعد مقاومة عنيفة انتهت بنهب المدينة وتدميرها، وكانت مسقط هي المحطة الثالثة التي تمت مهاجمتها بعد مفاوضات فاشلة، وانهارت دفاعات المدينة فدخلتها القوات البرتغالية وارتكبت فيها جرائم إنسانية مروعة، ثم نهبت المدينة وأحرقت السفن الراسية في الميناء، وانتقل الأسطول البرتغالي إلى صحار التي فر منها أهلها واستسلم حاكمها لتجنّب المدينة الدمار الذي حل بالمدن السابقة، وكانت المحطة الأخيرة قبل هرمز هي خورفكان التي حاولت أن تقاوم ولكنها ما لبثت أن انهارت تحصيناتها أمام المدافع البرتغالية وكان مصيرها مثل سابقتها من المدن.^(١)

وصلت القوات البرتغالية لهرمز في أواخر سبتمبر عام ١٥٠٧، وكان على عرشها الملك سيف الدين الذي كان صبياً في الثانية عشر من عمره آنذاك، غير أن السلطة الفعلية

(١) يمكن مراجعة تفاصيل حملة أفونسو دلبوكيرك ضد موانئ الساحل العماني سنة ١٥٠٧ في: عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ١/١٦٥-٢٠٥.

كانت بيد وزيره القوي خوجه عطار، الذي كان يدير مجلس البلاد، ويتكون من مجموعة وزراء، وقد أخذ عطار على عاتقه مواجهة البرتغاليين، وتشير المصادر البرتغالية إلى أن دفاعات هرمز كانت تتضمن ستين سفينة ضخمة مشحونة بالمدفعية والبارود، كما كان في الميناء مائتا سفينة من نوع الغاليون كل منها مزود بمدفعين، بالإضافة إلى عدد كبير من الطرادات المزودة بالبنادق، أما على الشاطئ فقد حشد الهرمزيون ما بين خمسة عشر ألفاً وعشرين ألفاً من الرجال كان الفرسان منهم يشكلون عدداً كبيراً. وكانت هذه القوة في مواجهة ٤٦٠ برتغالياً تحملهم سبعة سفن تحت إمرة دلبوكيرك.^(١)

وبعد مفاوضات استمرت لمدة ثلاثة أيام أمر دلبوكيرك بفتح نيران مدافعه في معركة بحرية استمرت ثمان ساعات وكان يقود القوات الهرمزية خوجه عطار بنفسه، وقد أحرقت معظم السفن الهرمزية، وتبع المعركة البحرية اشتباكات على بر الجزيرة، حيث قاد دلبوكيرك هنالك بعض جنوده لملاحقة الهرمزيين الذين نجوا من المعركة البحرية، إلا أن البرتغاليين لم يدخلوا مدينة هرمز نفسها، بل وقفوا عند أسوارها قبل أن يعودوا إلى مراكزهم، ووفق رواية دلبوكيرك فقد رفعت هرمز الرايات البيضاء لتعلن استسلامها، وتم توقيع معاهدة بين دلبوكيرك ممثلاً للطرف البرتغالي من جهة وبين الملك سيف الدين ووزيره خوجه عطار من جهة أخرى التزمت فيها هرمز بدفع إتاوة سنوية قدرها خمسة عشر ألف أشر في ملك البرتغال، بالإضافة إلى دفع خمسة آلاف أشر في الحال للمساهمة في نفقات الأسطول البرتغالي، كما تم الاتفاق على تثبيت سيف الدين ملكاً على هرمز ووزيره خوجه عطار على أن تكون تبعيتهما وولأتهما ملك البرتغال. ووقعت الاتفاقية في أكتوبر ١٥٠٧.

وبعد مفاوضات شاقة تخللتها مناوشات عسكرية بين الطرفين مرة أخرى أجبر الهرمزيون على الموافقة على بند آخر يتضمن إقرارهم تشييد قلعة برتغالية على أرض الجزيرة لضمان السيطرة البرتغالية عليها.^(٢)

وعقب مغادرة دلبوكيرك أوقف خوجه عطار العمل في بناء القلعة وألحق ما كان قد تم بناؤه بالقصر الملكي، كما أضاف حصنين منيعين لقلعته زودهما بالمدافع وشرع في تشييد أسطول جديد في جلفار، وفي الوقت ذاته فرض حصاراً وعزلة كاملة على الوكلاء البرتغاليين الذين أبقاهم دلبوكيرك في الجزيرة لرعاية المصالح البرتغالية.^(٣)

(١) عصام سخنيبي (١٩٩٧) مرجع سابق، ص. ٦٩-٧٠.

(٢) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٢٤٢-٢١٧/١.

(٣) المصدر السابق، ٣٠٦/١.

وقد دفعت هذه التطورات بدليوكيرك للعودة إلى هرمز خلال أشهر من مغادرتها في محاولة يائسة لاستعادة سيطرته عليها ، ولكن الوزير الهرمزي المخضرم خوجه عطار كان في هذه الأثناء قد نجح في الاتصال بنائب الملك البرتغالي في كوشين فرنسيسكو دالميدا الذي أفصح له عن اختلاف وجهات النظر بينه وبين دليوكيرك ، فقد كان دالميدا يعتقد أنه ليس للبرتغاليين إمكانيات بشرية كافية لإقامة مستعمرات بعيدة عن الهند ، بل يجب الاقتصاد على إنشاء وكالات لمزاولة الأعمال التجارية والاعتماد على السيطرة البحرية من خلال الدوريات التي من شأنها القضاء على حركة الملاحة الإسلامية ، وفي هذه الأثناء شعر عطار بوجود تدمير كبير في صفوف القباطنة البرتغاليين المصاحبين لدليوكيرك ، وأمام ذلك الموقف قرر عطار استخدام لهجة التحدي ، فأجاب دليوكيرك عندما طلب منه دفع خمسة عشر ألف أشرفي بأن: «يستفيق لنفسه لأنه لا هو ولا أي شخص آخر ، مهما كان ، سيتلقى منه إتاوة إلا إذا أمر نائب الملك البرتغالي نفسه بدفعها». وعندما شعر دليوكيرك بقوة تحصينات المدينة وما كانت تلقاه من دعم من قبل نائب الملك في الهند فك الحصار عن الجزيرة دون أخذ الإتاوة ، وأقلع متوجهاً نحو الهند مستعيضاً عن ذلك بالاستيلاء على سفينة محملة باللؤلؤ كانت قادمة من البحرين.^(١)

توقفت الأعمال العسكرية البرتغالية في الخليج العربي خلال الفترة ١٥٠٧-١٥١٣ ، لأسباب عدة ، منها : الخلاف الذي وقع بين دليوكيرك ودالميدا وانتهى بعزل الأخير وتعيين دليوكيرك نائباً للملك سنة ١٥٠٩ ، وكان عزل دالميدا تأكيداً بأن سياسة الملك البرتغالي تتجه نحو دعم توجهات دليوكيرك في إحكام السيطرة العسكرية على هرمز. وفي هذه الأثناء وقعت العديد من حركات التمرد ضد البرتغاليين في الهند ، فانشغل دليوكيرك في توطيد نفوذه هناك ، وخاصة في جوا التي تحولت إلى ساحة صراع كبير بين سكانها المسلمين وبين البرتغاليين.

استفاد خوجه عطار من توقف العمليات العسكرية خلال فترة انشغال البرتغاليين بتوطيد نفوذهم في الهند ، واستعاد الكثير من مظاهر استقلال سلطته بهرمز ، ولكن سنة ١٥١٣ شهدت حدثين مؤسفين: فقد توفى خوجه عطار وورثه في السلطة الرئيس نور الدين ، كما توفى كذلك ملك هرمز سيف الدين مسموماً في إحدى موجات الصراع على الحكم وتولى الحكم شقيقه تورانشاه. وظهر على الساحة الرئيس حامد فارسي الأصل وهو ابن أخت الرئيس نور الدين الذي شرع في إقامة علاقات مع الدولة الصفوية وبدأ في جلب عدد كبير من أقاربه وأتباعه للاستقلال بهرمز عن النفوذ البرتغالي وإخضاعها للسلطة الصفوية ، وكانت هرمز قد انقطعت عن دفع الإتاوة للبرتغاليين منذ سنتين ، كما أن

(١) المصدر نفسه، ٣٧٠/١.

القلعة التي بناها البرتغاليون كانت قد ألحقت بالقصر الملكي ورفض تورانشاه دفع الإتاوة المطلوبة منه للعام الثالث على التوالي.

وفي سبتمبر ١٥١٤ تدهورت الأوضاع في هرمز عندما قام الرئيس حامد بالاستبداد بالسلطة ووضع تورانشاه ووزيره نور الدين تحت الحراسة المشددة. فقام دلبوكيرك بتجهيز حملة تضم ستاً وعشرين سفينة تحمل ألفاً وخمسمائة مقاتل برتغالي وسبعمئة ملباري واتجه بهم إلى هرمز التي وصلها في مارس ١٥١٥، وقام بمحاصرتها.

وأمام هذا الحشد العسكري الذي لم يكن للرئيس حامد قدرة على مواجهته، قرر إطلاق سراح تورانشاه ووزيره سيف الدين، ودخل دلبوكيرك المدينة ظافراً، حيث فرض على ملكها تسليمه القلعة، ودفع الإتاوات المتأخرة، بالإضافة إلى حمله على رفع العلم البرتغالي على القلعة كإعلان لتبعية هرمز وخضوعها لملك البرتغال، وفي هذه الأثناء قام دلبوكيرك بقتل الرئيس حامد بنفسه على مرأى من الملك وأجبر أنصاره على مغادرة الجزيرة إلى فارس، كما عين ابن أخيه بيرو دلبوكيرك قائداً للقلعة مع تخصيص عدد من الضباط البرتغاليين ليكونوا تحت إمرته، وعين وكيلاً تجارياً برتغالياً يتولى الشؤون المالية والتجارية، ولبث في هرمز تسعة أشهر، ثم غادرها إلى جوا في أكتوبر ١٥١٥.^(١)

وما لبث أن توفي دلبوكيرك في ديسمبر ١٥١٥، وخلفه لوبو سواريز الذي شرع في تنفيذ سياسة مغايرة لسابقيه تهدف إلى تخفيف القبضة العسكرية على الموانئ الخاضعة للبرتغال، وتنشيط الحركة التجارية فيها. وقد نتج عن هذه السياسة الجديدة تقارب كبير بين السلطة البرتغالية والسلطة الهرمزية، وسعى خلف سواريز في منصب نائب الملك -دييجو لوبيز دي سكويرا (١٥١٨-١٥٢٢)- إلى توطيد هذه العلاقة التي تتوجت بتحالف برتغالي-هرمزي لشن حملة عسكرية مشتركة ضد البحرين في يوليو ١٥٢١.

ولكن سرعان ما تدهورت هذه العلاقة إثر تولي دوراتي دي منزيس (١٥٢٢-١٥٢٤) منصب نائب الملك، فكان أول إجراء يقوم به هو وضع موظفين برتغاليين في مركز الجمارك بهرمز بحجة أن الموظفين المحليين كانوا يخدعون الملك بالنسبة لعائدات الجمارك، وقد حرم منزيس بهذا الإجراء حكام هرمز من السيطرة على هذا المرفق الأكثر حيوية بالنسبة لهم. وفي هذه الأثناء قام الضباط البرتغاليون بالتعدي على موارد الجزيرة ونهب ممتلكات تجارها، مما أدى إلى اندلاع ثورة غضب عارمة تزعمها ملك هرمز تورانشاه ووزيره شرف الدين.^(٢)

(١) عصام سخيني (١٩٩٧) مرجع سابق، ص. ٩٣-٩٥.

(٢) نونو بي سيلفيا (١٩٨٥) «صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين»، مجلة الوثيقة، العدد الثامن، يناير ١٩٨٦، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص. ٢٠٤.

ففي ٢١ نوفمبر وجد البرتغاليون أنفسهم عرضة لهجمات عنيفة في كل من البحرين وهرمز ومسقط وصحار، وقد تمكن البحرينيون من الفتك بالممثل البرتغالي في الجزيرة بينما تكبد البرتغاليون خسائر فادحة في جنودهم وممتلكاتهم في مناطق أخرى. ولكن هذه الثورة لم تنجح في تحرير المنطقة من قبضة البرتغاليين الذين تمكنوا من إخمادها بالتعاون مع الجبور في عُمان.

كما تعرضت هرمز للتدمير والإحراق، في حين فر تورانشاه إلى قشم حيث قتل غيلة على يد أحد أتباع الشيخ حسين الجبري، وعين صبي من أبناء تورانشاه حاكماً على هرمز ولم يكن يتجاوز الثالثة عشر من عمره،^(١) وأبقى على وزيره شرف الدين إلى جانبه بصورة مؤقتة،^(٢) وفرض على ملكها توقيع معاهدة في ١٥ يوليو ١٥٢٣ التزم فيها محمد شاه بما التزم به سابقه من التنازل الكامل عن هرمز للتاج البرتغالي وزيادة الإتاوة الجديدة على هرمز حيث أصبحت قيمتها ستون ألفاً أشرافياً، بحجة تحسن الأوضاع الأمنية وزيادة عوائد الجمارك، وتم الاتفاق على دفع المبلغ مجزئاً بأقساط مقدارها خمسة آلاف أشرافياً كل شهر. وقد أنهت هذه المعاهدة بشكل قطعي آخر المعالم الشكلية التي كانت تشير إلى شيء من الاستقلال النسبي الذي كانت تتمتع به هرمز حتى ذلك التاريخ، حيث أصبحت تخضع بصورة مباشرة في اقتصادها لحاكم القلعة البرتغالي الذي كان يشرف على الجمارك. ولم يصحح ملك هرمز أو وزراءه أي قيمة لأن البرتغاليين كانوا يتعاملون معهم بصفتهم تابعين للسلطة البرتغالية في الجزيرة وفق الترتيب الجديد الذي استحدثته معاهدة ميناب.^(٣)

وفي سنة ١٥٢٩ قام نونو دا كونا برفع الإتاوة السنوية لتبلغ مائة ألف أشرافياً، ولم تتمكن هرمز من تلبية هذه الزيادة، فتراكمت المتأخرات المستحقة على الملك إلى أن بلغت ٣٧٧ ألف أشرافياً عام ١٥٣٩، واستمرت المتأخرات في تصاعد حتى تجاوزت نصف مليون أشرافياً بحلول عام ١٥٤٣.

وعندما عجز الملك الهرمزي عن أداءها اتهم من قبل البرتغاليين بالجنون، ثم قتل مسموماً، وفرض على خلفه سنة ١٥٤٣ توقيع معاهدة جديدة مع البرتغاليين تنازل بموجبها بصورة كاملة عن الجمارك للبرتغاليين وأصدر فرماناً بذلك، وفي مقابل ذلك خصص له

(١) قتل محمد شاه بن تورانشاه في إحدى المؤامرات الكثيرة التي ابتليت بها الأسرة الهرمزية الحاكمة سنة ١٥٢٩ ولم يكن سنه قد تجاوز إحدى وعشرين عاماً.

(٢) قام حاكم الهند البرتغالي نونو دي كونا (١٥٢٩-١٥٣٨) بعزل شرف الدين ونفيه إلى لشبونة بتهمة الضلوع في اغتيال محمد شاه سنة ١٥٢٩، ثم تمكن شرف الدين فيما بعد من رشوة بعض المسؤولين البرتغاليين والعودة إلى منصبه في هرمز.

(٣) عصام سخيني (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ١١٠.

البرتغاليون مبلغ ١٨٠٠ أشر في السنة لإعالة نفسه، وعشرة آلاف أخرى لدفع نفقات الموظفين بمن فيهم أمر الجمارك البرتغالي في هرمز، علماً بأن عائدات الجمارك التي حصل عليها البرتغاليون تلك السنة بلغت ١٠٩ آلاف أشر في^(١).

ومنذ ذلك الحين تحول الحكم المحلي في هرمز إلى سلطة اسمية وأصبح حكامها ألعوبة بيد البرتغاليين الذين لم يقيموا لهم أي اعتبار، وكثيراً ما كان مسؤولو الجمارك البرتغاليون يحتجزون الأموال لأنفسهم ويحرمون الملك منها، وفي الوقت نفسه لا يوردونها لمصلحة الخزينة البرتغالية.

وعلى الرغم من تدهور الأوضاع السياسية وسيطرة البرتغاليين على اقتصادها وتجارتها، إلا أن هرمز استمرت تمارس دوراً تجارياً مهماً في تجارة الشرق حتى انهيارها سنة ١٦٢٢.

يستنتج من الاستعراض السابق أن هرمز مرت بثلاث أطوار في القرن السادس عشر: ففي المرحلة الأولى الممتدة ما بين ١٥٠٧ و ١٥٢٣ شن البرتغاليون حملات عدة ضد هرمز وبذلوا جهداً كبيراً لتوطيد حكمهم فيها.

وفي المرحلة الثانية الممتدة ما بين ١٥٢٣ و ١٥٤٣ استطاع البرتغاليون أن ينتزعوا من الملوك الهرمزيين تنازلات كبيرة في مجالات الجمارك والإدارة المحلية.

ولكن المرحلة الأخيرة، التي استمرت منذ سنة ١٥٤٣ وحتى نهاية الوجود البرتغالي في الجزيرة عام ١٦٢٢، شهدت القضاء المبرم على آخر معالم السيادة المحلية حيث تحول ملك هرمز إلى حاكم رمزي يتلقى راتباً متواضعاً من مسؤول القلعة البرتغالي.

والتساؤل الذي يطرح نفسه بإلحاح: كيف يمكن افتراض خضوع البحرين للسلطة الهرمزية خلال الفترة ١٥٢١-١٦٠٢، في الوقت الذي لم تكن فيه هرمز تتمتع بأي مظهر من مظاهر السيادة والاستقلال؟

(١) المرجع نفسه، ص ١١٣.

نمط السيطرة الهرمزية على الأقاليم التي كانت خاضعة لها في مطلع القرن السادس عشر

لم تشتهر هرمز في تاريخها بأنها كانت تملك قوة عسكرية يعتد بها، فقوتها العسكرية المحدودة كانت تهدف إلى حماية ممتلكاتها من المنافسين المحليين، وتوفير الأمن لخطوط الملاحة المارة بمياهها، وخاصة من القراصنة الذين كانوا ينشطون على هذه الخطوط. ويمكن القول بأن المكانة التي تبوأتها هرمز في مطلع القرن السادس عشر لم تكن تتبع من سطوتها العسكرية بل كانت تتمتع بهذا النفوذ من خلال ثلاث عوامل رئيسية هي:

١. موقعها الجغرافي الذي هياً لها أن تكون من أهم بؤر التجارة العالمية في زمنها.
٢. مهارة تجارها الذين كانوا من أنشط الوسطاء التجاريين في عصرهم.
٣. سياسة حكامها القائمة على توفير التسهيلات اللازمة لتكون هرمز مخزن تجارة الشرق الرئيسي في المنطقة.

وكان من أهم ملامح السيطرة التجارية لهرمز في تلك المرحلة؛ انتشار عملتها الذهبية المعروفة بالأشرفي، والتي كانت عملة رائجة في جميع الموانئ البحرية في الهند وفارس وشبه الجزيرة العربية ثم امتداداً من هناك إلى الشرق الأقصى وصولاً إلى ملقا.^(١)

ونظراً لأن حركة التبادل التجاري كان عصب حياة مجتمع الخليج العربي في تلك الفترة فقد وجدت كثير من الكيانات السياسية في المنطقة نفسها مضطرة لدفع الإتاوة السنوية التي تفرضها هرمز، لقاء تسهيل حركة سفنها وتأمين العبور الآمن لها في طريقها إلى موانئ الهند، بالإضافة إلى الاستفادة من التسهيلات التي تقدمها هرمز لتجار المنطقة. وقد لاحظ كثير من الرحالة الأوروبيين في مطلع القرن السادس عشر إلى أن تجارة الخيول والتوابل واللؤلؤ وغيرها من منتجات الشرق لم تكن لتحقق الأرباح المنشودة دون أن يكون الوسيط الهرمزي طرفاً فيها وذلك بسبب العلاقات الواسعة لتجارها وقدرتهم الفائقة على تسويق البضائع وتخزينها لديهم.

ولكن مجرد دفع الإتاوة السنوية لم يكن يعني بالضرورة أن هرمز كانت تفرض احتلالاً عسكرياً فعلياً على الكيانات السياسية الأخرى في الخليج العربي، أو أنها كانت تقوم

(١) المرجع السابق، ص ٣٨.

بتعيين الحكام المحليين في تلك الكيانات من قبلها ، فقد كانت هذه المملكة التجارية مترامية الأطراف ترتكز بصورة أساسية على نفوذها التجاري ، ولكنها في الوقت ذاته كانت تعاني من ضعف كبير في بيئة كيانها السياسي وإمكاناتها العسكرية؛ فمنذ الربع الأخير من القرن الخامس عشر عصفت بالأسرة الهرمزية الحاكمة سلسلة صراعات داخلية تسببت بمقتل ونفي العديد من أفرادها ، بل إن الملك سلغور بن فخر الدين تورانشاه قد اضطر إلى الاستعانة بالجبور للتخلص من إخوانه الذين كانوا ينازعونه الحكم ، ويبدو أن تدخل الجبور لم يكن كفيلاً بوضع حد للمؤامرات الداخلية وصراع الحكم ، إذ تشير المصادر إلى أن نهاية العديد من ملوك هرمز كانت بقتلهم من قبل منافسيهم عن طريق دس السم لهم في الطعام ، وبهذه الطريقة قتل كل من سيف الدين سنة ١٥١٣ ، وأخاه تورانشاه سنة ١٥٢١ ، وكذلك ابنه محمد شاه الذي قتل مسموماً سنة ١٥٢٩ . ونظراً للاستنزاف الذي عانت منه الأسرة الحاكمة بهرمز فقد كان الكثير من حكامها أطفالاً تتراوح أعمارهم بين الثانية عشر والخامسة عشر ، وانعكست ظاهرة الصراع الداخلي كذلك على وزراء هرمز الذين كانوا عرضة للعزل والتعيين بدسائس محلية ، والحقيقة هي أن وفاة خوجه عطار سنة ١٥١٣ ، ومن ثم عزل شرف الدين سنة ١٥٢٩ قد تسببت في إضعاف جهاز الحكم الهرمزي في القرن السادس عشر.

وقد أسهم البرتغاليون في إضعاف هرمز عن طريق إرهابها بالضرائب الباهظة ، وفرض سيطرتهم المباشرة على الجمارك ، وقيامهم بإحلال موظفين فاسدين لإدارة حركة الملاحة والتجارة ومنح الرخص في المنطقة. كما كان للبرتغاليين دور بارز في إضعاف هرمز من الناحية العسكرية حيث شن القادة البرتغاليون عدة حملات ضدها في السنوات: ١٥٠٧ و ١٥١٥ و ١٥٢١ كانت تنتهي بالمزيد من أعمال السلب والنهب وإحراق السفن الهرمزية ومصادرة أسلحة السكان المحليين وغيرها من الإجراءات التعسفية التي اشتهر بها البرتغاليون في تلك الفترة.

لقد كان ضعف هرمز العسكري في مطلع القرن السادس عشر جليلاً؛ ففي مواجهة الأسطول البرتغالي المزود بالمدافع وكميات كبيرة من الأسلحة سنة ١٥٠٧ ، ظهر الفارق بصورة واضحة لدى لجوء حكام هرمز إلى احتجاز السفن التجارية التي كانت موجودة قبيل المعركة في مينائها واستخدامها للقتال ، وهي سفن لم تكن مزودة بأي قدرات حربية مما أدى إلى سرعة حسم المعركة لصالح البرتغاليين. وقد أظهرت الحملات العسكرية الهرمزية الفاشلة ضد البحرين في السنوات ١٥١١ و ١٥٢٠ ضعفاً واضحاً أمام تحصينات البحرين الطبيعية والعسكرية ، ولذلك فإنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للتحالف مع

البرتغاليين في شن حملات عسكرية أخرى ضد البحرين والقطيف وغيرها من موانئ الخليج العربي التي بدأت تتدمر من الزيادة المضطردة في قيمة الإتاوة السنوية المفروضة عليها.^(١)

وإذا أخذنا عوامل الضعف السياسي والعسكري بعين الاعتبار فإنه يمكن القول بأن البحرين لم تخضع في القرن السادس عشر لأي احتلال هرمزي أو سيطرة هرمزية مباشرة على حكمها المحلي، بل كان الوزراء الهرمزيون المعينون في البحرين يقيمون في القلعة وانحصرت مسؤولياتهم على جمع الضرائب لصالح الخزانة الهرمزية، وذلك على النمط الذي أكده دليوكيرك لدى دخوله ميناء مسقط لأول مرة سنة ١٥٠٧، عندما لاحظ بأن السلطة الهرمزية تعين مسؤولين عن الجمارك في مسقط وغيرها من موانئ الساحل العُماني، قائلاً: «ففي كل مكان يحكمه ملك هرمزي يعين هؤلاء الطواشية ليولوا أمور العوائد اهتمامهم».^(٢) ولذلك فإن المسؤولين الهرمزيين الذين عينوا في البحرين لم يكونوا حكماً عليها كما تشير الوثائق بل كانوا مسؤولين عن إدارة الجمارك وتحديد دخلها لتأمين الإتاوة السنوية ودفعها للبرتغاليين.

إن عدم تقدير الفارق الكبير بين السيطرة الاقتصادية (المتثلة في تقديم التسهيلات وتأمين المرور لقاء دفع إتاوة سنوية) والاحتلال العسكري الذي يقتضي وجود قوات مسلحة بصورة دائمة، بالإضافة إلى إحلال سلطة سياسية بديلة، دفع ببعض المؤرخين إلى الافتراض بأن البحرين قد فقدت استقلالها سنة ١٥٢١ وخضعت لسلطة هرمزية طوال الفترة المتبقية من القرن السادس عشر، ولعل أهم سبب لوقوع ذلك اللبس هو الاعتماد الكبير على الوثائق البرتغالية التي لم تكن تظهر الكثير من الدقة في أسماء الحكام المحليين وألقابهم، حيث نجد الوثائق البرتغالية تتحدث عن بعض وزراء هرمز بصفتهم «حكماً» على الجزيرة، وكذلك وصف وكيل هرمز في البحرين بأنه: «حاكم البحرين» في بعض الأحيان، وفي الوقت ذاته كثيراً ما تظهر الوثائق حاكم قلعة هرمز البرتغالي بصفته أيضاً: «حاكم هرمز». وتتكرر الصورة ذاتها في البحرين حيث دأبت المصادر البرتغالية على تسمية المسؤول الهرمزي المعين على الجمارك بصفته «وزيراً» في بعض الحالات، وبصفته «حكماً» في حالات أخرى، وذلك دون الأخذ في الاعتبار وجود حكام محليين للبحرين آنذاك.

(١) المرجع السابق، ص ٧٢-٧٤.

(٢) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دليوكيرك، مصدر سابق، ١/١٦٤.

وتعاني بعض الكتابات التاريخية المعاصرة من الوقوع في تناقضات تتمثل في تمثيل هرمز بصورة المملكة التي: انهارت قوتها العسكرية، وفقد حكامها استقلالهم وسيادتهم، وأصبح اقتصادها بيد البرتغاليين، ومن ثم القول بأن البحرين كانت خاضعة للاحتلال الهرمزي خلال الفترة ١٥٢١-١٦٠٢، فمملكة بهذه الصفات لا يمكن أن تبسط نفوذها على أقاليم أخرى. ولايسوغ الافتراض بأن وزراء هرمز كانوا يحكمون البحرين ويتولون إدارتها المحلية في الوقت الذي كانوا فيه عاجزين عن حكم بلادهم وإدارة شؤونها السياسية والاقتصادية؟

بل إن المصادر المعاصرة لتلك الفترة تؤكد بأن البحرين لم تكن تلتزم بدفع الإتاوة السنوية لهرمز في أغلب سنوات القرن السادس عشر، وفي كثير من الأحيان كانت قوات البحرين تفوق في قوتها وعددها قوات هرمز، كما أن جهاز الإدارة والحكم المحلي فيها لم يكن يخضع لأي سلطة خارجية برتغالية أو هرمزية أو عثمانية على حد سواء، وهذا ما ستحاول الفصول القادمة تفصيله على ضوء المادة الوثائقية المعاصرة.

الأوضاع الداخلية في عُمان

استهلت عُمان القرن السادس عشر بتولي محمد بن إسماعيل الإسماعيلي (١٥٠٠-١٥٣٥)، بعد قتله الملك سليمان النبهاني،^(١) وفي زمنه ازدادت الفرقة وتشتت الكلمة، حيث تعرضت المقاطعات الداخلية الخاضعة للملوك النبهانيين لثورات الإباضيين المتحمسين لبعث الإمامة الإباضية، ابتداء من عام ١٥٠٠ حتى عام ١٦٢٤.^(٢) وأدى ذلك إلى ترددي الأوضاع السياسية وتفكك المناطق العُمانية، حيث تنازع الهرمزيون والجبور على السيطرة السواحل العمانية؛ فخضعت مسقط وخورفكان وقلهاة وصور وغيرها من المدن الساحلية لمملكة هرمز، بينما تحدثت المصادر البرتغالية عن خضوع مناطق أخرى من الساحل العُماني لحكم الجبور.^(٣)

وبالإضافة إلى وجود أربع قوى متصارعة في عُمان (متمثلة في النبهانيين والإباضيين والجبور والهرمزيين)، فإن الغزو البرتغالي للساحل العُماني أضاف عنصراً خامساً في ذلك

(١) في منتصف القرن الخامس عشر نجح الإمام عمر بن محمد الخروصي في انتزاع الحكم من النبهانيين وأعلن قيام الإمامة الإباضية، إلا أنه لم يلبث أن أطيح به من قبل النبهانيين بعد سنوات قليلة قضاها في الحكم، مما دفعه للاستعانة ببني جبر الذين نجحوا في إعادة تنصيبه إماماً على عمان سنة ١٤٨٧ وطرد الملك النبهاني سليمان، وبذلك أصبحت عُمان الداخل ضمن دائرة نفوذ بني جبر، خاصة عندما تجدد القتال بين النبهانيين والإباضيين في عهد الإمام محمد بن إسماعيل الذي خلف الإمام الخروصي، ونجح في قتل الملك سليمان النبهاني بفضل استعانتته بالجبور وذلك سنة ١٥٠٠. جمال زكريا (١٩٨٥) مرجع سابق، ص ٥٩-٦١.

(٢) جمال قاسم زكريا (١٩٨٠) «الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٢، يناير ١٩٨٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٤٧.

(٣) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ١/١٩٢، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٤.

الصراع، وكان الطرف البرتغالي هو الأخطر والأسوأ أثراً على المنطقة، حيث ارتكب البرتغاليون جرائم إنسانية مروعة في حق السكان المحليين الذين عجزوا عن توحيد كلمتهم أمام عدوهم المشترك، وبعد أن بسط البرتغاليون سيطرتهم على ساحل عُمان، نجحوا في السيطرة على هرمز، ومن ثم قاموا بتوجيه ضربة قاسية للجبور (مستعينين بالقوات الهرمزية) عام ١٥٢١.

الملح الثالث

ظهور الدولة الصفوية وموقفها من التوسع البرتغالي

لم تكن الأوضاع على الساحل الشرقي من الخليج العربي بأفضل حالاً من الأوضاع السياسية المتردية في هرمز وعمان، فقد شهد مطلع القرن السادس عشر ظهور الدولة الصفوية التي ارتبط تأسيسها بسلسلة من الأحداث الدموية التي استهلها مؤسس الدولة إسماعيل بن حيدر الصفوي بدخول مدينة تبريز سنة ١٥٠٠ وقتل نحو سبعة آلاف من سكانها، وذلك خلال حملة طائفية مريرة هدفت إلى حمل سكان المدينة على تبني مذهبه. وفي العام نفسه ارتكب الشاه إسماعيل مجازر كبيرة خلال حملته العسكرية ضد خصومه: شيروان شاه ومراد بن رستم، فقتل عشرات الآلاف من أهل فارس وكرمان وخوزستان.

وفي سنة ١٥٠٣ توجه الشاه إسماعيل الصفوي إلى مازندران فحضر عليها حصاراً حتى انهارت تحصيناتها وخضعت له، فأمر بالمدينة فدُمرت، وأحرق أهلها رجالاً ونساءً، وعذب حاكمها حسين كيا حتى الموت.

وفي العام التالي توجه بجيشه إلى إقليم يزد، ولما كان التركمان في مدينة طبرس قد رفضوا اعتناق مذهبه فقد أمر بمهاجمة المدينة سنة ١٥٠٤: «وأطفاً شعلة غضبه من كثرة ما أراق من الدماء». حيث قتل في المدينة أكثر من سبعة آلاف من سكانها،^(١) ثم أخذت الدولة الصفوية توسع من نفوذها حتى خضعت للشاه إسماعيل أصفهان وبغداد وديار بكر. ولدى وصول حركة الشاه إسماعيل التوسعية إلى السواحل الشرقية للخليج العربي قدم إليه مبعوثون من حكام هرمز وحملوا إليه الهدايا وأعلنوا له أن الخطبة والسكة قد أصبحتا باسمه، وربما كان هذا الإجراء احتياطياً لمنع هجومه على هرمز.^(٢)

غير أن الشاه إسماعيل لم يبد اهتماماً كبيراً بتلك المنطقة، فقد كان مشغولاً بتوطيد حكمه في المناطق الشرقية والشمالية من دولته الوليدة، ولما وقع الغزو البرتغالي لهرمز سنة ١٥٠٧، لم يبد الصفويون أي اكتراث بتلك الأحداث، بل إن العمل الوحيد الذي قام

(١) نصر الله فلسفي (١٩٨٩) إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي ١٥٠٠-١٧٣٦، تعريب محمد فتحي يوسف الرئيس، دار الثقافة، القاهرة. لمزيد من التفاصيل حول ظروف تأسيس الدولة الصفوية انظر مقدمة الكتاب للمعرب.
(٢) بدر الدين عباس الخصوصي (١٩٨٥) «الدولة الصفوية في مواجهة التحديات»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٤ (أكتوبر ١٩٨٥) ص ١٤٣.

به الشاه إسماعيل في تلك الأثناء هو إرسال مبعوثين له إلى هرمز بعد سقوطها، يطالبها بأن تدفع له إتاوة كان قد تقاضى مثلها من قبل، إلا أن حكام هرمز وبتعليمات مشددة من دلبوكيرك رفضوا هذا الطلب، وكان رد دلبوكيرك على مبعوث الشاه قاسياً للغاية حيث أعطاه بعض البنادق والبارود وقال له بأن هذا هو ما سيدفعه ملك البرتغال لهم، وأضاف بأنه:

«حالما ينتهي من بناء الحصن سيدخل مضائق فارس ليفرض الإتاوة على كل المناطق التي يملكها الشاه إسماعيل على الشاطئ»^(١).

وعلى الرغم من ذلك الرد القاسي فإن البرتغاليين قد أبدوا استغرابهم من عدم اكتراف الشاه إسماعيل بتلك الرسالة، حيث كان اهتمامه منصباً نحو تحقيق إنجازات أخرى غير عابئ بما يقع من معارك طاحنة في بوابة الخليج العربي؛ فقد كان الشاه إسماعيل يبذل جهوداً كبيرة لنشر مذهبه بجميع الوسائل العسكرية والدبلوماسية على حد سواء، حيث تتحدث المصادر البرتغالية عن نشاط الشاه إسماعيل فيما يلي:

«نظراً لأن الشاه إسماعيل كان شديد الرغبة في جذب ملوك الهند ليكونوا على علاقة صداقة معه، وأن يتبعوا مذهبه الشيعي فقد كان يرسل لهم بشكل متتابع سفراء، واستمرراً في هذه السياسة فقد أرسل سفراء إلى ملك كمبايا وإلى السيباهي، فقد كان يعلم أنه إذا اتبعه هذان الاثنان بما لهما من سلطان كبير وملك واسع فإنه سيتمكن من جذب الحكام الآخرين إلى صداقته واتباع مذهبه دون عناء. وقد حدث في العام الذي توغل فيه أفونسو دلبوكيرك في البحر الأحمر (١٥١٣) أن أرسل الشاه إسماعيل مرة أخرى سفراء إلى الملكين الآنف ذكرهما، كما كان يفعل قبل ذلك، وجهاز كل واحد منهما بمائة من الخيل المسرجة، وبخيام جميلة مزركشة غالية، وأوان وأدوات مائدة من فضة، وزودهما بتعليمات مؤداها أن يعرضوا على هذين الملكين ضرورة قبول مذهبه، وفي هذا اعتراف بسلطته العليا، وأن يسمحوا بقراءة كتب المذهب الشيعي والأدعية الخاصة بهذا المذهب في مساجدهم، وقد أرسل الشاه إسماعيل بهذا الطلب نفسه سفيراً إلى ملك هرمز»^(٢).

وفي هذه الأثناء قابل الشاه إسماعيل أعمال الاستفزاز البرتغالي ضد بلاده بكثير من الصبر، وبذل محاولات حثيثة للتقارب مع أفونسو دلبوكيرك، وقد آتت هذه الجهود

(١) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٢٥٩/١.

(٢) المصدر السابق، ٥٣٧/٢.

ثمارها سنة ١٥١٠، عندما استقبل دلبوكيرك في مقر حاكميته في الهند مبعوثاً للشاه إسماعيل أكد له ضرورة قيام صداقة بين الشاه وملك البرتغال من أجل كسب الحرب ضد الأتراك وسلطان القاهرة، وقد وعد دلبوكيرك بتقديم الأساطيل والرجال والمدفعية والحصون البرتغالية القائمة في الهند مقابل أن يقدم الشاه المساعدة للبرتغاليين في حروبهم ضد أعدائهم^(١). وقام دلبوكيرك بعد ذلك بإيفاد مبعوث من قبله إلى تبريز للتفاوض مع الشاه إسماعيل الذي استقبله بحفاوة وبالع في إكرامه، وأرسل له مجموعة من الهدايا لأفونسو دلبوكيرك، تتضمن:

«أقمشة حريرية كثيرة، وأقمشة مقصبة ومطرزة، وخيول مسرجة ومهيأة تهيئة فخمة، وحقائب للبريد مختلفة، وأسلحة فارسية، وحلتين من قماش مقصب بأزرار من ذهب، وحزام وترس وخنجر، وأشياء أخرى كلها من ذهب، وقطعاً من الفيروز بحالتها الطبيعية كما استخرجت من المناجم»^(٢).

وقد تعززت العلاقات الصفوية-البرتغالية بصورة أكبر في أعقاب الحملة التي شنها السلطان العثماني سليم سنة ١٥١٤، فتوغل في أراضي الدولة الصفوية وأوقع بجيوشها هزيمة نكراء في معركة جالديران في ٢٣ أغسطس ١٥١٤، ثم لاحق الشاه إسماعيل إلى عاصمته تبريز، وهزمه عندها في معركة أخرى في الخامس من سبتمبر من العام نفسه، وقد مكنه ذلك النصر من السيطرة على طريق الحرير الممتدة ما بين تبريز إلى حلب ومن تبريز إلى بورصة، مما دفع بالشاه إسماعيل إلى المسارعة في إرسال موفده لمقابلة أفونسو دلبوكيرك بهرمز في صيف عام ١٥١٥^(٣).

وقد تناولت المفاوضات أربع مسائل رئيسية:

«المسألة الأولى: أن العوائد المالية المفروضة على البضائع القادمة من فارس إلى هرمز إنما هي من حق الشاه إسماعيل.

المسألة الثانية: أن المنطقة البحرية الواقعة بين البحرين والقطيف يجب أن تكون مخصصة لسفنه العابرة من فارس إلى سواحل شبه الجزيرة العربية.

المسألة الثالثة: أن يساعد أفونسو دلبوكيرك بأسطوله الشاه للاستيلاء على جوادر لأن ملك مكران التابع له قد رفع راية العصيان واستولى عليها...

(١) عصام سخنيي (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٨٦-٨٧.

(٢) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٢/٥٤٠-٥٤٣.

(٣) عصام سخنيي (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٩٨-٩٩.

المسألة الرابعة: ضرورة أن يكون للشاه إسماعيل مرفأً في الهند حتى يتمكن التجار الفرس من الاتجار ببيضائهم ويطلب إذناً لإنشاء محطة تجارية فارسية في هرمز.^(١)

كانت هذه المطالب مفاجئة بالنسبة لدلبوكيرك الذي طلب من سفير الشاه إمهاله بعض الوقت لدراسة هذه المسائل الأربعة بتأني، وقبل أن يقدم رده النهائي، حرص دلبوكيرك على إرسال مجموعة من الهدايا إلى الشاه تتضمن:

«دروعاً بعضها مزدان بقطيفة حمراء والآخر بأقمشة معصبة وواق للرأس وآخر للذقن كلاهما محليان بالذهب، وأجهزة كاملة للخيل، وأربعة أسورة من ذهب وياقوت وحلقات غالية جداً وجواهر وأحجار كريمة وذهب ومدفع قصير الماسورة، ومدفع معدني آخر، وست بنادق من ذوات الفتائل، وسهام كثيرة وأقواس، وأرسل له نحاساً وقصديراً، وكميات قليلة من كل بهارات الهند... وكان من بين التعليمات أن يعلن للشاه إسماعيل أنه إن كان راغباً في مواصلة علاقات مفيدة وودودة مع سيده ملك البرتغال فلا بد أن يرسل سفراء إلى البرتغال فهو -أي الشاه إسماعيل- يستطيع بالاستعانة بالبرتغاليين لتحطيم السلطان الكبير وبيت مكة، فإذا ما صدرت الأوامر من ملك البرتغال للأسطول فإنه (أي أفونسو دلبوكيرك) سيسعده مساعدته لأنه قد دعم وضعه في هرمز».^(٢)

وفيما يخص النقاط الأربعة التي طلبها الشاه فقد جاء رد دلبوكيرك عليها فيما يأتي:

«بالنسبة للموضع الأول وهو مطالبته بالعوائد المالية المفروضة على البضائع القادمة من فارس إلى هرمز؛ فهذه العوائد حق لأفونسو دلبوكيرك، لأن النفقات التي يضطر ملك هرمز لإنفاقها على الجيش والأسطول للحفاظ على مملكته نفقات كبيرة جداً، ومما يزيد من نفقاته مبلغ الإتاوة الذي يتسلمه سيده ملك البرتغال. وأفونسو دلبوكيرك لا يستطيع تسليم هذه العوائد للشاه إسماعيل لأن العوائد من الرسوم على التجارة القادمة من فارس وغيرها لا تكفي نفقات هرمز. وباقي العوائد قليلة كما يعلم الشاه جيداً.

أما بالنسبة للموضوع الثاني، وهو ضمان ممر مائي لرجاله إلى ساحل شبه الجزيرة العربية؛ فيسعه الموافقة على ذلك، بل وسيقدم له كل السفن التي يحتاجها، لأنه بذلك سيؤمن ملك هرمز تأميناً كبيراً بحيث لا تحدث أحداث شغب تسبب المتاعب في هرمز ولا في جزيرة البحرين.

(١) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٦١٦-٦١٣/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٦٤٠/٢.

أما بالنسبة إلى الموضوع الثالث، وهو على وجه التحديد مساعدة الشاه إسماعيل في حربه ضد ملك مكران؛ فإن سيساعده بكل جيش ملك البرتغال وأسطوله، فالملك قد أمر بذلك لكن هذا الأمر يمكن تنفيذه بشرط واحد: وهو أن البضائع التي ترد من فارس إلى هرمز لا تحول إلى جهة أخرى.

أما بالنسبة للموضوع الرابع، وهو طلب ميناء في الهند يمارس فيه تجار فارس تجارتهم، وطلب الإذن بإقامة محطة تجارية ومخزن في هرمز؛ فقد كان ذلك يسعده لولا أن الميناء المختار للهند يجب أن يكون هو جوا، والدخول إلى هرمز، لأنه في أي ميناء آخر في الهند يمكن أن يفقد التجار الفرس فيه بضائعهم وقد يتعرضوا لعقوبات تنزل بهم»^(١).

وبموجب هذه الاتفاقيات التي أبرمت في صيف عام ١٥١٥ تمكن دلبوكيرك من الحصول على اعتراف الصفويين بحق السيطرة البرتغالية على هرمز، وتنازل الصفويون للبرتغاليين كذلك عن حق تقاضي الرسوم الجمركية في مرافئ شرقي شبه الجزيرة العربية، كما منحوا موافقتهم على نشاط البرتغاليين في الخليج العربي، ومنذ ذلك الحين حافظت الدولة الصفوية على علاقات ممتازة مع البرتغاليين، فقد رسخ الشاه طهماسب الأول (١٥٣٤-١٥٧٦) العلاقات التي أسسها والده مع البرتغاليين، وحرص طوال عهده الذي امتد خمسين عاماً على عدم القيام بأي إجراء يمكن أن يضعف من النفوذ البرتغالي في هرمز أو قشم أو غيرها من موانئ الخليج العربي، فقد كان الشغل الشاغل للدولة الصفوية هو الحرب في الولايات الغربية ضد العثمانيين أو صد هجمات الأوزبك التركمان على خراسان. وللتعبير عن امتنانه أرسل ملك البرتغال دوم سياستيان (١٥٥٧-١٥٧٨) سفارتين محملتين بالهدايا والتحف إلى بلاط الشاه الصفوي بهدف توطيد العلاقات بين البلدين.^(٢)

وفي أعقاب خضوع البرتغال للتاج الإسباني في عهد الشاه محمد خدابند (١٥٧٦-١٥٨٧) الذي خلف والده طهماسب، ورثت إسبانيا العلاقات الطيبة مع الدولة الصفوية حيث أرسل الملك الإسباني فيليب الثاني (المعروف بتعصبه للمذهب الكاثوليكي) سفيراً إلى الدولة الصفوية يطلب منه ثلاثة أمور:

١. أن يمنح الشاه أتباع المذهب الكاثوليكي الحرية الدينية في بلاده.
٢. أن لا يكف يده عن عداوة وقتال العثمانيين.
٣. أن يمنح الرعايا الإسبان امتيازات تجارية.

(١) المصدر السابق، ٦٤٠/٢-٦٤٢.

(٢) كانت السفارة الأولى سنة ١٥٥١، والثانية سنة ١٥٧٤، حيث وصل سفير البرتغال إلى البلاط الصفوي في كثير من الأبهة حتى إن معاونيه - غير الخدم والمرافقين- بلغ عددهم خمسين شخصاً. نصر الله فلسفي (١٩٨٩)، مرجع سابق، ص ١٩.

وكان السفير الإسباني قسيساً يتكلم الفارسية اسمه سيمون موراليس، فتلقاه الشاه بالود والترحاب وطلب منه أن يدرس ابنه الأكبر علوم الرياضة والفلك، وأرسل معه سفيراً إلى البلاط الإسباني ولكن سفينته تعرضت لعاصفة على الساحل الشرقي لإفريقيا وغرقت بركابها.^(١)

ولكن السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر شهدت تغيراً جذرياً في السياسة الصفوية تجاه البرتغاليين، وبدأ ذلك التحول في عهد الشاه عباس الكبير (١٥٨٧-١٦٢٩) الذي لاحظ بأن علاقة أسلافه الطيبة مع البرتغاليين لم تحقق لبلاده أية مكاسب. وقد شجع الشاه على إدارة ظهره للبرتغاليين ظهور قوى أوروبية أخرى وعلى رأسهم الإنجليز، حيث اتصل بعدد من الدول الأوروبية بهدف فتح طريق لصادراته من الحرير الفارسي خارج المناطق التي كان يحكمها العثمانيون الذين كانوا يناصبونه العداً ويتقاضون في الوقت ذاته ضرائب باهظة على المنتجات الفارسية المتجهة نحو موانئ البحر الأبيض المتوسط. وفي المقابل أبدى البريطانيون اهتماماً مماثلاً بالمتاجرة مع الفرس، ونتج عن ذلك تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠ لتمثل بداية تنظيم العلاقة التجارية ما بين الفرس والبريطانيين، إذ اندفعت الشركة فور تأسيسها لمبادلة فائض الصوف الإنجليزي بالحرير الفارسي، وبذلك تمكنت من إقناع البلاط الفارسي بمنحها امتيازات تجارية وتشجيع التجار البريطانيين على التبادل التجاري مع فارس. وما لبثت هذه العلاقة التجارية أن تحولت إلى تحالف سياسي وعسكري ما بين الشاه عباس والبريطانيين لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي وكسر احتكارهم لتجارته وإنهاء السيطرة على ممراته البحرية، ونتيجة لذلك فقد دعم البريطانيون سياسة الشاه عندما أطلق يد حاكم إقليم فارس لهوردي خان ومن بعده ابنه ووريثه في الحكم إمام قولي خان لمناوشة البرتغاليين ومحاولة ضرب الاحتكار الهرمزي-البرتغالي لحركة التجارة والملاحة في الخليج العربي. وقد واتت قولي خان الفرصة في العام ١٦٠٢ عندما تمرد عرب البحرين على الحاكم وقتلوه واستولوا على القلعة وأجروا بعدها اتصالات مع قولي خان لمساعدتهم في التخلص من النفوذ البرتغالي-الهرمزي، وقد استجاب لهم قولي خان فأرسل حملة عسكرية، وفي هذه الأثناء وقف الإنجليز موقف المؤيد للصفويين في مواجهتهم مع البرتغاليين، ثم برزت هذه السياسة جلية في التحالف البريطاني الصفوي لطرد البرتغاليين من هرمز سنة ١٦٢٢.^(٢)

(١) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) عصام سخيني (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٦. ويدر الدين الخصوصي (١٩٨٥) مرجع سابق، ص ١٦٤.

المبحث الرابع

البحرية العثمانية في مواجهة البرتغاليين

كانت الدولة العثمانية منشغلة في مطلع القرن السادس عشر بحروبها ضد امبراطورية آل هابسبرج النمساوية برّاً، وبمعاركها البحرية ضد الأساطيل الأيبيرية والإيطالية في البحر المتوسط، ونظراً لعدم توفر أي معبر بحري للعثمانيين ليمكّنهم من مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي فقد قام بادر السلطان بايزيد الثاني إلى إرسال المساعدات إلى المماليك في مصر وتزويدهم بتقنية الحروب البحرية حيث أرسل لهم مجموعة من الخبراء العثمانيين وعلى رأسهم القبطان العثماني الرئيس كمال، الذي وصل إلى السويس سنة ١٥٠٧، ومعه: ٣٠٠ مدفع، و ١٥٠ عموداً لربط الأشرعة، وثلاثة آلاف مجرفة، وكميات كبيرة من الأشرعة والأخشاب والزفت والفئوس، كما قدم السلطان العثماني ثمانية سفن حربية للمماليك لاستخدامها في حروبهم ضد البرتغاليين، وفي غضون إقامته في مصر قام الرئيس كمال بمعاونة فريق من الفنيين الذين قدموا معه من اسطنبول بصنع ثلاثين سفينة حربية في السويس، ثم أتبعته السلطة العثمانية الرئيس كمال بالقبطان الشهير أحمد أوغلو أيدين، ثم الرئيس حامد مع كمية كبيرة من المساعدات لخدمة المماليك وإصلاح الأسطول المصري، وعندما أراد المماليك دفع ثمن المساعدات المرسله رفض الرئيس حامد قائلاً: «إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة»^(١).

ولكن العلاقات الودية بين العثمانيين والمماليك شهدت توتراً كبيراً في العقد الثاني من القرن السادس عشر مما دفع بالسلطان سليم أن يشن حملته الشهيرة ضد المماليك سنة ١٥١٦، والتي انتهت بانتهاء دولة المماليك وخضوع أقاليمها إلى السلطة العثمانية سنة ١٥١٧.

وفي هذه الأثناء كانت الجبهة العثمانية الأوروبية تشهد المزيد من المعارك التي استمرت طوال الثلث الأول من القرن السادس عشر وتحديداً في المجر وألمانيا. ولم يشعر العثمانيون بحرية التحرك في الشرق إلا بعد عقد معاهدة سلام مع آل هابسبورغ صيف عام ١٥٣٣، مما دفع بالسلطان سليمان القانوني لشن حملته الكبيرة ضد الدولة الصفوية في سبتمبر ١٥٣٣، حيث وجه جيشاً ضخماً تعداده ١٤٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا. وبحلول شهر يوليو ١٥٣٤ دخلت الدولة العثمانية للمرة الثانية مدينة تبريز عاصمة

(١) يلماز أوزتونا (١٩٨٨) تاريخ الدولة العثمانية، اسطنبول. ص ٣٢٤.

الصفويين. ونتيجة لهذه المعركة الحاسمة بدأت عشائر المنطقة تعلن انضمامها إلى السلطة العثمانية؛ ويشير لونغريغ إلى أن السلطة العثمانية في تلك الفترة كانت سلطة رمزية، ولم تكن تتجاوز توزيع الملابس الرسمية العثمانية على المسؤولين، وإصدار الأوامر بتعيينهم حكماً على الأقاليم الخاضعة لهم، قانعين من هؤلاء الحكام بإرسال الهدايا وتأكيد الولاء.^(١)

وفي عام ١٥٣٤ وصلت إلى إسطنبول بعثة حاكم البصرة راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل الذي أصبح حاكماً للبصرة والأحساء سنة ١٥٢٤، وسمي سلطان الشرق، فالتهمت قبول البصرة في التبعية العثمانية وأعلنت البعثة التي كان في عدادها ابن الحاكم ووزيره عامر محمد عن رغبة أهالي البصرة في الخضوع للسلطة العثمانية، كما قدمت للسلطان هدايا قيمة ومفتاح المدينة، وأعلن كذلك انضمام كل من لورستان وخوزستان والبحرين والقطيف وغيرها من الإمارات إلى السلطة العثمانية ومنح حكام هذه المناطق ألقاباً عثمانية وتأكيدات ثابتة بالدعم والحماية، ولكن في هذه المرحلة المبكرة تجسدت السلطة العثمانية بصورة رمزية من خلال الاكتفاء بالخطبة للسلطان العثماني ونقش اسمه على النقود دون التدخل في الشؤون الداخلية لتلك الأقاليم النائية عن سلطتها.^(٢)

إلا أن هذا الخضوع ظل اسمياً حتى انضواء البصرة بشكل فعلي للإدارة المركزية العثمانية سنة ١٥٤٦، حيث انطلق إياس باشا على رأس قوات الإيالة إلى البصرة، ودخلها في ديسمبر ١٥٤٦ وجعلها مركزاً للإيالة وأصبحت البصرة تمثل القاعدة البحرية العسكرية العثمانية الثانية بعد السويس بالنسبة للعثمانيين في الخليج العربي، وأخذوا على عاتقهم محاربة البرتغاليين في مياه الخليج العربي. ومنذ منتصف القرن السادس عشر أصبحت ولاية الأحساء تحت حكم ولاية عثمانيين برتبة بيلربي. وفي ١٥٥٠ سيطر العثمانيون على القطيف التي كانت نقطة ارتكاز رئيسة للبرتغاليين في الخليج العربي.^(٣)

وفي المواجهات الأولى مع البرتغاليين أدرك العثمانيون بأنه لا يمكن تحقيق انتصار حاسم وطويل الأمد ضد البرتغاليين في الخليج العربي دون أسطول قوي، فشرعوا في التجهيز لسلسلة معارك حربية ضد البرتغاليين في المنطقة، كما قرر العثمانيون توحيد قواتهم في المحيط الهندي ووضعها تحت قيادة أميرال أو باشا قابودان البحر الأحمر، وعين

(1) S. Longrigg (1925) *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, p 20.

(٢) نيقولاوي إيفانوف (٢٠٠٤) *الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤*، دار الفارابي، بيروت. ص ١١٠-١١١.

(٣) فاضل بيات (٢٠٠٧) *الدولة العثمانية في المجال العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص ٥٠٢.

الملاح العثماني وواضع الخرائط الجغرافية الشهير محيي الدين الريس بييري في منصب قابودان البحر الأحمر، وفي عام ١٥٥٢ عهد إليه بإقامة حاجز بحري في الخليج العربي، فخرج على رأس قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة حربية على متنها ١٦ ألف مقاتل من السويس متجهاً نحو سواحل عُمان، وبعد أن ألحق هزيمة بالبرتغاليين في مسقط، وسيطر عليها لفترة وجيزة فشلت قواته في الصمود أمام المدافع البرتغالية أثناء حصارها لهرمز، فانسحب إلى البصرة بعد سلسلة من الإخفاقات، ومنها عاد إلى مصر حيث أعدم هناك.^(١)

وفي أغسطس ١٥٥٣ عين مراد باشا قائداً للأسطول العثماني في البحر بمهمة تتطلب العودة بالأسطول العثماني الذي تركه بييري في حالة سيئة إلى البحر الأحمر، ولكنه اضطر للتراجع بالأسطول إلى البصرة بعد أن تعرض لهزيمة أخرى على يد نورونها قائد الأسطول البرتغالي بالقرب من هرمز.

وبحلول يوليو ١٥٥٤ كان العثمانيون قد نجحوا في إعادة تجهيز الأسطول وصيانتته وعين الكاتب الشهير سيدي علي في منصب أمير البحر وعهدت إليه مهمة الخروج بالأسطول من مياه الخليج العربي والعودة به إلى البحر الأحمر، ولكن في ٢٥ أغسطس من العام نفسه، تمكن البرتغاليون من إلحاق هزيمة كبيرة بالأسطول العثماني، ومع ذلك فقد نجح سيدي علي من الإفلات ببعض القطع المتبقية من أسطوله إلى الهند. ونظراً لأن العثمانيين لم يتمكنوا من هز قوة البرتغاليين في الخليج العربي؛ فإنهم قرروا التخلي عن مخططاتهم الرامية إلى القضاء على الأسطول البرتغالي في ضربة واحدة وأخذوا يقومون بعملياتهم الأساسية انطلاقاً من السويس ومرافئ البحر الأحمر، مكثفين بعمليات محدودة ضد البرتغاليين في الخليج العربي. وفي الوقت ذاته لم يتمكن البرتغاليون من زعزعة مواقع العثمانيين في العراق وشرقي شبه الجزيرة العربية.^(٢)

وفي ستينيات القرن السادس عشر شرع العثمانيون في تبني سياسة جديدة تهدف إلى مهادنة البرتغاليين، بعدما أدركوا بأن القضاء على نفوذهم في الخليج العربي أمر متعسر، وخاصة بعد حملة مصطفى بيلربي الفاشلة سنة ١٥٥٩، وظهرت بوادر استرضاء البرتغاليين والسعي لإقامة علاقة طيبة معهم في خطاب أرسله البرتغالي ألفارو دي نورونها حاكم قلعة هرمز إلى الملك دون جوان الثالث سنة ١٥٦٢، وأشار فيه إلى اهتمام العثمانيين بأن تظل تجارتهم في البصرة مفتوحة أمام البرتغاليين، وأنهم كتبوا بهذا الشأن رسائل عدة إلى

(١) بدر الدين الخصوصي (١٩٨٤)، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) نيقولا إييفانوف (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٥.

الملك مانويل، كما أشار إلى التسهيلات التجارية ما بين البصرة وهرمز^(١) وفي الاتجاه نفسه بعث السلطان العثماني سليمان القانوني إلى الملك سباستيان رسالة في العام ١٥٦٤ يقول فيها:

«إن كان قصدكم الصلح والسلام فكفوا أيديكم عن الاعتداء على الحجاج والتجار عند وصول رسالتنا الهمايونية، وابعثوا إلينا رسالتكم مع مندوبكم المعتمد عليه ليصار إلى تقرير النظام في تلك الأصقاع»^(٢).

ونتيجة لهذه السياسة فقد ازدهرت الحركة التجارية في الخليج العربي، وخاصة بين الأقاليم الخاضعة للسيطرة العثمانية وتلك الخاضعة للبرتغالية، فقد كتب أحد الرحالة الأوروبيين في العام ١٥٩٠ تقريراً للملك الإسباني فيليب الثاني عن هرمز، وصفها فيه بأنها:

«مدينة مفتوحة لجميع الهجرات والتجارات وأنواع التهريب، وفيها بنادقة وأرمن وفرس وأتراك وبرتغاليون صابئون (أي دانوا بالإسلام)».

وقد أدهشه حجم التجارة مع الدولة العثمانية التي كانت تستفيد من خبرات الهرمزيين في الهند والتجارة فيها، ومن معرفتهم بسلعها كالتوابل واللؤلؤ وخشب الصندل، كما كانت تستفيد من خبرتهم في تهريب الأسلحة والذخائر^(٣).

وقد أظهر العثمانيون اهتماماً كبيراً بالبحرين، حيث أضفوا على حاكمها الرئيس مراد لقب صنجق، وتشير الوثائق العثمانية إلى أن الرئيس بييري كان يحمل أوامر باحتلال البحرين سنة ١٥٥٢، وهو في طريقه إلى البصرة، كما مر سيدي علي بالبحرين واتصل بالرئيس مراد وحصل منه على معلومات مهمة حول تواجد البرتغاليين في مياه الخليج العربي، ومن ثم في سنة ١٥٥٩ قام حاكم الأحساء العثماني مصطفى بيليري بشن هجوم على البحرين، كما تشير المصادر إلى بذل العثمانيين محاولات أخرى لبسط نفوذهم على البحرين في سبعينيات القرن السادس عشر، ولكنها باءت جميعها بالفشل.

والحقيقة هي أن علاقات البحرين مع الدولة العثمانية لا تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة، حيث إن المصادر العثمانية والبرتغالية على حد سواء تشير بصورة واضحة إلى

(١) أحمد الغناني (١٩٨٤) «البرتغاليون في البحرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، مجلة الوثيقة، ع٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ١٠٦.

(٢) جاهد بلطجي (١٩٨٩) «صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ٦٢.

(٣) عصام سخيني (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ١١٧.

زيادة التواصل بين العثمانيين وأهل البحرين إلى درجة أن السلطة العثمانية قد فكرت سنة ١٥٩٥ بتحويل البحرين إلى إيالة وطلبت المشورة في ذلك من بيلربي الأحساء. كما طالب بعض أهل البحرين السلطات العثمانية في القطيف بمساعدتهم في إنشاء برج مقابل القلعة في محاولة لزيادة حجم التواجد العثماني في البحرين.^(١)

خاتمة

شهدت منطقة الخليج العربي إبان القرن السادس عشر ظهور ثلاث قوى رئيسة متمثلة في: الدولة الصفوية التي تأسست سنة ١٥٠٠، والامبراطورية البرتغالية الشرقية التي بسطت نفوذها على هرمز سنة ١٥٠٧، والدولة العثمانية التي وصلت قواتها إلى مياه الخليج العربي من جهة البصرة بحلول سنة ١٥٤٦.

وقد دأبت الكثير من المصنفات التاريخية الحديثة على اعتبار سكان الخليج العربي ضحايا لذلك الصراع، وتصوير كيانتهم السياسية باعتبارها أقاليم لا إرادة لها، وكان دأبها أن تدين بالولاء للطرف الذي يتغلب في ذلك الصراع.

ويمكن تبرير هذه النظرة باعتبارها انعكاس طبيعي للاعتماد على مصادر هذه القوى التي لم تكن تغير السكان المحليين في الخليج العربي الكثير من الاهتمام، وإنما كانت تهتم أكثر بالحديث عن صراع القوى الكبرى في المنطقة. ولكن الدراسة المتأنية تدفعنا لمراجعة هذه الأطروحات، وإعادة الاعتبار للسكان المحليين، وبالأخص منهم أهل البحرين الذين سجلوا مواقف مهمة في أتون ذلك الصراع.

وقد حاولت المباحث الماضية أن تتناول طبيعة السيطرة البرتغالية والهرمزية والعثمانية على مناطق مختلفة في الخليج العربي، لتخرج بنتيجة مفادها أن هذه القوى الثلاث لم تكن قادرة على بسط نفوذها على البحرين، فالبرتغاليون غزوا البحرين أكثر من مرة، ولكنهم لم يقوموا بإحلال سلطة برتغالية فيها، والهرمزيون لم يكونوا قادرين على البقاء في البحرين أو إخضاعها لسلطتهم بسبب التدهور السياسي والعسكري الذي أصاب مملكتهم عقب خضوعها للحكم البرتغالي، بينما لم تكن السلطة العثمانية تمثل أكثر من وجود رمزي في الموانئ التي عجزت عن إحكام السيطرة عليها.

لقد التقت هذه القوى الثلاث (البرتغاليون الهرمزيون والعثمانيون) في البحرين سنة ١٥٥٩، وبعد مفاوضات مطولة في القلعة، حضرها ممثلون عن هذه السلطات الثلاث،

(١) دفتر المهمة رقم ٧٣، ص ٤٨١، رقم الحكم: ١٠٥٨.

بالإضافة إلى حاكم البحرين نفسه ، انسحبت هذه القوى من البحرين معترفة بعدم قدرتها على البقاء فيها واحتلالها .

ولعل النقطة الأساسية التي يجب أن يضعها أي مؤرخ للبحرين في اعتباره هي أن البحرين كيان جزري لا يصح أن ينظر إليه بالطريقة التي تدار بها الأقاليم البرية؛ حيث إنه يصعب إخضاع الكيانات الجزرية لاحتلال عسكري طويل الأمد ، وعلى الرغم من قيام العديد من القوى الأوروبية بغزو البحرين في العصور الحديثة إلا أن أياً منها لم يحاول أن يفرض فيها نظام احتلال غربي ، فقد تمتعت البحرين بحماية طبيعية تتمثل في: ضحالة المياه ، والرياح التي كانت تجلب معها الأوبئة والأمراض التي فتكت بعدد كبير من الغزاة ، بالإضافة إلى وجود قادة على درجة عالية من الحنكة والدهاء حافظوا في تلك الفترة على استقلال البحرين .

والحقيقة التي تحاول الفصول القادمة إثباتها هي أن البحرين قد تعرضت لعدة حملات عسكرية في السنوات : ١٥١١ ، و ١٥١٣ و ١٥٢٠ ، و ١٥٢١ ، و ١٥٢٩ و ١٥٥٩ و ١٥٧٣ ، إلا أن جميع هذه الحملات قد فشلت في إيجاد سيطرة استعمارية بديلة ، وفرض وجود غربي طويل الأمد على أرض البحرين ، وباستثناء أشهر قليلة ما بين يوليو ونوفمبر من عام ١٥٢١ ، كانت البحرين تمثل كياناً سياسياً مستقلاً يتمتع بإدارة محلية ونظام حكم محلي كامل السيادة .

الفصل الثالث



البحرين في السنوات الأخيرة من
حكم الجبور (١٥٠٠-١٥٢٩)

يتناول هذا الفصل، مرحلة انتقالية حاسمة مرت بها البحرين في مطلع القرن السادس عشر، حيث تعرضت في تلك الفترة لخمس حملات عسكرية برتغالية-هرمزية، كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الاستحواذ على ثرواتها، ودفع حكامها إلى الالتزام بإتاوة سنوية تعود إلى خزانة لشبونة من خلال هرمز.

وقد بذل حكام البحرين من الجبور جهوداً كبيرة لصد الهجمة البرتغالية على الساحل العُماني عام ١٥٠٧، ثم شرعوا في مقاومة الأطماع البرتغالية-الهرمزية في بلادهم، وذلك من خلال تجهيز أسطول عسكري حديث، وتحصين جزر البحرين، والتعاون مع القوى الإقليمية لمواجهة الخطر البرتغالي.

وعلى الرغم من تلك الجهود إلا أن الجبور قد تلقوا ضربة قاسية عام ١٥٢١، ولكنهم لم يفقدوا سلطتهم في البحرين إلا بصورة مؤقتة، فقد أدى تمرد حاكم هرمز ووزيرها إلى تحالف البرتغاليين مع الجبور لتوطيد نفوذهم في موانئ عُمان، واستمر الشيخ حسين بن سعيد الجبيري في حكم البحرين حتى وفاته عام ١٥٢٩، مما أدى إلى وقوع فراغ سياسي، ومن ثم تمرد مسؤول الجمارك الهرمزي الذي دفع بالبرتغاليين لشن حملة عادت عليهم بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وأمنت البحرين بعد ذلك من الخطر البرتغالي لفترة طويلة.

وقد أدت هذه الأحداث إلى تعيين حاكم جديد بقي في الحكم حتى عام ١٥٧٧، ووقع في عهده الانفصال السياسي بين أرخبيل البحرين وبين الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية، حيث يستعرض الباحث جملة من المصادر العربية والعثمانية والبرتغالية للتدليل على أن الجزر قد استأثرت بمسمى: «البحرين» في تلك الفترة، وبالإضافة إلى المادة الوثائقية، فقد تمت الاستعانة بمجموعة من الخرائط التي رسمت في القرن السادس عشر وتدل جميعها على تسمية الأرخبيل بالبحرين، وإطلاق مسميات أخرى على الإقليم مثل «الأحساء» و«القطيف». وأسهمت المصادر المحلية إسهاماً كبيراً في التدليل على أن أرخبيل الجزر قد استأثر بمسمى «البحرين» دون الإقليم.

المبحث الأول

وصف البحرين في مطلع القرن السادس عشر

تقدم لنا الروايات العربية والأوروبية صورة واضحة للمشهد العام في البحرين إبان القرن السادس عشر؛ ويمكن وصف الأوضاع العامة في أرخبيل الجزر بأنها كانت تعكس حالة فريدة من التنوع السكاني، والازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي، في ظل حكم دولة الجبور التي بسطت هيمنتها على البحرين منذ منتصف القرن الخامس عشر.

ففي سنة ١٤٩٨ تعرض الجغرافي الشهير أحمد بن ماجد لوصف جزر البحرين بإسهاب؛ فتحدث عن حركة الغوص التي تستقطب نحواً من ألف مركب،^(١) وفي سنة ١٥٠٣ أكد الرحالة الإيطالي فارتيمو وجود عدد كبير من السفن التابعة لمختلف الأقاليم حول البحرين التي يحكمها سلطان مسلم.^(٢)

وبحلول سنة ١٥١٢ كانت البحرين لا تزال تتمتع بالسمعة نفسها في مجال ازدهار مهنة الغوص، وما تدره تجارتها من أرباح كبيرة، حيث تحدث الرحالة البرتغالي تومي بيريز عن ذلك بقوله:

«إن الجزيرة الرئيسة في الخليج هي البحرين، وتمتاز بتوفر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها، إذ ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها، ويشكل جزءاً مهماً من تجارة هرمز».^(٣)

وبعد ذلك بعامين (أي في سنة ١٥١٤) عبّر القائد البرتغالي أفونسو دلبوكيرك عن رغبته في بسط السيطرة على البحرين، التي لفت انتباهه فيها ثراء مغاصاتها باللؤلؤ، وانعكاس ذلك على ازدهار الحركة التجارية فيها، قائلاً:

«إن البحرين أهم ما يمكن أن يهتم به الإنسان، ذلك أن عدداً كبيراً من المراكب تنطلق منها في اتجاه الهند، محملة بعدد كبير من الخيول، وكذا بكميات مهمة من اللؤلؤ. إن الاستيلاء عليها والتحكم فيها أمر هين إذا ما ساعدنا الإله في ذلك وتوفر لنا الوقت».^(٤)

(١) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) شهاب الدين أحمد بن ماجد؛ الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول، مركز الدراسات والوثائق، راس الخيمة، ص ٦٩.

(٢) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ترجمة وتعليق (١٩٩٤) رحلات فارتيمو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٨٩.

(3) Hakluyt Society, (1944) *The Suma Oriental of Tome Pires, An Account of The East, From the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515*, 2 Vols, London.

(٤) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد ٤، يناير ١٩٨٤، ص ١٢٢.

وفي سنة ١٥١٨ تحدث الرحالة البرتغالي دوراتي باربوسا عن أهمية مهنة الغوص في ازدهار الحركة التجارية بالبحرين قائلاً:

«يأتي تجار هرمز إلى البحرين لشراء حبات اللؤلؤ ليقوموا بإعادة بيعها في الهند، ويجنوا من ورائها أرباحاً طائلة، ويذهبون كذلك إلى مملكة نارسنجا عبر الجزيرة العربية وفارس لشراء اللؤلؤ أيضاً، ويوجد اللؤلؤ في جميع أنحاء بحر فارس، غير أن البحرين هي المكان الذي يتسم بكثرة وجوده»^(١).

وقد استمر ازدهار مهنة الغوص في البحرين وتميز لؤلؤها بجودته، في لفت انتباه الرحالة الغربيين طوال فترة القرن السادس عشر، ففي مطلع عشرينيات ذلك القرن أشار المؤرخ البرتغالي باروس إلى أن البحرين:

«تمتاز بموقع فذ وسط الخليج، وتبحر إليها العديد من السفن المحملة بشتى أنواع البضائع، ومن حولها تتكاثر أصداف اللؤلؤ في البحر من الأصناف الجيدة، ويتولى تجار البحرين إدارة عمليات الغوص على اللؤلؤ، ويجنون من ذلك أرباحاً ضخمة، ويأتي إلى البحرين تجار من هرمز لشراء اللؤلؤ ومن ثم يبيعه في أسواق الهند، ومن صفات جزيرة البحرين أيضاً تعدد ما فيها من الفواكه، ونبابيع المياه العميقة المالحة والتمور والصقور والقمح والشعير والخيول»^(٢).

ويلاحظ في هذا النص أن باروس لم يكتفي بالحديث عن ازدهار مهنة الغوص فحسب، بل تعرض كذلك للحديث عن تطور الزراعة في البحرين، ولم يكن باروس هو المؤرخ الوحيد الذي استرعت الحركة الزراعية انتباهه في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، فقد سبقه ابن ماجد الذي وصف الثروة الحيوانية والإنتاج الزراعي في البحرين بقوله:

«وفيها جملة من النخيل المثمرات اللواتي تضرب بها الأوصاف، والخيل والإبل والبقر والأغنام، وفيها عيون جارية ورمان وتين واطرنج وليم»^(٣).

وتؤيد المصادر البرتغالية ما ذكره ابن ماجد من تنوع كبير في المنتجات الزراعية التي

(1) Dames, Mansul Longworth, translator (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Vol. 1, London Hakluyt Society.

(2) Joao de Barros (1945-46) *I Asia. Dos feitos que os Portugueses fizeram no decubrimento e conquista dos mares e terras do Oriente.* Lisbon, 7th edition. 4/317.

(3) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) شهاب الدين أحمد بن ماجد، مصدر سابق، ص ٦٩.

تشمل: التمور والفواكه والرمان والخوخ والتين ومختلف أنواع الخضروات، حيث شبهتها في هذا الباب بشبه جزيرة أيبيريا التي يكثر فيها إنتاج الفواكه، معللة ذلك بأن:

«موضع تلك الجزيرة (البحرين) في حد ذاته منخفض، وهي كثيرة النخيل وشديدة الرطوبة والخضرة، حتى إنه أينما حضر السكان يجدون الماء»^(١).

وورد في الأعمال الكاملة لأفونسو دلبوكيرك بأنه:

«في الخليج توجد أيضاً جزيرة يقال لها البحرين كذلك مشهورة بإنتاج الخيول بكثرة، كما تشتهر بمحصول الشعير وبتنوع فواكهها»^(٢).

ويستشف من هذه النصوص أن جزر البحرين كانت تتمتع باقتصاد مزدهر ومستقر، ويظهر ذلك جلياً في تعدد أنماط الإنتاج المتمثلة في: الغوص، والزراعة، والتجارة، والنقل البحري، وقد أدى ذلك الازدهار إلى وجود تنوع سكاني لاحظته ابن ماجد في وصفه للبحرين من خلال حديثه عن وجود عدد كبير من القرى، بالإضافة إلى استيطان جملة قبائل من العرب بها، واستقرار مجموعة من كبار تجار الخليج العربي فيها، مما انعكس بدوره على الحركة العمرانية في البحرين حيث وصف ابن ماجد مدنها بأنها «غاية في العمارة»^(٣). ونقل المؤرخ البرتغالي باروس عن أحد الرحالة البرتغاليين في الربع الأول من القرن السادس عشر قوله:

«إن البحرين يعيش فيها تجار كثيرون، وغيرهم من الناس وافري الثراء ... ودورها الجميلة مبنية من الحجارة والجير، وهي تتألف من عدة طوابق، تزينها شرفات ونوافذ كبيرة، وبالأخص منها قصور الملك التي تحاكي النمط الفارسي في البناء، وذلك لكون الجزيرة غنية جداً»^(٤).

وتقدم لنا روايات برتغالية أخرى صورة جميلة للمنامة:

«التي كان يقطنها العرب، وتعطي صورة تقليدية للمستوطنات الحضرية في المنطقة العربية، فالبيوت العالية المبنية من الصخور ذات أبراج تهوية، وأسقفها مسطحة ونوافذها مشبكة، وقصر ملكها الكبير والمهيب يذكر الناظر بمثيله في هرمز»^(٥).

(1) Joao de Barros (1945-46) *I Asia*. 4/317.

(٢) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٦٥٣/٢.

(٣) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) شهاب الدين أحمد بن ماجد، مصدر سابق، ص ٦٩.

(4) Joao de Barros (1945-46) *I Asia*. 4/317.

(٥) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) البحرين في القرن السادس عشر: جزيرة حصينة، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص ١١.

وعلى الرغم من قلة الآثار التي تعود إلى مطلع القرن السادس عشر في البحرين، إلا أن المصادر المعاصرة تؤكد وجود حركة عمران واسعة، ويمكن الاستدلال على ذلك بالاهتمام الذي أبداه حكام البحرين في تشييد قلعتها التي تظهر رسوماتها في الخرائط الأوروبية المبكرة، وتحدث عنها لشهرتها ابن إياس في معرض حديثه عن أحداث سنة ١٥٢١ بقوله: «وتملكوا قلعته التي كانت هناك»^(١).

وفي سنة ١٥٢٣ تحدث أحد وزراء هرمز عن أعمال ترميم بالقلعة تضمنت بناء برج عال فيها، حيث أشار في خطاب موجه إلى الملك البرتغالي دون جوان (١٥٢١-١٥٥٧)، إلى قيام مسؤول الجمارك الهرمزي في البحرين الرئيس محمد (وهو أحد أقارب وزير هرمز شرف الدين) ببناء برج في القلعة بقوله:

«وحكم بحارين أعطاه لريس محمد نسيب شرف، وكل هذا لمنفعته ... وبعد ما أعطى حكم بحرين إلى ريس محمد أعدها غاية العدة، والآن ما يقدر أحد يأخذها من يده لأن فيها برج عالي»^(٢).

وكان من نتيجة ذلك صمود قلعة البحرين أمام مدافع الغزاة البرتغاليين سنة ١٥٢٩، حيث أشار حاكم قلعة هرمز البرتغالي كريستاو دو مندوسا في خطاب موجه إلى نائب الملك في جوا إلى أنه:

«لما نزل سيماو كونها إلى الأرض لاحظ أن الحصن منيع جداً، وذلك بخلاف ما بلغه عنه، إذ ذكر له أنه عبارة عن ركام»^(٣).

وتقودنا تلك الروايات التاريخية إلى الحديث عن الأوضاع السياسية في جزر البحرين في مطلع القرن السادس عشر، حيث كانت البحرين تخضع لحكم الجبور الذين فرضوا سيطرتهم على جزر البحرين منذ منتصف القرن الخامس عشر، وامتدت سلطتهم إلى تخوم نجد، وتمكنوا من تسيير دفة أمورهم مستقلين تماماً عن مملكة هرمز، وأصبح شيخ بني جبر يلقب بسلطان البحرين والقطيف والأحساء ورئيس أهل نجد، ولم يقتصر امتداد سيطرة الجبور على تلك المناطق وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من المقاطعات والموانئ

(١) محمد بن أحمد بن إياس (ت ١٥٢٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (١٩٦٠). ٤٣١/٥.
(٢) نشرت هذه الرسالة في: فالح حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص.ص ٤٢٣-٤٢٤، نقلاً عن كتاب: وثائق عربية تسهم في كتابة التاريخ البرتغالي: (Joao De Sousa, (1789) Documentos Arabicos Para A Historyia Portucueza, Lisboa.)، وقد قام بجمعها الأب جواو دي سوزا، ونشرت في لشبونة سنة ١٧٨٩، وتحتوي على مجموعة مهمة من الرسائل المكتوبة باللغة العربية بعثها حكام الأقاليم العربية الخاضعة للنفوذ البرتغالي إلى ملوك البرتغال.
(٣) نقلاً عن: أحمد بوشرب «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، الوثيقة، العدد ٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص ١٢٨-١٣٢.

العُمانية، وكان تعاضل نفوذ الجبور هذا دافعاً لاستئناف الصراع بينهم وبين ملوك هرمز.^(١) وقد تعرض ابن ماجد لوصف الأوضاع السياسية في جزر البحرين فذكر بأن الجزيرة:

«في تاريخ هذا الكتاب لأجود بن زامل بن حصين العامري أعطاه لها هي والقطيف السلطان سرغل بن نور شاه أن يقوم بنصره على إخوته ويملكه جزيرة هرمز المتقدم ذكرها، وكتب بها عليه حجج واستثنى بعض بساينها ففعل له ذلك وقام بنصره وملّكه جرون، وأخذ البحرين والقطيف في عام ثمانين وثمانمائة».^(٢)

وتتسبب دولة الجبور (التي تأسست في منتصف القرن الرابع عشر) إلى جبر بن حسين بن ناصر بن عقيل، الذي يعتبر رأس هذه الدولة والمؤسس لها،^(٣) ومنذ تلك الفترة أصبح للجبور دور مهم في رسم الخارطة السياسية لمنطقة الخليج وشرقي شبه الجزيرة العربية، فبعد وفاة مؤسس الدولة جبر بن حسين خلفه ابنه زامل بن جبر الذي داهم الدواسر في واديهم سنة ١٤٤٨، وفي سنة ١٤٦١ غزا بلاد نجد، وتوفي في العام نفسه، حيث خلفه ابنه سيف بن زامل الذي امتد حكم الجبور في عهده إلى البحرين؛ حيث يذكر السخاوي بأن سيف قد تمكن من القضاء على آخر ولاية بني جروان بالبحرين، وذلك بقتله والاسيتلاء على حكم الجزيرة: «فحكّمها بالعدل ودان له أهلها بالطاعة وشهدت البلاد في عهده فترة من الازدهار، والرخاء».^(٤) وتشير رواية أخرى إلى أن سيف بن زامل كان قد استغل صراع السلطة في هرمز ليبسط نفوذه على البحرين سنة ١٤٦٧، وذلك عندما تمرد سيف الدين مهار على أبيه تمهت الثالث فيروز شاه، وأرغمه على التنازل عن الحكم، مما أدى إلى تدهور الأوضاع في هرمز وانتعاش الأوضاع الاقتصادية والسياسية للجبور في البحرين حيث كان التجار يعتمدون على الجبور في نقل تجارتهم وحمايتهم.^(٥)

وقد تولى حكم جزر البحرين خلال الفترة ١٥٠٠-١٥٢١، ثلاث أمراء من بني جبر، هم: أجود بن زامل وابنه محمد بن أجود، ثم ابن أخيه مقرن بن زامل بن أجود،

(١) عبد اللطيف الحميدان (١٩٨٠) «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ١٤١٧-١٥٢١»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٦، السنة ١٩٨٠، جامعة البصرة. ص ١٢٣.

(٢) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) شهاب الدين أحمد بن ماجد، مصدر سابق، ص ٦٩.

(٣) يقدر الخليفة وأبا حسين بأن حكم دولة العصفوريين في إقليم البحرين قد امتد على وجه التقريب منذ عام ١٢٣٨ وحتى عام ١٣٥٧، ثم أعقبهم الجبور حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وكلا القبيلتين تنتسبان إلى عقيل من بني عامر، وكان بنو عقيل يسكنون في البحرين ويعملون في التجارة. وديار بني عامر تنتشر في رقعة كبيرة تمتد من العراق إلى الأحساء والقطيف ولهم تواجد كذلك في البحرين. عبد الله بن خالد الخليفة وعلي أبا حسين (٢٠٠٥) مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص.ص ١٧٧-١٨١. ويؤيد ذلك عبد اللطيف الحميدان الذي يرى بأن العصفوريين قد حكموا مدة تقارب القرن ونصف القرن، ثم زال حكمهم في العقد الثامن أو التاسع من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ثم خلفهم الجبور. عبد اللطيف بن ناصر الحميدان (١٩٧٩) «إمارة العصفوريين»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٥، ١٩٧٩، البصرة. ص ١٢٣.

(٤) محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ١٤٩٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٩٣٦) القاهرة، ٤١-٤٠/٥.

(٥) المصدر نفسه، ٤١/٥.

ويمكن الحديث عن أهم ملامح حكام تلك الفترة فيما يأتي:

١- أجود بن زامل بن جبر العقيلي (١٤٧٠-١٥٠٦)

تولى أجود بن زامل الحكم بعد وفاة أخيه سيف سنة ١٤٧٠، ويعتبر أجود من أعظم حكام الجبور؛ حيث بلغت الدولة في عهده مكانة كبيرة، فبسط نفوذه على الأحساء والقطيف والبحرين وأجزاء من نجد وعمان^(١) وتشير المصادر إلى امتلاك الشيخ أجود لأسطول بحري كبير كان يستخدمه في التجارة وفي المعارك الحربية على حد سواء، حيث قامت علاقات وطيدة بين دولة الجبور بالبحرين وبين الدولة البهمنية في الهند (١٣٤٧-١٥٢٧)^(٢).

وعندما تولى حاكم هرمز؛ فخر الدين تورانشاه سنة ١٤٧٧، اندلع الصراع بين أبناء الأربعة: مقصود، وشهاب الدين، وسلغور، ونشأة أويس، فاستتجد سلغور بأجود بن زامل الذي قام بنصرته على إخوته وثبته ملكاً على هرمز، مقابل أن يتنازل ملك هرمز عن الإتاوة المقررة على جزيرة البحرين - باستثناء بعض بساتينها - وأيضاً عن القطيف. وقاد أحد أبناء أجود حملة عسكرية بحرية على هرمز مصطحباً سلغور فحسم الصراع لصالحه ونصبه ملكاً عليها. إلا أن سلغور، بعد استعادة عرشه نقض الاتفاقية مع أجود وعاد يطالب بعوائد البحرين، ففرض أجود ذلك وتمسك بالاتفاقية المعقودة بينهما، ما جعل سلغور يجرّد عدة حملات لمهاجمة البحرين منيت بالفشل وانتهت بعقد اتفاقية جديدة، توصل إليها مع أجود، قضت بأن تكون البحرين تحت إدارة الجبور مقابل دفع إتاوة سنوية لمملكة هرمز، وكانت هذه الاتفاقية بمثابة هدنة بين الطرفين إذ استؤنف الصراع بينهما في مرحلة لاحقة^(٣).

ويقال بأن نجله تورانشاه هو الذي قام بمهاجمة البحرين سنة ١٤٨٥، وفرض على الجبور توقيع معاهدة تم بموجبها الإبقاء على البحرين والقطيف تحت حكم أمير الأحساء الذي وافق على دفع إتاوة سنوية إلى ملك هرمز وكان مقدارها ٥٠٠ أشرفي عن البحرين كل عام. ولكن في بداية القرن السادس عشر توقف دفع هذه الإتاوة، ولم تستطع مملكة

(١) ولد أجود بن زامل في بادية الأحساء سنة ١٤١٨ ونشأ بها، ودرس على علمائها، واهتم بالعلم والعلماء وقربهم وأكرمهم، وكان له إمام ببعض الأمور الفقهية خاصة في مذهب الإمام مالك، وتحدث عنه السهودي في وفاء الوفا بقوله: «رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعته صلاحاً وإفضالاً وحسن عقيدة؛ أبو الجود أجود بن زامل بن جبر أيده الله وسدده»، وقال السخاوي عنه في كتاب الضوء اللامع: «كان أجود بن زامل رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف مع فروسية وقد تعددت في بدنه جراحات كثيرة وقيل إنه كان يكثر الحج»، وذكر ابن ماجد في تحفة المشتاق بأن أجود بن زامل حج سنة ١٤٨٧، وكان معه خمسة عشر ألفاً من قومه. نقل عن: الخليفة وأبا حسين (٢٠٠٥) مرجع سابق، ص ١٩٠، ونوال حمزة الصيرفي (١٩٨٣) النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض. ص ٥٤.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٨٠) «التاريخ السياسي لإمارة الجبور»، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٣) الخليفة وأبا حسين (٢٠٠٥) مرجع سابق، ص ١٩٣-١٩٦.

هرمز بسبب الضعف الذي انتابها أن تفرض الإتاوة على أجود الذي كان حينها في أوج قوته.^(١)

٢- محمد بن أجود (١٥٠٦-١٥١١)

تولى محمد بن أجود الحكم في البحرين عقب وفاة والده سنة ١٥٠٦، وهو الذي استتجد به شريف مكة - الشريف بركات - لإخماد الفوضى والاضطرابات التي أثارها البدو في جدة، وكان حكم الأشراف قد ضعف بسبب خلافاتهم على إمارة جدة ومكة مما شجع البدو على الإغارة على المدينتين والقيام بأعمال السلب والنهب، فسار إليه محمد بن أجود في خمسين ألفاً فوافاه في ١٧ ذي الحجة سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م، وعندما وصل إلى جدة وجد بأن المدد قد وصل من مماليك مصر وبأنهم قد أخدموا الفتنة، فدخل محمد بن أجود مع جيشه إلى مكة وطافوا بالبيت معتمرين.^(٢)

٣- مقرن بن زامل بن أجود (١٥١١-١٥٢١)

بعد وفاة محمد بن أجود في مطلع العقد الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، تولى ابن أخيه مقرن بن زامل بن أجود، وفي هذه الأثناء رغب الوزير الهرمزي المخضرم خوجه عطار أن يستعيد سلطة هرمز على البحرين، فشن حملة عليها سنة ١٥١١، إلا أن الجبور هاجموا هرمز من جهة عُمان الداخلية فاضطر خوجه عطار للانسحاب من البحرين، وكان مقرن هو الذي يقود قواته في هذه الأثناء، وبعد أن تمكن مقرن من إلحاق الهزيمة بقوات عطار ذاع صيته، ووصفه ابن إياس بقوله:

«الأمير مقرن أمير عرب بني جبر، متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى، وكان أميراً جليل القدر معظماً مبعجلاً، في سعة من المال، مالكي المذهب، سيد عريان المشرق على الإطلاق، وكان قد أتى إلى مكة وحج في العام الماضي وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة من المسك والعنبر والعود القماري والحريير الملون وغير ذلك من الأشياء التحفة. قيل إنه لما دخل مكة والمدينة تصدق على أهلها بنحو خمسين ألف دينار».^(٣)

(١) مونيك كبيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص.ص ١٣-١٤.

(٢) ويقال بأن الشيخ أجود وليس ابنه أحمد هو الذي استتجد به الشريف بركات، فقد ذكر المؤرخ عبد الملك العصامي في *سمط النجوم العوالي* بأن أجود بن زامل قد ذهب إلى الحج: «سنة اثنتي عشرة وسبعمئة هجرية مع أتباع يزيدون على الثلاثين ألفاً، وقد اتخذ قاعدته قرب قرية المنيزلة، والظاهر أنها بين قرية المنيزلة والفضول حيث توجد آثار قصر لا يزال يعرف موضعه باسمه باسمه قرب قرية المنيزلة يسمى قصر أجود، وقد توفي أجود سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م، فخلفه ابنه محمد بن أجود». نقلاً عن: حمد الجاسر (١٩٧٨-١٩٨١) *المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية*، أربعة أجزاء، الرياض. ٨٦/١. وانظر كذلك: عبد اللطيف الحميدان (١٩٨٢) «مكاتبه السلطان أجود بن زامل الجبيري في الجزيرة العربية»، *مجلة الدارة*، العدد ٤ السنة ١٩٨٢، ص.ص ٦٠-٦٤.

(٣) محمد بن أحمد بن إياس (١٩٦٠) *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، مصدر سابق، ٤٣١/٥.

وتتحدث المصادر أن مقرن لجأ إلى العنف للوصول إلى الحكم وإخضاع القبائل التي تمردت عليه عقب وفاة عمه محمد، وكان ملك هرمز تورانشاه قد جعل من عدم دفع البحرين عوائدها سبباً في عجزه عن دفع الضريبة للبرتغاليين، كما أشار إلى أن مقرن كان يتعرض للسفن التي تبحر بين هرمز والبصرة.^(١)

ولا بد من التنبيه إلى أن سلطة الجبور لم تكن في تلك الأثناء مقصورة على البحرين فقد كان نظام دولة الجبور يقوم على تقسيم الأملاك بين الأبناء وتوزيع السلطة فيما بينهم بسبب امتداد دولتهم على رقعة شاسعة، فالمعروف أن السلطان زامل أشرك أبناءه الثلاثة وهم سيف وأجود وهلال في الحكم، وتشير المصادر البرتغالية إلى أنه بوفاة زامل أصبح أجود سلطاناً وأشرك ولديه في الحكم وهما: محمد ومقرن.

٤- الشيخ حسين بن سعيد الجبري (١٥٢١-١٥٢٩)

يستخلص من جملة الروايات التي تناولت أحداث الغزو البرتغالي للبحرين، أن جيش الجبور بقيادة الشيخ حميد في البحرين قد قام بانسحاب تكتيكي إلى القطيف عقب مقتل الأمير مقرن في يوليو ١٥٢١، وكان الهدف من ذلك الانسحاب هو إعادة تنظيم صفوف المقاتلين وانتظار الفرصة المواتية لاسترجاع حكم الجبور في البحرين، ولم يطل بهم الانتظار، ففي نوفمبر ١٥٢١ انفجر الصراع بين الهرمزيين والبرتغاليين، فسارع الجبور إلى استغلال ذلك الصراع، وتحالفوا مع البرتغاليين لبيسط نفوذهم على صحار، بالإضافة إلى توطيد حكمهم في القطيف، نظير اعترافهم بالسلطة البرتغالية في تلك المناطق، وقد تحدثت بعض المصادر عن استعادة الجبور حكم البحرين بزعامة حسين بن سعيد، الذي استمر حكمه طوال الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٥٢١ وحتى مطلع سنة ١٥٢٩.^(٢)

امتداد سلطة الجبور في عُمان

تعود قصة تواجد الجبور في عُمان إلى سنة ١٤٨٧، وذلك عندما قام سيف بن زامل بمساعدة الإمام عمر بن الخطاب بن محمد الخروصي الإباضي ضد سليمان بن نبهان وساعده أهل عُمان في ذلك. وتعهد عمر نظير ذلك الدعم بدفع الخراج للجبور، وقد استفاد الجبور من حالة الصراع الدائر بين الإباضيين والنبهانيين لتوسيع نفوذهم في عُمان،

(١) الخليفة وأبا حسين (٢٠٠٥) مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨.

Sousa, M. F. (1971) *The Portuguese Asia*. 2/263-268.

(٢) انظر على سبيل المثال:

Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*, pp 354.

حيث خضعت أجزاء كبيرة من الساحل العُماني لسيطرة الجبور، ففي سنة ١٥٠٧ لاحظ دلبوكيرك أثناء حصاره لمدينة صحار وصول نجدات عربية تتألف من عشرة آلاف مقاتل بزعامة شيخ من شيوخ بني جبر،^(١) وكذلك كان الحال في مسقط عندما وصلها البرتغاليون فوجدوا بأن أحد زعماء بني جبر قد سارع إلى نجدة المدينة، وأكدت التقارير البرتغالية أن مقاطعات بني جبر كانت تمتد على طول سواحل الخليج العربي وأن أبناء السلطان أجود كانوا يتقاسمون السلطة السياسية فيما بينهم، وكان أكبرهم يقيم في عُمان ويدين له أخواه الآخرون بالولاء، وقد اشتهر من بينهم محمد بن أجود الذي كان يحكم البحرين والأحساء والقطيف.

ويظهر من المصادر البرتغالية بأن أفونسو دلبوكيرك كان ينظر بقلق واهتمام بالغين إلى نفوذ سلطة بني جبر، وكان مما ذكره في معرض الحديث عن قدوم الجبور لنجدة أهل مسقط قوله:

«ومسقط جزء من مملكة هرمز، والمناطق الداخلية تابعة لابن جبر شيخ الجبور، ولابن جبر هذا أخوان، ويقتسم الثلاثة فيما بينهم المناطق الممتدة حتى عدن، والممتدة شمالاً حتى ساحل بحر فارس ليقصد الخليج العربي، والممتد للداخل حتى قرب مكة... ويحكمها جميعاً ملك هو ابن جبر، ولابن جبر هذا ثلاثة أبناء ترك لهم هذه البلاد ليقسموها عند مماته، يطلق على الأكبر منهم دائماً اسم ابن جبر على اسم أبيه، ويقر له أخواه بالملك، ولابن جبر السيادة على بلاد فرتك وظفار وقلهات ومسقط، وتمتد حدوده لتصل إلى بلاد شيخ عدن، أما الأخوان الآخرون فقد استقروا على ساحل بحر فارس (الخليج العربي)، أخذ أحدهما من ملك هرمز جزيرة البحرين حيث مغاصات اللؤلؤ على بعد من جزيرة هرمز برحلة بحرية مدتها خمسة أيام، كما أخذ منه أيضاً القطيف، وهي ميناء كان أساساً من ممتلكات هرمز على الساحل العربي».^(٢)

ويبدو أن توسع الجبور في الأراضي العُمانية كان بداية النهاية بالنسبة لدولتهم، فقد تسبب ذلك التوسع في استفزاز ملوك هرمز الذين بسطوا سيطرتهم على سواحل عُمان،

(١) عندما وصلت سفن دلبوكيرك إلى قلهاة شرع في التفاوض مع أهلها، الذين قالوا له بأنهم: "يتبعون لملك هرمز"، وأبدوا تعاونهم مع البرتغاليين، وقدموا لهم الهدايا، وفي هذه الأثناء علق دلبوكيرك بأن قلهاة مدينة كبيرة وبها مرفأ جيد، وفيها سور مرتفع: "أقامه أهل المدينة لحمايتهم من مسلمي المناطق الداخلية فلم يكونوا على وفاق معهم، وقد تصادموا معهم في مناسبات عدة، وهذه المناطق الداخلية يحكمها حاكم يقال له ابن جبر شيخ الجبور، ولديه الكثير من الفرسان". وقد قدر دلبوكيرك عدد قوات الجبور التي قدمت لمساعدة أهل صحار بحوالي ألفي فارس وخمسة آلاف جندي من المشاة. وبعد التفاوض بين الطرفين تم توقيع معاهدة باللغة العربية تنص على خضوع صحار للملك البرتغالي، ثم قام أحد مبعوثي دلبوكيرك بزيارة قائد قوات الجبور الذي بقي في المدينة على رأس ثلاثين فارساً بينما انصرف الباقون ممن أتوا لنجدة الحصن، وقدم له أنية فضية وسلسلة ذهبية. عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ١٦٤-١٥٩/١ و ١٨٨-١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ١٨٣/١-١٨٤.

ولم يكونوا راغبين بمجاورة الجبور لهم وتهديدهم من ناحية البر، كما أن امتناع محمد بن أجود ومن بعده مقرن عن دفع الإتاوة لهرمز على خليفة الصراع الجبوري-الهرمزي على عُمان قد دفع بحكام هرمز لانتظار الفرصة السانحة لينقضوا على البحرين ويكسروا شوكة الجبور فيها.

أما من وجهة نظر البرتغاليين فإن منظر القوات التي أرسلها الجبور لنجدة أهل صحار ومسقط وقلهات وخورفكان قد استفزت مشاعر أفونسو دلبوكيرك الذي شرع في وضع الخطط لمهاجمة البحرين وإخضاع حكامها للتاج البرتغالي.

المبحث الثاني

الأطماع الهرمزية- البرتغالية في البحرين

بعد أن بسط البرتغاليون سيطرتهم على هرمز سنة ١٥٠٧، بدأ اهتمامهم في البحرين، وشرعوا في التخطيط لإخضاعها إلى سيطرتهم، وقد صرح بذلك أفونسو دلبوكيرك في رسالة وجهها إلى الملك مانويل الثاني (١٤٩٥-١٥٢١) في مطلع سنة ١٥٠٨، ذكر فيها رغبته بشن سلسلة حروب تهدف إلى إحكام السيطرة على سواحل الخليج العربي، وتمكنه من التحكم بهرمز والبحرين. ولكن الظروف لم تسمح لدلبوكيرك أن يحقق أهدافه في الخليج العربي، فقد واجه ضغطاً كبيراً من بعض قباطنته، وكذلك من قبل نائب الملك للانسحاب من هرمز والعودة إلى كوشين بالهند.^(١)

وفي مواجهة عجزه عن شن حملة لإخضاع البحرين في تلك الفترة المبكرة، كان دلبوكيرك يمني نفسه باستنزاف طاقة الجبور العسكرية عن طريق تحريض الهرمزيين على محاربتهم، فقد كان يدرك حجم المنافسة بين الجبور والهرمزيين للهيمنة على حركة الملاحة والسيطرة على سواحل عمان، كما كان يدرك بداهته طموحات خوجه عطار باستعادة نفوذ هرمز ومكانتها التي كانت عليها في العصور الماضية، فعندما كان البرتغاليون يحاصرون هرمز علم دلبوكيرك بأن خوجه عطار قد أعلن في المدينة:

«أن كل مسلم يقتل برتغالياً سيقتل به لأنه (أي خوجه عطار) يريد القبض عليهم أحياء لاستخدامهم في حربه التي سيسئنها على الجبور».^(٢)

وقد استقبل الجنود البرتغاليون تلك الأنباء بكثير من السخرية، خاصة عندما شاهدوا خوجه عطار بأعينهم وهو يقفز في عرض البحر طالباً النجاة بعد أن دمرت قذيفتين من مدافع البرتغاليين سفينته.

ولكن دلبوكيرك أخذ تلك الأخبار بجدية أكبر، إذ كان يدرك أن الظروف لن تسمح له بمهاجمة البحرين في تلك الفترة المبكرة، وبأن الطريقة المثلى لإشغال خصومه في المنطقة هي تأجيج الخلافات بينهم، حيث دأب على استغلال حالة الصراع العثماني- الفارسي للحصول على تنازلات كبيرة من الدولة الصفوية، كما استفاد من الصراع

(1) Cartas de Afonso de Albuquerque, Tome I, Ibid, p 11

(2) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٢٣٠/١.

الهرمزي- الجبوري لاستنزاف الطرفين وإشغالهم ببعضهم ريثما تستقيم له الأمور في الهند.

ومنذ سقوط هرمز بيد البرتغاليين شرع دلبوكيرك في تحريض خوجه عطار على غزو البحرين وتوجيه ضربة قاصمة للجبور فيها ، ففي مطلع سنة ١٥٠٨ قامت القوات البرتغالية في هرمز بعرض عسكري حضره الملك سيف الدين ووزيره خوجه عطار ، وعندما لاحظ أنهار الهرمزيين بمهارة جنوده في الرماية ، توجه دلبوكيرك بحديثه للوزير الهرمزي قائلاً: «إنه بهؤلاء الشباب وغيرهم كثير يأمل بعون من الله أن يعيد له كل أراضيه التي اغتصبها منه جيرانه»^(١) وكان يعرض بذلك للحديث عن البحرين التي كان خوجه عطار يعتقد بأنها أرض هرمزية اغتصبها الجبور منهم في نهاية القرن الخامس عشر.

وللتأكيد على صدق نيته في مساعدة الهرمزيين للقضاء على الجبور ، أوعز دلبوكيرك إلى البحرية البرتغالية في الخليج العربي بشن هجمات على تجارة اللؤلؤ الخاصة ببني جبر ، ففي سنة ١٥٠٩ قام البرتغاليون بنهب سفينة كانت قادمة من البحرين وعليها حمولة من اللؤلؤ.

وكرد فعل على ذلك قام الجبور باستهداف السفن البرتغالية والهرمزية مما أدى إلى حالة من الفوضى ، وانتشار أعمال القرصنة في مياه الخليج العربي ، ولما عيل صبر خوجه عطار من استمرار الجبور في تحدي سلطته ، قرر التوجه بنفسه في حملة تهدف إلى إخضاع البحرين^(٢).

الحملة الهرمزية على البحرين بقيادة خوجه عطار سنة ١٥١١

شرع خوجه عطار عقب هزيمة قواته في هرمز ببناء أسطول جديد في جلفار ، وكان الوزير الهرمزي المخضرم يبذل محاولات يائسة لاستعادة هيبة هرمز ومكانتها ، بعد أن أنهكتها الصراعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة من جهة ، وما تعرضت له من إذلال ومهانة على يد البرتغاليين سنة ١٥٠٧ من جهة أخرى.

وكان خوجه عطار يرغب في استخدام أسطوله الجديد لشن سلسلة هجمات تهدف إلى استعادة سيطرة هرمز على أقاليمها ، ذلك أن موانئ الساحل العماني أخذت تتدرع بعجزها عن دفع الإتاوة السنوية بسبب ما تعرضت له من ضربات قاسية على يد الأسطول البرتغالي ،

(١) المصدر السابق، ٢٦٢/١.

(2) Manuel de Faria Sousa (1971) *The Portuguese Asia or The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese*. Translated by John Stevens Westmead. Gregg International Publishers, London. 1/142.

كما امتنعت قوى أخرى عن دفع الإتاوة مستغلة حالة الضعف الذي انتاب هرمز في أعقاب الغزو البرتغالي.

وفي المقابل فإن سلطة الجبور لم تتأثر - إلى حد كبير - بالهجمة البرتغالية الأولى على المنطقة عام ١٥٠٧، بل حافظ حكامها على قوتهم الضاربة في عُمان والأحساء والبحرين، في حين أخذت أساطيلهم البحرية تهدد النفوذ الهرمزي في الخليج العربي، وقد دفع ذلك حوجه عطار لشن حملته على البحرين سنة ١٥١١، متذرعاً بأعمال القرصنة ضد سفنه من جهة، ورغبته في حمل حكام البحرين على دفع إتاوة سنوية لهرمز من جهة أخرى.

ويمكن إضافة هدف آخر لحملة حوجه عطار ضد البحرين؛ وهي: محاولة تأمين مبلغ الضريبة التي فرضها البرتغاليون على هرمز، فقد أدت حملات البرتغاليين المتتالية ضد تجارة القوى الإسلامية إلى عرقلة حركة التبادل التجاري في المنطقة، وكان لحملة دلبوكيرك أسوأ الأثر على موانئ عُمان؛ حيث واجهت خزانة هرمز عجزاً كبيراً بسبب تعطل حركة التجارة فيها. وقد عبر حوجه عطار عن إشكالية العجز التي واجهتها خزانة بلاده في خطاب وجهه إلى دلبوكيرك عندما طلب منه دفع الإتاوة لسنة ١٥٠٨، قائلاً:

«أما فيما يتعلق بالخمسة عشر ألف أشريفي، فإننا في وقت يعاد فيه إقرار سكان المملكة، وعندما تنتعش التجارة البحرية، قد يكون من الممكن دفع شيء ما، لكن الآن فإنه لم يمض عام على التدمير الذي ألحقته بالمملكة، ثم انصرفت بعيداً ولم نرك إلا الآن، لذا فليست هناك فرصة لتقديم هذا المبلغ لك، وعندما بدأت الفرصة بالكاد تظهر أمامنا ثانية، وأخبار وصولك أصبحت معروفة في كل مكان، ومن ثم فلن تأتي أية سفينة لتتاجر معنا، إنك حقاً تريد تدمير هذه المملكة لا بناءها، وقلهات هي آخر مدينة في المملكة سلبتها ودمرتها وحملت منها مائة ألف أشريفي وأكثر، إن مائة ألف أشريفي لهي تعويض كاف عن خمسة عشر ألف أشريفي، وإنني أنوي إخبار نائب الملك البرتغالي في الهند بكل هذا التدمير»^(١).

والحقيقة هي أن تقديرات الهرمزيين لإيرادات البحرين كانت تعادل الإتاوة المفروضة عليهم من قبل البرتغاليين، إذ كان الوزير الهرمزي رشيد قد قدر إيرادات البحرين من الزراعة وتجارة اللؤلؤ والخيول بحوالي خمسة عشر ألف أشريفي، ولذلك فقد وضع عطار في اعتباره بأن بسط السيطرة على إيرادات البحرين ستمكّنه من الالتزام بدفع الضريبة للبرتغاليين لتجنب المزيد من الأعمال العسكرية التي واجهتها هرمز.

(١) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٣٦١/١.

وتوابعها خلال الفترة ١٥٠٧-١٥٠٨.^(١)

وقد اختار خوجه عطار توقيتاً مناسباً لشن حملته، حيث كان الأمير مقرن يواجه تمرد بعض القبائل ضده في الأحساء عقب وفاة عمه الأمير محمد بن أجود الذي كان قد توفي عام ١٥١١، فاستغل عطار انشغال أمير الجبور في الأحساء للتحرك بحملته التي وصلت البحرين في غضون العام نفسه. وفي هذه الأثناء هرع الأمير مقرن بقواته إلى البحرين، وقد عرف عن مقرن سرعة التحرك وشدة المراس في المعارك التي كان يحرص على خوضها بنفسه، كما عرف عنه شدة البأس والبطش بخصومه. وعندما اشتبكت القوات الهرمزية مع قوات البحرين كاد الأمير مقرن أن ينزل هزيمة بجيوش خوجه عطار لولا تدخل البرتغاليين لصالح الأخير، وانتهت المعركة بهزيمة الجبور الذين تعهدوا باحترام الاتفاقية السابقة بينهم وبين هرمز، وتتضمن دفع إتاوة سنوية من عائدات البحرين للهرمزيين.^(٢)

ولكن تعهد الجبور بدفع الإتاوة لم يكن أكثر من مناورة سياسية تهدف إلى درء خطر الاحتلال الهرمزي، فما إن قفل أسطول عطار عائداً إلى هرمز حتى شرع الجبور في شن سلسلة هجمات ضد الموانئ التابعة لهرمز في عُمان بهدف استنزاف دفاعات عطار ومنعه من معاودة الهجوم على البحرين مرة أخرى، وقد نجحت هذه المناورة في إشغال الهرمزيين في عُمان، ولم يتمكن عطار من مهاجمة البحرين التي امتنعت عن دفع الإتاوة من جديد.

وفي سنة ١٥١٣ توفي خوجه عطار، وفقدت هرمز بذلك قائداً مهماً في فترة كانت أحوالها ما تكون فيها لخبرته وحنكته، ونتيجة لذلك فقد تضاءلت فرص الهرمزيين لاستعادة السيطرة على البحرين، وأخذ قادتهم ينظرون بعين الأمل إلى دعم البرتغاليين لهم لشن حملة مشتركة ضد الجبور، ولكن ذلك الطموح لم يكن ليتحقق قبل سبع سنوات من وفاة عطار.

وقد تحدث دلبوكيرك عن حملة خوجه عطار سنة ١٥١١، قائلاً:

«لقد تمكنا من السيطرة على كل المناطق التي تتحكم بها مملكة هرمز، عدا البحرين التي جاء إليها العرب بعد موت خوجه عطار وسيف الدين واستولوا عليها وطردها منها جنود الملك».^(٣)

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤) مرجع سابق . ص ١٢٣.

(٢) فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣١١-٣١٢.

(٣) أحمد بوشرب (١٩٨٤) مرجع سابق . ص ١٢٢.

الحملة البرتغالية على البحرين بقيادة بيرو دلبوكيرك عام ١٥١٤

غادر أفونسو دلبوكيرك هرمز باتجاه الهند سنة ١٥٠٨، وعندما عين بمنصب نائب الملك عام ١٥٠٩، انشغل دلبوكيرك بتوطيد سلطته في الهند ولتحقيق ذلك وجد نفسه مضطراً لنقل عاصمته من كوشين إلى جوا.

وفي أعقاب وفاة خوجه عطار وامتناع الجبور عن دفع الإتاوة لهرمز، أرسل دلبوكيرك خطاباً إلى الملك البرتغالي عام ١٥١٣، يعتذر فيه عن عدم إخضاع البحرين وذلك بسبب انشغاله في الهند.^(١)

وفي رسالة أخرى سنة ١٥١٤، ذكر دلبوكيرك بأنه:

«يتمنى كثيراً الذهاب إلى البحرين وانتزاع اسم محمد منها ... وذلك لأن البحرين يا سيدي أمر عظيم، ومنطقة جد غنية يكثر فيها اللؤلؤ».^(٢)

ووعد بأن يقوم بحملة ضد الجزيرة فور وصوله إلى الخليج العربي، مؤكداً بأن السيطرة على البحرين ستمكّنه من تحقيق رغبته في القضاء على الإسلام في معقله وتخريب الأماكن المقدسة، فالبحرين والقطيف لا تبعدان عن مكة المكرمة: «إلا بست عشر مرحلة في حالة الاعتماد على الجمال، وتلك مسافة قصيرة جداً».^(٣) وقد أوفى دلبوكيرك بتعهده، حيث أرسل القائد البرتغالي ابن أخيه بيرو دلبوكيرك في حملة تستهدف البحرين.

واستخدم البرتغاليون أسلوب التمويه الذي اعتادوا عليه آنذاك، حيث ادعى بيرو دلبوكيرك بأن مهمته استطلاعية بحتة ولا تستهدف القيام بأي عمل عسكري، ولكن المصادر البرتغالية تؤكد بأن بيرو كان على رأس أسطول حربي، وبأنه كان قد تلقى تعليمات باستخدام القوة لإخضاع البحرين إذا اقتضى الأمر. وقد أكد دلبوكيرك ذلك بنفسه في الخطاب الذي وجهه إلى الملك في لشبونة؛ حيث قام بسرد تفاصيل حملة مزمعة على البحرين والفوائد التي ستجنى من ورائها، ثم توجه بالشكر إلى الملك لإرساله الصناع الذين قاموا بإعادة تجهيز سفنه لتلك الحملة. ثم عهد بتلك المهمة إلى ابن أخيه بيرو الذي انطلق بسفنه من هرمز في السابع من يوليو سنة ١٥١٤، ماراً بالمضيق ومتجهاً نحو البحرين، وكانت الغاية المعلنة من إبحاره: «ضبط الموانئ والمدن المهمة والبلدان التي تقع على ذلك الساحل»، وعندما وصل البحرين بقي بالقرب من مياهاها مدة قصيرة ثم غادرها إلى موقع

(1) Cartas de Afonso de Albuquerque, Tome I, Ibid, p 196.

(2) Ibid, p 264.

(3) Ibid, pp 373-374.

آخر، حيث التقى بأسطول فارسي كان قائده قد استولى على عشرين سفينة هرمزية، فأمره ببيرو أن يطلق سراحها وعاد بها إلى هرمز ووصلها في السادس من أغسطس حيث أعاد القوارب إلى أصحابها.^(١)

وتؤكد المصادر البرتغالية الطبيعة العسكرية للرحلة، حيث إن السفن التي أبحر بها لم تكن ذات طبيعة استكشافية تتناسب مع ضحالة مياه الخليج العربي بل كانت سفناً عسكرية كبيرة الحجم ومجهزة للقيام بعملية عسكرية واسعة النطاق، ومن ناحية أخرى فإن بيرو قد أضاف إلى مهمته الاستكشافية المعلنة هدفاً آخر يتمثل في التأكد من خضوع البحرين للسلطة البرتغالية، ولم يمنعه من إتمام تلك المهمة سوى ضحالة المياه والرياح العاتية التي منعت سفنه من الرسو في البحرين، كما قام بيرو بأعمال عسكرية في غضون الرحلة تضمنت الاستيلاء على بعض السفن في مياه الخليج العربي، وتصف سجلات دلبوكيرك تفاصيل الرحلة فيما يأتي:

«وبينما كان (بيرو دلبوكيرك) يرفع أشرعته استعداداً للإبحار، أرسل له ملك هرمز رسالة شفوية حملها له حاكم علي، يرجوه فيها ألا يقوم بهذه الرحلة لأن سفنه كبيرة جداً، والخليج مليء بالمناطق الضحلة والجزر، وهو يخشى أن يصيبهم مكروه في أثناء الرحلة، فأجاب بيرو دلبوكيرك أنه ممتن جداً لهذه النصيحة، لكنه لا يستطيع أن يلغي هذه الرحلة، فقائد الهند العام قد وجه إليه تعليمات مؤداها أن يكتشف كل الخليج، وأمره أن يعرف ما إذا كانت البحرين لا تزال على طاعته... وفي ٧ يوليو أبحر بيرو دلبوكيرك، وتوغل في الخليج واكتشف كل موانئه وجزره وقراه الموجودة على الساحل حتى جزيرة تسمى لولوتيم،^(٢) فلما وصل إزاء البحرين أصبحت الرياح غربية، وأصبح الموسم متأخراً لا يمكن من العودة إلى الهند على وفق التعليمات التي يحملها، فغير اتجاه سفنه».^(٣)

كانت حملة بيرو دلبوكيرك هذه نذير خطر للجبور الذين أدركوا بأن الاستعدادات البرتغالية الحثيثة كانت تستهدف مهاجمة البحرين وإخضاعها. وقد دفع ذلك بالأمير مقرن للقيام بمناورة سياسية تستهدف إضعاف الرغبة البرتغالية في مهاجمة البحرين؛ فسارع عام ١٥١٥ بإرسال وفد محمل بالهدايا إلى أفونسو دلبوكيرك الذي كان متواجداً في هرمز آنذاك، وحمل أعضاء الوفد معهم خطاباً إلى القائد البرتغالي قام فيه الأمير مقرن بالتأكيد على متانة العلاقات بين هرمز والبحرين، ونصه:

(١) فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢) لعلها جزيرة حالول.

(٣) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٥٧١-٥٧٠.

«إلى الملك العظيم، أعظم من أي ملك في زماننا، الذي يطلق عليه في جميع اللغات؛ ملك البحار وسيد البلاد، إلى القائد العظيم - أطلال الله في عمره - بعد التحية:

ليكن معلوماً بأنني في صحة جيدة وراحة بال، وليصل إلى علمكم بأننا والملك المشرف أمير هرمز على يد واحدة، وكنا على هذه الحال لمدة طويلة حتى الآن، فنحن نعلم أنكم جئتم إلى هرمز، وأنكم ملك رحيم وعادل، وأن سمعتكم قد طافت أرجاء العالم وأنكم لذلك سعداء، وحيث أننا وملك هرمز نتبادل الرسائل بيننا، فإنني أبعث لكم رسولنا، خادمكم، ليجلب لكم ثلاث خيول، بالرغم من أنها غير جديدة بمقامكم. فإذا صادف أن لقينا ما هو أفضل منها فسنبعث بها إليكم، وإذا ما رغبتم في شيء فاطلبوه، وستقوم بتفبيذه من أجلكم، ونبلغكم السلام»^(١).

ويمكن تفسير هذا الخطاب بأنه كان يمثل محاولة من الأمير مقرن لعرقلة التحالف الهرمزي-البرتغالي الذي كان يتشكل في هرمز ضد بلاده، وكان الرسول الذي سلم الرسالة والخيول إلى القائد العام للأسطول البرتغالي هو أحد أبناء بني جبر. وقد احتجز دلبوكيرك الوفد لديه في هرمز لمدة شهر كامل، ثم أعادهم بهدايا متواضعة إلى حاكم البحرين تتضمن بعض الأرز والحريير وعشر أشرفيات ذهبية. ولم يكن هذا النمط من تبادل الرسائل والهدايا بالغريب بين أعداء محتملين بغية تقييم إمكانيات وكفاءة كل جانب، أما على أرض الواقع فقد كان كل من مقرن ودلبوكيرك يعدان لمعركة فاصلة، ففي أثناء رحلته الأخيرة إلى هرمز لاحظ أحد القباطنة المصاحبين لحملة دلبوكيرك بأن دخل هرمز كان:

«يبلغ ١٩٨,٠٧٨ أشريف فيتم جمعها من المناطق الخاضعة لهرمز في عُمان والساحل، وهي: قلعات ومسقط وصحار وقريات وخورفكان ودبا وليما وجلفار، كما كان يساهم في ذلك الدخل ما تربحه السفن من صيد اللؤلؤ»^(٢).

وكتب دلبوكيرك عقب ذلك معلقاً:

«البحريين هي البلد الوحيد الذي لا تحكمه هرمز»^(٣).

(١) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) *البحريين في القرن السادس عشر جزيرة حصينة*، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، صص ١٩-٢٠. نقلاً عن:

De Bularo Pato R.A ed. (1884-1935) *Cartas de Afonso de Albuquerque seguidas de documentos que elucidativos*, 7 vols., Lisbon., 2/254.

(٢) سليمان محمد الغانم (١٩٧٩) «الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الرياض، ١١٧/٢.

(٣) كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٧٨.

ولكن الأجل لم يمهل دليوكيرك لتنفيذ مخططاته نحو البحرين، فقد وافته المنية في شهر ديسمبر ١٥١٥ دون أن يحقق أحلامه التي كانت تعود إلى عام ١٥٠٨.

الحملة البرتغالية - الهرمزية، بقيادة جومز دي سوتومايور عام ١٥٢٠

أخذت الأحداث وتيرة متسارعة عقب وفاة أفونسو دليوكيرك، ففي سنة ١٥١٧ أتم العثمانيون سيطرتهم على الشام ومصر والحجاز وأجزاء من اليمن بعد القضاء على دولة الماليك، واتخذوا من ميناء السويس قاعدة بحرية للانطلاق نحو البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي، وأصبحوا بذلك في خط المواجهة البحرية المباشرة مع الأساطيل البرتغالية، وفي العام التالي (١٥١٨) قرر الملك البرتغالي عزل نائبه في الهند لوبو سواريز على خلفية تلاعبات مالية، وعين مكانه ديفغو لوبيز دي سكويرا الذي باشر عمله بإرسال خطاب إلى الملك مانويل يخبره بمغادرة إحدى وعشرين سفينة عثمانية من البحر الأحمر باتجاه الهند، وبأن العثمانيين قد شرعوا في بناء وصيانة المزيد من السفن بغية الإعداد لحملة عسكرية ضخمة ضد البرتغاليين في المحيط الهندي.^(١)

ثم أوكل سكويرا مهمة الإشراف على السواحل العربية إلى القائد أنطونيو دي سالدانها، الذي قام بإرسال تقارير مقلقة عن النشاط البحري العثماني وضعف السيطرة البرتغالية في الخليج العربي، وأدى ذلك إلى قيام سكويرا بتجهيز حملة عسكرية تتكون من أربع وعشرين سفينة حربية تحمل ألفاً وثمانمائة برتغالي ومثلهم من الهنود، وقاد الحملة بنفسه متجهاً نحو هرمز في شهر فبراير ١٥٢٠.

وكان من ضمن ما أوردته تقارير سالدانها أن ملك هرمز لم يدفع الإتاوة السنوية منذ عدة سنوات، وكان البرتغاليون متخوفون من نزعات تورانشاه الاستقلالية، وعندما وصل الأسطول البرتغالي إلى هرمز طلب سكويرا من ملكها إيضاحاً عن سبب التأخير في دفع الضريبة، فأجابه تورانشاه بأن السبب يعود إلى امتناع حاكم الأحساء والبحرين (الأمير مقرن) عن دفع ما عليه من إتاوة إلى هرمز، فاتفق الطرفان على تجهيز حملة مشتركة لإخضاع الجبور في البحرين.^(٢)

لقد كان لتوران شاه أسبابه الخاصة في التحالف مع البرتغاليين لشن حملة مشتركة ضد الجبور في البحرين، حيث شكلت حملة دليوكيرك على هرمز سنة ١٥١٥ ضربة قاصمة لاقتصاد المملكة ونفوذها في الخليج العربي، فضعفت سيطرة هرمز على الأقاليم

(١) فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٣٠٩-٣١٠.

(2) Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*, London, p. 350.

العمانية التي أخذت تدين بالولاء للجبور، كما أن خزانة هرمز كانت قد أثقلت بالمزيد من الضرائب التي أصبح حكام هرمز عاجزين عن أدائها، وكان تورانشاه يعتقد بأن حملة خاطفة ضد الجبور من شأنها استعادة هيبة هرمز وتأمين الإيرادات الكافية لسد عجز الخزينة لديه، وتفادي المزيد من الحملات البرتغالية ضد بلاده.^(١)

وكانت زيادة الضرائب، وتكدس المتأخرات على حكام هرمز تدفعهم للبحث عن مصادر دخل إضافية، ومثلت البحرين مصدراً مهماً لهذا الغرض؛ ففي مقابل الدمار الذي حل بهرمز خلال الفترة ١٥٠٧-١٥١٥، حافظت البحرين على استقرارها الاقتصادي وحركتها التجارية المزدهرة، حيث بلغت شهرتها الآفاق في مجال اللؤلؤ وازدهار حركة التجارة فيها بفضل موقعها على طريق السفن المنطلقة من البصرة والقوافل التي كانت تأتي من بلاد فارس، وهي خصائص جعلتها بمثابة مخزن لبضائع الشام وشبه الجزيرة العربية، وخصوصاً منها تجارة الخيول، التي كانت تدر أرباحاً وفيرة على الجبور، وكانت تلك الخيول تصدر من موانئ ظفار بساحل عُمان (الذي اتخذ منه الجبور منفذاً رئيساً لتصدير الخيول إلى الهند)، واحتكر الجبور تلك التجارة في شرقي شبه الجزيرة العربية مما حرك أطماع البرتغاليين من أجل السيطرة عليها، إذ تحدثت مصادرهم عن وجود تجارة نشطة للخيول في كل من عمان والبحرين وغيرها من المناطق الخاضعة لحكم الجبور، وكان الطلب عليها في الهند كبيراً. وكان الهرمزيون يرون بأن الوسيلة الأمثل للخروج من أزمتهم الاقتصادية هي الاستيلاء على تلك الثروات حيث قدر ملك هرمز إيرادات البحرين في تلك الفترة بحوالي أربعين ألف أشرفي.^(٢)

وفي مقابل الأطماع الهرمزية، كان البرتغاليون يمتازون بتفكير استراتيجي أكثر عمقاً؛ حيث كان قادتهم يتابعون نشاطات البحرية العثمانية في البحر الأحمر بقلق بالغ، وربطوا ذلك مع تزايد نشاط الجبور في الخليج العربي، فقد شرع الأمير مقرن في التعرض للسفن التجارية المبحرة ما بين البصرة وهرمز، وأخذ يوسع نفوذه في الخليج العربي مستعيناً ببعض الأتراك الحرفيين الذين جاء بهم من الحجاز لبناء مراكب لا تعتمد على الأشعة والرياح فحسب، بل كانت تتميز بصغر حجمها وسرعة حركتها واعتمادها بصورة أكبر على المجاديف. وقد أثمرت هذه الجهود في تأسيس أسطول متطور للجبور، ونجح مقرن في دعم قوته البحرية بالأسلحة النارية التي جلب من أجلها فرقاً تركية متخصصة لمساعدة

(١) قرر دليوكيرك سنة ١٥١٥ زيادة الضريبة على هرمز من ١٥ ألف إلى ٢٥ ألف أشرفي، في حين تبين بأنه للريس نور الدين بزمة هرمز ١٢٠ ألف أشرفي على شكل مستحقات لم تدفع في السنوات الماضية، وقد تعهد تورانشاه بدفعها على الفور. عصام سخنيبي (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٩٧.
(٢) صبري فالح الحمدي (٢٠٠٢) صفحات من تاريخ الخليج العربي الحديث، دار الحكمة، لندن. ص ٥٨.

قواته وتدريبهم على استخدام تقنية البارود في القتال. وفي المقابل كانت السياسة البرتغالية تقوم على تجريد المنطقة من السلاح حتى لا تتمكن القوى الإسلامية المحلية من توجيه أي خطر للوجود البرتغالي، فبعد القضاء على القوة البحرية العمانية والهرمزية قام البرتغاليون بجمع الأسلحة في المناطق الخاضعة لهم في ساحل عُمان وهرمز وغيرها من الجزر، في حين كان الجبور لا يزالون يشكلون قوة بحرية تشكل مصدر قلق كبير للبرتغاليين.^(١)

ولتفويت فرصة قيام تحالف عثماني مع الجبور في مياه الخليج العربي رأى البرتغاليون ضرورة بسط السيطرة على البحرين والقطيف وبناء قلعة في كلا البلدين لمنع أي تقدم عثماني في تلك الاتجاهات، وكان شاه فارس يؤيد البرتغاليين والهرمزيين في هذا التوجه، فقد كان ينوي أن يشن حملة على العثمانيين في تلك البلاد، وكان يعتمد على البرتغاليين في توفير النقل إلى البحرين والقطيف لقواده وعشرة آلاف من جنوده على متن سفنهم، واتفق الأطراف الثلاثة: البرتغاليون والهرمزيون والفرس على أن هذه الحملة ستعود عليهم بالفائدة. وبالنظر إلى تجاربهم السابقة كان البرتغاليون يدركون صعوبة التوغل في مياه الخليج العربي الضحلة، ويرغبون في الاستعانة ببراعة بحارة هرمز في معرفة الطرق البحرية من جهة، وتغطية نقصهم العددي عندما يواجهون قوات الجبور في البحرين من جهة أخرى.^(٢)

وبناء على هذه المعطيات تم تدشين الحملة البرتغالية-الهرمزية على البحرين في شهر سبتمبر ١٥٢٠، واشتملت على ثلاث سفن شراعية ذات مجاديف تحمل ١٢٠ بحاراً برتغالياً، وأربعين زورقاً من زوارق التجديف من هرمز تحمل ١٢٠٠ جندياً هرمزياً، وأخذوا بصحبتهم بعض الخيول لاستخدامها أثناء المعارك البرية، وكانت الحملة بقيادة جومز دي سوتومايور الذي تشنت أسطوله بفعل الرياح الغربية، واضطرت معظم سفنه إلى العودة أدراجها إلى هرمز، بينما تمكنت سفينة القائد البرتغالي من الوصول إلى البحرين وبصحبتها حصانين على متن أحد زوارق التجديف، وبعض الجنود الهرمزيين. وقد بقي جومز في عرض البحر لمدة ثلاثة عشر يوماً بانتظار وصول باقي قطع الأسطول، وعندما لم ير أي أثر لها قرر النزول لاستكشاف الجزيرة بنفسه، وأصدر أوامره بنزول ستين جندياً هرمزياً وستة جنود مدفعية برتغاليون وحصاناً واحداً لاستخدامه الخاص.

وقد فوجئ جومز لدى نزوله إلى الجزيرة بعدم وجود أي مقاومة له، فتوغل في الجزيرة حتى وصل مسجد الخميس، ثم عادت القوة إلى سفنها، ويعزو المؤرخون البرتغاليون عدم

(١) صالح أوزبران (١٩٧٩) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عبد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة. ص ٢١.
(٢) كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص.ص ٢٠-٢١.

وجود المقاومة إلى غياب معظم وجهاء البحرين في صحبة الأمير مقرن الذي كان في مكة يؤدي مناسك الحج^(١) وقد أكد ابن إياس بالفعل أن الأمير مقرن كان في تلك الأثناء غائباً عن البحرين بسبب أداءه مناسك الحج^(٢).

الحملة البرتغالية - الهرمزية بقيادة أنطونيو كوريا وشرف الدين سنة ١٥٢١

احتاج البرتغاليون والهرمزيون إلى تسعة أشهر أخرى حتى يتمكنوا من استكمال الاستعدادات اللازمة لحملة جديدة ضد البحرين، وغادر الأسطول هرمز في ١٥ يونيو ١٥٢١، بقيادة ابن أخت نائب الملك: أنطونيو كوريا الذي كان قد حقق نصراً للبرتغاليين في ملقا.

كانت القوات البرتغالية تتألف من أربعمائة مقاتل تحملهم سبعة سفن؛ سفينة قيادة، وست سفن منها سفينتان شرعيتان ذاتي مجاديف تحت إمرة كل من روي فاس بريرا وجوميز دي سوتومايور، وسفينة صغيرة سريعة بقيادة ألفارو دي مورا، وأخرى بقيادة فرناو الدوريز سارناش، وجميعهم من طبقة النبلاء وسفينة أخرى يقودها رجل يدعى بنتو.

وكانت القوات الهرمزية بقيادة الوزير شرف الدين، وتتألف من ثلاثة آلاف مقاتل من الرماة ورجال المدفعية والمشاة، يقلهم مائة وخمسون قارب تجديف.

أما من جانب البحرين فقد سارع الأمير مقرن فور عودته من رحلة الحج إلى تعزيز دفاعات مدينة المنامة التي كان يتوقع أن يستهدفها الهجوم المرتقب؛ فقام ببناء جدار عازل بين الساحل والمدينة يبلغ عرضه مترين وثلاثين سنتيمتراً، وكان مبنياً من الطين وجذوع النخيل، وقد صممت له ثلاث فتحات يمكن إغلاقها عندما يقترب منها العدو، ووضعت فرقة مدفعية لحماية الفتحات الثلاث لذلك الجدار، بينما كان خط الدفاع خلف الحائط مدعوماً بخنادق ومتاريس، كما شيدت أبراج مراقبة فوق هذا الحائط الدفاعي، وحفرت خنادق عميقة على طول الساحل الشمالي لإعاقة تقدم العدو، وتم تخزين الأطعمة والمدفعية والمؤن والذخيرة استعداداً لمعركة طويلة الأجل.

أما عدد قوة الجبور المدافعة عن المدينة فكان يقدر بحوالي إثنا عشر ألف جندي بينهم ثلاثمائة من الفرسان وأربعمائة من الرماة وعشرون تركياً من جنود المدفعية، بالإضافة

(١) كيرفران (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص ٢٢، نقلاً عن:

Damiao de Gois (1949-1955) *Cronica do felicissimo rei D. Manuel*. 4 vols, Coimbre. 3/244-245.

(٢) محمد بن أحمد بن إياس (١٩٦١) *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، مصدر سابق، ٤٣١/٥.

إلى أفراد الشعب الذين هبوا للدفاع عن بلادهم.^(١)

تحركت القوات البرتغالية-الهرمزية باتجاه البحرين في منتصف شهر يونيو ١٥٢١، وسرعان ما فرق الرياح العاتية قطع الأسطول، وكان جواو بريرا أول من وصل البحرين وألقى مراسيه قبالة المدينة، وبعد ستة أيام لحق به أنطونيو كوريا وتبعته معظم السفن البرتغالية والهرمزية الأخرى.

وفي السابع والعشرين من يونيو بدأ البرتغاليون الهجوم على رأس القوة المتقدمة بقيادة كوريا ومعه مائة وسبعون من رجاله ومن خلفه شقيقه على رأس خمسين جندياً، أما القائد الهرمزي فكان متحياً كاحتياطي للقوة البرتغالية، ونجحت القوات البرتغالية في تسلق الحائط وسارع الجنود البرتغاليون بالتوغل فيها دون أن يدركوا أنهم قد تعرضوا لكمين من قبل قوات الجبور، حيث وجد البرتغاليون أنفسهم محاصرين بين المدينة والسور الداخلي لها، ودار في هذه الأثناء قتال عنيف بين الطرفين، وأصبح موقف البرتغاليين حرجاً للغاية. ولكن الحرارة الشديدة في منتصف النهار أجبرت الجبور على وقف القتال، وانتهز الطرفان هذه الفرصة لإعادة تنظيم قواتهما من جديد فرتب جنود هرمرز ٢٠٠ قناص من رماة السهام مهمتهم رمي القادة العرب فقط، فقتلوا عدداً منهم، فقام الفرسان العرب بهجوم مضاد بقيادة الأمير مقرن نفسه، فقتل حصانان كان يمتطيها قبل أن يجرح هو في ساقه، وقد تسبب اختفاء المفاجئ بإشاعة حالة من الفوضى في صفوف قواته التي بدأت تضعف معنويات أفرادها، فقتل ثلاثون من الفرسان وثلاثمائة من المشاة.

وقتل من البرتغاليين خمسة وجرح سبعون، منهم أنطونيو كوريا الذي جرح في ذراعه الأيمن بينما نجا أخوه أيرز الذي كان حامل لواءه بأعجوبة بفضل مساعدة أليكسيو دي

(١) أبرز المصادر التي تعرضت للحديث عن معركة البحرين سنة ١٥٢١:

Joao de Barros (1945-46) *I Asia. Dos feitos que os Portugueses fizeram no decubrimento e conquista dos mares e terras do Oriente*. Lisbon, 7th edition. 3/311-322.

Damiao de Gois (1949-1955) *Cronica do felicissimo rei D. Manuel*. 4 vols, Coimbre. 3/168-169.

Manuel de Faria Sousa (1971) *The Portuguese Asia or The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese*. Translated by John Stevens Westmead. Gregg International Publishers, London. 2/256-258.

Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*, London, pp 350-351.

ومن المراجع باللغة العربية:

أحمد العناني (١٩٨٤) «البرتغاليون في البحرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، *مجلة الوثيقة*، ع٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.

نونو بي سيلفيا (١٩٨٥) «صفحات من الغزو البرتغالي للبحرين»، *مجلة الوثيقة*، ع٨، يناير ١٩٨٦، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٢٠٤.

فالح حنظل (١٩٩٧) *العرب والبرتغال في التاريخ ٧١١-١٧٢٠*، المجمع الثقافي، أبو ظبي. ص.ص ٣١٠-٣١٤.
مونيك كيرفران (٢٠٠٤) *البحرين في القرن السادس عشر: جزيرة حصينة*، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص.ص ٢٢-٢٩.

سوزا، وكانت جراح كوريا بليغة.

أما الأمير مقرن فقد أخفاه جنوده في أحد مساجد المدينة، لكنه توفي بعد ثلاثة أيام من إصابته، وأخذ جنوده يستسلمون إثر انهيار معنوياتهم، وقد حسمت المدفعية البرتغالية تلك المعركة بتركيز قصفها على أسوار المدينة، ومن ثم قام البرتغاليون باقتحامها، في حين بدأت قوات الجبور في انسحاب منظم باتجاه ساحل القطيف.

وفي هذه الأثناء كان أنطونيو كوريا يدخل قصر مقرن خلف اللواء الملكي والأبواق تصدح بموسيقى النصر، وعندما استقر في القصر قام بتصيب عدد كبير من أتباعه فرساناً، ثم سلم قلعة البحرين بصورة رسمية إلى الوزير الهرمزي شرف الدين الذي تقبلها باسم ملك هرمز، ومما يؤسف له هو أن شرف الدين شرع في التتكيل بأهل البحرين، وترك جنوده ينهبون البيوت والممتلكات العامة، وقام بإرغام الأهالي على إظهار الخضوع والطاعة لملك هرمز.

ويروي المؤرخ البرتغالي دمايو دي جويز كيف قام الهرمزيون بنهب المدينة، حيث عثروا على جثة الأمير مقرن وطلب شرف الدين الإذن من كوريا بأن يرسل ابن أخيه الرئيس صدر الدين ليقطع رأس «ذلك الخائن» لكي ترسل إلى هرمز وتعرض هناك، ووافق كوريا على ذلك عارضاً على الرئيس صدر الدين مساعدة بعض رجاله البرتغاليين. وفي حين نقل جثمان مقرن لدفنه في القطيف، قام كل من بالتازار وروي كوريا بنقل رأس مقرن ليعرض في هرمز، وقد سلم ابن أخ مقرن الشيخ حميد كل أسلحة عمه وخيوله إلى كوريا قبل نقل جثمانه إلى ساحل الأحساء، وفيما بعد وضع أنطونيو كوريا رسماً لرأس الملك مقرن وهو يقطر دماً على شعار نبالته بإضافة الاسم «بهارم» (البحرين) إلى لقبه.

وكانت معركة البحرين أطول معارك البرتغاليين في الخليج العربي؛ إذ أنها استمرت طوال الفترة ما بين ٢٧ يوليو و٢ أغسطس ١٥٢١، أي لمدة ستة أيام، وكانت المقاومة العربية فيها قوية للغاية حسب مصدر البرتغاليين، ولا توجد رواية عربية دقيقة لتلك الأحداث، إلا ما ذكره ابن إياس حول وقوع مقرن في الأسر والتفاوض مع البرتغاليين ليفدي نفسه بمبلغ كبير، يتناقض مع ما رواه البرتغاليون أنفسهم عن شجاعة الأمير مقرن، وقتاله في ساحة المعركة حتى إصابته ومن ثم العثور على جثته وفصل الرأس عنها كما سبق.^(١)

(١) محمد بن أحمد بن إياس (١٩٦٠) بدائع الزهور في وقائع الدهور، مصدر سابق. ٤٣١/٥.

ترتيبات ما بعد المعركة

في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البحرين الحديث تطرأ عدة إشكاليات تتعلق بنمط التواجد الأجنبي في البحرين منذ عام ١٥٢١ وحتى التدخل الصفوي فيها سنة ١٦٠٢، فقد افترض بعض الباحثين بأن البحرين خضعت للاحتلال البرتغالي طوال تلك الفترة، وناقش آخرون بأن البحرين كانت تخضع لحكم هرمزي تدعمه السلطة البرتغالية في الخليج العربي. ونظراً لمقتل الأمير مقرن في تلك المعركة الفاصلة وانسحاب قواته إلى الأحساء جادل البعض بأن حكم الجبور في البحرين قد زال منها إلى الأبد. والحقيقة هي أن هذه الافتراضات قد نشأت من عدم فهم المصادر البرتغالية التي استأثرت بتناول أحداث تلك الفترة دون غيرها من المصادر، كما أن رجوع البعض إلى المراجع التي كتبت باللغة الفارسية قد سبب المزيد من الإرباك في تناول أحداث تلك المرحلة وفق تسلسلها التاريخي السليم.

وللوقوف على صحة هذه الافتراضات من عدمها، لا بد من وضع روايات تلك الفترة تحت مجهر البحث والتحقيق، وبناء على ذلك فإنه يمكن تلخيص أهم الإجراءات التي اتخذها أنطونيو كوريا بعد معركة يوليو ١٥٢١، فيما يأتي:

١. بعد أن أحكم البرتغاليون سيطرتهم على مدينة المنامة أرسل أنطونيو كوريا بعض السفن البرتغالية فأخضعت قلعة البحرين لسيطرتها، وقد أشار ابن إياس إلى ذلك بقوله: «وتملكوا قلعته التي هناك»^(١) ثم أمر كوريا بإحراق سفن الجبور للتخلص من قوتهم البحرية، وبعد أن عاث الجنود الهرمزيون في أنحاء المدينة فساداً، أصدر القائد البرتغالي أوامره بالكف عن نهب المدينة وعدم التعرض لتجارها والبضائع الموجودة فيها.

٢. وبعد أن حطت الحرب أوزارها، قام كوريا بتسليم قلعة البحرين إلى الوزير الهرمزي شرف الدين، باعتباره مسؤولاً عن تحصيل الضرائب، وتم تحديد إتاوة سنوية على البحرين قدرت بنحو أربعمائة دوكات، ووضعت حامية هرمزية مكونة من مائة رجل في القلعة معظمهم من الفرس، وكانت تلك القوة تتبع ملك هرمز بصورة مباشرة، وتتقاضى رواتبها من الخزينة الهرمزية، وقام شرف الدين بتصيب ابن أخيه وصهره بدر الدين فالي مسؤولاً عن قلعة البحرين، وأصبح للفضالين السيطرة على الوزارة في هرمز والتحكم في جمارك البحرين.^(٢)

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) Joao de Barros (1945-46) *I Asia*, p 322.

٣. أما فيما يخص الحكم والإدارة المحلية فقد قام وجهاء البحرين بالتفاوض مع كوريا سرّاً وأظهروا استعدادهم التام للخضوع لطاعة ملك البرتغال، وذلك لكراهيتهم ملك هرمز، وقد انتهى الاتصال بإعلان شروط الاستسلام والتي تضمنت العفو عن الجبور وتنصيب حاكم عربي على الجزيرة، ورد اسمه بعدة صيغ منها: (Bucar) و(Lucat) وحيث إن البرتغاليين لم يكونوا يتوخون الدقة في تدوين أسماء الزعماء العرب آنذاك ولا في ذكر مناصبهم، فإن الأرجح أن يكون اسم الحاكم هو بركات، وهذا الاسم كان شائعاً لدى القبائل العربية في شرقي شبه الجزيرة العربية.^(١)

ويذكر المؤرخ البرتغالي باروس أن حاكم البحرين كان:

«رجلاً مسناً ومحترماً يسمى (Bucar) أو (Lucat)، وكونه من العرب أفرح سكان البحرين كثيراً، وذلك لأنهم كانوا يخشون من أن يتولى الحكم عليهم رجل من أصل فارسي، وذلك لشدة الحقد الموجود بين الطرفين».^(٢)

٤. وفي الثاني عشر من شهر أغسطس ١٥٢١ أبحر أنطونيو كوريا متجهاً إلى هرمز لمقابلة حاكم الهند دي سكويرا الذي أغدق عليه وعلى قادته الكثير من الهدايا،^(٣) وقد أقر سكويرا جميع الإجراءات باستثناء انفراد الهرمزيين بمسؤولية جمع الضرائب، فأمر بتعيين موظفي جمارك برتغاليين في البحرين وعمان، بحيث تهيمن هذه المراكز على السياسات التجارية في الخليج العربي وتسيطر سيطرة تامة على الشؤون الاقتصادية التي كانت موضع اهتمامه الأول، وبناء على أوامر من سكويرا تم تأسيس مركز تجاري برتغالي في البحرين، وأرسل جواو بوتو كوسيط تجاري، ومعه أنطونيو أبادل كضابط تسجيل بالإضافة إلى ستة أو سبعة رجال لمساعدتهم، وأدى ذلك إلى سحق كبير لدى موظفي الجمارك الهرمزيين في البحرين وعمان.^(٤)

ويستنتج من الروايات السابقة أن سلطة الهرمزيين لم تكن تتعدى السيطرة على نظام الجمارك، إذ لا يمكن لحامية صغيرة لا يتعدى تعداد أفرادها مائة مقاتل فارسي أن تحكم جزيرة تطلب غزوها نحواً من أربعة آلاف مقاتل.

(١) ورد اسم مقرن في المصادر البرتغالية على النحو التالي: (Mocrim)، أما شرف الدين فكانت المصادر البرتغالية تسميه: (Xarafa)، بينما ذكر اسم بدر الدين صهر شرف الدين: (Sadradim)، ويمكن ملاحظة الخلط الواضح في ذكر مناصب هؤلاء حيث كان الواحد منهم يسمى وزيراً ورئيساً وملكاً ووالياً، وما إلى ذلك من تسميات حملت دلالات مغلوبة فيما بعد، فاعتبر قائد القلعة البرتغالي في هرمز حاكماً على هرمز، واعتبر حاكم قلعة البحرين الهرمزي وزيراً على البحرين، ولعل السبب في ذلك هو ضعف جهاز الإدارة البرتغالي وعدم توضيح التسميات الإدارية بصورة دقيقة.

(2) Joao de Barros (1945-46) *I Asia*. 3/322.

(٣) قتل أنطونيو كوريا بعد هذه الحادثة بأيام قليلة، في سواحل الهند حيث انفجر مخزن البارود في سفينته مما أدى إلى مقتله مع جميع من كان معه. فالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣١٤.

(٤) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٢٨. وفالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣١٣.

أما الهرمزيون فإنهم لم يقوموا بحكم الجزيرة، بل أوكلت إليهم مهمة جمع الإتاوة السنوية المفروضة على البحرين، ثم تراجع سكويرا عن ذلك القرار وأرسل موظفين برتغاليين للقيام بهذه المهمة، مما مهد الأرضية المناسبة لقيام ملك هرمز تورانشاه ووزيره شرف الدين بالتمرد الذي وقع فور مغادرة نائب الملك البرتغالي هرمز في نوفمبر ١٥٢١.

ومن ناحية أخرى فإنه من غير الممكن تصور خضوع البحرين لاحتلال برتغالي يتكون من موظف جمارك تدعمه فرقة صغيرة تتألف من سبعة رجال يقيمون في القلعة؛ فالمصادر البرتغالية تؤكد بأن حاكم البحرين كان عربياً، وقد عرض باروس بالنفوذ الفارسي على الإدارة الهرمزية آنذاك إذ كان شرف الدين وابن أخته بدر الدين من إقليم فال الفارسي، ويلاحظ بأن بدر الدين قد اعتمد على مجموعة من الجنود الفرس أثناء إقامته في قلعة البحرين، ولما كان كوريا معنياً باستتباب الأمن وعودة الأمور إلى طبيعتها (حتى لا يضطر إلى تحمل مصاريف حملة أخرى ضد البحرين) فقد وجد نفسه مضطراً للاستجابة إلى طلب السكان المحليين بأن لا يعين عليهم حاكماً من أصل فارسي.

أما فيما يخص الجبور فإن سلطتهم لم تتلاشى بعد مقتل مقرن، فقد كان حكامهم يتوزعون السلطة في الأحساء وفي عُمان وفي البحرين، ولا يمكن تصور انهيار سلطة الجبور بمجرد خروجهم من البحرين، فقد تولى علي بن أجود حكم الأحساء ونواحيها، مدة أشهر، ثم خلفه ابن أخيه ناصر بن محمد بن أجود فملك نحو ثلاث سنين، ثم خلفه قطن بن علي بن هلال بن زامل، الذي حكم نحو سنة ثم مات، وخلفه ابنه الذي تنازل عن الحكم لقضيب بن زامل بن هلال وحكم سبعة أشهر.^(١)

ومن خلال استعراض سلسلة حكام الجبور في الأحساء لا بد من التنبية إلى أن زعامة الجبور لم تكن تنحصر في هذه الشخصيات آنفة الذكر، بل إن أغلب المصادر العربية والبرتغالية قد تحدثت عن أحد الزعماء البارزين الذي تمكن من استعادة حكم الجبور في البحرين وهو: الشيخ حسين بن سعيد.

(١) الخليفة وأبا حسين (٢٠٠٥) مرجع سابق، ص.ص ٢٠١-٢٠٢.

ثورة الجمارك بقيادة تورانشاه (نوفمبر ١٥٢١)

غضب الملك الهرمزي تورانشاه من تعيين موظفين برتغاليين في أنحاء مملكته لجمع الضرائب، فقد كان عصب اقتصاد هرمز يقوم على الاستفادة من موقعها الاستراتيجي من خلال فرض الرسوم الجمركية وتقديم التسهيلات التجارية للسفن العابرة من وإلى الخليج العربي، وبدا لحكام هرمز بأن هذا الإجراء قد جعل من حملتهم الأخيرة ضد البحرين غير ذي فائدة، وبأن التكاليف الباهظة التي تحملتها خزانة هرمز لإخضاع البحرين لم تكن موضع تقدير من نائب الملك البرتغالي سكويرا، فوضع اليد على دخل التجارة كان المردود السياسي الرئيس من تلك الحملة وليس السيطرة الكاملة على الإقليم وإدارته المحلية. وبلغ السخط أوجه عندما أمر نائب الملك دي سكويرا أن توضع جمارك هرمز التي كانت تجبى من قبل وكلاء حاكم هرمز تحت إمرة وكلاء برتغاليين يتولون إدارتها، وقد تسببت هذه الإجراءات في فقدان الهرمزيين جزءاً مهماً من دخلهم، وبالإضافة إلى ذلك فإن البرتغاليين اكتسبوا سمعة سيئة في أوساط السكان المحليين خلال عهد دي سكويرا (١٥١٨-١٥٢٢) وذلك بسبب سياسته في تمكين البرتغاليين من السيطرة التامة على الأمور المعيشية والتجارية للسكان، وقيام ضباطه بالسلب وفرض الضرائب الباهظة وجباية الأموال غصباً.^(١)

وإزاء هذه التطورات قرر تورانشاه ووزيره شرف الدين إعلان العصيان ضد البرتغاليين في هرمز ومسقط وصحار والبحرين، في نهاية شهر نوفمبر ١٥٢١، فحوصرت القلعة البرتغالية في هرمز، وفي البحرين هوجم البرتغاليون في الموقع الخاص بهم في مكتب الجمارك وقتل بعضهم (بينما فر الباقيون إلى السفن) واستولى الثائرون على مركز التجارة البرتغالي وقبضوا على رئيس دار التجارة في الجزيرة ويدعي روي بالي (Ruy Bale) وضرب بشدة ثم شنق وعلق على إحدى أشجار النخيل قرب القلعة. وقد تولى الثورة في تلك الليلة شيخ البحرين عندئذ حسين بن سعيد والذي قاد حملة كانت مفاجأة تامة للبرتغاليين.^(٢)

ولما وصلت أنباء ذلك العصيان إلى الملك دون جوان قرر عزل دي سكويرا وتعيين دون دوارت دي منزيس (١٥٢٢-١٥٢٤)، الذي بادر بإرسال تعزيزات إلى هرمز، وصلتها من مسقط حيث كان البرتغاليون يضعون احتياطياً من جنودهم، وأمكن لهم فك الطوق عن القلعة، ثم تعرضت هرمز للتدمير والإحراق، في حين فر تورانشاه إلى قشم حيث قتل

(١) قالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣١٥.

(٢) أحمد الغناني (١٩٨٤) «البرتغاليون في البحرين وجولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، مجلة الوثيقة، عدد ٤، ١٩٨٤، ص. ٩٨. وكذلك: محمد حميد السلطان (١٩٩٩) «ثورة عام ١٥٢١ في الخليج ضد البرتغاليين ونتائجها»، مجلة البحرين الثقافية، ع ٢٠، ١٩٩٩، ص ٣٠.

مسموماً، وعين صبي من أبناء تورانشاه حاكماً على هرمز ولم يكن يتجاوز الثالثة عشر من عمره.^(١)

أما الإجراء الآخر الذي اتخذته منزيس فهو الاتصال بالجبور، والتحالف معهم ضد الهرمزيين، فقد كان نائب الملك يدرك تمام الإدراك حاجته إلى سلطة محلية تتعاون معه لتوطيد حكمه في المنطقة من جديد، وحيث إن الهرمزيين لا يمكن الوثوق بهم، فقد وجد نفسه مضطراً لتقديم تنازلات كبيرة للجبور نظير تقديمهم المساعدة له للتخلص من تورانشاه. وفي المقابل كان الجبور -وعلى رأسهم الشيخ حسين بن سعيد- يرغبون في استعادة نفوذهم بعد الضربة التي تلقوها في البحرين والقطيف على يد التحالف الهرمزي-البرتغالي، فقاموا بإبرام اتفاقية مع البرتغاليين أقرروا بموجبها بصفة الشيخ حسين كحاكم عربي على البحرين مع وجود مستشار برتغالي يتولى شؤون الضرائب.^(٢)

وكانت الخطوة التالية تتمثل في تمكين الجبور من بسط سيطرتهم على صحار بعد انتزاعها من يد حاكمها الهرمزي ريس شهاب الدين؛ حيث تم التنسيق بين دون لويز قائد الأسطول البرتغالي المرابط في الخليج العربي قرب سواحل صحار والأمير حسين بن سعيد للمشاركة معه في اقتحام المدينة، واتفق الطرفان على أن تخضع صحار لحكم الجبور.

وفي يناير ١٥٢٢ تحركت القوات البرتغالية وقوات الجبور إلى مدينة صحار حيث حاصر البرتغاليون المدينة من جهة البحر ودكوها بالمدافع الثقيلة بينما حاصرت قوات الجبور البالغ تعدادها أربعة آلاف وخمسمائة جندي أسوار المدينة من جهة البر، واستسلمت المدينة التي خضعت بعد ذلك لحكم الجبور.^(٣)

وبعد أن وظف البرتغاليون الأطماع الهرمزية في السيطرة على البحرين لمصلحتهم خير توظيف، بدأوا في تنفيذ استراتيجية جديدة تقوم على توظيف رغبة الجبور في الانتقام من الهرمزيين واستعادة سيطرتهم على الأراضي التي فقدوها عقب أحداث يوليو ١٥٢١، فبعد تمكين حسين بن سعيد من استعادة حكم الجبور على البحرين، وكذلك إسناد حكم صحار إليه بشرط اعترافه بالسيادة البرتغالية، توجه اهتمام زعيم بني جبر نحو تورانشاه الذي كان قد فقد الأمل في نجاح ثورته وفر نحو جزيرة قشم، فأرسل الشيخ حسين بن سعيد بعض أتباعه ليثأروا من تورانشاه وقتلوه بالسم.^(٤)

(١) عصام سخيني (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣١٦، وكذلك: عبد الرحمن بن عثمان الملا (١٩٩٠) تاريخ هجر، جزاءن، ط٢، الأحساء. ٢٠٦/٢-٢٠٧.

(3) Sousa (1971) *The Portuguese Asia*. 2/268.

(4) جمال زكريا قاسم (1985)، مرجع سابق، ص 79، نقلاً عن عباس إقبال (1956) مطالعاتي درباب بحرين وسواحل وجزاير

عودة الجبور لحكم البحرين (١٥٢١-١٥٢٩)

عقب أحداث نوفمبر ١٥٢١-فبراير ١٥٢٢، فرض نائب الملك الجديد دي منزيس على حاكم هرمز الصبي محمد شاه توقيع معاهدة ميناب، والتي تم بموجبها زيادة الضريبة السنوية على هرمز لتصبح ستين ألف أشرفي، كما نصت المعاهدة على تسليم جميع الأسلحة المحلية إلى السلطة البرتغالية ومنع المسلمين من حمل السلاح، أما الجبور فقد استعادوا حكمهم على البحرين وصحار بالإضافة إلى توطيد نفوذهم في القطيف نظير اعترافهم بالسلطة البرتغالية في تلك المناطق.

وقد تحدثت العديد من المصادر عن استعادة الجبور حكم البحرين بزعامه حسين بن سعيد،^(١) ولعل الرواية الأكثر شمولاً هي التي نقلها ناصر الخيري، وأكد فيها على أن حكم الشيخ حسين بن سعيد الجبيري قد استمر طوال الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٥٢١ وحتى مطلع سنة ١٥٢٩، حيث ذكر في: **قلائد النحرين**، ناقلاً عن الرحالة البريطاني بينت في كتابه: **بلاد العرب الجنوبية** قوله:

«وتولى بعده في الحكم في الجزائر روي ببلي فلم يطل به زمان الحكم لسوء سيرته وخبث طويته وظلمه وجوره، فثار عليه العرب أهل الجزائر بزعامه كبيرهم الشيخ حسين بن سعيد الذي كان من قبيلة بني جبر،^(٢) فقَاتلوه حتى تغلبوا عليه وحصره في قصره، وبعد مهاجمات عنيفة أسروه وعذبوه بأقبح أنواع العذاب وأخيراً صلبوه وذلك سنة ١٥٢١م، ولما علمت الدولة بذلك أرادت أن تنتقم من العرب وزعيمهم الأنف الذكر، ولكن إدوم لوييس دي منزيس،^(٣) أشار عليهم بأن مقاتلة العريان غير صواب والأحسن أخذهم بالرفق واللين إلى أن ترسخ قدم الدولة في البلاد ويألف العرب حكم الأجنبي عنهم ديناً ولغة وآداباً، فعملت الدولة برأيه، وأرسلت المشار إليه دوم لوييس دي منزيس لعقد الصلح مع الشيخ حسين وقومه، فرحب الشيخ بالصلح على أن يكون هو الحاكم المحلي، والنائب عن الدولة في بلاده، فرضي دوم لوييس بذلك وجعله حاكماً على الجزائر، وجعل نفسه

خليج فارس، القاهرة. ص.ص 65-63.

(١) انظر على سبيل المثال:

Sousa, M. F. (1971) *The Portuguese Asia*. 2/263-268.

Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*, pp 354.

(٢) كتبت في النص: بني زابير، والصحيح ما ذكر أعلاه.

(٣) الإشارة هنا إلى نائب الملك البرتغالي دون دوارت دي منزيس (يناير ١٥٢٢-سبتمبر ١٥٢٤)، وكان قد عينه الملك البرتغالي ليتولى القضاء على حركة التمرد الواسعة في منطقة الخليج بسبب سياسة سابقه دي سكويرا (١٥١٨-١٥٢٢) في محاولة عزل موظفي الجمارك الهرمزيين وتعيين موظفي جمارك برتغاليين في الموانئ التابعة لهرمز. وتبنى دي منزيس سياسة هادئة تهدف إلى مهادنة السكان المحليين لتخفيف حالة الاحتقان، وأقام اتفاقاً مع الجبور للقضاء على تورانشاه، وتمكينهم من استعادة الأقاليم التي فقدوها ومنها عمان والبحرين.

مراقباً ومشيراً، «أو مندوب سامي كما يقولون في هذي الزمان»، وبعد مدة مات الشيخ حسين، فأراد العرب أن يجعلوا له خلف عليهم فأبأ عليهم بعض الموظفين العسكريين ذلك فثارت الفتنة ثانياً بين العرب والبرتغاليين،^(١) ودافع عن العرب راس برد ديه كوزيل أحد الموظفين السياسيين وأشار بوجوب محاسنة العرب منعاً لإهراق الدماء واتقاء لتفسير العريان في الخليج من الحكم البورتغالي، فأبى الحاكم العسكري سيمون دي اكونه،^(٢) وأصر على مقاتلة العرب، فلما رأى راس برد ديه كوزيل أن مساعيه في إقناع زميله لا تجديه شيء ترك الجزائر مظهرًا عدم رضاه عما يأتيه هذي من القساوة، فبقي سيمون دي اكونه يحارب العرب أهل البحرين حتى كاد أن يخضعهم، فباغته والعياذ بالله تفشي مرض الطاعون ففتك بكثير من رجاله وقواده، وأخيراً أصيب هو بنفسه فمات فخلفه غيره على عمله».^(٣)

ويستخلص من جملة الروايات التي تناولت تلك الفترة، أن جيش الجبور بقيادة الشيخ حميد قد قام بانسحاب تكتيكي إلى القطيف عقب مقتل الأمير مقرن سنة ١٥٢١، وكان الهدف من ذلك الانسحاب هو إعادة تنظيم صفوف المقاتلين وانتظار الفرصة المواتية لاسترجاع حكم الجبور في البحرين، وذلك على شاكلة ما وقع سنة ١٥١١ عندما قام خوجه عطار بمهاجمة البحرين، فقرر الجبور توجيه ضربة لقواته في سواحل عُمان، مما اضطره للانسحاب من البحرين والقبول بتوقيع معاهدة تنص على التزام الجبور بدفع إتاوة سنوية لملك هرمز.

وبناء على تلك التجربة السابقة، قام الجبور بالتفاوض مع الحاكم البرتغالي الجديد لتوجيه ضربة ضد الهرمزيين في صحار، ومن ثم استعادة نفوذهم في البحرين، وهذا ما تم لهم بالفعل.

ويدعونا ذلك للاستنتاج بأن زوال إمارة الجبور في البحرين والقطيف كان في سنة ١٥٢٩، حيث استمر حكمهم لتلك الأقاليم منذ أحداث سنة ١٥٢١ حتى مطلع عام ١٥٢٩. ويتوافق ذلك مع ما يراه عبد اللطيف الحميدان من أن حكم الجبور للقطيف قد امتد حتى عام ١٥٢٩، إذ يقول:

(١) الإشارة هنا إلى أحداث سنة ١٥٢٩، وبذلك يكون الشيخ حسين قد توفي في مطلع سنة ١٥٢٩، وقد انتهت هذه الأزمة برحيل بدر الدين إلى فارس وتمعهه بعدم التدخل مرة أخرى في مصير البحرين، ويبدو أن ريس مراد شاه قد عين حاكماً على البحرين عقب هذه الأحداث.

(٢) كذا في النص، والصحيح: سيمو دي كونها، وهو شقيق نائب الملك نونو دا كونها (١٥٢٩-١٥٣٨)، وقد انتهت حملته على البحرين بفشل ذريع، وتوفي في رحلة العودة بعد أن فقد معظم جنوده بسبب تفشي الوباء بينهم.

(٣) ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري (٢٠٠٣) *قلائد البحرين في تاريخ البحرين*، تقديم ودراسة عبد الرحمن بن عبد الله الشقيير، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين. ص.ص ١٩٢-١٩٤.

«وهنا يقتضي تصحيح خطأ تاريخي وقع فيه الجزيري نفسه،^(١) حينما أقحم القطيف ضمن ما استولى عليه الشيخ راشد في أثناء حملته هذه، فالقطيف كانت قد خرجت من أيدي الجبور قبل ذلك بمدة، إذ هي في تلك الأثناء كانت تحت حكم الهرمزيين ولم يتسن لراشد الاستيلاء عليها إلا بعد مضي أكثر من عشر سنوات من استيلاءه على الأحساء».^(٢)

وكان الجزيري قد افترض بأن حكم الجبور قد زال بصورة نهائية عن المنطقة عقب تقدم الأمير راشد بن مغامس بن صقر شيخ آل فضل وزعيم قبائل المنتفق بالعراق، من البصرة لبيسط نفوذه على الأحساء سنة ١٥٢٥،^(٣) ولكن القطيف لم تخضع لحكم ابن مغامس، بل بقيت تحت حكم الجبور الذين اعترفوا بالسيادة البرتغالية الاسمية عليها.

(١) الحديث هنا عن عبد القادر بن محمد الجزيري (ت ١٥٨٣) في كتابه: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، تحقيق أحمد الجاسر، ونشرته دار اليمامة بالرياض سنة ١٩٨٣.

(٢) عبد اللطيف ناصر الحميدان (١٩٩٧) إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب ٩٣١-٩٦٠هـ/١٥٢٥-١٥٥٣م، الرياض. ص ٤٧.

(٣) آل حكم الجبور في الأحساء إلى ناصر بن محمد بن أجود فملك نحو ثلاث سنين، وتنازل بعدها للأمير قطن بن علي بن هلال بن زامل الذي حكم نحو سنة وخلفه ابنه الذي تنازل عن الحكم لقضيب بن زامل فحكم سبعة أشهر، ثم اندلعت الحرب بينه وبين الأمير راشد بن مغامس أمير البصرة فانتصر راشد وزال حكم الجبور من الأحساء. حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٣٢٨.

الملح الثالث

نهاية حكم الجبور في البحرين

تشير المصادر القليلة المتوفرة لدينا حول الفترة ١٥٢١-١٥٢٩، إلى أن سلطة البرتغاليين قد تراخت بصورة كبيرة عن البحرين، فقد جاء نائب الملك دي منزيس (١٥٢٢-١٥٢٤) بسياسة تهدف إلى إرخاء القبضة العسكرية على الأهالي لمنع وقوع المزيد من الثورات ضد السلطة البرتغالية في الخليج العربي، وكان ذلك التراخي بالنسبة لمنزيس هو إهمال شؤون تلك الأقاليم وعدم الاهتمام بالأوضاع التجارية فيها، مما أدى إلى ضعف القبضة البرتغالية على البحرين.

والحقيقة هي أن البرتغاليين لم يكن لهم تواجد فعلي في البحرين خلال الفترة ١٥٢١-١٥٢٩، فقد اكتفوا باعتراف الجبور بسلطتهم سياسياً، وبوجود ممثل لهم لتولي مسؤولية الجمارك اقتصادياً، والذي يظهر هو أن الوجود البرتغالي كان في أغلب الأحيان يقتصر على جمع الضرائب وفرض الرسوم الجمركية على نشاطات الشحن والتفريغ والتخزين في البحرين، حيث جرت العادة على أن تقوم السلطات البرتغالية بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع بما لا يقل عن ١٠ بالمائة.^(١)

وقد عمد البرتغاليون إلى المبالغة في تقدير قيمة الضرائب المفروضة على السفن التجارية وعلى العاملين في مهنة الغوص، حيث كانوا يجبرونهم على بيع اللؤلؤ لحسابهم بأثمان بخسة ومن ثم بيعها بمبالغ كبيرة في أوروبا، وبذلك يحصلون على إيرادات وأرباح ضخمة من هذه التجارة.^(٢)

وفي خطاب أرسله أحد وجهاء هرمز إلى الملك جوان يشتكى فيه من فساد البرتغاليين ونهبهم للأموال العامة، بتاريخ ٨ أغسطس ١٥٢٣ تعرض أبو النصر شاه للحديث عن البحرين باقتضاب، وأكد بأن العادة قد جرت على تغيير الوكيل الهرمزي المختص بشؤون الجمارك كل عام، إلا أن المسؤولين في هرمز قد دأبو على تعيين الوكلاء لفترات تمتد إلى ثلاث سنوات، كما أشار إلى أن الوكيل الهرمزي المسؤول عن الجمارك في البحرين هو ريس محمد، وبأن إقامته تنحصر على قلعة البحرين التي قام بتحسينها، ملمحاً إلى وجود

(١) خلدون النقيب (١٩٨٩) المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص ٦٥.

(٢) صبري الحمدي (٢٠٠٢) مرجع سابق، ص ٥٨.

نزعة استقلالية لديه عن السلطة البرتغالية، قائلاً:

«وبعد هذا سلم حكم هرموز وباقي بنادره إلى أقرباه، وحكم جلفار أعطاه إلى أخوه على ثلاثة سنين ضد عادة بلادنا، لأن كل حاكم يحكم سنة، وحكم بحارين أعطاه لريس محمد نسيب شرف، وكل هذا لمنفعته وعلى هذا الحال تراني قليل الحرمة بين أكابر الفرنج، وبعد ما أعطى حكم بحرين إلى ريس محمد أعدها غاية العدة والآن ما يقدر أحد يأخذها من يده لأن فيها برج عالي»^(١).

وللتعامل مع الشكاوى التي وردت لشبونة، قرر الملك دون جوان عزل دي منزيس، وتعيين لوبو فاز (١٥٢٦-١٥٢٩)، الذي لم يكن أحسن حالاً من سابقه فقد أوغل لوبو فاز في الفساد وسار على شاكلة منزيس في التلاعب بالمال العام، وتشير المصادر إلى أن وزير هرمز شرف الدين قد استأثر بإيرادات هرمز، وبأن قريبه بدر الدين في البحرين قد توقف عن دفع الإتاوة السنوية منذ فترة؛ ففي خطاب آخر أرسله كريستاو دو مندوسا، إلى نائب الملك بجوا عام ١٥٢٩، أشار حاكم قلعة هرمز البرتغالي إلى أن وكيل الجمارك في قلعة البحرين بدر الدين، قد أظهر تمرداً على السلطة في هرمز، وبأن البحرين:

«لا تؤدي أي مردود حتى الآن، إن احتلالها وفرض تحصيل المبلغ وفق ما هو محدد لها سيخفف من وطأة الأمر»^(٢).

وعلى إثر وصول تلك الأنباء قرر الملك إحداث تغييرات جذرية في نظام الإدارة في جوا، فأرسل نونو داكونها (١٥٢٩-١٥٣٨)، الذي كان أول عمل يقوم به هو اعتقال سابقه لوبو فاز بتهمة التلاعب بأموال الدولة واستخدامها في مصلحته الخاصة، ثم أرسله مخفوراً إلى لشبونة، ومعه وزير هرمز شرف الدين الذي وجهت إليه التهم نفسها، وفي أعقاب ذلك أمر داكونها بشن حملة ضد الوكيل الهرمزي في البحرين.^(٣)

(١) فالج حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص.ص ٤٢٣-٤٢٤، نقلاً عن كتاب وثائق عربية تسهم في كتابة التاريخ البرتغالي:

(Documents Arabicos Para A Historyia Portucueza)، تأليف الأب جواو دي سوزا.

(٢) أحمد بوشرب "مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، الوثيقة، العدد الرابع، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص ١٢٨-١٣٢.

(٣) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٣٢٧-٣٢٨.

الحملة البرتغالية على البحرين بقيادة سيماء دا كونها (سبتمبر ١٥٢٩)

ما إن وصلت أخبار اعتقال شرف الدين وإرساله مخفوراً إلى لشبونة حتى قام ابن أخيه في البحرين بدر الدين بإعلان التمرد وتحصن في القلعة مع رجاله، ممتنعاً عن دفع الإتاوة السنوية المقررة.^(١)

ولمواجهة ذلك التمرد أمر نائب الملك داكونها بإعداد قوة مكونة من خمس سفن حربية عليها أربعمئة جندي وكان قائدها أخوه سيماء داكونها، الذي توجه إلى البحرين في مطلع شهر سبتمبر ١٥٢٩، وقد أعاققت الرياح الغربية وصول الأسطول البرتغالي إلى الجزيرة حتى العشرين من الشهر نفسه.^(٢)

وكان أحد الضباط البرتغاليين واسمه بلجوير دي سوزا قد نجح في الوصول إلى البحرين قبل داكونها، حيث قام بتنظيم حصار لمنع الإمدادات من الوصول إلى حامية بدر الدين. واستطاع بدر الدين في هذه الأثناء أن يدخل ستمائة من الجنود الفرس بأقواسهم ونبالهم إلى البحرين عن طريق ميناء آخر قبل وصول داكونها، وبذلك بلغ تعداد جنود بدر الدين ألفاً وأربعمئة رجل بينهم عدد من الرماة.

كما قام بدر الدين باحتجاز عدد من زعماء القبائل في البحرين كرهائن في القلعة خوفاً من أن يقوموا بخيانتته انتقاماً من سياسته التي اتسمت بالتسلط والاستبداد ضد السكان المحليين.

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن بدر الدين قد اتخذ من مقره في القلعة مركزاً للتمرد ولم يتحصن في مدينة المنامة، حيث لم يكن للهمزيين موطن قدم في المدينة بل كان وجودهم ينحصر في القلعة ونواحيها، ومن ناحية أخرى فإن بدر الدين لم يكن يتمتع بتأييد أهل البحرين، بل كان على العكس من ذلك يخشى من بطشهم، وذلك لأن المصادر البرتغالية تشير بوضوح إلى أن غالبية أهل البحرين كانوا من القبائل العربية التي تكن الكثير من الحقد والكراهية لوزراء هرmez من إقليم فالي، وذلك بسبب أصولهم الفارسية، وتاريخهم غير المشرف في التعامل مع أهل البحرين منذ سنة ١٥٢١.

(١) تتحدث بعض المصادر عن سبب آخر لوقوع التمرد وهو قيام السلطات البرتغالية بزيادة الضريبة على هرmez من ستين إلى مائة ألف أشرفي، مما أدى إلى أن يضغط الهرمزيون على الوكيل في البحرين لزيادة الإتاوة السنوية فرفض ذلك وأعلن تمرد. نونو بي سيلفيا (١٩٨٥) «صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين»، مجلة الوثيقة، العدد الثامن، يناير ١٩٨٦، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ١٢٨.

(٢) تتوفر تفاصيل دقيقة عن تلك الحملة في وثيقة برتغالية يعود تاريخها إلى نوفمبر ١٥٢٩، وقد نشرت في: أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد الرابع، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ١٢٨-١٣٢. كما يمكن الحصول على مزيد من المعلومات حول تلك الحملة في: Joao de Barros (1945-46) *I Asia*. 3/362-369.

وعندما وصل دا كونها رفع بدر الدين العلم الأحمر فوق حصنه دليلاً على استعداده للمواجهة، ولكنه في الوقت نفسه أرسل إلى البرتغاليين بعض الطعام والمؤونة للتأكيد على رغبته في التفاوض معهم والوصول إلى حل سلمي، وقد كان الهدف من هذه الحركة هو كسب المزيد من الوقت بغية تقييم قوة البرتغاليين وتصميمهم، حيث ماطل بدر الدين في إرسال مفاوضين حسبما طلب دا كونها، وعندما وجد الأخير أن المفاوضات غير قادمين أمر رجاله بالنزول إلى البر.

قام البرتغاليون بإحضار مدفعين كبيرين مع رجال المدفعية الذين وضعوا تحت إمرة فرنسيسكو ديمندوزا، واتخذ دي سوزا وترستاو دي تايد مواقعهما الأمامية مع ٨٠ رجل، وكان دا كونها مع اللواء الملكي يقود بقية القوات، وفي هذه الأثناء قام أحد الجنود البلوش بالهرب من القلعة مدعياً بأنه لن يخون ملك هرمز، وقام البرتغاليون بالتحرك نحو الجانب الآخر من القلعة لأنهم وجدوه أضعف من الجهة التي حاصروها من جهة البحر، حيث أصدر سيماءو دا كونها أوامره بجلب خمسة مدافع إضافية وأمر بإطلاق النار على القلعة، وبعد ثلاثة أيام كان البرتغاليون قد أصابوا ذلك الجانب من القلعة إصابة مدمرة، وفي انتظار أن يغيروا موضعهم وجدوا أن ذخيرة مدافعهم من البارود قد نفذت فقرروا حينئذ تسلق الجدار عند البقعة التي أصابوها بمدافعهم، فقاموا بردم خندق القلعة بالتراب وجذوع النخل ثم وضعوا السلالم، ولكن محاولة تسلق الجدار باءت بالفشل بسبب دقة الرماة المدافعين عن القلعة الذين أمطروهم بوابل من السهام، في حين كانت المدفعية البرتغالية عاجزة عن تغطية جنودها بسبب نفاذ البارود، وبازدياد خسائرهم المتلاحقة أوقف البرتغاليون الهجوم وأرسلوا سفنهم إلى هرمز لتحضر لهم البارود.

استمرت مدة الحصار أسبوعين، حيث كان البرتغاليون ينتظرون قدوم الإمدادات من هرمز، وفي هذه الأثناء أصيب الجنود بالحمى، وفي خلال ثلاثة أيام وقع مائتا جندي ضحية للمرض، وعندما وصل البارود كان البرتغاليون في غنى عنه فلم تكن القوات البرتغالية في وضع يسمح لها باستئناف القتال، لذا ففي جنح الظلام وبمصاحبة الموسيقى الصاخبة -لتغطية الظروف المنكوبة لجنوده- أصدر سيماءو دا كونها أوامره بانسحاب جنوده ومدفعيته. وتعبيراً عن امتنانه فإن بدر الدين لم يقيم بالتحرش بالجنود الذين لم يكن باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم ضد أي هجوم، كما قام الصيادون المحليون بمساعدتهم للوصول إلى سفنهم في رحلة العودة إلى هرمز، وفي الطريق قضى أغلب البرتغاليين نحيبهم بما فيهم سيماءو دا كونها.

جدير بالذكر أن بدر الدين قام بتنفيذ ما اتفق عليه أثناء المفاوضات الأولية مع البرتغاليين قبل بدء الحصار، حيث كان بدر الدين قد وافق على أن يغادر إلى فارس مع عائلته، ويبدو أن بدر الدين قرر المغادرة بالفعل والتزم بعدم التدخل في شؤون البحرين خوفاً من شن البرتغاليين حملة انتقامية أخرى.^(١)

تزامنت هذه الأحداث مع عدة تطورات مهمة في البحرين، فبعد وفاة الشيخ حسين بن سعيد، ورحيل الوكيل الهرمزي بدر الدين، ضعف نفوذ الجبور في البحرين والقطيف، وأخذت البحرين تشهد فراغاً كبيراً في السلطة سارع إلى ملئه جلال الدين مراد محمود شاه.

(١) مونيك كيرفران (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص.ص ٣٠-٣٤.

المبحث الرابع

مسمى «البحرين» بين الإقليم والأرخبيل

لقد كان لانهار سلطة الجبور في البحرين سنة ١٥٢٩ آثاراً كبيرة، قلما توقف المؤرخون عندها لتقييمها. ولعل أهم نتائج تلك الحقبة: الانفصال السياسي الذي وقع بين البحرين «الإقليم» والبحرين «الأرخبيل»، وانعكاس ذلك على استخدام مسمى: «البحرين»، حيث أخذ إقليم البحرين في العصور الحديثة مسميات مختلفة تتناسب مع المرحلة التاريخية والسلطة السياسية التي فرضت نفوذها على مختلف مناطق الإقليم بينما استأثرت جزر البحرين بالمسمى الذي لا تزال تحمله حتى يومنا هذا.

ومن خلال استقراء مختلف المصادر التاريخية للبحرين إبان القرن السادس عشر، يمكن القول بأن إطلاق مسمى «البحرين» قد اتخذ ثلاثة مراحل رئيسية يمكن تفصيلها فيما يأتي:

المرحلة الأولى؛ إطلاق التسمية على إقليم البحرين

أطلق العرب في العصور الإسلامية اسم «البحرين» على الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان، ويشمل بذلك ما نعتبره في الوقت الحاضر: الكويت والأحساء وقطر وجزر البحرين التي كانت تعرف باسم «أوال»^(١).

والبحرين؛ مثنى بحر، وقد اختلف الجغرافيون العرب قديماً حول أصول تسميتها وإن كان غالب الرأي قد اتفق على أن سبب التسمية هو وجود كتلتين مائيتين إحدهما مالحة والأخرى عذبة سواء في الإقليم أو في الجزر، وكان لوفرة المياه الجوفية العذبة التي تتدفق من الينابيع الطبيعية في شرقي شبه الجزيرة العربية وكذلك من الينابيع البحرية من قاع الخليج علاقة بهذه التسمية.^(٢)

ولذلك فإن المصادر الإسلامية التي تتحدث عن وفد أهل البحرين إلى الرسول عليه

(١) عبد الرحمن العاني (٢٠٠٠) البحرين في صدر الإسلام، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص. ٢٠١٩، نقلاً عن: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (١٨٦٨) معجم البلدان، ٦ أجزاء، لايبزك، ١/٥٠٦-٥٠٧. وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (د.ت) الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف. ص ٢٠.
(٢) محمد أحمد عبد الله وبشير زين العابدين (٢٠٠٩) «البحرين توطئة جغرافية»، تاريخ البحرين الحديث ١٥٠٠-٢٠٠٢، جامعة البحرين، البحرين. ص ٢٥.

الصلوة والسلام، وعن ولاية البحرين والحركات السياسية في البحرين، إنما تعني بذلك إقليم البحرين، وقد ورد ذكر بلاد البحرين عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين بأسماء أخرى كهجر أو الأحساء أو العروض. أما جزر البحرين فكان يطلق عليها مسمى «ترم»، ولكن الاسم الذي غلب عليها هو: «أوال» نسبة لسنم كان يعبده بنو وائل.^(١)

المرحلة الثانية؛ إطلاق المصادر التاريخية على أوال مسمى «جزر البحرين»:

تزامنت هذه المرحلة مع ظهور دولة الجبور في إقليم البحرين منذ منتصف القرن الرابع عشر،^(٢) فقد قام سيف بن زامل ببسط سلطته على جزر البحرين عام ١٤٦٧، مستغلاً انشغال هرمز بصراعاتها الداخلية، وقد أدت هذه الصراعات إلى تدهور الأوضاع في هرمز وانتعاش الأوضاع الاقتصادية والسياسية للجبور في البحرين حيث كان التجار يعتمدون على الجبور في نقل تجارتهم وحمايتهم.^(٣)

وفي عهد أجود بن زامل (١٤٧٠-١٥٠٦) اهتم الجبور بتطوير نشاطهم البحري، فأصبح لهم أسطول كبير، قاموا باستخدامه في أغراض عسكرية من أبرزها مساعدة الحاكم الهرمزي سلغور في التغلب على خصومه وتثبيتته على عرش هرمز عام ١٤٧٧، وفي الوقت ذاته كان يستخدم ذلك الأسطول في التجارة مع الهند، حيث تتحدث المصادر عن قيام علاقات وطيدة بين دولة الجبور بالبحرين وبين الدولة البهمنية في الهند (١٣٤٧-١٥٢٧).^(٤)

ونظراً لاهتمام أجود بن زامل، وكذلك مقرن بن زامل بن أجود (١٥١١-١٥٢١) بتطوير أسطولهم البحري وتزويده بالمدافع، فقد اتخذوا من البحرين قاعدة أساسية لحكمهم ومركزاً أساسياً لبسط نفوذهم البحري وممارسة النشاط التجاري والعسكري على حد سواء، فأصبح للبحرين مكانة كبيرة في الخليج العربي، ودأبت المصادر التاريخية والجغرافية على إطلاق تسمية «جزر البحرين» على الأرخبيل مع احتفاظ الإقليم باسمه، وفي تلك الفترة بالذات نلاحظ بأن المصريين قد أطلقوا على القاهرة اسم «مصر»، وعلى الشاكلة نفسها كان يُطلق على دمشق مسمى: «الشام»، باعتبارها حاضرة الإقليم وأهم مدنه. ولا شك بأن جزر البحرين في فترة حكم الجبور كانت حاضرة الإقليم وعصب

(١) إبراهيم البلوشي (٢٠٠٢) بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي. ص ٣٤.
(٢) يرى عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك الحمير بأن بداية إطلاق مسمى البحرين على أرخبيل الجزر تعود إلى قبيل منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أصبحت البحرين تنكر كجزء منفصل عن البحرين الأم. ولكن لم يورد المؤلفان أي استشهادات أو نقول عن مصادر معاصرة لتأييد ذلك الرأي. انظر: عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك الحمير (١٩٧٢) البحرين عبر التاريخ، الشركة العربية للوكالات والتوزيع، البحرين. ٣٧/١-٣٨.

(٣) الخليفة وأبا حسين (٢٠٠٥) مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٤) عبد اللطيف الحميدان (١٩٨٠) «التاريخ السياسي لإمارة الجبور»، مرجع سابق، ص ٥٥.

الاقتصاد فيه، وذلك بفضل سياسة الجبور البحرية من جهة، وما احتوت عليه البحرين من موارد وثروات من جهة أخرى.

ونتيجة لذلك الازدهار فقد استخدم الجغراف في الشهير أحمد بن ماجد كلتا التسميتين في آن واحد بقوله: «الجزيرة الثامنة وهي البحرين، وتسمى أوال»^(١).

كما عمد ابن إياس إلى استخدام مسمى جزيرة البحرين لدى تعرضه لأحداث سنة ١٥٢١، بقوله: «الأمير مقرن أمير عرب بني جبر، متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى»^(٢).

ويمكن تتبع النسق نفسه لدى المصادر البرتغالية في المرحلة المبكرة من القرن السادس عشر، حيث تحدث الرحالة البرتغالي تومي بيريز سنة ١٥١٢، عن جزيرة البحرين بقوله: «إن الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها»^(٣).

كما تحدث القائد البرتغالي أفونسو دلبوكيرك في مواضع كثيرة عن جزيرة البحرين، ومن ذلك التقرير الذي ورد في الأعمال الكاملة لدلبوكيرك ومما ورد فيه:

«وفي الخليج توجد أيضاً جزيرة يقال لها: البحرين كذلك مشهورة بإنتاج الخيول بكثرة»^(٤).

ويستخلص من هذه النصوص بأن إطلاق مسمى «البحرين» على أرخبيل الجزر قد أصبح درجاً في المصادر التاريخية والجغرافية وذلك نتيجة للمكانة التي تبوأها أرخبيل الجزر في ظل حكم الجبور، ولكن إقليم البحرين في تلك الفترة لم يفقد مسماه، وفي الوقت نفسه فإن تسمية أوال كانت لا تزال تستخدم بصورة واسعة في العديد من المصادر الأخرى.

المرحلة الثالثة: انفراد تسمية البحرين بالأرخبيل

بانتهاء حكم الجبور في البحرين سنة ١٥٢٩، فرض على الواقع السياسي في شرقي شبه الجزيرة العربية تغييرات كبرى، فسرعان ما أحكم شيخ قبائل المنتفق راشد بن مغماس سيطرته على إقليم الأحسا، ومن ثم سيطر العثمانيون على الإقليم ابتداء من سنة

(١) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) أحمد بن ماجد، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) ابن إياس (١٩٦٠) بدائع الزهور، مصدر سابق، ٤٣١/٥.

(٣) طارق نافع الحمداني (١٩٨٩)، «الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، ص ١٦٣.

(٤) عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٦٥٣/٢.

١٥٥٠ واستمر حكمهم فيها لمدة تزيد عن قرن ونصف من الزمان، وكان أول إجراء يتخذه العثمانيون هو إخضاع الأقاليم التابعة لهم إلى تقسيمات إدارية تضمنت إنشاء ثلاثة ألوية رئيسية هي بغداد والبصرة والأحساء، وعلى رأس كل منها بييربي، ونتيجة لذلك فقد أصبح الاسم الغالب على الإقليم هو الأحساء، والاسم الغالب على أرخبيل الجزر هو البحرين.

وبناء على ذلك فإنه يمكن عزو انفراد أرخبيل الجزر بمسمى البحرين إلى الأسباب الرئيسية التالية:

١. انهيار سلطة الجبور، وبالتالي انفصال الإقليم عن الأرخبيل سياسياً.
٢. فشل السلطات السياسية التي حكمت الإقليم في ضم البحرين إلى حكمها، فقد بذل راشد بن مغامس ومن بعده ابنه مانع عدة محاولات للسيطرة على البحرين ولكنها باءت بالفشل، كما أن القوات العثمانية في الأحساء قد شنت عدة حملات للسيطرة على البحرين ولكنها عجزت عن تحقيق ذلك مما أدى إلى ترسيخ الانفصال السياسي لأرخبيل الجزر عن الإقليم.
٣. قيام سلطة سياسية مستقلة في جزر البحرين، وقد حرصت هذه القوى على ترسيخ استقلالها وسيادتها عن سائر القوى الطامعة في السيطرة عليها.

فالارتباط السياسي بين الإقليم والأرخبيل الذي تميزت به البحرين طوال العصور الإسلامية قد انفصمت عراه بصورة قاطعة في مطلع العصور الحديثة، حيث تكونت مجموعة كيانات سياسية في إقليم الأحساء متمثلة في آل فضل، ومن ثم العثمانيين، والخوالد، بينما أصبح للجزر كياناتها السياسية المستقلة (في أغلب الأحيان) متمثلة في سلطة مراد شاه، وحفيده محمود شاه، وفي فترة لاحقة؛ قامت قبائل الهولة متمثلة في: الشيخ جبارة، وآل حرم، وآل مذكور في بسط سيطرتها على البحرين. ولما رأت بريطانيا بأن الصلة بين الكيان السياسي الذي أسسه العتوب في البحرين إبان القرن الثامن عشر، له امتداد ونفوذ كبير في شبه جزيرة قطر ورأس تنورة والدمام وغيرها من مدن شرقي شبه الجزيرة العربية سعت إلى ترسيخ الانفصال السياسي بين الإقليم والأرخبيل طوال فترة حمايتها على الخليج العربي، والتي استمرت حتى العقد السابع من القرن العشرين.

والحقيقة هي أن المصادر العربية والبرتغالية والعثمانية في القرن السادس عشر تزخر بعدد كبير من القرائن التي تدل بصورة قاطعة على انحصار تسمية البحرين في أرخبيل

الجزر، بينما أطلقت مسميات أخرى على الإقليم أبرزها: «الأحساء» و«القطيف»، ويمكن استعراض بعض هذه المصادر فيما يأتي:

١- إطلاق مسمى البحرين على الأرخبيل في المصادر العربية

تحدثت المصادر العربية وبالأخص منها الرسائل المدونة من قبل وزراء هرمز عن الجزر بصفتها «البحرين»؛ ففي خطاب من وزير هرمز إلى الملك دون جوان سنة ١٥٣٠، تحدث الشيخ راشد عن فساد سابقه شرف الدين وتلاعبه في أموال الإتاوة بقوله:

«وقبل مني كان رئيس شرف يخزن مدخول البحرين وجلفار ومستغان وبيرونات وكان يحصل له ستين ألف أشريفي ولا يعطي إلا أربعين ألف أو خمسة وأربعين والباقي يحطها في كيسه»^(١).

ويمكن ملاحظة وجود تفريق واضح لدى وزراء هرمز آنذاك بين إقليم الأحساء من جهة، وجزر البحرين باعتبارها كيان مستقل من جهة أخرى، ففي خطاب آخر يعود تاريخه إلى سنة ١٥٤٤ تحدث الوزير الهرمزي ركن الدين عن العلاقات بين «حاكم الأحساء» الشيخ مانع بن راشد، و«حاكم البحرين» الرئيس مراد، وورد في ذلك الخطاب:

«إلا أن ملك الأحساء جمع عدداً كبيراً من المحاربين وعاد للاستقرار بالقطيف داخل قلعة جديدة أمر ببنائها بعد أن أمر بهدم القلعة القديمة. وما إن علم رجاله وباقي مرافقيه من سكان المنطقة بنواياه الرامية إلى محاربة مسلمي البحرين حتى فر عنه أغلبهم بصحبة أبنائهم وزوجاتهم، وكان أول الفارين محمد بن رحال وذويه الذين رحلوا جميعاً مع آخرين لوضع أنفسهم تحت حماية حاكم البحرين، كما أن أحد أعيان المسلمين المسمى الشيخ محمد بن مسلم قدم بدوره إلى البحرين صحبة قومه وذلك رغم أنه من أهل الأحساء»^(٢).

٢- إطلاق مسمى البحرين على الأرخبيل في المصادر البرتغالية

أما المصادر البرتغالية فتطلق تسمية «البحرين» على الجزر بصورة أكثر وضوحاً، حيث تطلق على الجزر مسمى «Barem» أي البحرين، وكان هذا الاسم قد وضع على شعار انطونيو كوريا عقب غزوه البحرين سنة ١٥٢١.

(١) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٣٠٠-٣٠٢، نقلاً عن:

Joao De Sousa (1789) *Documentos Arabicos Para A Historyia Portucueza*. Lisboa.

(٢) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص.ص ١٣٣-١٣٥.

وفي سنة ١٥٢٩ كتب القائد البرتغالي لقلعة هرمز دي مندوسا إلى نائب الملك بجوا تقريراً عن الأوضاع في الخليج العربي، حيث تعرض لجزر البحرين قائلاً:

«لقد سبق لملك هرمز أن عين الرئيس بدر الدين -أحد أقارب الوزير شرف- عاملاً على البحرين»^(١).

وقد ميز القائد البرتغالي برنال دو سوزا بين جزر البحرين وبين القطيف، وذلك في خطاب تحدث فيه عن الحملة البرتغالية على القطيف سنة ١٥٤٥، وورد فيه:

«وبعد مغادرتنا لهرمز وصلنا بعد عدة أيام إلى البحرين حيث مكثنا أياماً قليلة لإنهاء جمع قطع الأسطول وتوفير بعض الحاجات اللازمة للحصار لكوننا لم نكن إلا على بعد تسعة لغوات من القطيف... ولأن البحرين لا توفر للقطيف في هذا المجال أي امتياز على الرغم من كثرة الخضرة وكثافة الغطاء النباتي فيها إذ أنه لا يمكن رسم مكان أجمل منها في العالم كله»^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من كثرة الوثائق البرتغالية التي تتحدث عن الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية إبان القرن السادس عشر، إلا أننا لم نعثر على وثيقة واحدة تذكر هذه المنطقة باسم البحرين، بل كان مسمى «البحرين»، يقصد به في جميع الأحوال أرخبيل جزر البحرين دون غيرها.

٣- إطلاق مسمى البحرين على الأرخبيل في المصادر العثمانية

لعل المصدر الجغرافي الأكثر وضوحاً في تحليله لسبب إطلاق تسمية «البحرين» على الجزر هو كتاب سيدي علي الذي ذهب في مهمة عسكرية سنة ١٥٥٤ باتجاه البصرة، وفي أثناء الطريق وصل إلى البحرين حيث قابل حاكمها، وأتيح له أن يشرب من ينابيع مياه البحرين العذبة التي تتدفق من قاع الخليج العربي، وكان مما ورد في كتابه:

«وصلت إلى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الأحساء وهناك وجدنا دليلاً فسألناه عن العدو البرتغالي ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن فاجتازنا البحر إلى البحرين حيث التقينا بمراد ريس وهو حاكم البحرين فسألناه عن العدو فقال أيضاً إن العدو ليس في البحر، وفي البحرين وجدنا -ويا لها من حكمة عجيبة- الفواصين وكل واحد منهم

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٦-١٣٩. نقلاً عن: Gavetas, Torre Do Tombo, V.I. pp 915-918، وانظر نص الخطاب كذلك في: فالح حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٤٠٨-٤١١.

يمسك بيده زقاً ويغوص في البحر حوالي ثمانية باعات أو أكثر ثم يملأ ما بيده من زق بماء عذب من القاع، وكان هؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب إلى ريس مراد دائماً، وفي أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضاً، وحيث إنه كذلك فقد كان ريس مراد يكثر الشرب منه، وقد أرسل ريس مراد إلى هذا العبد (يقصد نفسه) من هذا الماء كنوع من مظاهر الاحترام، والحقيقة إن هذا الماء كان جيداً، وإن الآية الكريمة: {مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان} إنما تتحدث عن هذا، وهم يعتقدون أن الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على البحرين.^(١)

وبعد ذلك بأربع سنوات (أي في ١٥٥٨)، أصدر السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) قراراً باعتبار «جزر البحرين» ولاية عثمانية والاعتراف بمراد شاه حاكماً عليها، وورد في نص الخطاب:

«بناء على ما عرضه الأمير جلال الدين مراد خان حاكم ولاية جزر البحرين من الولاء للسدة العلية العثمانية».^(٢)

وفي العام التالي صدر للسلطان سليمان خطاب آخر يؤكد ما ورد في خطابه السابق، ويتبرأ من حملة حاكم الأحساء على ولاية البحرين، وورد في ذلك الخطاب الموجه إلى مراد شاه:

«إنك أرسلت أشخاصاً مرات عديدة إلى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا، ومنحكنا شهادة إثبات بأننا قلدناك ولاية البحرين، وأخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين، وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا محافظ الأحساء قد قام بغزو البحرين».^(٣)

وتحتفظ دفاتر المهمة التابعة لرئاسة الوزراء بإسطنبول بمجموعة من الوثائق المتعلقة بالبحرين في القرن السادس عشر باعتبارها ولاية من ولايات الأحساء، والملاحظ في هذه الوثائق أنها تحصر مسمى البحرين في أرخبيل الجزر باعتبارها ولاية عثمانية، تابعة لإيالة «الأحساء» وهو الاسم الذي درج العثمانيون على استخدامه للإشارة إلى إقليم شرقي شبه الجزيرة العربية الخاضع لسلطتهم، ففي سنة ١٥٧٣، ورد إلى حاكم الأحساء العثماني أمر من السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) بالاستعداد لمواجهة حملة برتغالية مرتقبة في الخليج العربي، وورد في ثنايا الخطاب:

(١) سيدي علي (١٨٩٥) مرآة الممالك، إقدام مطبعه سي، اسطنبول، ص ٣٧-٣٨.
(٢) نقلاً عن: مجلة الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ٧٩.
(٣) مجلة الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ٧١، نقلاً عن: أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر المهمة رقم: ٣، ص ١٣٩، رقم الوثيقة: ٣٦٤.

«كما تكون السفن في البحر تحت أمرك لتدافع بصورة جيدة عن أراضينا في السواحل وعن جزيرة البحرین حسب ما تراه مناسباً»^(١).

ويستنتج من جملة المصادر العثمانية التي تناولت الأوضاع في الخليج العربي؛ أن مسمى البحرین قد انحصر في أرخبيل الجزر منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، أما إقليم شرقي شبه الجزيرة العربية فقد خضع أغلبه للحكم العثماني وأصبح يطلق عليه مسمى: «إقليم الأحساء».

٤- «البحرين» في خرائط القرن السادس عشر

تمثل الخارطة التي نشرها للمرة الأولى عبد الهادي التازي سنة ١٩٨٤،^(٢) دليلاً قوياً على أن مسمى البحرین قد انحصر في أرخبيل جزر البحرین، ويعود تاريخ هذه الخارطة إلى سنة ١٥٣٨، وقد رسمها أحد البرتغاليين الذين صاحبوا نائب الملك البرتغالي دون غارسيا دا نورونها (١٥٣٨-١٥٥٠) الذي وصلته معلومات عن وجود خطط عثمانية سنة ١٥٣٨ لاحتلال عدن، وطرد البرتغاليين من مسقط والبحرين.

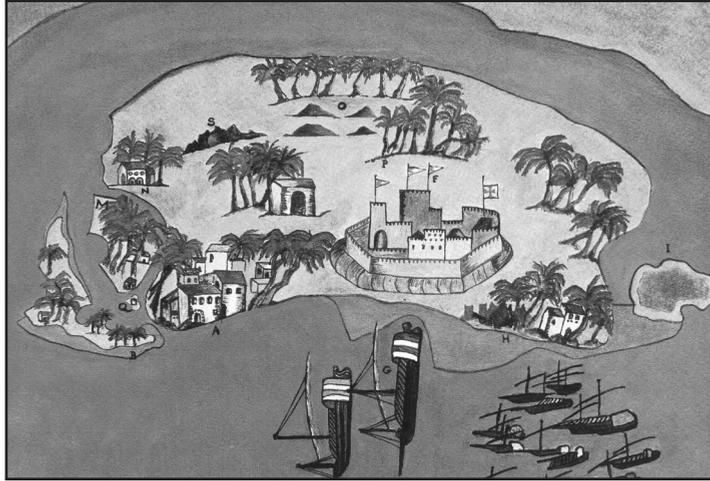
ويمثل الرسم تصويراً مفصلاً لجزر البحرین، حيث بين الرسام المياه الضحلة على الساحل الشمالي للبحرين مع مصب القناة حيث كانت ترسو السفن أمام القلعة، ويوضح الرسم من جهة الشمال: البديع والمنامة وبينهما سوق الخميس، ورسم في الخلفية جبل الدخان وقبور التلال وحقول النخيل، وعلى الجانب الأيسر من الخارطة يمكن رؤية جزيرة المحرق بدون قلعتها، وجزيرة سترة، وجزيرة أبو ماهر، وعلى اليمين نرى تصويراً دقيقاً لجزيرة أم النعسان.

أما القلعة فقد تم رسمها بدقة، وبها الجدران الخارجية الخمسة، ويظهر في الخلفية البرج الرئيس، كما يمكن مشاهدة البرج المربع كعلامة على البرج الشمالي. ويرفرف على القلعة نوعان من الأعلام؛ علم البحرین المثلث وعليه الهلال الإسلامي، والعلم البرتغالي المربع وعليه الصليب، وأغلب الظن هو أن العلم البرتغالي قد وضع للإشارة إلى وجود مكتب تجاري للبرتغاليين في البحرین، وذلك لأنه قد رسم بصورة منخفضة بعض الشيء عن الأعلام الإسلامية، كما أنه قد وضع في إحدى زوايا القلعة، بينما نرى الأعلام الإسلامية الثلاث

(١) عبد الرحمن بن عثمان الملا (١٩٩٠) تاريخ هجر، مرجع سابق، ٢/٢٢٤. نقلاً عن: أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، دفتر المهمة: رقم ١٢، ص ٢٢٢، رقم الحكم السلطاني: ٦٨٣.
(٢) عبد الهادي التازي (١٩٨٤) «وثيقة لم تنشر عن البحرین»، الوثيقة، العدد الرابع، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرین. ص ٥٨-٧٣. كما نشرت الخارطة نفسها بصورة أنيقة في غلاف كتاب مونيك كيرفران: البحرین في القرن السادس عشر جزيرة حصينة.

ترفرف في وسط القلعة وعلى يسارها.^(١)

ولا شك بأن تلك الخارطة تصور أن البحرين كانت تتمتع بنظام سياسي مستقل، مع بعض التنازلات التي دأب مراد شاه على تقديمها للقوى الرئيسية في المنطقة لدرء خطر مهاجمتها.



خارطة برتغالية للبحرين عام ١٥٣٨

وبالإضافة إلى ذلك الرسم القيم لجزر البحرين؛ فقد ظهر في القرن السادس عشر مجموعة من الخرائط الخاصة بمنطقة الخليج العربي، ومن أشهرها خارطة جاكومو غاستالدي التي ظهرت سنة ١٥٦١. وغاستالدي هو جغرافي من البندقية اعتمد في رسم خريطته للمنطقة على المعلومات التي وردت في كتاب الرحالة البرتغالي الشهير دوارتي باربوسا،^(٢) وكان باربوسا قد قام برحلته إلى الشرق سنة ١٥١٨، ويعتبر الكتاب الذي صنفه في وصف هذه الرحلة من أهم ما دون في القرن السادس عشر لأنه اعتمد على خبرته الشخصية، واتسم عمله بالدقة، خاصة عندما تعرض لوصف عدد من مدن الخليج العربي على الساحلين الشرقي والغربي، وقد قام ب.ج. سلوت بنشر الجزء الخاص بالخليج العربي من خريطة غاستالدي والتي تظهر فيها جزيرة البحرين وقلعتها بوضوح.

ويمكن ملاحظة إشارة الخريطة إلى الإقليم الشرقي لشبه الجزيرة العربية باسم «ELCATIF» أي القطيف، وقد كتبت بالأحرف الكبيرة لتمييز تسمية

(١) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٨٣.

(2) Dames, M. L. translator (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Vol. 1, Hakluyt Society, London.



خارطة غاستالدي ١٥٦١

الإقليم عن المدن الأخرى في الخارطة، وبعد ذكر مجموعة من المدن على ذلك الساحل، تظهر جزر البحرين وقد كتب مقابلاً لها: «Baharem»، وهو المسمى الذي كان يستخدمه البرتغاليون لدى الحديث عن جزر البحرين.^(١) ونظراً لأن خارطة غاستالدي كانت المصدر الرئيس للعديد من الخرائط التي ظهرت فيما بعد فإن الباحث يمكنه أن يعثر على مجموعة غير قليلة من الخرائط التي تظهر أرخبيل الجزر تحت مسمى «البحرين».^(٢)

وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، ظهرت خارطة الرحالة الهولندي جون هيوجن فان لنخوتن الذي قام برحلته نحو الشرق عام ١٥٩٦ حين كان في خدمة البرتغاليين في جوا بالهند، ثم نشر نتائج رحلته مع دليل ملاحي وصف فيه الطريق من لشبونة عاصمة البرتغال إلى الهند، كما وصف التيارات والرياح والموانئ التجارية والجزر الموجودة في الطريق البحري إلى الهند.

وقد تحدث لنخوتن في ثنايا رحلته عن جزر البحرين وذكر معلومات مهمة منها قوله:

«يتوفر اللؤلؤ في كافة البلدان الشرقية وخاصة بين هرمز والبصرة في الخليج في كل من البحرين والقطيف وجلفار وكاماران، وهناك جماعة تابعة لملك البرتغال موجودة في البحرين بصورة مستمرة لتقوم بصيد اللؤلؤ كما توجد أماكن أخرى لهذا الغرض... وتقع جزيرة البحرين على بعد حوالي ٨٠ ميلاً من رأس مسندم وتشتهر البحرين بصيد اللؤلؤ، وفي شمالها تقع ميناء البصرة على بعد ٦٠ ميلاً حيث يلتقي نهر الفرات ودجلة».^(٣)

(١) سلوت، ب.ج. (٢٠٠٣) نشأة الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت. ص ١٧. جدير بالذكر أن المصادر البرتغالية تذكر البحرين بصيغ مختلفة، منها: «Boharim» و«Baharem»، وفي كل الأحوال كان البرتغاليون يقصدون بذلك جزر البحرين وليس الإقليم.

(٢) من الخرائط التي ظهرت على سبيل المثال؛ خارطة لازارو لويس التي ظهرت عام ١٥٦٣، وخارطة جواو تنحسيرا البارناز، وخارطة بارتولوميو دي لاسو البرتغالية التي تعود إلى عام ١٥٩٠. المرجع السابق، ص ١٢-١٥ و ٢١-٢٦.

(٣) «صفحات من كتاب قديم وصف شاهد عيان مرجع لعام ١٥٩٨»، مجلة الوثيقة، ١٤، يوليو ١٩٨٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ١٥١-١٥٥. وقد قام عيسى أمين بترجمة النص الإنجليزي ونشره عام ١٩٩٦، مع مقال تشالز بوكر ورحلة البرتغالي بربوسا، انظر: عيسى أمين (١٩٩٦)، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوارتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة

ويلاحظ بأن الرحالة الهولندي كان يتحدث عن جزر البحرين دون التعرض للحديث عن الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية والذي تعرض للحديث عنه بتفصيل في معرض آخر من كتابه.

وبالإضافة إلى ذلك النص الهام، قام لينخوتن بتضمين كتابة خارطة ظهرت قبل الكتاب بعامين، وقد أعاد سلوت نشرها في كتابه نشأة الكويت سنة ٢٠٠٣، حيث يلاحظ إشارة لنخوتن إلى جزر البحرين باسم «Barem»، أما الإقليم فقد أشار إليه باسم: «ELCATIE»،^(١) كما تظهر على الخارطة أسماء موانئ أخرى مثل صحار وجلفار والقطيف، وقد ذكر لنخوتن بأنه قد نسخ هذه الخارطة في جوا من خارطة أخرى يرجع سلوت بأنها قد تكون خارطة غاستالدي^(٢).

وقد نشر مركز البحوث والدراسات الكويتية عام ٢٠٠٣ كتاباً مترجماً للباحث سلوت فيه تحليل دقيق للخريطة الخاصة بالخليج العربي في رحلة لنخوتن، كما ظهر في الكتاب صورة طبق الأصل عن هذه الخريطة التي تتواجد في الأرشيف الوطني بهولندا.



خارطة لنخوتن ١٥٩٦

تشالزبوكر، الأيام، البحرين.

(١) هكذا وردت في خارطة لنخوتن، والصحيح هو: «Elcatif»، كما وردت في خارطة غاستالدي.

(٢) سلوت، ب.ج. (٢٠٠٣)، نشأة الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ص.ص ٢٦-٣٣.

وقد نشر الشيخ سلطان القاسمي في كتابه: «الخليج في الخرائط التاريخية ١٤٧٨-١٨٦١»،^(١) مجموعة خرائط يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر، وتؤكد جميع هذه الخرائط على تسمية أرخبيل الجزر باسم «البحرين»، بينما درجت هذه الخرائط على تسمية الإقليم باسم: «القطيف»، ومن أهم الخرائط التي نشرت في كتاب القاسمي:

- خريطة غاستالدي (Gastaldi) التي يعود تاريخها إلى عام ١٥٤٨.^(٢)
- خريطة روسيلي (Ruscelli) المحفوظة بباريس والتي يعود تاريخها إلى عام ١٥٦١.^(٣)
- نسخة أخرى من خريطة غاستالدي يعود تاريخها إلى عام ١٥٦١، ويظهر فيها رسم قلعة البحرين بوضوح.^(٤)
- خريطة أورتيليوس (Ortelius) التي يعود تاريخها إلى عام ١٥٧٠، ويظهر فيها رسم قلعة البحرين.^(٥)
- نسخة أخرى من خريطة أورتيليوس يعود تاريخها إلى عام ١٥٨٠.^(٦)
- خريطة جيرار دي جو (Gerard de Jode) التي يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٣.^(٧)
- خريطة فان لانغرين (Van Langren) التي يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٦، ويظهر فيها اسم البحرين على الأرخبيل، ومسمى «القطيف» على شرق شبه الجزيرة العربية.^(٨)
- خريطة بورو (Porro) التي يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٦، ويظهر فيها اسم البحرين على الأرخبيل، و«القطيف» على الإقليم.^(٩)
- خريطة بوسماخر (Bussemacher) التي يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠، ويظهر فيها اسم البحرين والقطيف.^(١٠)
- خريطة ميتيلوس (Metellus) التي يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠، ويظهر فيها مسمى

(1) Sultan Al-Qasimi (1999) *The Gulf in Historic Maps 1478-1861*, 2nd Edititon, Leicester, England.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤٣.

البحرين على الجزر مع رسم للقلعة، واسم «القطيف» على الإقليم.^(١)

جدير بالذكر أن جميع هذه الخرائط لا تشير بأي صورة إلى شرقي شبه الجزيرة العربية بمسمى البحرين، بل تجمع كلها على استخدام مسمى: «البحرين» للإشارة إلى الجزيرة.

٥- إطلاق مسمى البحرين على الأرخبيل في المصادر المحلية

أما عن استخدام مسمى «البحرين» في القرن السادس عشر، فيمكن العثور على صخرة يعود تاريخها إلى سنة ١٥٦١، وقد نقش عليها سنة ترميم قلعة البحرين واسم حاكم البحرين آنذاك، وقد ورد فيها ذكر واضح للبحرين باعتبارها كياناً سياسياً مستقلاً يخضع لحكم جلال الدين محمود شاه، ونصها:

«في ضمن شهر شعبان من سنة ثمان وستين وتسعمائة وافق الفراغ من قطع مائة ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين وذلك إبان وزارة الوزير الأعظم جلال الدين محمود شاه على يد العبد فيروز».^(٢)

وعلى الرغم من أن تسمية البحرين باسم: «أوال» بقيت شائعة حتى القرن العشرين إلا أنه من الواضح بأن مسمى «البحرين»، قد أصبح يستخدم بصورة موازية لمسمى أوال، في حين لم يعد يطلق اسم البحرين على الإقليم، بحيث أنه إذا أطلقت كلمة «البحرين» فإنه يقصد بها أرخبيل الجزر مطلقاً دون الإقليم، ويمكن التذليل على ذلك من قصائد الشاعر جعفر الخطي الذي أقام في البحرين ابتداء من عام ١٥٩٠، ودأب على استخدام مصطلح «البحرين» للدلالة على الأرخبيل، ومن ذلك قوله في مدح وجيهين من وجهاء البحرين غادراها إلى تاروت عام ١٥٩٧.^(٣)

وإن قرى البحرين أضحى نهارها دجى بعدما فارقتها ما كلاكما

وقال في قصيدة أخرى أنشدها في الحنين إلى البحرين وقراها وهو في شيراز:^(٤)

لا تحسب البحرين أني بعدها مستوطن داراً ولا أصحاباً

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٢) لا تزال الصخرة موجودة في قلعة البحرين، ويمكن العثور على صورة لها في: مونيك كيرفران (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص ٨٥. كما ورد الحديث عنها في: محمد بن خليفة النهباني (٢٠٠٤) التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص ٧١. وكذلك في: ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري (٢٠٠٣) فلاند البحرين في تاريخ البحرين، مرجع سابق. ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص ١٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٤.

وبالرجوع إلى حجج بيع الأراضي والوقف في البحرين إبان الفترة ١٥٨٠-١٦٠٠، يمكن ملاحظة استخدام تسمية «البحرين» ليقصد بها جزيرة أوال بصورة محددة، حيث نصت حجة بيع في قرية عالي يعود تاريخها إلى عام ١٥٨٦، على ما يلي:

«فهذه حجة شرعية تشمل وتدل على أنه قد باع المفتقر لله الغني محمد بن يوسف بن علم البحراني، من جناب المخدرة العفيفة الطاهرة بيبي نجيبة بنت الرئيس أمين بن محمد الهرجي تمام الربع الشايح من النخل المسمى بشطيب سنجر، مع الثمر الشائع من الصرمه المتصلة من الشمال الواقعة بسيحة عالي من قرى البحرين حميت عن الشين»^(١).

ويتكرر النص مرة أخرى في حجة بيع أخرى، سنة ١٥٩٩، فيذكر بعض قرى البحرين بأنها من:

«قرى البحرين المحروسة في ظل واليها عن الشين»^(٢).

وفي حجة ثالثة يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠، يرد في النص:

«في سيحة قرية عالي من قرى البحرين حرس من الشين»^(٣).

وبناء على ما تقدم، يمكن الاستنتاج بأن مسمى البحرين قد انحصر منذ العقد الثاني من القرن السادس عشر في أرخبيل جزر البحرين، في حين لم تعد تستخدم هذه التسمية على الإقليم الشرقي لشبه الجزيرة العربية منذ تلك الفترة.

(١) حجة بيع أرض زراعية بالبحرين عام ١٥٧٦، محفوظة في قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني.

(٢) حجة بيع أرض زراعية بالبحرين عام ١٥٩٩، محفوظة في قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني.

(٣) حجة بيع أرض زراعية بالبحرين عام ١٦٠٠، محفوظة في قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني.

الفصل الرابع



البحرين في عهد جلال الدين مراد
محمود شاه (١٥٢٩-١٥٧٧)

الفصل الرابع

البحرين في عهد جلال الدين مراد محمود شاه

(١٥٢٩-١٥٧٧)

تولى حكم البحرين في الفترة: ١٥٢٩-١٥٧٧، جلال الدين مراد محمود شاه الذي تعامل بحنكة سياسية مع القوى الطامعة في البحرين، وأدت سياسته الخارجية المتوازنة إلى تحقيق الاستقرار المحلي، وازدهار الحركة التجارية بها، ونتيجة لذلك فقد سجلت المصادر قدوم سلسلة هجرات قبلية إلى البحرين، حيث أسهمت هذه القبائل في تشكيل القوات العسكرية وتطوير النظام الاقتصادي في البحرين.

وقد شهدت البحرين في عهد مراد شاه هدوءاً على الجبهة الهرمزية-البرتغالية، فبعد خمس حملات تكبد فيها البرتغاليون والهرمزيون خسائر كبيرة في الأرواح لم يعد لديهم استعداد لشن حملة جديدة على البحرين، وكان لفشل الحملة البرتغالية الأخيرة عام ١٥٢٩ دور في حمل البرتغاليين على احترام استقلال البحرين وسيادتها.

ويسوق هذا الفصل جملة من الوثائق التي تثبت بأن البحرين لم تخضع لأي وجود عسكري أجنبي فيها طوال فترة حكم مراد شاه.

وعلى الشاكلة نفسها فإن الحملة العثمانية على البحرين عام ١٥٥٩ كانت بالنسبة لهم الحملة العسكرية الأولى والأخيرة، فقد خسر العثمانيون أكثر من ألف قتيل على أرض البحرين في حملتهم الفاشلة، بينما أبدى مراد شاه حنكة في التفاوض مع العثمانيين، وذلك بعد الاستعانة بالقوات البرتغالية-الهرمزية دون أن يضحي بسيادة بلاده واستقلالها، فقد غادرت جميع القوى أرض البحرين بعد انقضاء الحملة وانسحاب العثمانيين، وأخذ البرتغاليون يحرضون مراد شاه على مهاجمة إقليم الأحساء نظير أن يستقل بإيرادات أي مدينة تخضع له، معترفين بذلك ضمناً باستقلال البحرين عن سلطتهم.

وعلى الرغم من الأحداث الدامية التي وقعت عام ١٥٥٩ فإن مراد شاه نجح في الحصول على اعتراف من السلطة العثمانية بحكمه ومن ثم بحكم إخوانه وأبنائه من بعده على البحرين، كما حصل على اعتراف هرمزي-برتغالي بسلطته، وذلك في الوقت الذي حافظ

فيه على مسافة واحة إزاء جميع أطراف النزاع الإقليمي.

وقد مثلت سياسة مراد شاه الدفاعية نموذجاً يستحق المزيد من الدراسة والتحقيق، حيث شكل فرقاً عسكرية من قوات أجنبية ومحلية وقبلية عربية وافدة بالإضافة إلى جلب الخبرات البرتغالية المتطورة لترميم وتحصين قلعة البحرين التي مثلت رمز السيادة الوطنية للبلاد عام ١٥٦١.

حكام البحرين في القرن السادس عشر:

| م | الحاكم | من | إلى |
|---|----------------------|------|------|
| ١ | أجود بن زامل الجبري | ١٤٧٠ | ١٥٠٦ |
| ٢ | محمد بن أجود | ١٥٠٦ | ١٥١١ |
| ٣ | مقرن بن زامل بن أجود | ١٥١١ | ١٥٢١ |
| ٤ | حسين بن سعيد الجبري | ١٥٢١ | ١٥٢٩ |
| ٥ | جلال الدين مراد شاه | ١٥٢٩ | ١٥٧٧ |
| ٦ | خضر شاه | ١٥٧٧ | ١٥٧٧ |
| ٧ | ركن الدين محمود شاه | ١٥٧٧ | ١٦٠٠ |

المبحث الأول

تولي مراد شاه الحكم في البحرين

تعتبر الحملة البرتغالية على البحرين عام ١٥٢٩ بمثابة كارثة حقيقية بالنسبة للبرتغاليين، وقد عبر عن نتائجها حاكم قلعة هرمز دو مندوسا بقوله:

«ومن مجموع ٤٥٠ أو ٤٥٥ شخصاً ذهبوا إلى هناك لم يبق على قيد الحياة شخص لم يصبه الوباء، وقد توفي منهم ما يقارب المائتين، وما يقرب هذا العدد في طريقه إلى الموت. لقد مات من الحمى سيماو دا كونها، وكذا مانويل دو مندوسا وكثير من الفرسان، وبالنظر إلى عدد المرضى فإن نجاة مائة من المشاركين في الحملة من الموت سيعتبر معجزة بحق»^(١).

وإذا كانت المحصلة النهائية لقتلى البرتغاليين في تلك الحملة تتجاوز ثلاثمائة مقاتل (وهي خسارة كبيرة لم يتكبد البرتغاليون مثلها في جميع المعارك التي خاضوها عام ١٥٠٧)، فإن نتائج المعركة لم تتوقف عند ذلك الحد؛ بل كان من النتائج كذلك: توقف العمل بتعيين موظف جمارك هرمزي في البحرين، حيث غادر الرئيس بدر الدين عقب هذه الأحداث إلى فارس مع عائلته، متعهداً بعدم التدخل في شؤون البحرين مرة أخرى^(٢). ولم تسجل المصادر تعيين خلف له في البحرين من قبل هرمز بعد ذلك أبداً.

وتزامنت هذه الأحداث مع وفاة الشيخ حسين بن سعيد، لينقضي بذلك حكم الجبور على البحرين بصورة نهائية.

وكانت هذه التطورات مقدمة لانتقال البحرين إلى عهد جديد من الاستقرار الذي تحقق لها إثر توقف الحملات البرتغالية-الهرمزية التي عصفت بها خلال الفترة ١٥١١-١٥٢٩.

ومن المؤسف أننا لا نملك مصدراً برتغالياً يسرد تفاصيل الأحداث التي أعقبت فشل حملة سيماو داكونها عام ١٥٢٩، إلا أنه تتوفر بعض القرائن التاريخية التي تساعد على استقراء التطورات التي وقعت آنذاك؛ حيث ينقل أحمد صبحي عن مصادر فارسية بأن البرتغاليين قد عادوا بحملة جديدة إلى البحرين بعد أن وصلتهم الإمدادات من جوا، وبادرت

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤)، «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص.ص ١٢٨-١٣٢. ويمكن الاطلاع على نص الخطاب أيضاً في: فالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٤٠٢-٤٠٧.
(٢) مونيك كيرفران (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص.ص ٣٠-٣٤.

الحملة الجديدة بخلع حاكم البحرين من أسرة الجبور، وولوا بدلاً منه حاكماً فارسياً سنياً، ورأى أن البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لأنهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف جنسه عن سكان البحرين، ومعظمهم من العرب، كما يختلف في مذهبه عن الدولة الصفوية التي لم يرغب البرتغاليون أن يرتبط بها أهل البحرين.^(١)

ويؤيد ذلك ما ذكره محمد علي التاجر في وصف حالة حكومة البحرين على عهد البرتغاليين:

«أنهم كانوا ينصبون لها حكاماً من المسلمين الأعاجم السنيين، والحاكم يتخذ له وزيراً من جنسه ليكون أدمى إلى عمران البلاد، وأوفق لنظام السياسة البرتغالية وذلك أنه بصفة كونه مسلماً لا تنفر منه نفوس شيعة أهل البحرين، وبصفة كونه أعجمياً فجنسيته تمنعه من الانحياز إلى جانب الأهالي لكونهم عرباً، وبصفتها المذهبية يؤمن منه الميل إلى جانب الدولة الصفوية التي كانت شديدة التمسك بمذهبها الشيعي».^(٢)

ويخطو ناصر الخيري خطوة أبعد من ذلك، ليقرر بأن الحاكم المعين على البحرين سنة ١٥٢٩، هو: «جلال الدين مراد محمود شاه».^(٣)

ويمكن أن نستنتج من هذه النصوص بأن ظهور مراد شاه قد جاء على خلفية اضمحلال حكم الجبور، ومغادرة الوكيل الهرمزي من البحرين، بالإضافة إلى رغبة البرتغاليين في عدم التورط بالمزيد من الحملات العسكرية الفاشلة في البحرين. وقد نجح مراد شاه في توظيف هذه العناصر توظيفاً جيداً ليمنح البحرين بذلك فترة طويلة من الهدوء والاستقرار.

العناصر المكونة لمجتمع البحرين في القرن السادس عشر

وقبل الشروع في الحديث عن عهد مراد شاه، لا بد من التوقف للتساؤل عن أصول ذلك الحاكم والجهة التي كان يدين لها بالولاء.

وهذا السؤال هو جزء أساسي من مشكلة الطارئ والأصيل في الكيانات الجزرية عبر التاريخ.

فقد امتلكت البحرين عبر العصور عوامل جذب طبيعية استقطبت العديد من الهجرات:

(١) أحمد محمود صبحي (١٩٦٢) البحرين ودعوى إيران، الاسكندرية. ص.ص ٦٦-٦٧.

(٢) محمد علي التاجر (١٩٩٤)، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) ناصر الخيري (٢٠٠٣)، مرجع سابق، ص ١٩٦.

فكانت هدفاً لاستقرار بعض القبائل العربية قبل الإسلام وأبرزها عبد القيس، كما كان لموقع البحرين في وسط الخليج العربي دور في استقرار عدد من التجار الذين ينتمون إلى أجناس وأعراق مختلفة.

وكأي كيان جزري يقع في وسط طرق التجارة العالمية؛ اكتسبت البحرين هوية خاصة تميزت بها عبر العصور، واستطاعت أن تكيف سكانها مع هذه الهوية التي تكونت من عدة عناصر فرضتها عوامل التاريخ والجغرافيا.

ولدى دخول القرن السادس عشر كان غالبية مجتمع البحرين من أصل عربي، فكان حكامها من الجبور ينحدرون من بني عامر، كما كانت الغالبية العظمى من سكان البحرين من العرب، وقد تحدث البرتغاليون عن هيمنة العنصر العربي في مجتمع البحرين ورفضهم أن يتولى الحكم عليهم رجل من أصل فارسي.^(١)

وقد تعزز العنصر العربي في البحرين إبان القرن السادس عشر بالمزيد من هجرات القبائل العربية التي استقرت في البحرين فراراً من الأوضاع السياسية المتدهورة في إقليم الأحساء، ومن بين العشائر العربية المهاجرة؛ عشيرة آل مسلم بزعامة شيخها محمد بن سلطان بن مسلم،^(٢) وأسرة آل رحال ذات الثروة الكبيرة والجاه العريض والشهرة الواسعة في تجارة اللؤلؤ، وعلى رأسها عميدها محمد بن رحال وحسين بن رحال، وكذلك جمعة بن رحال الذي تحدثت المصادر العثمانية عن ثرائه، وورد في إحدى هذه الوثائق:

«جمعة بن رحال هو من كبار التجار في القطيف، وعندما استولى مصطفى بيلربي على أمواله، هرب إلى البحرين، واستقر فيها، وأخذ معه ما يملكه من السفن والغواصين واللؤلؤ، مما أدى إلى ركود اقتصادي في الأحساء، ولم يعد يذكر اسم اللؤلؤ فيها».^(٣)

أما العنصر السكاني الآخر فكان يتمثل في خليط من السكان من أصول فارسية ومغولية وهندية، وقد شهدت البحرين في القرنين: الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، حركة هجرة واسعة النطاق من قبل هذه العناصر التي استقرت في البحرين قادمة من هرمز وقشم وجزيرة قيس؛ ففي منتصف القرن الرابع عشر اندلع صراع بين الأسرة الحاكمة في هرمز، وقام أخوا السلطان الهرمزي قطب الدين تهمتهن الثاني (شادي وشبنا) بالاستيلاء على جزيرة قيس، ومن ثم استقروا في البحرين واتخذوا منها قاعدة لحكمهم، وجلبا إليها

(1) Joao de Barros (1945-46) *I Asia*. 3/322.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧) إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب، الرياض. ص.ص ٨٠-٨٢.
(٣) مجلة الوثيقة، العدد العاشر، (يناير ١٩٨٧) مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ١٢١، نقلاً عن: أرشيف رئاسة الوزراء العثماني، دفتر المهمة رقم: ٣، رقم الوثيقة ١١٢٣، الصفحة ٣٧٩، بتاريخ ١٨ شعبان ٩٦٧هـ/١٥٦٠م.

عوائلهم وقواتهم التي استقرت معهم في البحرين وشكلت جزءاً من المجتمع المحلي. وقد أشار ناصر الخيري إلى وجود هذه الفئة في المجتمع البحريني بقوله عن مراد شاه: «وربما كان من ذرية تهمتهن طوران شاه حكام الجزيرة (البحرين) وهرموز قبل البورتغاليين»^(١).

وعلى الرغم من أن السلطان تورانشاه بن تهمتن (١٣٤٦-١٣٧٧) قد تمكن من إخماد ذلك التمرد واستعادة النفوذ الهرمزي على البحرين، إلا أن تلك الأحداث كانت بداية لسلسلة من الهجرات نحو البحرين فراراً من الصراع الداخلي بهرمز، والذي أدى إلى اغتيال عدد من ملوكها، وإلى تصفية مجموعة كبيرة من الطبقة التجارية الأرسقراطية في تلك الجزيرة.^(٢) وكانت الأوضاع الأمنية المستقرة بالبحرين توفر بديلاً استثمارياً أفضل نظراً لبعدها عن تلك الأحداث الدامية، بالإضافة إلى انتعاش مهنة الغوص وحركة التبادل التجاري فيها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الغزو البرتغالي قد أعطى زخماً لحركة الهجرة تلك، حيث اندفع الكثير من تجار هرمز للخروج برؤوس أموالهم بحثاً عن أماكن أكثر استقراراً لمزاولة تجارتهم في الخليج العربي، وكانت البحرين هي البديل الأفضل للمهاجرين الجدد، الذين تبوأوا مكانة مهمة في النظام السياسي والإداري في البحرين بسبب ثرائهم ونفوذهم التجاري، وكان هؤلاء ينتمون إلى ثلاثة أعراق رئيسية:

عرب: ومنهم الأسرة الهرمزية الحاكمة، كما كان العديد من وزراء هرمز من أصول عربية، وبالأخص من قلهات ومسقط في عمان.^(٣)

فرس: وأغلبهم ينسب إلى إقليم فال، وهي إحدى المقاطعات التي كانت تخضع لسلطان مملكة هرمز، وكانت من الأهمية بأن سلاطين هرمز كانوا يختارون من فال كبار موظفي الدولة، وكان معظم الوزراء الفاليين من أصول فارسية.^(٤)

مغول: من بقايا غزو المغول للشرق الإسلامي، حيث أسسوا دويلات لهم في الشرق، واعتنق كثير منهم الإسلام، واستقر عدد منهم في هرمز حيث شكلوا جزءاً من الأسر الارسقراطية في المنطقة، ومن ثم هاجر بعضهم واستقر في البحرين.^(٥)

(١) ناصر الخيري (٢٠٠٣)، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٢) محمد محمود خليل (٢٠٠٦) مرجع سابق، ص ٤١٥-٤٢٥.

(٣) كان الوزير الهرمزي المخضرم خوجه عطار عربياً من قلهات، كما كان الوزير راشد ركن الدين من مسقط.

(٤) إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري (٢٠٠٠)، سلطنة هرمز العربية، مركز الدراسات والوثائق، راس الخيمة. ١٤٢/٢. ومن أبرز الوزراء الفاليين: وزير هرمز الرئيس نور الدين، وابن أخته الرئيس حامد الذي قاد تمرداً في هرمز سنة ١٥١٣، وكذلك الوزير شرف الدين الذي عزل سنة ١٥٢٩، وبدر الدين الذي تولى على جمارك البحرين سنة ١٥٢١.

(٥) كان السلطان قطب الدين تهمتهن الثاني يؤدي خراج هرمز إلى الإلخان أبي سعيد سلطان المغول، وكان الخراج يدون في حساب

الهجرات الرئيسية إلى البحرين في القرن السادس عشر:

| التاريخ | المهاجرون |
|---------|---|
| ١٥٤٤ | آل رحال بزعامة محمد وحسين ابني رحال |
| ١٥٥٥ | آل مسلم بزعامة محمد بن سلطان بن مسلم |
| ١٥٥٩ | مجموعة من أهل الأحساء بسبب تدهور الأوضاع الأمنية عقب الحملة العثمانية |
| ١٥٧٧ | عدد كبير من تجار اللؤلؤ بالقطيف، ومعهم مجموعة من الغواصين |
| ١٥٩٠ | آل المقلد من بني وائل بزعامة عبد الله بن ناصر بن حسين |

وقد حاول بعض المؤرخين تحديد أصل مراد شاه الذي تولى حكم البحرين في تلك الفترة، وفيما يأتي، نستعرض أهم الأقوال في ذلك:

أصول مراد شاه

ذهب عبد اللطيف الحميدان إلى أن مراد شاه فارسي الأصل، وبأنه من إحدى أسر فال الفارسية التي بسطت نفوذها الاقتصادي والسياسي على البحرين بعد انحسار السلطة العربية عنها بعد انهيار حكم الجبور،^(١) وأكد التاجر كذلك على أن حكام البحرين في تلك الفترة كانوا من أصول فارسية.^(٢)

ولاحظ فالح حنظل وجود ارتباك في المصادر التاريخية في تحديد أصل مراد شاه، قائلاً:

«تقول المصادر البرتغالية أنه فارسي ويمثل حكومة هرمز في البحرين، بينما تقول المصادر العثمانية أنه والي الأتراك على البحرين واسمه الأمير جلال الدين مراد خان، ويسمى أيضاً مراد شاه».^(٣)

وأضاف ناصر الخيري المزيد من الإرباك عندما اتخذ موقفاً وسطاً بين اعتبار لقب

مقاطعة كرمان. محمد محمود خليل (٢٠٠٦)، مرجع سابق، ص ٤١٩.

(١) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٢) محمد علي التاجر (١٩٩٤)، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) فالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٣٩٣-٣٩٤.

«شاه» دليلاً على أصله الفارسي،^(١) ثم ذكر الاحتمال الآخر القائل بأنه قد يكون من الأسر الأرسقراطية الهرمزية التي استقرت في البحرين في منتصف القرن الرابع عشر.^(٢)

وقد انطلق القائلون بأن مراد شاه من أصل فارسي إلى النفوذ الذي مارسه الوزراء الذين ينتمون في أصولهم إلى إقليم فال، وما تمتعوا به من وجاهة في هرمز والبحرين وفارس على حد سواء، وكان لهؤلاء مصالح تجارية في مختلف موانئ المنطقة. وفي ظل قيام البرتغاليين بتهميش القوى العربية في الخليج متمثلة في الجبور؛ برزت الأرسقراطية الفارسية كقوة سياسية بديلة في البحرين.

ولكن الدراسة التفصيلية لأحداث تلك الفترة تشير إلى أن العناصر الفارسية قد تعرضت لحملات تطهير كبيرة من قبل البرتغاليين؛ فقد عمد البرتغاليون إلى توظيف الأحقاد بين القوى المحلية في الخليج العربي لتوطيد نفوذهم، وسعوا إلى منع أي جهة من الاستئثار بالسلطة، ولتحقيق ذلك قام دلبوكيرك عام ١٥١٥، بتحجيم النفوذ الفارسي في هرمز عندما لاحظ بأن وزير هرمز الفارسي الأصل قد جمع حوله «سبعة أو ثمانية أقرباء من ذوي النفوذ هناك»، وعندما دعم هؤلاء حركة تمرد الرئيس حامد ابن أخت الوزير نور الدين، قام دلبوكيرك بقتله في بلاط ملك هرمز، ثم نفى أتباعه إلى بلاد فارس.^(٣)

وبعد فترة وجيزة من تلك الأحداث لاحظ البرتغاليون تعاضم نفوذ الفالين في الخليج العربي مرة أخرى، وذلك من خلال تولي شرف الدين الوزارة بهرمز، وقيامه بتصويب أقاربه في مسؤولية الجمارك في صحار والبحرين والقطيف، وعلى إثر ذلك قام القائد البرتغالي دي منزيس بالتحالف مع العناصر العربية (متمثلة في الجبور) لتوجيه ضربة ضد نفوذ الفالين وإحلال سلطة عربية بديلة في البحرين والقطيف وصحار. وكان أنطونيو كوريا قد أقام في الفترة نفسها اتصالات سرية مع الجبور، استشعر من خلالها مدى الكراهية المتبادلة بين العناصر العربية والفارسية في المنطقة.

ولذلك فإنه عندما ظهرت بوادر تمرد جديد في هرمز بزعامة الوزير شرف الدين، وابن أخته بدر الدين في البحرين عام ١٥٢٩، قام دلكونها بعزل شرف الدين وإرساله مخفوراً إلى لشبونة، ثم أرسل حملة بحرية لعزل بدر الدين. ويصعب بعد ذلك تصور قيام البرتغاليين بتصويب سلطة فارسية بديلة في البحرين، فالبرتغاليون كانوا يسعون إلى إحلال الهدوء في

(١) لا يمكن اعتبار لقب شاه دليلاً على أصل فارسي، فحكام هرمز لم يكونوا فرساً ومع ذلك فقد أطلق عليهم لقب شاه، كما أن حاكم البحرين قد أطلقت عليه ألقاب أخرى منها: «رئيس»، و«وزير» و«ملك» و«والي»، وليس بالضرورة أن تشير هذه الألقاب إلى أصل محدد لحاملها.

(٢) ناصر الخيري (٢٠٠٣) مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٣) فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٢٢٦.

البحرين حتى لا يضطروا للعودة إليها مرة أخرى، خاصة بعدما تكبدوه من خسائر بشرية فادحة، كما أن تصفية العناصر الفالية في المنطقة قد كلفتهم الكثير، ومن غير الممكن أن يوافقوا على تعيين فالي آخر على حكم البحرين.

ولذلك فإنه بعد تصفية الوجود العربي والفارسي من الساحة السياسية في البحرين، كانت الأولوية لدى الهرمزيين والبرتغاليين هي السعي إلى تنصيب عنصر حيادي يعيد إلى البحرين الاستقرار الذي يضمن لهم استمرارها في دفع الإتاوة السنوية دون انقطاع.

ونظراً لنفوذ الإلخانيين في الخليج العربي إبان القرن الرابع عشر، فإن غالبية الأرستقراطية التجارية التي استقرت في البحرين في تلك الفترة كانت من أصول تركية أو مغولية.

ويجدر التنبيه إلى أن مراد شاه لم يكن يمثل نفسه فحسب، بل كان يت رأس أسرة متماسكة في البحرين، وقد راعت السلطة العثمانية ذلك العنصر الأسري عندما نصت في فرمان إقراره حاكماً بأن الحكم يؤول من بعده إلى إخوانه وأبناءه، ونص قرار السلطان العثماني على:

«أن تكون مسؤولية تلك الأيالة في يد الأمير جلال الدين مراد خان، ومن بعده يقلدها أخاه شهاب الدين خان أبو النقا، ولأبناء مراد خان من بعده ومن عقبه، على أن يسيروا بحكم الشرع القويم»^(١).

ولم يكتفي مراد شاه بالحصول على إقرار العثمانيين له بالحكم، بل سعى إلى اعتراف جميع القوى الرئيسية في الخليج بسلطته، وحكم أبناءه من بعده، وكان لأسرة مراد شاه تواجد في الساحة المحلية في البحرين، حيث امتدح الشاعر جعفر الخطي (ت ١٦١٨) أحد هؤلاء الوزراء (وهو ركن الدين محمود) في عدة قصائد، أشار فيها إلى أن ركن الدين ينتمي في نسبه إلى «يافث»، ومن المعلوم أن سلالة يافث في الخليج تنحصر في الأتراك والمغول.^(٢)

وكان مما قاله الخطي في مدح ركن الدين محمود:

من معشر سنّ المكارم (يافث) لهم وأسس مجدهم وأشادا

(١) مجلة الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص ٧٩.
(٢) يافث هو ثالث أبناء نوح عليه السلام، وإليه تنسب الشعوب الآرية، والهنود والأوروبيون.

وقال في القصيدة نفسها:

نالت بهم هام السهى يد (يا فث) طولاً لكونهم له أحفاداً^(١)

وبناء على ذلك فإن غالب الظن أن يكون مراد شاه من أصول تركية أو إلخانية، نظراً للهيمنة السياسية والاقتصادية لهذه الطبقة في البحرين منذ منتصف القرن الرابع عشر، وقد استفادت هذه الفئة من حالة الفراغ السياسي الذي طرأ في البحرين عقب استبعاد العناصر العربية والفارسية، وهيمنت على نظام الإدارة والحكم ابتداءً من سنة ١٥٢٩.

على أن ذلك يجب أن لا يذهب بنا للاعتقاد بأن البحرين كانت تخضع لثقافة فارسية أو مغولية، فقد كانت الثقافة السائدة في الخليج العربي هي الثقافة العربية.

هيمنة الثقافة العربية

على الرغم من أن تجار هرمز كانوا خليطاً من العرب والفرس، إلا أن اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية في هرمز وفي جميع أنحاء الخليج العربي، وكان التجار الفرس يتكلمون العربية إلى جانب لغتهم الأصلية.

فقد تغلب الجانب العربي على هرمز القديمة على الساحل، باعتبارها جزءاً من ساحل كرمان الذي كان موطناً للقبائل العربية قبل الإسلام.^(٢)

وقد تكاثر العرب في هذه المنطقة بعد ذلك وعمروا عدداً من القلاع فيها، منها قلعة في هرمز كانت لآل عمارة، كما شهدت المنطقة قدوم هجرات عربية متلاحقة إليها خاصة من عُمان، وقد كون أهل عمان في القرن التاسع الميلادي إمارة في هرمز بقيادة سليمان بن عبد الملك السليمي، ورثها ابنه بعد وفاته.^(٣)

ويرى عصام سخيني بأن تأسيس هرمز الجديدة كان على أيدي هذه الغالبية العربية، فهي التي هاجرت إلى جزيرة جرون، وأسست هناك مملكة لها كانت امتداداً للسلطة

(١) أنيسة المنصور وعبد الجليل العريض، دراسة وتحقيق (٢٠٠٢) ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، الكويت. ص.ص ١١٣ و١١٥.

(٢) ذكر الطبري بأنه قد حدث في عهد الملك الساساني سابور هجرة عربية واسعة من ساحل البحرين (بلاد عبد القيس) عبرت مياه الخليج العربي واستقرت في أسياف فارس وكرمان، فقام سابور بالتصدي لهذه الهجرة التي غلب عليها الطابع البدوي وأعمل في المهاجرين قتلاً وتنكيلاً، إلا أنه عاد فتراجع عن ذلك وأخذ يشجع تلك الهجرات لإحداث توازن سكاني في المنطقة. فأسكن في كرمان بطونا من بكر بن وائل ليكبح بهم كما يبدو جموح المهاجرين الأول. انظر: محمد بن جرير الطبري (١٩٨٥) تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت. ٣٤٥/١-٣٤٦.

(٣) حميد بن محمد بن رزيق (١٩٧٨) الشعاع الشائع اللعان في ذكر أنمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي، مسقط. ص.ص ٥٦-٥٥.

العربية التي كانت قد قامت في هرمز القديمة، وقد أدى ذلك الازدهار إلى جلب عناصر غير عربية، اشتغلت في التجارة واندمجت مع السكان فأصبحت مع الوقت جزءاً من النسيج الاجتماعي، متخذة من اللغة العربية أداة للتخاطب.^(١)

ويؤيد هذا الرأي، ما ورد في الأعمال الكاملة لأفونسو دلبوكيرك، حول اعتماد العربية كلغة رسمية للبلاد، فعندما سقطت هرمز بيد البرتغاليين عام ١٥٠٧، تم توقيع معاهدة بين أفونسو دلبوكيرك، وسيف الدين ملك هرمز ووزيره خوجه عطار، وكتبت المعاهدة باللغة العربية، حيث يشير دلبوكيرك إلى ذلك بقوله:

«وكتب من هذه المعاهدة نسختان، نسخة على ورق مذهب بحجم فرخ الورق، وقد طويت لتأخذ شكل كتاب وكتبت باللغة العربية بحروف غائرة فيها (محفورة) وغلّقت بالذهب، وألحق بها ثلاثة أختام ذهبية تدلت بسلاسل: ختم ملك هرمز، وختم خوجه عطار، وختم مدينة هرمز».^(٢)

أما في البحرين فقد كانت اللغة الرسمية طوال القرن السادس عشر هي اللغة العربية، ويمكن التذليل على ذلك من خلال المعلومات التي قدمها لنا الشاعر الخطي في قصائده والتي تؤكد بأن وزراء البحرين كانوا يتكلمون اللغة العربية ويستخدمونها في مخاطباتهم الرسمية، وكذلك من خلال صكوك البيع والمدونات الوقفية التي كتبت باللغة العربية.

بل إن مراد شاه قد حرص على تخليد ذكرى ترميم القلعة في عهده سنة ١٥٦١ باللغة العربية دون غيرها، وذلك من خلال حضر النص الآتي على إحدى صخور القلعة:

«في ضمن شهر شعبان من سنة ثمان وستين وتسعمائة وافق الفراغ من قطع مائة ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين وذلك إبان وزارة الوزير الأعظم جلال الدين محمود شاه على يد العبد فيروز».^(٣)

وسار حفيده ركن الدين محمود شاه على سيرته عندما قام بترميم مسجد الخميس، وأمر بحضر نص على أحد الحجارة باللغة العربية، ورد فيه:

(١) عصام سخنيبي (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٤٨.
 (٢) يشير النص إلى كتابة نسخة أخرى من المعاهدة باللغة الفارسية بناء على طلب ملك هرمز لأنها كانت شائعة في البلاد، ولكن من الواضح أن اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية في هرمز والأقاليم التابعة لها كما مر معنا. عبد الرحمن الشيخ، ترجمة (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، مصدر سابق، ٢٤١/١-٢٤٢.
 (٣) لا تزال هذه الصخرة موجودة في قلعة البحرين إلى يومنا هذا، وقد تحدث عنها محمد بن خليفة النهدي (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٧١. وكذلك ناصر الخيري (٢٠٠٣) مرجع سابق، ص ١٩٦-١٩٧، وهناك صورة لها مع بعض التفصيل في: مونيك كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٨٥.

«وقف وإعلان: مسجد الخميس، بسم الله الرحمن الرحيم، لمثل هذا فليعمل العاملون، تقربت إلى الله العظيم، طلباً لثوابه الجسيم، حضرة خلاصة الوزراء الأعاضم، ونخبة الأوصاف الأفاحم، وركنا الوزارة والإيالة والإقبال، حضرة محمود بن خضر عزيز...»^(١)

ويستنتج من جملة هذه المنقوشات وغيرها من المخطوطات الرسمية إلى أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في البحرين.

وعلى الرغم من أن حكام البحرين لم يكونوا من أصول عربية إلا أن طول مدة إقامتهم في البحرين قد أدت بهم إلى أن يستعربوا.

وبعيداً عن التفصيل في الأصول السكانية والأعراق المحلية تحاول المباحث الثلاثة التالية أن تستعرض دهاء مراد شاه، وقدرته على تحقيق التوازن بين القوى الطامعة في البحرين، فقد أعلن مراد ولاء ظاهراً للعثمانيين، وحصل منهم نظير ذلك على اعتراف رسمي بحكمه الذي تمثل بمحنه لقباً عثمانياً ورتبة «صنّجق». وفي الوقت نفسه أظهر مراد تعاوناً مع البرتغاليين والهرمزيين وحصل منهم على لقب «وزير».

ولكن البحرين في عهده كانت تتمتع بحكم مستقل عن هذه القوى، وقد نجح مراد في تحقيق الاستقرار السياسي، والازدهار الاقتصادي الذي دفع بالعديد من أهل المنطقة للقدوم إلى البحرين والاستقرار فيها.

(١) لا يزال هذا الحجر محفوظاً في متحف البحرين الوطني، ويعود تاريخه إلى يوليو ١٥٨٦م، كما يمكن العثور على المزيد من النصوص المنقوشة على الصخر في تلك الفترة، ومنها على سبيل المثال وقف الكرانة المنسوب إلى محمد بن ناصر بن عبد الله بن ربيع، ويعود تاريخه إلى شهر رجب ٩٦٥هـ/١٥٥٨م.

المبحث الثاني

الصراع مع آل فضل في البصرة والأحساء

حملة راشد بن مغماس (ت ١٥٣٩) التوسعية في الأحساء

تمكن الأمير راشد بن مغماس بن صقر (شيخ آل فضل وزعيم قبائل المنتفق بالعراق) من بسط سيطرته على البصرة، وامتد نفوذه على الأحساء بحلول عام ١٥٢٥، ولكن القطيف لم تخضع لحكم ابن مغماس، بل بقيت تحت حكم الجبور الذين اعترفوا بالسيادة البرتغالية الاسمية عليها.

وقد سعى ابن مغماس عام ١٥٢٤ إلى توطيد سلطته في المنطقة عن طريق إرسال وفد إلى السلطان العثماني يلتمس قبول البصرة في التبعية العثمانية وأعلنت البعثة التي كان في عدادها مانع بن راشد ووزيره عامر بن محمد عن رغبة أهالي البصرة في الخضوع للسلطة العثمانية، كما قدمت للسلطان هدايا قيمة ومفتاح المدينة، ولكن اهتمام العثمانيين في تلك الفترة المبكرة تجسد في الاكتفاء بالخطبة للسلطان العثماني ونقش اسمه على النقود دون التدخل في الشؤون الداخلية للبصرة.^(١)

وبعد أن عزز الشيخ راشد حكمه في البصرة، وحصل على اعتراف الدولة العثمانية بسلطته بدأ بتنفيذ طموحاته لإحكام السيطرة على القطيف بعد أن خضعت الأحساء لسلطته. وكان مسؤول الجمارك الهرمزي في البحرين بدر الدين فالي يشعر بالقلق من أطماع راشد التوسعية حيث أشار في خطاب إلى السلطات البرتغالية أن:

«الشيخ راشد يجد نفسه الآن أمام فرصة مواتية للاستيلاء على القطيف نظراً لاضطراب أوضاع البرتغاليين في الهند، إذ ليس بمقدورهم المجيء إلى الخليج للنجدة، إضافة إلى أنه يدرك بأن ملك هرمز أعجز من أن يتحرك للوقوف في وجهه ومقاومته».^(٢)

وكان تخوف بدر الدين في محله؛ ففي أواخر عام ١٥٣٨ زحف راشد من البصرة باتجاه القطيف، وهو يقود جيشاً كبيراً ضم في صفوفه نحو ألفين من رماة البنادق من عرب وأتراك فوجد ترحيباً من سكانها وعلى رأسهم وزيرها وهو من أمراء الجبور، ففتحت له

(١) نيقولاوي إيفانوف (٢٠٠٤) الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، دار الفارابي، بيروت. ص. ١١٠-١١١.

(٢) نقلا عن: عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٦٦.

أبواب القطيف ودخلها دون أدنى مقاومة. مما يؤكد بأن حكم الجبور على القطيف قد استمر تحت السلطة الهرمزية حتى تسليمها لابن مغماس سنة ١٥٣٨.^(١)

ومن خلال تتبعه للخطابات المتبادلة بين الوزراء الهرمزيين والسلطة البرتغالية؛ لاحظ عبد اللطيف الحميدان وجود صراع بين أطراف عربية وفارسية للهيمنة على الإدارة في هرمز، حيث علق بدر الدين فالي على تلك الأحداث بقوله: «إن العرب يرون أن من حقهم وحدهم حكم بلادهم». مما يعكس مدى كراهية العرب للسلطة الفارسية التي كان يمثلها الفاليون في تلك الفترة، وكان بدر الدين فالي يعرض ببني جبر الذين كانوا قد سهلوا لراشد أمر الاستيلاء على الأحساء سنة ١٥٢٩ ومكنوه من حكمها، ثم قاموا سنة ١٥٣٨ بالعمل نفسه عندما سلموه حكم القطيف دون أي مقاومة.

ويعلق الحميدان على ذلك بقوله:

«إن بدر الدين الفالي يحمل أحمد بن راشد المسقطي العُماني الأصل والوزير الأول في مملكة هرمز (١٥٣٣-١٥٤٠) مسؤولية ما آل إليه أمر القطيف، نظراً لقيامه بتعيين وزير عربي عليها وعزل الوزير الفارسي عنها، الذي تعاطف بدوره مع أبناء جلدته وفتح لهم أبوابها، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يصمد ويقاوم معتمداً على مناعة أسوارها، ويبدو أن وزير البحرين الفارسي أراد استغلال حادثة سقوط القطيف لكي يدافع بشكل غير مباشر عن مدى إخلاص صهره الرئيس شرف الدين فالي الذي أبعده إلى البرتغال، وليثير بالتالي غضب البرتغاليين ضد الوزير العربي أحمد المسقطي، الأمر الذي قد ينتهي بعزله عن منصبه ليفوز به من بعده شخص من أقاربه من آل فالي، إضافة إلى أن الرسالة نفسها تطفح بمشاعر التعصب والكراهية السائدة في الخليج بين الزعامتين التجاريتين العربية والفارسية».^(٢)

وبعد أن بسط الشيخ راشد سلطته على القطيف دون أي مقاومة اتجهت أنظاره نحو البحرين للسيطرة عليها، فشرع في هدم القلعة القديمة بالقطيف، وبناء قلعة جديدة، ثم حشد قبالة البحرين عدداً كبيراً من قواته، وفي الوقت نفسه أرسل إلى حاكم البحرين رسالة تهديد مطالباً إياه بتسليم الجزيرة منعاً لإراقة الدماء والرحيل بأمواله إلى أي جهة شاء.^(٣)

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٩.

وفي هذه الأثناء انفجر الصراع بين راشد وزعيم بني خالد ، مما دفع بالشيخ راشد أن يصرف النظر عن احتلال البحرين ، والرجوع إلى البصرة تاركاً ولده مانع لمعالجة الأوضاع المتوترة في الأحساء والقطيف.

أطماع مانع بن راشد بن مغامس في البحرين

توفي السلطان راشد بن مغامس سنة ١٥٣٩ ، وترك دولة واسعة الأطراف امتدت تخومها من شواطئ الفرات حتى الأحساء ونجد واليمامة. وقد أدت وفاته المفاجئة إلى اندلاع الصراع بين ابنه مانع بن راشد (الذي كان قد تركه في الأحساء) ، وبين ابن عمه عثمان بن محمد بن مغامس (الذي أصبح حاكماً على البصرة بعد وفاة راشد).

ولمواجهة ابن عمه عثمان وبسط نفوذه على البصرة ، تخلى مانع عن طموحات والده في السيطرة على البحرين ، وبادر إلى تهدئة الأوضاع مع حاكمها من جهة ، ومع بني خالد من جهة أخرى ، ثم أخذ في التجهيز لشن حملة ضد البصرة ، حيث قام بالاستيلاء على سفن أهل الأحساء ، وصادر أموال تجارها لتمويل الحملة التي كان ينوي القيام بها ، لكن تلك التدابير سرعان ما اصطدمت بمعارضة شديدة وخلقست استياء واسعاً لدى قطاع هام من السكان ، وخاصة أصحاب السفن وتجار اللؤلؤ والخيول ، الذين هاجروا برؤوس أموالهم وممتلكاتهم باتجاه البحرين ، ولجأوا إلى حاكمها مراد شاه.

ومن بين هؤلاء النازحين أسر لها ثقلها المالي والاقتصادي الكبيرين ليس في بلادها فحسب بل في عموم الخليج العربي ، ومنهم أسرة آل رحال ذات الثروة الكبيرة والشهرة الواسعة في تجارة اللؤلؤ ، وعلى رأسها عميدها محمد بن رحال وحسين بن رحال ، وكذلك عشيرة آل مسلم بزعامة شيخها محمد بن سلطان بن مسلم الذي نجد له ولعشيرته وصفاً قيماً في وثيقة عثمانية تعود لسنة ١٥٥٥ ، وجاء فيها :

«إن ابن مسلم شيخ لأتباع يقيمون بقطر ويمارسون نشاطهم في التجارة والنقل البحري ، إذ هم جميعاً من البحارة ، ويمتلكون زهاء الألف سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، وإن أهل تلك المنطقة مدينون لنشاطهم هذا».

وتضيف الوثيقة :

«إن آل مسلم وشيخهم محمد لهم صلة وثيقة بالأحساء حيث ممتلكاتهم الواسعة هناك».

وقد تحدثت الوثيقة عن فرار رعايا الشيخ مانع إلى البحرين وعزت ذلك إلى المظالم التي كانوا يتعرضون لها على يدي الأخير، فكان أن أدى فرارهم إلى وقوع نزاع بين مانع ووزير البحرين، من دون أن تذكر تلك الوثيقة وجود تصميم لدى مانع على غزو البحرين، وتضيف الوثيقة بأنه بعد فرار عرب آل رحال من ظلم مانع بن راشد، والتجائهم إلى البحرين، ارتسمت في مخيلة الشيخ مانع فكرة الاستيلاء على البحرين بحجة استعادة سلطته على هؤلاء العرب الفارين، بعد أن وضعهم محمود وزير البحرين تحت حمايته، ولكن شيخ العرب سرعان ما تراجع عن خطته وعدل عن محاربة وزير البحرين بعد أن أدرك أن المصلحة تقتضي ذلك في الوقت الحالي.^(١)

وقد أشار الوزير الهرمزي ركن الدين إلى هذه الأحداث بقوله:

«اعلموا بعد هذا أن الملك محمود حاكم البحرين في صحة جيدة، وأن ملك الأحساء الشيخ مانع بن راشد مقبل على القطيف وعازم على الاستيلاء على البحرين، وأنه تم تبادل عدة رسائل بينهما، حتى إن سعيد بن عبد الله وهو من سكان الأحساء توسط بينهما فأمضيا هدنة، إلا أن ملك الأحساء جمع عدداً كبيراً من المحاربين، وعاد للاستقرار بالقطيف داخل قلعة جديدة أمر ببنائها بعد أن أمر بهدم القلعة القديمة. وما إن علم رجاله وباقي مرافقيه من سكان المنطقة بنواياه الرامية إلى محاربة مسلمي البحرين حتى فر عنه أغلبهم بصحبة أبنائهم وزوجاتهم، وكان أول الفارين محمد بن رحال وذويه الذين رحلوا جميعاً مع آخرين لوضع أنفسهم تحت حماية حاكم البحرين، كما أن أحد أعيان المسلمين المسمى الشيخ محمد بن مسلم قدم بدوره إلى البحرين صحبة قومه وذلك رغم أنه من أهل الأحساء».^(٢)

ولم يتسن للشيخ مانع السيطرة على البصرة إلا سنة ١٥٤٢ عندما تولى الشيخ عثمان بن محمد ونصب ابنه محمداً خلفاً له رغم صغر سنه، فذهب الشيخ مانع إلى البصرة التي فتح أهلها له أبوابها، فدخلها دون أدنى مقاومة ونصب حاكماً عليها على الفور.

حملة مراد شاه ضد القطيف ١٥٤٢

تحركت المعارضة لحكم مانع في البحرين إثر توحيد إمارة آل شبيب تحت حكمه، وكان مراد شاه قد استقبل كبار التجار المعارضين لحكم مانع وأكرم وفادتهم، وأصبح بعضهم من وزراء الدولة، وللتعبير عن امتنانهم، قام رجال القبائل من آل رحال وآل مسلم

(١) المرجع السابق، ص ٨٠-٨٢.

(٢) نشرت هذه الوثيقة في: أحمد بوشرب (١٩٨٤)، "مساهمة المصادر.."، مرجع سابق، ص ١٣٣-١٣٥.

بوضع إمكاناتهم تحت تصرف مراد شاه الذي كان يرغب في توجيه ضربة استباقية لمانع حتى لا يفكر في مهاجمة البحرين بعد توطيد حكمه في البصرة، واختار القطيف هدفاً له حيث قام بهجوم مباغت استهدف السفن الراسية فيها، فأحرق منها ما يقارب المائة وخمسين مركباً.

وكانت هذه الحادثة من بواكير الأنشطة العسكرية لمراد شاه، والتي أثبتت دهاء السياسي، فقد كان يدرك بأن البحرين ليس لها قبل بمواجهة قوات البصرة والأحساء إذا توحدت تحت حكم مانع، فقرر الاستفادة من انشغال الأخير بتوطيد حكمه في البصرة، وقام بتدمير أسطوله بالكامل في ميناء القطيف، وذلك لتفويت فرصة مهاجمة البحرين من قبل الشيخ مانع الذي كان لا يزال يطمح في السيطرة على البحرين. وكان مراد شاه يدرك بأن الخطر الأقرب الذي يتهدد دولته هو قيام أسطول آل شبيب بمهاجمة البحرين من جهة القطيف، فبادر إلى تفويت هذه الفرصة، واستعمل أسلوب الردع، ليمنع مانعاً من التفكير بمهاجمة البحرين مرة أخرى.

وعندما وردت الأنباء إلى مانع بتدمير أسطوله في القطيف أمر بالاستيلاء على سفن البحرين الراسية في البصرة وشط العرب ومصادرة حمولتها، وقد استفزت هذه الإجراءات تجار البصرة الذين رأوا بأن ذلك سيتسبب في إحداث ضرر كبير بتجارتهن.

ومن ناحية أخرى فإن القبائل العربية التي نزلت على مراد شاه في البحرين كان لها امتداد في البصرة، وأدت المراسلات السرية بينهم إلى تحرك الفريق المعارض لمانع في البصرة، وأرغموه على التخلي عن الحكم سنة ١٥٤٤ وهو لم يكمل عامه الأول فيها.

وأمام هذه الحركة المباغتة اضطر مانع إلى الموافقة على اقتسام مملكة آل شبيب مع أبناء عمه، بحيث تكون الأحساء والقطيف من نصيبه، وتكون البصرة من نصيب ابن عمه يحيى بن محمد بن مغماس الذي نصب سلطاناً عليها إثر ذلك، وكان أول عمل يقوم به يحيى؛ إعادة سفن البحرين المصادرة وتعويض تجارها عما لحق بهم من أضرار، في حين عاد الشيخ مانع إلى الأحساء.

وقد أشار إلى هذه الأحداث الوزير الهرمزي ركن الدين بقوله:

«فاستغل حاكم البحرين الرئيس محمود ذلك وجمع عدداً كبيراً من الفرس والعرب وهاجم القطيف حيث أحرق له مائة وخمسين مركباً ما بين صغير وكبير كانت من قبل في ملكية عاهل هرمز قبل أن تخونه وتصبح في حوزة ملك الأحساء. ولما وصل ملك الأحساء

إلى البصرة فتح له أعيان المدينة الأبواب وبايعوه ملكاً، وفور تلك البيعة بالبصرة علم بإحراق حاكم البحرين لمراكبه، فأمر بمصادرة كل مراكب تجار البحرين الموجودة بالبصرة والاستيلاء على سلعهم، غير أن أعيان المدينة استاءوا من ذلك وطردوه من مدينتهم وبايعوا عوضاً عنه أحد أقاربه المسمى الشيخ يحيى، وأعادوا السفن والسلع لمسلمي البحرين، وعوضوا لهم ما كانوا قد فقدوه»^(١).

وكان لحملة مراد شاه على القطيف آثاراً مهمة في المنطقة، فقد أدت إلى عزل مانع عن حكم البصرة، وسعي حاكمها الجديد الشيخ يحيى للتقارب مع البرتغاليين، في حين شرع مانع في بذل جهود موازية للتقرب من السلطة البرتغالية بغية تفويت فرصة شن هجوم عليه في القطيف.

ففي ١٥٤٤ أرسل مانع خطاباً إلى لويس فلكاو بريرا قبطان هرمز الجديد (١٥٤٤-١٥٤٧) عبر فيها عن رغبته في صداقة ملك البرتغال وحرصه على توثيق هذه الصداقة، بل واستعداده لتسليم القطيف إلى البرتغاليين، وكان يأمل في المقابل بالحصول على دعم ملك البرتغال له لاسترجاع حكمه الذي اغتصب منه في البصرة. وأمام هذا العرض المثير للجدل أرسل لويس فلكاو مبعوثاً برتغالياً للتفاوض مع الشيخ مانع مطالباً إياه بتسليم القطيف قبل الشروع في أي عمل عسكري مشترك ضد البصرة، وأن يتعهد الشيخ مانع بدفع إتاوة سنوية لهرمز بعد استعادة حكمه على البصرة. وورد في الخطاب الذي كتبه قبطان هرمز إلى ملك البرتغال ما يأتي:

«وصلتني قبل بضعة أيام رسالة من ملك الأحساء الشيخ مانع يعبر فيها عن رغبته في صداقة مولاي، ويبين أنه لم يقيم بالاستيلاء على القطيف إلا من أجل تسليمها لكم، ويطلب أن يحظى من مولاي بالدعم والمساعدة ضد البصرة لأنه كان ملكها الشرعي، إلا أنها انتزعت منه بالقوة، فقامت بالرد على رسالته والتي حملها إليه مبعوث برتغالي، حيث تضمنت الاشتراط عليه بتسليم القطيف قبل كل شيء، لكونها كانت دائماً تابعة لمملكة هرمز، وإذا ما فعل ذلك فإنه سينال مساعدة مولاي ضد ملك البصرة لأنه أحق بالملك منه، ثم إذا ما فعل ذلك فعليه الالتزام بدفع مبلغ من المال كل عام لخزينة مولاي، لأن من يدفع لملكنا أكثر سينال صداقته، ولاسيما أن جلالته لا يستفيد أبداً الآن من ملك البصرة»^(٢).

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ص ٩٤-٩٥.

دور حملة مراد شاه في ترسيخ استقلال البحرين وسيادتها

تضمنت رسالة القبطان آنفة الذكر فقرة مهمة ذكر فيها لويس فلكاو حرصه على الحصول على أكبر قدر ممكن من إيرادات خزينة هرمز، الأمر الذي يقتضي السعي من أجل الحصول على جزء من إيرادات البحرين: «فوزيرها لا يدفع شيئاً لخزينة هرمز منذ أكثر من عشر سنوات بالرغم من عقد اتفاق معه بذلك الخصوص»، لذا فمن المحتمل أن رسالة الشيخ مانع قد أوحى له بإمكانية اتخاذ القطيف قاعدة يمارس منها الضغط لضمان الحصول على إيرادات البحرين بانتظام.^(١)

وإذا كان مراد شاه قد امتنع عن دفع الإتاوة السنوية لهرمز منذ عام ١٥٣٤ وحتى عام ١٥٤٤، لتأكيد استقلاله عن أي سلطة في المنطقة، فإن المصادر البرتغالية في المقابل تشير إلى أن الضباط البرتغاليين كانوا يحترمون النزعة الاستقلالية لحاكم البحرين؛ ففي أعقاب المواجهة بين حاكم البحرين وحاكم القطيف تحرك وزير هرمز لاستغلال الفرصة وتوجيه ضربة مزدوجة ضدّهما في آن واحد بالتعاون مع البرتغاليين، إلا أن القبطان البرتغالي دوميلو كان يرغب في توظيف الخلافات بين الطرفين بصورة أفضل وذلك حتى يشغل العثمانيين بصراعات هذه القوى، وحتى لا يستنزف البرتغاليون طاقاتهم في هذه الصراعات، ويصف ركن الدين هذه الأحداث بقوله:

«ولما علمت بهذه الأحداث التحقت بالقبطان مرتين أفونسو دوميلو لإشعاره بها، وكذا الكاتب وأعيان البرتغاليين وقلت لهم أن عليهم إرسال أسطول لحماية البحرين أو بناء قلعة بالقطيف لضمان أمن البحرين، إلا أن القبطان أجابني منذ ثلاثة أيام أن مولانا الملك يتحمل مصاريف ضخمة بالهند وبهرمز، الأمر الذي يحول دون إرسال أسطول إلى البحرين، واقترح أن يجمع حاكم البحرين كل محاربيه وأقاربه وأن يستولي لمدة سنة على الجبايات التي قد تكون هناك للفرس، وذلك بقصد تجهيز أسطول يمكنه من الاستيلاء على القطيف. لذا بعث إليه القبطان برسالة موقعة من طرفه وكذا من لدن الكاتب يخبرانه فيه أن العمل باقتراحهما يمثل خدمة ملك البرتغال. وإنه في حالة استيلائه على القطيف فإنه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها أحد، وأكد له أن ملك هرمز موافق على ذلك بدوره، وبعث له ملك هرمز بدوره خطاباً آخر، إلا أن الحاكم لم ينفذ هذا الاقتراح بعد. وقد تطوع محمد بن رحال ومحمد بن مسلم بالمساهمة في نفقات تجهيز ذلك الأسطول».^(٢)

(١) المرجع نفسه.

(٢) أحمد بوشرب (١٩٨٤)، «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص ١٣٥.

وتتسجم هذه الرواية بصورة كبيرة مع السياسة البرتغالية في المنطقة، حيث يمكن ملاحظة قيام البرتغاليين بتحريض مراد شاه ضد التجار الفرس في البحرين وحثه على الاستيلاء على أموالهم، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن مراد شاه لم يكن من أصل فارسي.

ومن ناحية أخرى فإن الوثيقة آنفة الذكر تؤكد عدم وجود أي قوات برتغالية أو هرمزية في البحرين، مما يعني أن البحرين كانت مستقلة عن أي هيمنة خارجية، بل إن البرتغاليين قد اقترحوا على مراد شاه جمع قواته من محاربيه ومن أقاربه،^(١) لمواجهة مانع في القطيف، إذ لم تكن خزانة البرتغال آنذاك تحتمل توفير مبالغ لشحن حملة ضد البحرين أو القطيف.

أما الإشارة الأهم؛ فهي اعتراف البرتغاليين بسلطة مراد شاه، وتقديمهم الوعود له باسم نائب الملك البرتغالي وملك هرمز على حد سواء بأنهم سيعترفوا باستقلال سلطته في البحرين وفي القطيف دون أن ينازعه عليهما إذا نجح في شن حملته ضد مانع.

ويجدر التنبيه إلى أن مراد شاه قد امتنع عن شن حملة تهدف إلى الاستيلاء على القطيف رغم توفر الموارد الكافية لذلك، والسبب في ذلك؛ علمه أن العثمانيين كانوا على وشك التوجه نحو القطيف لبيسط سيطرتهم عليها، وبأنه لو دخل بقواته إلى تلك المناطق فسيجد نفسه في مواجهة المباشرة مع القوات العثمانية، وهو أمر لم يكن يرغب في التورط فيه.

وعندما فشلت الاتصالات بين البرتغاليين والشيخ مانع، قرر دو سوزا شن حملة على القطيف في نوفمبر ١٥٤٥، حيث تتحدث وثيقة برتغالية مطولة عن تفاصيل الهجوم البرتغالي-الهرمزي على القطيف، والذي انتهى بتدمير قلعة القطيف وتسليمها إلى الوزير الهرمزي بدر الدين الذي رافق تلك الحملة، علماً بأن الشيخ مانع قد تفادى مواجهة البرتغاليين في تلك الحملة.

وبالإضافة إلى تقديم تفاصيل مهمة حول تلك الحملة، قام دي سوزا بإيراد عبارات تدل على أن البرتغاليين كانوا يتفادون البحرين منذ الكارثة التي حلت بقواتهم عام ١٥٢٩، والتي انتهت بوفاة قائدها سيما دا كونها، حيث يقول دي سوزا:

«وبما أن جميع الذين رافقوني قد عادوا سالمين، باستثناء اثنين قتلوا خلال المعركة، ووفاة آخر بسبب المرض، فقد أحاطتنا العناية الإلهية في البحرين لأن أرضها غير صحية

(١) وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن مراد شاه كان يتمتع بدعم عائلة كبيرة تمتلك قوة عسكرية لا يستهان بها.

كما سبق لجلالتمكم معرفته ، عندما توفى الجنود الذين رافقوا سيماء كونها»^(١).

ويدل ذلك على أنه لم يكن في البحرين أي قوات برتغالية طوال الفترة الممتدة ما بين عام ١٥٢٩ و١٥٤٥ ، حيث حرص البرتغاليون على تجنب البحرين خوفاً من الإصابة بالحمى التي أودت بحياة أكثر من ثلاثمائة جندي برتغالي عام ١٥٢٩.

وبعد أن قام البرتغاليون بتدمير قلعة القطيف ، أرسل حاكم قلعة هرمز البرتغالي لويس فلكاو خطاباً إلى نائب الملك البرتغالي في جوا يقترح فيه تحويل القطيف إلى قبطانية (أي وحدة إدارية برتغالية مستقلة بشؤونها على قدم المساواة مع مثيلتها قبطانية هرمز) ، إلا أن نائب الملك رفض هذا الاقتراح ، قائلاً بأنه من الأجدى للبرتغاليين أن يقتصر وجودهم على مجموعة قليلة من القلاع ، حيث يتم تركيز قوتهم العسكرية محدودة العدد ، مما يضمن لهم توفير النفقات الباهظة بدلاً من نشر أساطيلهم في مناطق شاسعة ، تتسبب في تحميلهم الكثير من الأعباء والتكاليف ، كما أن القطيف من جهة أخرى قريبة من البصرة وأراضي الدولة العثمانية ، ووجود البرتغاليين فيها سوف يستفزهم ، ويقتضي ذلك أن تكون القوة البرتغالية في حالة استنفار دائم خشية وقوع هجوم عثماني مباغت عليها^(٢).

ولكن هذه السياسة لم تجد كثيراً إذ سرعان ما اندلعت المناوشات بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي ، وبسط العثمانيون سيطرتهم الكاملة على القطيف سنة ١٥٥٠ ، وعينوا محمد فروخ باشا عليها ، واستمر الحكم العثماني على الأحساء والقطيف حتى عام ١٦٧١ ، أي لمدة ١٢١ عاماً دون انقطاع. وقد فرضت هذه التطورات على حاكم البحرين واقعاً جديداً يتمثل في وجود القوات العثمانية في المنطقة والتي كان قادتها يطمحون بالسيطرة على البحرين.

(1) Arquivo Nacional da Torre do Tombo, (1960-1977), As Gavetas Da Torre Do Tombo Lisboa. 5/915-918.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٩٩.

الملحق الثالث

العلاقة بين البحرين والسلطة العثمانية

المرحلة الأولى من التواجد العثماني في الخليج العربي (١٥٣٤-١٥٥٠)

شهد العقد الثاني من القرن السادس عشر توتراً كبيراً بين القوى الإسلامية الثلاثة (المماليك والعثمانيون والصفويون)، وسرعان ما اندلعت المعارك بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية، حيث تكبد الصفويون خسائر فادحة في معركة جالديران عام ١٥١٤، وبعد ذلك بعامين شن السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) حملته الشهيرة باتجاه الشام ومصر، والتي انتهت بانهيار دولة المماليك وخضوع أقاليمها إلى السلطة العثمانية بحلول عام ١٥١٧.

وفي هذه الأثناء كانت الجبهة العثمانية الأوروبية تشهد المزيد من المعارك التي استمرت طوال الثلث الأول من القرن السادس عشر وتحديداً في المجر وألمانيا. ولم يشعر العثمانيون بحرية التحرك في الشرق إلا بعد عقد معاهدة سلام مع آل هابسبورغ صيف عام ١٥٢٣، مما دفع بالسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) لشن حملته الكبيرة ضد الدولة الصفوية والتي دخل بها مدينة تبريز في شهر يوليو ١٥٣٤. ونتيجة لهذه المعركة الحاسمة بدأت العشائر العربية تعلن انضمامها إلى السلطة العثمانية؛ حيث تسلم السلطان سليمان خلال مدة بقائه في بغداد (من ديسمبر ١٥٣٤ حتى أبريل ١٥٣٥) خضوع راشد بن مغامس الذي أرسل ابنه مانع ومعه مفاتيح البصرة وتعهدهات بالمحافظة على ولائه للعثمانيين، وكذلك قدم الرؤساء المحليون في لورستان والحويزة ولائهم للعثمانيين، وقدمت أيضاً إلى بغداد في ديسمبر ١٥٣٤ وفود من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل ترحيب إلى السلطان الجديد.^(١)

إلا أن خضوع هذه الأقاليم ظل اسمياً حتى انضواء البصرة بشكل فعلي للإدارة المركزية العثمانية سنة ١٥٤٦، حين انطلق إياس باشا على رأس قوات الإيالة إلى البصرة، ودخلها في ديسمبر ١٥٤٦ وجعلها مركزاً للإيالة، وأصبحت بذلك البصرة القاعدة البحرية العسكرية الثانية بعد السويس بالنسبة للعثمانيين، وأخذ العثمانيون على عاتقهم محاربة البرتغاليين في مياه الخليج العربي. ومنذ منتصف القرن السادس عشر أصبحت ولاية الأحساء تحت حكم ولاية عثمانيين برتبة بيلربي. وفي ١٥٥٠ سيطر العثمانيون على القطيف

(١) صالح أوزبران (١٩٧٩)، مرجع سابق، ص ٢٩.

التي أصبحت نقطة ارتكاز رئيسة للبرتغاليين في الخليج العربي.^(١)

كان وصول العثمانيين إلى مياه الخليج العربي بالنسبة لمراد شاه فرصة كبيرة للسعي إلى ترسيخ استقلال البحرين، وإبعاد خطر الغزو البرتغالي عنها، فبمجرد عودة وفد مراد شاه من بغداد عقب إظهار خضوعه للسلطة العثمانية سنة ١٥٣٤، امتنعت البحرين عن دفع الإتاوة السنوية إلى هرمز طوال الفترة الممتدة ما بين عام ١٥٣٤ و١٥٤٤.^(٢)

وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع حاكم البحرين أن يحافظ على علاقات طيبة مع هرمز، وأن يفرض على البرتغاليين احترام استقلال بلاده. فقد دأب على إقامة علاقات دبلوماسية خلف الكواليس مع الدولة العثمانية ومع السلطة البرتغالية على حد سواء، وكان من الجلي أن اهتمام مراد الرئيس كان منصباً نحو حماية استقلال البحرين عن أي من هاتين القوتين.

وكان البرتغاليون يقدرّون حرص مراد شاه على المحافظة على استقلال البحرين، ويديرّون في الوقت ذاته عدم قدرتهم على شن حملة لاحتلال البحرين أو حتى للبقاء فترة طويلة في القطيف إذا قرروا مهاجمتها، ولذلك فإنهم عرضوا على مراد شاه أن يشن حملة تتكون من قواته الخاصة والقبائل العربية المتحالفة معه ليستولوا على القطيف عام ١٥٤٤، ونص الخطاب الذي أرسله نائب الملك البرتغال إلى مراد شاه بأنه:

«في حالة استيلائه على القطيف فإنه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها أحد».^(٣)

ولكن مراد شاه لم يتجاوب مع ذلك العرض لأنه كان يدرك قرب قدوم العثمانيين، فقد كان الخليج العربي يشهد تصعيداً عسكرياً بين العثمانيين والبرتغاليين، وبأن حملة كهذه من شأنها أن تضعه في خط المواجهة مع العثمانيين، وفي الوقت ذاته كان البرتغاليون والعثمانيون يعدون الخطط لحرب شاملة تستمرّ عقداً من الزمان وكان كلا الطرفين يفكران في احتلال البحرين بهدف الاستفادة من موقعها الاستراتيجي وقلعتها الحصينة على حد سواء.

(١) فاضل بيات (٢٠٠٧) الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص ٥٠٢.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥.

(٣) أحمد بوشرب (١٩٨٤)، «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص ١٣٥.

العمليات العثمانية في الخليج العربي (١٥٥٠-١٥٦٠) والاستهداف المباشر للبحرين

كانت سنة ١٥٥٠ حاسمة بالنسبة للصراع البرتغالي-العثماني في الخليج العربي؛ ففي هذا العام قرر العثمانيون توحيد قواتهم في المحيط الهندي ووضعها تحت قيادة أميرال أو باشا قابودان البحر الأحمر، وعين الملاح العثماني وواضع الخرائط الجغرافية الشهير محيي الدين الريس بييري في منصب قابودان البحر الأحمر، وفي العام نفسه تم تعيين أفونسو دي نورونها بمنصب نائب الملك (١٥٥٠-١٥٥٤) الذي ما إن استقر في جوا حتى أمر بتشكيل حملتين لمحاربة العثمانيين في البحر الأحمر والخليج العربي، وكانت الحملة المتجهة للخليج بقيادة ابن أخيه أنطونيو دي نورونها، وتشكلت الحملة من تسعة عشر سفينة تحمل ١٢٠٠ جندي برتغالي، حيث كانت وجهتها الأولى القطيف التي خضع أهلها للحكم العثماني في ذلك العام.

ولما وصلت الحملة إلى هرمز انضم إليها ثلاثة آلاف مقاتل هرمزي.

وسرعان ما وجد مراد شاه نفسه محاطاً بحامية عثمانية في القطيف، وبأسطول برتغالي يحاصرها بأكثر من أربعة آلاف مقاتل. وبعد أن تمكن البرتغاليون من اقتحام قلعة القطيف ودكها بالمدافع توجهوا نحو البصرة وحاصروها لفترة وجيزة ثم انسحبوا منها دون قتال.^(١)

وبعد تلك المواجهة في القطيف، شرع العثمانيون والبرتغاليون في توطيد وجودهم العسكري في المنطقة، فقد قامت السلطات البرتغالية بتعزيز دفاعات مسقط وتقوية قلاعها، وحصنت قلعة جلفار، في حين أرسل السلطان سليمان أوامر إلى القوات البحرية العثمانية في البحر الأحمر بالتوجه نحو الخليج العربي ومقاتلة البرتغاليين، وأرسل القائد العثماني الريس بييري للقيام بمهمة إقامة حاجز بحري في الخليج العربي، فخرج على رأس قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة حربية على متنها ١٦ ألف مقاتل من السويس متجهاً نحو سواحل عُمان، وبعد أن ألحق هزيمة بالبرتغاليين في مسقط، وسيطر عليها لفترة وجيزة فشلت قواته في الصمود أمام المدافع البرتغالية أثناء حصارها لهرمز، فانسحب إلى البصرة بعد سلسلة من الإخفاقات، ومنها عاد إلى مصر حيث أعدم هناك.^(٢) وتشير المصادر البرتغالية أنه كانت لديه أوامر باحتلال البحرين، حيث تحدث قائد القوات البحرية البرتغالية في الخليج العربي نورونها عن خطاب أرسله نائب الملك في جوا إلى مراد شاه، يعلمه بنوايا العثمانيين في مهاجمة البحرين وينصحه بالاستعداد لتلك الحملة، وورد فيها:

(1) Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*, p 492.

(٢) بدر الدين الخصوصي (١٩٨٤)، مرجع سابق، ص ٢٦.

«إن الرسالة التي بعثها سيادتكم لي والموجهة إلى مراد رئيس (حاكم البحرين) قد حولتها إليه على الفور، وكتبت إليه أن يستجمع قواته في حال مجيء الأتراك للاستحواذ على البحرين، وذلك لكي يتمكن من الدفاع عن نفسه، مما يمثل خدمة لمولانا»^(١).

وتدل هذه الوثيقة على عدم وجود قوات برتغالية أو هرمزية في البحرين، حيث كان مراد شاه يتمتع بسلطة مطلقة فيها، مما اضطر نورونها أن يحثه: «أن يستجمع قواته»، وذلك لكي «يدافع عن نفسه»، وكان نائب الملك بجوا قد رفض مقترحات ببسط السيطرة البرتغالية على البحرين، نظراً لقلّة عدد القوات البرتغالية المتواجدة في المنطقة وقلّة الموارد المالية التي لا تتحمل حملة كهذه.

وفي أغسطس ١٥٥٣ عين مراد باشا قائداً للأسطول العثماني في البحر بمهمة تتطلب العودة بالأسطول العثماني الذي تركه بييري في حالة سيئة إلى البحر الأحمر، ولكنه اضطر للتراجع بالأسطول إلى البصرة بعد أن تعرض لهزيمة أخرى على يد نورونها بالقرب من هرمز.

وبحلول يوليو ١٥٥٤ كان العثمانيون قد نجحوا في إعادة تجهيز الأسطول وصيانتها، وعين الكاتب الشهير سيدي علي في منصب أمير البحر وعهدت إليه مهمة الخروج بالأسطول من مياه الخليج العربي والعودة به إلى البحر الأحمر، وفي طريقه إلى البصرة وصلت سفن سيدي علي إلى البحرين حيث قابل حاكمها مراد شاه، الذي قام بتقديم معلومات للعثمانيين حول البرتغاليين، وحرص أن يترك لدى سيدي علي انطباعات طيبة حيث قدم له مياهاً عذبة من قاع الخليج العربي، وقد تحدث سيدي علي عن تعاون حاكم البحرين معه في تلك الحملة قائلاً:

«وصلت إلى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الأحساء وهناك وجدنا دليلاً فسألناه عن العدو البرتغالي، ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن، فاجتزنا البحر إلى البحرين، حيث التقينا بمراد ريس وهو حاكم البحرين فسألناه عن العدو فقال أيضاً إن العدو ليس في البحر»^(٢).

ولكن البرتغاليين كانوا يترصدون خفية للأسطول العثماني الذي وقع فريسة لقوات نورونها، وألحقت بهم هزيمة كبيرة، ومع ذلك فقد نجح سيدي علي من الإفلات ببعض القطع المتبقية من أسطوله إلى الهند.^(٣)

(١) نشرت هذه الوثيقة في: صالح أوزبران (١٩٧٩)، مرجع سابق، ص.ص ٧٦-٨٠، ومصدرها في الأرشيف البرتغالي: (CC, la Parte, 89 Maco, 3 fol 9-Doc, 5r (v)).

(٢) سيدي علي (١٨٩٥) مرآة الممالك، إقدام مطبعة سي، إسطنبول، ص.ص ٣٧-٣٨.

(٣) نيقولا إيغانوف (٢٠٠٤)، مرجع سابق، ص.ص ١١٣-١١٥.

الحملة العثمانية على البحرين بقيادة مصطفى بيلربي عام ١٥٥٩

عين العثمانيون محمد باشا فروخ (١٥٥٠-١٥٥٤) حاكماً على القطيف بعد أن خضعت لحكمهم، وقد كان لمحمد باشا دور إيجابي في تقسيم ولاية الأحساء والقطيف إلى أقضية بحيث يكون لكل قضاء حامية عسكرية ومركز تموين وقائمقام يتولى الأمور الإدارية، كما شرع في توطئ القبائل العربية الموالية في المنطقة لصد غارات البدو، واهتم كذلك بتعزيز دفاعات البلاد أمام الغزاة من ناحية البحر فركز الحاميات في الموانئ والأسياف. وبعد أن تولى في الأحساء سنة ١٥٥٤ خلفه شقيقه مصطفى باشا فروخ (١٥٥٤-١٥٥٩) الذي شرع بعد توطئ نفوذه في التجهيز لحملة بهدف إخضاع البحرين.^(١)

وكان حاكم البحرين، مراد شاه، يتحسب لهذه الحملة فسارع إلى إرسال الوفود إلى السلطة العثمانية لتأكيد ولائه للسلطان سليمان القانوني، الذي أصدر «خطاً شريفاً» عام ١٥٥٨، يعترف فيه بحكم مراد شاه على البحرين، ونصها:

«بناء على ما عرضه الأمير جلال الدين مراد خان حاكم ولاية جزر البحرين من الولاء للسدة العلية العثمانية، وطلب أن تكون تلك الأيالة في حوزة ولايته، لذلك فقد قلدناها له وفوضناها إليه، ونفذنا كلامه بأن تكون مسؤولية تلك الأيالة في يد الأمير جلال الدين مراد خان ومن بعده يقلدها أخاه شهاب الدين خان أبو النقا، ولأبناء مراد خان من بعده ومن عقبه على أن يسيروا بحكم الشرع القويم».^(٢)

ولكن مصطفى بيلربي لم يعر ذلك اهتماماً بل شرع في الاستيلاء على أموال التجار وسفنههم في القطيف، تحضيراً للحملة التي كان يعتزم القيام بها. وقد وصلت الحملة العثمانية بالفعل إلى البحرين في سفينتين كبيرتين ومجموعة من السفن الأصغر حجماً وعليها ١٢٠٠ جندي، وذلك في ١٣ رمضان ٩٦٦هـ، وحاصرت قلعة البحرين، وفي هذه الأثناء أرسل الرئيس مراد نداء مستعجلاً إلى أنطونيو دي نورونها الحاكم العسكري البرتغالي بهرمز يخبره بهجوم مصطفى باشا، فقام نورونها بتجهيز حملة بقيادة أخيه جواو دي نورونها مكونة من عشر سفن هرعت إلى البحرين، إلا أن البحرية العثمانية تصدت له في مشارف الجزيرة وقتلته وأجبرته على الانسحاب إلى الشاطئ المقابل.

ثم لم يلبث نورونها أن أوفد حملة أخرى بقيادة ألفارو دي سلفيرا ومعه عدد من السفن بحيث بلغ تعداد سفن الحملتين ٢٢ سفينة وتمكن الاثنان من دحر المقاومة العثمانية،

(١) علي الدرورة (٢٠٠١) تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، المجمع الثقافي، أبو ظبي. صص ١٧١-١٧٢.
(٢) نقلاً عن مجلة الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص. ٧٩.

وتوجهها نحو سواحل البحرين التي كانت مطوقة ببقية الأسطول العثماني، حيث اشتبك الطرفان وقام محمد بيك قائد صنجق الأحساء بقيادة عدد من الفرسان الانكشارية جيء بهم من بغداد فهاجم بشدة من حاول النزول براً من البرتغاليين، أما مصطفى باشا فقد كان يدير المعركة من مدينة المنامة.

وقد خاض ريس مراد سلسلة معارك ضد القوات العثمانية بثلاثمائة جندي فارسي وفرقة من الفرسان العرب بهدف دعم القوات البرتغالية يعاونه محمد بن رحال، إلا أن البرتغاليين أوشكوا على الانكسار، وقتل في إحدى هذه المعارك قائد الحملة البرتغالي جواو دي نورونها، فقام حاكم قلعة هرمز البرتغالي بإيفاد بيرو بيتشو ليحل محله ثم تبعه بنفسه، وبذلك تم تطويق القوة العثمانية بين دفاعات البحرين البرية والأسطول البرتغالي، وفي هذه الأثناء قتل قائد الحملة العثماني مصطفى باشا فانهارت معنويات قواته، ودبت المجاعة في صفوفهم.

ونتيجة لتلك الأوضاع فقد رغب الطرفان في التفاوض، وتم إيفاد محمد بيك وسلطان علي بيك قائد موقع القطيف للتفاوض مع حاكم البحرين وقائد القوات البرتغالية التي قدمت لنجدته، وتم الاتفاق على أن يفرج العثمانيون عن الأسرى البرتغاليين لديهم وأن يعيدوا معهم غنائم الحرب التي كسبوها، كما التزم العثمانيون بدفع مائة ألف دوكات للبرتغاليين، وسمح لهم نظير ذلك بالعودة إلى القطيف سالمين.

وفي غضون تلك المعارك بلغ عدد قتلى البرتغاليين - حسب تقديراتهم - أكثر من سبعين قتيلًا، أما العثمانيون الذين عادوا إلى القطيف فكانوا مائتي مقاتل من أصل ١٢٠٠ قدموا إلى البحرين، وقد استمرت المعارك مدة ستة أشهر تقريباً، حيث رحلت القوات العثمانية عن البحرين في شهر أبريل ١٥٦٠^(١).

وعلى الرغم من تبرؤ السلطان العثماني سليمان القانوني من تلك الحملة، وتعهده بمعاينة بيليربي الأحساء، إلا أن المصادر العثمانية تؤكد مشاركة قوات فرق الانكشارية، وفرقة الجنولليان، وعدد من الفرسان الذين قدموا من البصرة وبغداد لنجدة قوات الأحساء.

كما يلاحظ تركيز القوات العثمانية الغازية على القلعة، حيث انحصر مسرح العمليات العسكرية في منطقة القلعة، وذلك لموقعها الهام في الجزء الشمالي من جزيرة البحرين، ويمكن الاستحواذ عليها من السيطرة على الحركة الملاحية، وعلى النشاط الزراعي

(١) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٣٩٥.

والتجاري في البحرين بأسرها، ولذلك فقد كان تركيز القوات البرتغالية الغازية عام ١٥٢٩ منصباً نحو السيطرة على القلعة بينما بقيت مدينة المنامة وغيرها من مدن البحرين بعيدة عن ذلك الصراع.

وفي تقرير مطول أعده قائد الحملة الذي خلف مصطفى بيلربي بعد وفاته بالحمى في البحرين،^(١) تحدث الكاتب عن براعة مراد شاه في التعامل مع الهجوم العثماني، حيث سارع بالاستتجاد بالقوات البرتغالية التي هرعت لدعمه خوفاً من أن يتعرض ميزان القوى في الخليج العربي للاختلال. ويظهر في ثنايا الوثيقة أن البحرين لم يكن يوجد بها حامية برتغالية أو هرمزية بل كانت قوات البحرين هي التي تتولى مسؤولية الأمن والدفاع عن أراضيها، وكانت قوات البحرين آنذاك تتكون من: فرقة من قوات مراد شاه الخاصة، وفرقة من القبائل العربية التي كان يقودها محمد بن رحال، بالإضافة إلى فرقة من الفرسان يصل تعدادها إلى حوالي ٤٠٠ مقاتل.

وتتحدث الوثيقة العثمانية عن ثلاث جلسات عقدت بين القوات العثمانية من جهة، ومراد شاه والبرتغاليين من جهة أخرى، حيث أدار مراد شاه دفة المفاوضات بنفسه، وأسفرت المفاوضات في جلستها الأولى عن الاتفاق على:

«تسليم المدافع والأموال والخيول التي كانت بحوزة العثمانيين بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى... وتقديم ٢٥ فرساً، وتسليم بيلربي الأحساء ٢٤٠,٠٠٠ آقجة».

ونظراً لرفض مصطفى بيلربي هذه الشروط اندلع القتال مرة أخرى، ثم عقدت جلسة مفاوضات ثانية في القلعة بحضور:

«ممثل برتغالي برتبة كبيرة قدم من لشبونة، كما حضره ممثل من هرمز، وآخر يمثل الجيش العثماني في الجزيرة وبيلربي الأحساء، وكان كاتب هذا التقرير مبعثاً كذلك لتمثيل القوات العثمانية في الاجتماع. وفي المحادثات التي دارت بين هذه الأطراف تعرض الممثل العثماني لموقف حرج، حيث قال له الرئيس مراد: إن السلطان سليمان قد منحه كتاب العهد وأنه بهذه الحملة يكون قد نقض عهده وخالف وعده، وعلى ذلك فإنه - أي الرئيس مراد - سينشر قصة هذا الحدث بين أمراء الهند كافة ويطلعهم على حقيقة

(١) توجد هذه الوثيقة في أرشيف متحف طوب قابي تحت رقم (NE ٣٠٠٤)، وهي مكتوبة بخط أحد المشاركين في الحملة العثمانية في أربع صفحات، ولكن لا يذكر فيها اسم الكاتب ولا تاريخ الانتهاء من كتابة التقرير وإن كان يتحدث بصورة واضحة عن تفاصيل حملة ١٥٥٩/هـ-١٥٥٩م العثمانية على البحرين. وقد نشرها أورهنلو باللغة التركية في مجلة التاريخ الصادرة عن كلية الآداب بجامعة اسطنبول في عددها السابع عشر الصادر عام ١٩٦٨، ثم ترجمها إلى العربية حسين علي الداوققي ونشرها في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في العدد ٢٤، أكتوبر ١٩٨٠، ص.ص ٢١١-٢٢٠.

سلطنته، فأجابه الوفد العثماني بأن السلطان لم يقم بأي عمل يخالف عهده، لأن السلطان لا يعلم بأمر هذه الحملة شيئاً، فإذا عمل الرئيس مراد جهده وجد في إنقاذ الجيش العثماني فإن السلطان سيغمره بإحسانه الواسع، وعندئذ أجاب حاكم البحرين بالموافقة وتعهد بأن لا تتعدى أخبار هذه الحملة منطقة البصرة.^(١)

ويلاحظ في هذه الجلسة أن مراد شاه لم يكن يخفي على البرتغاليين والهرمزيين اتصالاته مع العثمانيين، وحصوله على عهد بالأمان من قبل السلطان سليمان، وقد أقر الوفد العثماني بصدق ما ذكره مراد شاه على مرأى ومسمع من الطرف البرتغالي-الهرمزي.

ومن ناحية أخرى فإن كاتب التقرير يشير إلى أن مراد شاه قد تمكن من إدارة المفاوضات بدهاء واستطاع أن يضع الوفد العثماني في موقف حرج عندما هدد بنشر قصة الحملة العثمانية على البحرين في أرجاء المحيط الهندي، حيث كان العثمانيون يبحثون عن موطئ قدم ويحاولون التحالف مع بعض القوى المناوئة للبرتغاليين.

وبعد جلسة مفاوضات ثالثة لم تسفر عن أي نتائج، نجحت الجهود المبذولة من قبل سلطان علي بيك صنجق القطيف لإنقاذ القوات العثمانية المحاصرة في الجزيرة، حيث حصل على صلاحية لإبرام اتفاق مع أمير البحر البرتغالي في هرمز للإفراج عن القوات المحاصرة على أن يدفع تعويضات لهم، وأن يتخلى المقاتلون عن جميع خيولهم، وعلى هذا الأساس نقلت القوات العثمانية إلى ميناء القطيف بالسفن البرتغالية في خمس دفعات.

وقد دفعت هذه النهاية المأساوية للحملة بالعثمانيين لأن يصرفوا عن النظر عن محاولة مهاجمة البحرين لسنوات طويلة، كما جعلتهم يحترمون استقلال الجزيرة واضعين في اعتبارهم أن بإمكان حاكم البحرين أن يؤجج ثورات في منطقة الأحساء إضافة إلى الأخذ في الاعتبار أن بإمكان الرئيس مراد الاعتماد على الأسطول البرتغالي لحماية الجزيرة.

نتائج حملة مصطفى بيلربي ضد البحرين في الوثائق العثمانية

أظهرت الوثائق العثمانية أن حملة مصطفى بيلربي كان لها آثاراً مدمرة على الأوضاع العامة في إقليم الأحساء. فقد تكبد العثمانيون أكثر من ألف مقاتل في حملتهم، وتركوا هنالك كمية من المدافع والخيول وغيرها من العتاد الحربي، بالإضافة إلى إحراق سفنهم من قبل البرتغاليين.

(١) المصدر السابق.

وسرعان ما بدأت ردود الأفعال ترد من إسطنبول إلى ولايات بغداد والبصرة والأحساء عن تلك الحملة:

ففي حكم سلطاني موجه إلى حاكم البحرين مراد شاه (صدر في ٣٠ سبتمبر ١٥٥٩) أكد السلطان سليمان عدم معرفته بتلك الحملة، ووعده بمعاينة المسؤولين عنها، ونص الخطاب على ما يأتي:

«إنك أرسلت أشخاصاً مرات عديدة إلى بلاطنا السامي، وعرضت علينا طاعتك لنا، ومنحك شهادة إثبات بأننا قلدناك ولاية البحرين، وأخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين، وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا محافظ الأحساء قد قام بغزو البحرين دون إذن منا، وأنت اتخذت بعض الإجراءات ضده، وكذلك حجز البرتغاليين بعض السفن العثمانية، ولذلك فإننا قررنا عزل مصطفى باشا عن منصبه بسبب ما قام به من اعتداء، وعينا محافظاً جديداً محله، وعليك أن ترد الجنود إلى المحافظ في الأراضي العثمانية، وسننزل بهم العقاب الذي يستحقونه، وسيكون محافظونا وجميع موظفينا في الأحساء مجمعين على تنفيذ إرادتنا حتى لا يتمكن العدو من إلحاق أي ضرر بذلك الإقليم»^(١)

وفي حكم موجه إلى بيلربي البصرة أكد الديوان الهمايوني أنه قد تبلغ بالحملة وأن البرتغاليين قد استولوا على سفن عثمانية وبأنهم يقومون الآن بتقديم الدعم لمراد شاه، لهذا تم إرسال حكم شريف لمراد شاه، وطلب السلطان من بيلربي البصرة إيصاله إليه، وأن يرسل من جانبه رسالة أيضاً يسعى فيها لاستمالة^(٢).

ويبدو أن مراد شاه لم يستجب لذلك الخطاب، حيث ورد تقرير في ٣٠ يناير ١٥٦٠، يؤكد أن مراد شاه قد استنجد «بالكفار البرتغاليين» بعد غزو الجنود العثمانيين البحرين، وأن: «الكفار قصدوا الجزيرة واستولوا على السفن الإسلامية فانقطعت بالجنود العثمانيين السبل في الجزيرة»، وقد استمرت معاناة الجنود العثمانيين شهرين آخرين بعد ذلك الخطاب.^(٣) وفي اليوم نفسه صدر حكم موجه إلى أمير صنجد الموصل مراد بيك بتعيينه حاكماً على إيالة الأحساء، وطلب منه أن يقيم علاقة جيدة مع العشائر الموجودة في المنطقة، وأن لا يتدخل بشؤونهم أو يعتدي عليهم.^(٤)

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر المهمة رقم: ٣ ص ١٣٩، رقم الوثيقة: ٣٦٤، مؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٦هـ/ ٣٠ سبتمبر ١٥٥٩.

(٢) دفتر المهمة رقم ٣، ص ١٤٠، الحكم رقم: ٣٦٦، وقد استفاد الباحث من مجموعة الوثائق العثمانية التي ورد الحديث عنها في: فاضل بيات (٢٠٠٧) الدول العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ص ٥٠٥-٥١٤.

(٣) دفتر المهمة رقم ٣، صفحة ٢٥٨، الحكم رقم: ٧٤٧.

(٤) دفتر المهمة رقم ٣، الصفحة ١٤٠، رقم الحكم: ٣٦٧.

وبعد أن انتهت الأحداث وعاد الجنود العثمانيون إلى القطيف في شهر أبريل، ورد تقرير مقتضب بتاريخ ١٤ مايو ١٥٦٠، يشير إلى أن بيلربي الأحساء قام بحملة فاشلة على البحرين، وبعد وفاته قام الأمراء والآغاوات وطائفة القول، بعقد اتفاقية صلح مع الكفار البرتغاليين، أعطوا بموجبها كل ما يمتلكه مصطفى باشا لهم، وكان ضمن مقتنياته سيف ذهبي، وأمتعة خاصة، وخيول، ومبلغ كبير من المال، وتمكنوا من إنقاذ أنفسهم.^(١) وورد في التاريخ نفسه تقرير عن تدهور الأوضاع الأمنية في القطيف، وذلك لأن طائفة الجنولليان: «قد سلموا خيولهم وأسلحتهم إلى الكفار في البحرين»، الأمر الذي أدى إلى بقائهم من دون خيول أو أسلحة بعد وصولهم إلى الأحساء: «وهم لا يتمكنون من مغادرة القلعة عند تعرضهم لاعتداء الكفار».^(٢)

وتشير المصادر العثمانية إلى ضعف الدفاعات العثمانية في الأحساء عقب هذه الحادثة حيث حاصر البرتغاليون القطيف وأضرموا النار فيها، كما أخذت سفنهم تجول في سواحل الأحساء دون أن يتمكن العثمانيون من التعرض لها بسبب فقدانهم لعدد كبير من السفن والمقاتلين والخيول والأسلحة في حملة البحرين. كما انعكست هذه الهزيمة المروعة على الأوضاع الأمنية في الأحساء؛ حيث تشجعت بعض القبائل العربية على شق عصا الطاعة عن العثمانيين مستفيدين من حالة الفراغ التي شابت الإقليم عقب هزيمة القوات العثمانية ومقتل مصطفى بيلربي.^(٣)

ونظراً لأن العثمانيين لم يتمكنوا من السيطرة على البحرين، ولم ينجحوا في هز قوة البرتغاليين البحرية خلال حملاتهم في الخليج العربي (١٥٥١-١٥٥٩)، فإنهم قرروا التخلي عن مخططاتهم الرامية إلى القضاء على الأسطول البرتغالي في ضربة واحدة، وفي الوقت ذاته لم يتمكن البرتغاليون من زعزعة مواقع العثمانيين في البصرة وشرقي شبه الجزيرة العربية.

وفي مطلع ستينيات القرن السادس عشر شرع العثمانيون في تبني سياسة جديدة تهدف إلى مهادنة البرتغاليين، بعدما أدركوا بأن القضاء على نفوذهم البحري في الخليج أمر متعسر، وظهرت بوادر استرضاء البرتغاليين والسعي لإقامة علاقة طيبة معهم في خطاب أرسله ألفارو دي نوروها حاكم قلعة هرمز إلى الملك دون جوان الثالث سنة ١٥٦٢، وأشار فيه إلى اهتمام العثمانيين بأن تظل تجارتهم في البصرة مفتوحة أمام البرتغاليين، وأنهم

(١) دفتر المهمة رقم ٣، ص ٣٨١، رقم الحكم: ١١٢٨.

(٢) دفتر المهمة رقم ٣، ص ٣٨٢، رقم الحكم: ١١٣٠.

(٣) دفتر المهمة رقم: ٣، الأحكام رقم: ١١٢٤٥ و ١٤٤٦، ١١٤٦.

كتبوا بهذا الشأن رسائل عدة إلى ملك البرتغال، كما أشار إلى التسهيلات التجارية ما بين البصرة وهرمز.^(١) وفي الاتجاه نفسه بعث السلطان العثماني سليمان القانوني إلى الملك البرتغالي سيباستيان رسالة في العام ١٥٦٤ يقول فيها:

«إن كان قصدكم الصلح والسلام فكفوا أيديكم عن الاعتداء على الحجاج والتجار عند وصول رسالتنا الهمايونية، وابعثوا إلينا رسالتكم مع مندوبكم المعتمد عليه ليصار إلى تقرير النظام في تلك الأصقاع».^(٢)

تجدد الاهتمام العثماني بالبحرين (١٥٧٠-١٥٧٧)

عندما قارب العقد السادس من القرن السادس عشر على الانقضاء، بدأت تظهر ملامح تقارب بين أهل البحرين والسلطة العثمانية في الأحساء، ففي حكم سلطاني صدر في ٩ يونيو ١٥٦٨ ورد فيه:

«إن زين الدين أحمد وفضل الله وشمس الدين وعبد الله وشمس الدين الآخر ومحمد وعلي وهم من الأعيان الساكنين في جزيرة البحرين كانوا على الطاعة في السابق، وقد أرسلوا رسالة إلى بيلربي الأحساء يناشدونه بناء برج على غرار برج ميناء العقير، وذلك قبالة قلعة العدو، ويتم بذلك ضبط البلاد والرعايا، وإخضاع أمير القلعة، وأعلموه أن مستلزمات البناء من حجر وجص متوافرة في الجزيرة».

غير أن الديوان الهمايوني لم يظهر حماساً كبيراً لتلك الفكرة، حيث رد على ذلك الخطاب بمجموعة استفسارات في ما إذا كان بناء البرج سيساهم في فتح البلاد (أي البحرين)، ومن يغطي تكلفة البناء، وما الفائدة المادية التي تجنيها الدولة العثمانية بعد بناء هذا البرج.^(٣)

ولكن الاهتمام العثماني بالبحرين تجدد على إثر التصعيد العسكري البرتغالي في المنطقة منذ مطلع سبعينيات القرن السادس عشر، ففي خطاب ورد من إسطنبول إلى حاكم عدن عام ١٥٧٠، أشار السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) إلى تزايد الحملات البرتغالية في الخليج العربي، وورد في الخطاب:

«أفادت المعلومات الواردة من البحرين أن الكفرة البرتغاليين لا يزالون يغيرون على

(١) أحمد الغناني (١٩٨٤) «البرتغاليون في البحرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، مجلة الوثيقة، ع٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ١٠٦.

(٢) جاهد بلطجي (١٩٨٩) «صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٦٢.

(٣) الحكم رقم ١٤٠٦، دفتر المهمة رقم: ٧، ص ٤٨٧.

جوانبها بسفنهم فيفسقون فيها بأسر المسلمين ونهب أموالهم، وقد يصل ضررهم إلى جوانب مخا وعدن»^(١).

وتحدثت المصادر العثمانية سنة ١٥٧٣ عن استمرار السفن البرتغالية في مهاجمة البحرين وسواحل القطيف، حيث وردت الأوامر السلطانية إلى بيلربي البصرة أن يدافع:

«بصورة جيدة عن أراضيها في السواحل، وعن جزيرة البحرين حسب ما تراه مناسباً»^(٢).

وأشار تقرير آخر أن البرتغاليين قد استولوا على بعض السفن بالقرب من البحرين وأسروا موفد لارستان إليها، وطلب من حاكم الأحساء أن يعمل على رد العدوان البرتغالي^(٣).

ويستتج من ذلك الخطاب أن البحرين لم تكن خاضعة لحكم البرتغاليين، وفي الوقت نفسه لم تكن خاضعة لسلطة العثمانيين، وذلك على الرغم من التقارب مع مراد شاه في ظل انتشار التعديات البرتغالية على البحرين، ونتيجة للتهديدات التي كان يتعرض لها العثمانيون من قبل القوات البرتغالية على شواطئ الأحساء، فقد بدأت تلوح في الأفق فكرة شن حملة جديدة للاستيلاء على البحرين بهدف تعزيز الدفاعات العثمانية ضد الوجود البرتغالي في مياه الخليج العربي.

ففي عام ١٥٧٥ أرسل بيلربي الأحساء خطاباً يقترح فيه القيام بشن حملة لإخضاع البحرين، وذكر فيه بأن إيرادات البحرين السنوية ستكون كبيرة، وبناء على ذلك قام السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) بتكليف حاكم البصرة أن يكتب تقريراً مفصلاً يتضمن:

«كيفية التحضير للقيام بهذه الحملة وفق معرفتك، وأن تذكر عدد السفن المطلوبة لمهاجمة القلعة، وما نوع المدافع المطلوبة لفرض الحصار عليها، وكم يتطلب الأمر من العسكر والمعدات والمؤن والتجهيزات لمهاجمة القلعة، وهل يمكن توفير المدافع والمؤن المطلوبة من بغداد والبصرة، وهل يوجد فيهما العدد الكافي من العسكر لتنفيذ هذه المهمة، وهل يمكن للعدو البرتغالي بأسطوله المتمركز في هرمز أن يقف في وجه الحملة ضد البحرين»^(٤).

(١) نقلاً عن الوثيقة، عدد ١٥، سنة ١٨، ذو الحجة ١٤٠٩ هـ/ يوليو ١٩٨٩ م، ص ٦١-٦٢.
(٢) أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، دفتر المهمة: رقم ١٢، ص ٢٢٢، رقم الحكم: ٦٨٣. نقلاً عن عبد الرحمن بن عثمان الملا (١٩٩٠) تاريخ هجر، الأحساء، ٢/٢٢٤.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، دفتر المهمة: رقم ١٢، ص ٢٢٢، رقم الحكم: ٦٨٣. نقلاً عن: صالح أوزبرن (١٩٧٩) مرجع سابق، ص ٥٧.

(٤) وثيقة مؤرخة في ٩ صفر ٩٨٣ هـ/ ٢٠ مايو ١٥٧٥ م، أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر المهمة رقم: ٢٧، ص ٨١، رقم الحكم: ٢٧. نقلاً عن صالح أوزبرن (١٩٧٩)، مرجع سابق، ص ٨٥-٨٦.

وفي خطاب بتاريخ ١٥٧٥ جدد العثمانيون اهتمامهم بالفكرة التي طرحت من قبل والي الأحساء سنة ١٥٦٨ بخصوص إنشاء قلعة أخرى في البحرين، فقد تحدث السلطان العثماني في خطاب موجه إلى بيليربي الأحساء عن عدة مشاريع إنشائية تتضمن قلعة في القطيف وكذلك بناء قلعة جديدة بالقرب من ميناء المنامة في البحرين، وورد في هذا الخطاب:

«أرسل إلينا بيليربي بغداد برسالة مفصلة إلى الباب العالي بخصوص فتح قلعة البحرين، وبناء برج قوي مقابل هذه القلعة في ميناء المنامة بالبحرين، وكذلك إنشاء مبنى آخر في القطيف للمهمات العسكرية وتخزين الذخائر والمستلزمات الضرورية لإنشاء ذلك البرج في الميناء المذكور، بالإضافة إلى تأمين وتخزين ٢٠ ألف قطعة من القلف والزناويل المصنوعة من سعف النخيل لاستعمالها في نقل المواد الإنشائية في ذلك الميناء»^(١).

وقد كان الاهتمام العثماني بإنشاء قلعة بديلة في المنامة، ناشئاً عن الرغبة في السيطرة على البحرين دون الحاجة إلى اقتحام القلعة التي كان مراد شاه قد قام بترميمها عام ١٥٦٠، تحت إشراف المهندس البرتغالي كارفالهو، فقد حافظت القلعة على قوتها ومتانتها لفترة طويلة من الزمان، ونتيجة لذلك فقد أخذ العثمانيون يفكرون في مهاجمة مدينة المنامة وإحكام السيطرة عليها بدلاً من تضييع وقتهم في محاولات يائسة لبيسط السيطرة على قلعة البحرين.

وتشير مونيكا كيرفران إلى أن المنامة كانت تشكل بديلاً أفضل للقوات الغازية من حيث توفر المعابر المائية وتمكن السفن الكبيرة من الوصول إليها، ونتيجة لذلك فقد تحولت خطط اقتحام البحرين من الاهتمام بالسيطرة على القلعة خلال الفترة ١٥٢١-١٥٥٩ إلى الاهتمام ببسط السيطرة على المنامة باعتبارها مركز السلطة الحاكمة والعاصمة التجارية للبحرين، ويمكن من خلال احتلالها بسط السيطرة على البحرين بأسرها.^(٢)

(١) أوشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، دفتر المهمة: رقم ٢٧، ص ١٩٧. بتاريخ ٩٨٣ هـ، الموافق ١٥٧٥ م.
(٢) دلت كيرفران على تحول الأهمية بالنسبة للقوات الطامعة بغزو البحرين من محاولة الاستيلاء على القلعة إلى وضع الخطط للسيطرة على مدينة المنامة بتقرير برتغالي كتب عام ١٦١٠ حول استعادة السيطرة البرتغالية على البحرين، وكان كاتب التقرير بنتو دي فونسيكا، قد أشار إلى أن القلعة: «عديمة الفائدة تماماً، لأنها بعيدة عن البحر يمرى مدفع، كما أنها محاطة بشعب مرجانية تجعل من المستحيل وصول السفن إليها لترسو هناك، وفي غير أوقات المد العالي لا يمكن أن تصل إليها إلا القوارب الصغيرة التي تستخدم في الصيد، وفي نقل البضائع إلى المدينة الرئيسة بنامار (المنامة) على بعد نصف فرسخ من القلعة، التي لم تكن سوى مستودع سلاح، فهي قوية بأساساتها وجدرانها فقط، وحيث إنه لا تستطيع الإبحار في القنوات المحيطة بها سوى السفن الصغيرة فلا يمكن للسفن الكبيرة أن تمثل مساعدة حقيقية، وإذا ما تم إنزال في البحرين فإن القلعة يجب تجاهلها، فما يهم هو المدينة حيث لا يمكن مقاومة المدفعية البرتغالية... فالسكان يفتقرون إلى المدفعية ولا يستطيعون الحصول على عون خارجي، ومع قائد مقدر، نستطيع أن نمنع هذه الإمدادات من الوصول إلى الجزيرة». انظر: مونيكا كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص.ص ١١١-١١٣، نقلاً عن:

إلا أن الخطط العثمانية لغزو البحرين لم توضع حيز التنفيذ ، فقد بادر البرتغاليون خلال العقد السابع من القرن السادس عشر إلى تصعيد الموقف العسكري ، ومهاجمة سواحل الأحساء والإغارة على سفن البحرين وأسر بحارتها ، ونتيجة لذلك فقد انشغل العثمانيون في مواجهة أعمال القرصنة التي تسبب بها البرتغاليون في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية.

ويستشف من وثيقة تعود إلى سنة ١٥٧٧ أن العثمانيين تخلوا عن خطة الاستيلاء على البحرين واكتفوا بالسيطرة على السواحل التي في أيديهم ، حيث عين محمود ككتخدا قائد الأسطول العثماني في البصرة قبوداناً على الأحساء ، أي قائداً على القوة البحرية فيها. وفي ٢٦ ذي الحجة ٩٨٥هـ / ٣ فبراير ١٥٧٧م ، ورد إلى بيلربي الأحساء خطاب يذكر فيه أن محمود شاه حاكم البحرين قد قتل ، وبأن ابنه خضر شاه تولى الحكم من بعده ، وبأن وزير هرمز نور الدين قد قام بإنزال في الجزيرة وألقى القبض على حاكمها الجديد.

وقد أمر السلطان العثماني حاكم الأحساء أن يرسل أسطوله والذخيرة لديه إلى بيلربي البصرة بانتظار الأوامر لاتخاذ إجراء عسكري.^(١)

(1) Ozbaran S (1989) «Bahrain in the Sixteenth Century», *Al-Watheekah*, vol 15, (July 1989), p. 221.

نقلًا عن: أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول ، دفتر المهمة ، ٣: ص ٣٥٣ وانظر كذلك:

Mandaville J.E (1970) «The Province of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries», *Journal of the American Oriental Society*, vol. 90, (1970), p. 496.

نقلًا عن: أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول ، دفتر المهمة ، ٣٣: ص ٧٢٤.

المبحث الرابع

البرتغاليون والبحرين

شهدت السياسة البرتغالية تجاه الخليج العربي مراجعة شاملة في أعقاب الثورة العارمة التي اندلعت في المنطقة عام ١٥٢٩، فقد أرسل الملك جوان الثالث نونو داكونها نائباً له في جوا (١٥٢٩-١٥٣٨)، واستمر داكونها في منصبه لمدة عشر سنوات، وكان له دور كبير في إعادة تقييم السياسة البرتغالية الاقتصادية والعسكرية في المحيط الهندي.

فقد ألحقت سياسة الحصار الاقتصادي للموانئ العربية أضراراً كبيرة باقتصاديات المنطقة، ولم تأت بنفع كبير للسلطة البرتغالية في لشبونة، وأدرك البرتغاليون بأن إغلاق الخليج العربي في وجه التجارة العربية يمكن أن يدفع في نهاية الأمر إلى تشييط الطرق البرية التي لا يمكن للبرتغاليين مراقبتها.^(١)

وعندما تولى غارسيا نورنها (١٥٣٨-١٥٥٠) خلفاً لكونها، ركز اهتمامه نحو درء الخطر العثماني على الوجود البرتغالي في الخليج العربي، وسار على سياسته خلفاؤه: أفونسو دي نورونها (١٥٥٠-١٥٥٤)، وبيرو دي ماسكرينهاس (١٥٥٤-١٥٥٧)، الأمر الذي أعطى القوى المحلية متفهماً كبيراً، ومجالاً واسعاً للمناورة بين القوى الطامعة في الخليج العربي، وكان من أهم القوى المحلية: حكام البصرة من آل فضل، وحكام القطيف من الجبور، وحاكم البحرين مراد شاه.

ويمكن القول بأن أهداف السياسة البرتغالية في تلك المرحلة قد تمثلت فيما يأتي:

١. منع قيام أي قوة بحرية محلية يمكن أن تهدد الوجود البرتغالي في مياه الخليج العربي.
٢. تشجيع الحركة التجارية في الخليج العربي لزيادة الإيرادات المتأتية من الجمارك ونظام الرخص والجوازات.
٣. التصدي لمحاولات التغلغل العثماني في الخليج العربي.

وبعد أن تمكن البرتغاليون من توجيه ضربة للقوى البحرية التابعة للجبور عام ١٥٢١، توجه اهتمامهم نحو البصرة؛ حيث شكل أسطول حاكمها الطموح راشد بن مغماس

(١) صبري الحمدي (٢٠٠٢) مرجع سابق، ٦٦.

مصدر قلق للبرتغاليين، وظهر ذلك القلق في خطاب بعث به حاكم قلعة هرمز البرتغالي كريستا دي ميندوسا إلى ملك البرتغال سنة ١٥٢٨، وتضمن الإشارة إلى محاولات والي البصرة راشد بن مغماس إنشاء أسطول خاص به وخطر ذلك على هرمز - رغم أن الأخير كان يدعي الولاء لملك البرتغال - وأكد على أهمية الحيلولة دون تقوية نفوذ الوالي المذكور. ^(١) ووجد البرتغاليون فرصتهم السانحة عندما استتجد بهم ابن مغماس ضد خصمه في الحويزة سنة ١٥٢٩، وما لبث الأسطول البرتغالي أن انقلب على ابن مغماس، وطلب منه تسليم مجموعة من السفن التابعة له، ولما رفض قام البرتغاليون بحرق بعض القرى التابعة له. ^(٢)

وفي ثلاثينيات القرن السادس عشر أدى انشغال البرتغاليين بمواجهة التحالف العثماني مع القوى الإسلامية في الهند، بالإضافة إلى حملاتهم في البحر الأحمر، إلى إهمال الأوضاع بصورة مؤقتة في الخليج العربي، حيث ذكر القائد البرتغالي في هرمز نبذة عن الأحوال في قلعتها بقوله:

«أما عن هذه القلعة، فقد أصلحها الولاة السابقون إصلاحاً سيئاً حسب ما سبق أن كتبت لجلالتيكم، ولا يتوفر لدي الآن سوى أربعة أو خمسة براميل من البارود، وعلى مدفعية قليلة جداً، وذلك على الرغم من ضرورة توفير أكثر مما يوجد في رودس، لأن جلالتيكم تعلم بأن أقواماً عديدة تفد إليها من كل بقاع العالم من جنوبيين وبنادقة وأتراك ويهود وأرمن، ومن شعوب أخرى، وأول ما يقومون به فور وصولهم هو التعبير عن رغبتهم في زيارة القلعة، وبالطبع لا يمكن السماح لأحد بذلك لأن داخل القلعة لا يختلف عن مخزن للتين». ^(٣)

وكان للخسائر المروعة التي تكبدها البرتغاليون في حملتهم ضد البحرين عام ١٥٢٩ دور كبير في إبعادهم عن المنطقة لفترة طويلة من الزمان، حيث أصبح ذكر البحرين يجلب للبرتغاليين الحزن والأسى، ويمكن ملاحظة ذلك في عبارات باروس عندما تحدث عن البحرين قائلاً:

«إن موضع تلك الجزيرة (البحرين) في حد ذاته منخفض، وهي كثيرة النخيل، وشديدة

(1) Serjeant, R.S. (1974) *The Portuguese off the South Arabian Coast*. Librairie du Liban, Beirut. p12.

(2) استمرت الحملات البرتغالية ضد راشد ابن مغماس، ومن بعده ابنه مانع إلى سنة ١٥٤٥ عندما قامت قوات برتغالية-هرمزية مشتركة بتدمير القلعة التي شيدها مانع في القطيف، بعد أن رفض مانع الالتزام بشروطهم أثناء المفاوضات التي عقدت بين الطرفين عام ١٥٤٤.

(3) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص.ص ١٢٨-١٣٢.

الرطوية والخضرة، حتى إنه أينما حفر السكان يجدون الماء، غير أنه غير عذب، وهذا ما يجعلها كثيرة الوباء خصوصاً في بعض شهور السنة، أي من نهاية شهر سبتمبر إلى فبراير، فهي في بعض الأحيان خلال شهور هذه السنة شديدة الوباء إلى حد أن أعيانها يغادرونها إلى القطيف الموجودة على الساحل العربي»^(١).

وتتطابق هذه الشهادة مع ما ذكره القائد البرتغالي برنال دو سوزا في حديثه عن الحملة البرتغالية على القطيف عام ١٥٤٥، حيث قال:

«وبما أن جميع الذين رافقوني قد عادوا سالمين باستثناء اثنين قتلوا خلال المعركة، ووفاء آخر بسبب المرض، فقد أحاطتنا العناية الإلهية في البحرين لأن أرضها غير صحية كما سبق لجلالتكم معرفته، عندما توفى الجنود الذين رافقوا سيماو كونها، ولأن البحرين لا توفر للقطيف في هذا المجال أي امتياز»^(٢).

ويدل ذلك النص على أن القوات البرتغالية كانت تتفادى الإقامة في البحرين خوفاً من إصابة الجنود بالحمى التي أودت بحياة أكثر من ثلاثمائة جندي برتغالي عام ١٥٢٩.

وقد كان مراد شاه يدرك حرص البرتغاليين على عدم التورط في عمليات طويلة الأمد في بلاده، فعمل على تعزيز استقلال البحرين وسيادتها، وذلك من خلال الامتناع عن دفع الإتاوة السنوية المفروضة على البحرين بانتظام منذ توليه الحكم عام ١٥٢٩، فبعد أن عادت الحملة البرتغالية أدراجها اشتكى قائد القلعة بهرمز عدم وصول أي إيرادات من البحرين قائلاً:

«أما تحصيل الضرائب بصورة أخرى فإنه يتطلب جهوداً كبيرة، وقد يكون الأمر مستحيلاً، لأن البحرين التي تعد أهم منطقة بالمملكة في حالة عصيان، وبما أنها لا تؤدي أي مردود حتى الآن فإن احتلالها وفرض تحصيل المبلغ وفق ما هو محدد لها سيخفف من وطأة الأمر»^(٣).

ولكن مراد شاه في الوقت ذاته، لم يستعدي البرتغاليين ضده كما فعل راشد بن مغماس وابنه مانع، بل حرص على موازنة العلاقات معهم من خلال إظهار التعاون والولاء، حيث كان يطلق على نفسه لقب: «وزير»، مما يعني ولاءه الرمزي لسلطة هرمز، ولكنه

(1) Barros, J. D. (1945-46) *I Asia*. 4/317.

(2) *Arquivo Nacional da Torre do Tombo*, (1960-1977), As Gavetas Da Torre Do Tombo Lisboa. 5/915-918.

(3) أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، صص ١٢٨-١٣٢.

في الوقت ذاته كان يقيم علاقات مماثلة مع العثمانيين الذين أنعموا عليه بلقب «صنّجق».

وعندما اندلعت المواجهات العسكرية بين البرتغاليين والعثمانيين، كان مراد شاه يدرك بأن قيادة القوات البرتغالية في جوا لم تكن متحمسة للتوغل في الخليج العربي، بل كانت التعليمات المشددة لقباطنتهم أن يركزوا دفاعاتهم في هرمز ومسقط، دون التورط في عمليات عسكرية طويلة الأمد داخل مياه الخليج العربي، كما كانت موارد البرتغاليين قد استنفذت في الصراع مع أعدائهم العثمانيين، مما فرض عليهم استبعاد فكرة احتلال البحرين، ولذلك فإنه عندما اقترح وزير هرمز على البرتغاليين شن حملة تتجه إلى البحرين لإخضاع القطيف سنة ١٥٤٤، فوجئ برد نائب الملك الذي ورد فيه:

«إن مولانا الملك يتحمل مصاريف ضخمة بالهند وبهرمز، الأمر الذي يحول دون إرسال أسطول إلى البحرين، واقترح أن يجمع حاكم البحرين قواته، وأن يستولي على الجبايات التي قد تكون هناك للفرس لمدة سنة، وذلك بقصد تجهيز أسطول يمكنه من الاستيلاء على القطيف. لذا بعث إليه القبطان برسالة موقعة من طرفه، وكذا من لدن الكاتب يخبرانه فيه أن العمل باقتراحهما يمثل خدمة لملك البرتغال. وإنه في حالة استيلائه على القطيف فإنه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها أحد، وأكد له أن ملك هرمز موافق على ذلك بدوره، وبعث له ملك هرمز بدوره خطاباً آخر، إلا أن الحاكم لم ينفذ هذا الاقتراح بعد»^(١).

ويلاحظ في هذا الخطاب بأن البرتغاليين لم يظهروا عجز خزينتهم عن تجهيز حملة إلى البحرين فحسب، بل إنهم أبدوا استعدادهم لترسيخ استقلال حكم مراده شاه من خلال حضه على شن حملة يتحمل مصاريفها بنفسه، وأن يسمحوا له نظير ذلك بالاستحواذ على إيرادات القطيف، وذلك على الرغم من أن مراد شاه لم يكن يدفع أي إتاوة لهرمز طوال الفترة الممتدة ما بين ١٥٣٤ و١٥٤٤^(٢).

وعندما هاجم البرتغاليون قلعة القطيف ودمروها عام ١٥٤٥، أرسل حاكم قلعة هرمز البرتغالي لويس فلكاو خطاباً إلى نائب الملك البرتغالي في جوا يقترح فيه تحويل القطيف إلى قبطانية (أي وحدة إدارية برتغالية مستقلة بشؤونها على قدم المساواة مع مثيلتها قبطانية هرمز)، إلا أن نائب الملك رفض هذا الاقتراح، قائلاً بأنه من الأجدى للبرتغاليين أن يقتصر وجودهم على مجموعة قليلة من القلاع، حيث يتم تركيز قوتهم العسكرية محدودة العدد،

(١) أحمد بوشرب (١٩٨٤)، «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، صص ١٣٣-١٣٥.

(٢) عبد اللطيف الحميدان (١٩٩٧) مرجع سابق، صص ٩٤-٩٥.

مما يضمن لهم توفير النفقات الباهظة بدلاً من نشرها في مناطق شاسعة تتسبب في تحميلهم الكثير من الأعباء والتكاليف، كما أن القطيف من جهة أخرى قريبة للبصرة وأراضي الدولة العثمانية، ووجود البرتغاليين فيها سوف يستفزهم، ويقتضي ذلك أن تكون القوة البرتغالية في حالة استنفار دائم خشية وقوع هجوم عثماني مباغت عليها.^(١)

واستمر الوضع على ما هو عليه حتى نهاية الخمسينيات من القرن السادس عشر، فعندما وصلت القوات العثمانية إلى الخليج العربي، لم يكن في البحرين أي جنود برتغاليين، وكانت القوات العسكرية فيها تنحصر في القبائل العربية الموالية لمراد شاه من آل مسلم وآل رحال من جهة، وقوات مراد شاه الخاصة من جهة أخرى.

وعلى الرغم من خطورة الأوضاع في المنطقة وتلقي البرتغاليين معلومات مؤكدة بنية الرئيس بيري احتلال البحرين،^(٢) إلا أنهم لم يبدوا أي رغبة في إرسال قوات برتغالية لمنع وقوع البحرين في قبضة العثمانيين، بل اكتفى نائب الملك بإرسال خطاب إلى مراد شاه، ورد فيه:

«إن الرسالة التي بعثها سيادتكم لي والموجهة إلى مراد رئيس (حاكم البحرين) قد حولتها إليه على الفور وكتبت إليه أن يستجمع قوته في حال مجيء الأتراك للاستحواذ على البحرين، وذلك لكي يتمكن من الدفاع عن نفسه، مما يمثل خدمة لمولانا».^(٣)

وفي الوقت الذي فشل فيه العثمانيون من السيطرة على هرمز لم ينجح البرتغاليون من بسط سيطرتهم على سواحل البصرة والقطيف، وبالتالي ظلت البحرين كجزيرة حدود تفصل بين القوى المتنازعة ومدى تأثيراتها. ورغب الطرفان (العثماني والبرتغالي) في عدم وقوع المزيد من التصادم في المنطقة عندما فشلا في تحقيق أهدافهما، مما دفع بهما للتفاوض بهدف تعزيز التجارة بينهما ابتداء من عام ١٥٦٢.^(٤)

وفي هذه الأثناء استغل مراد شاه فرصة التقارب بينه وبين البرتغاليين للاستفادة من خبرتهم في مجال بناء القلاع وتحصينها، حيث أوفد إليه نائب الملك المهندس المعماري الشهير إنوفري كفالهو الذي شارك في حملة نورونها ضد العثمانيين سنة ١٥٥٣، ثم صاحبه مرة أخرى كمهندس حصار ضد الحامية العثمانية التي هاجمت البحرين سنة ١٥٥٩.

(١) المرجع نفسه، ص ٩٩.

(٢) صالح أوزبران (١٩٧٩) مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) الأرشيف البرتغالي: CC, Parte la, Maco 89, Doc-9 fol 3 (v) 5r.

(٤) صالح أوزبران (١٩٧٩) مرجع سابق، ص ٥٥.

وقد بدأ كفالها العمل بترميم القلعة على النمط الأوروبي عام ١٥٦٠، وانتهى منه عام ١٥٦١،^(١) ثم حرص مراد شاه على تخليد ذكرى هذا العمل من خلال الحفر على الصخرة التي لا تزال موجودة في القلعة، ونصها:

«في ضمن شهر شعبان من سنة ثمان وستين وتسعمائة وافق الفراغ من قطع مائة ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين وذلك إبان وزارة الوزير الأعظم جلال الدين محمود شاه على يد العبد فيروز».^(٢)

ويلاحظ في ذلك النص عدم ورود أي ذكر للبرتغاليين أو الهرمزيين، بل ورد اسم مراد شاه منفرداً باعتباره حاكم البحرين المستقل عن أي سلطة خارجية، وذلك بخلاف الكتابة التي تركها البرتغاليون على القلاع التي شيدها في مسقط، حيث حرصوا على نسبتها إليهم، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم.^(٣)

ونتيجة للسياسة المتوازنة التي اتبعها مراد شاه طوال فترة حكمه التي امتدت نحواً من نصف قرن، فقد نعمت البحرين بفترة طويلة من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، بحيث شهدت نزوح مجموعات كبيرة من السكان إليها طوال تلك الفترة، ففي العقد الرابع من القرن السادس عشر أشارت المصادر البرتغالية إلى نزوح عدد كبير من أبناء القبائل العربية إلى البحرين حيث استقروا بها، وشكلوا جزءاً مهماً من قواتها العسكرية ونشاطها التجاري على حد سواء.

وفي أعقاب الحملة العثمانية الفاشلة على البحرين (والتي انتهت أحداثها عام ١٥٦٠) شهدت البحرين موجة نزوح أخرى أسهمت بصورة كبيرة في تطورها الاقتصادي والاجتماعي، وقد تحدثت المصادر العثمانية عن هذه الهجرة، في حكم صادر من اسطنبول إلى بيلربي الأحساء ورد فيه:

«إن أمير الأحساء السابق مصطفى بيلربي قد استولى على أموال جمعة بن رحال الموجود في القطيف رغم الأمر السلطاني الصادر إلى أمير الأحساء الأسبق محمد بيلربي حول منع الاعتداء على أموال رحال وأقربائه بعد أخذ حقوق الديوان منها، وجمعة بن رحال هو من كبار التجار في القطيف، وعندما استولى مصطفى بيلربي على أمواله هرب إلى البحرين

(١) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) انظر: كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٨٥. وكذلك: الخيري (٢٠٠٣) مرجع سابق، ص ١٩٦-١٩٧، وأشار إلى معلومات لم ترد في كيرفران وهي أن العبد اسمه فيروز، وأشار إليها بصورة عابرة كذلك: النبهاني (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) كتب على القلعة التي شيبت في مسقط عام ١٥٨٨ النص التالي: «على عهد صاحب الجلالة والعظمة فيليب صاحب الاسم الأول ملكنا المفدى، وفي السنة الثامنة بعد اعتلائه العرش البرتغالي، فلقد أمر دون دوارت دي منزيس، وبعد انتصاره في الهند أن يقوم ببناء هذه القلعة».

واستقر فيها، وأخذ معه ما يملكه من السفن والغواصين واللؤلؤ، مما أدى إلى ركود اقتصادي في الأحساء، ولم يعد يذكر اسم اللؤلؤ فيها»^(١).

وتشير المصادر العثمانية إلى استمرار موجة نزوح التجار إلى البحرين حتى سبعينيات القرن السادس عشر، وذلك على خلفية تردي الأوضاع الاقتصادية والأمنية في إقليم الأحساء؛ ففي أكتوبر ١٥٧٧ ورد في تقرير لأحد ضباط البحرية العثمانية بالأحساء، بأن غارات القراصنة قد تسببت بأضرار كبيرة في الأسواق المحلية في القطيف الأمر الذي أدى بالتجار المحليين إلى أن ينتقلوا إلى البحرين باعتبارها أكثر أمناً.^(٢)

وقد رأى الباحث دونالد فلاج بأن المعارك الدائرة في مياه الخليج العربي لم تؤثر على الأوضاع في البحرين، بل نجح حاكمها في المحافظة على استقلال بلاده والوصول بها إلى مستوى عال من الاستقرار السياسي والازدهار السياسي طوال القرن السادس عشر، وذلك بقوله:

«لقد احتفظت البحرين بموقع استراتيجي هام، فالبرتغاليون منذ عام ١٥٢١، والسنوات التي تلتها كانوا يأخذون الإتاوة من البحرين، غير أنه لم تكن لهم سيطرة فعلية على حكومة البحرين أو على تجارتها الأهلية، لقد كان البرتغاليون فقط يفرضون الإتاوة، أحياناً بانتظام وأحياناً على فترات غير منتظمة.

ويبدو من سجلات البرتغاليين أنه في الأربعين عاماً الأخيرة من القرن السادس عشر ظلت البحرين محتفظة بموقعها الاستراتيجي كقوة وسط ومحيدة، كما يبدو كذلك بأن البحرين كانت تتمتع بانتعاش اقتصادي خلال تلك الفترة، وكان التجار والسفن التجارية لا تذهب إلى هرمز فحسب بل تصل حتى إلى الهند بل وربما إلى أبعد من ذلك حسب ما تذكره السجلات، وقد كانت هناك حروب محلية بين الأعوام ١٥٦٠ إلى ١٦٠٢، بما فيها حوادث ذات علاقة بالقرصنة، واستخدم بعض القراصنة البحرين كقاعدة لهم، كما تعرضت بعض السفن في البحرين للقرصنة من جهات خارجية، غير أنه لا القرصنة ولا الحروب الدولية وقفت عائقاً دون الانتعاش الاقتصادي والسلم النسبي والهدوء الذي ظلت تتمتع به البحرين طيلة تلك الفترة»^(٣).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني، دفاقر المهمة، رقم الدفتر: ٣، ص ٣٧٩، رقم الوثيقة: ١١٢٣، بتاريخ ١٨ شعبان ١٥٦٠هـ/١٩٦٧.

(٢) صالح أوزبران (١٩٧٩) مرجع سابق، ص ٥٨. نقلاً عن: دفاقر المهمة: ٣١، ص ٣٣٨، بتاريخ ٢٣ رجب ٩٨٥هـ/٦ أكتوبر ١٥٧٧م.

(٣) دونالد فلاج (١٩٧٥) «البرتغاليون في الخليج العربي ١٥٢٠-١٦٠٢»، مجلة دلمون، ١٩٧٥، ص ١١.

الفصل الخامس



البحرين في عهد ركن الدين
محمود شاه (١٥٧٧-١٦٠٠)

الفصل الخامس

البحرين في عهد ركن الدين محمود شاه

(١٥٧٧-١٦٠٠)

تولى ركن الدين محمود شاه الحكم في البحرين عقب اغتيال جده مراد شاه، وعزل والده خضر شاه سنة ١٥٧٧، وقد سار محمود في الحكم على نهج جده في الحصول على اعتراف جميع القوى الرئيسية في المنطقة، فقد اعترف به العثمانيون حاكماً على البحرين باسمهم، كما اعترف به البرتغاليون والهرمزيون نظير موافقته على فتح مكتب تمثيل تجاري لملك البرتغال، والتزامه بدفع الإتاوة السنوية لهرمز.

وعلى الرغم من انتشار القرصنة في مياه الخليج العربي، وزيادة النشاط العسكري خلال فترة حكمه، إلا أن البحرين قد استمرت في استقبال العديد من الهجرات القبلية التي استقر أفرادها في البحرين ووجدوا فيها الازدهار والأمان، وقد جلب المهاجرون الجدد معهم رؤوس أموالهم مما أدى إلى انتعاش الحركة التجارية، كما وفد إلى البحرين عدد من العلماء والشعراء والأدباء، وعلى رأسهم الشاعر جعفر الخطي الذي كتب مجموعة من القصائد في مدح حاكم البحرين، وفي وصف الحياة العامة بها وصفاً بليغاً ساعد على حفظ الكثير من المعلومات التي تدعمها الوثائق المحلية والنقوش الحجرية وغيرها من المصادر الأولية، التي استفاد الباحث منها في تحقيق أحداث فترة حكم محمود شاه.

وقد استند هذا الفصل على جملة من المصادر المحلية لوصف الحياة العامة في البحرين، ونظامها الاقتصادي، والإداري، والتطور الثقافي والعلمي الذي شهدته البلاد في الربع الأخير من القرن السادس عشر، كما تم التطرق للحديث عن ظروف نهاية حكم محمود شاه، وما أعقب ذلك من تطورات أدت إلى نهاية حكم هذه الأسرة التي هيمنت على النظام السياسي للبحرين سبعة عقود، وتركت بصمات واضحة لا تخرج في إطارها عن الخط العام الذي انتهجه حكام البحرين في القرون التالية.

الملحق الأول

تولي ركن الدين محمود الحكم عام ١٥٧٧

تتفرد المصادر العثمانية بالحديث عن مقتل محمود مراد شاه حاكم البحرين في شهر فبراير ١٥٧٧، وتشير إلى أن ابنه خضر شاه قد خلفه في الحكم، ولكن ملك هرمز قرر استغلال فرصة الفراغ السياسي الذي أعقب اغتيال مراد شاه، فأمر بشن حملة ضد البحرين بقيادة الوزير نور الدين، الذي دخل بقواته إلى البحرين وقام بعزل خضر شاه.

وتؤكد المصادر العثمانية بأن أصغر أبناء خضر شاه؛ ركن الدين محمود قد تولى حكم البحرين، في العام نفسه. وعلى الرغم من أن مصير خضر شاه قد بقي مجهولاً عقب تلك الأحداث، إلا أنه من المؤكد بأن ابنه ركن الدين محمود شاه قد بقي في الحكم حتى سنة ١٦٠٠^(١).

ويمكن العثور على مصادر تاريخية متعددة تؤرخ لعهد ركن الدين محمود، وتولية الحكم في البحرين، ومن أهمها:

١- الوثيقة العثمانية بتاريخ ٢٦ ذي الحجة عام ٩٨٥هـ/ ٣ فبراير ١٥٧٧م

وهي عبارة عن خطاب ورد إلى بيليربي الأحساء من إسطنبول، يذكر فيه أن محمود شاه حاكم البحرين قد قتل، وبأن ابنه خضر شاه تولى الحكم من بعده، وبأن وزير هرمز نور الدين قد هاجم البحرين وألقى القبض على حاكمها الجديد. وقد أمر السلطان العثماني حاكم الأحساء أن يرسل أسطولاً والذخيرة لديه إلى بيليربي البصرة بانتظار الأوامر لاتخاذ إجراء عسكري^(٢).

(١) ذكر عدنان السيد العوامي في تحقيقه لديوان الخطي (صفحة ١٥٣)؛ بأن «ركن الدين محمود هو ابن نور الدين بن شرف الدين، وكان شرف الدين هذا والياً على قلهات سنة ١٥٠٧». وقد تضمن تعليق السيد العوامي بعض الأخطاء التاريخية، منها الادعاء بأن شرف الدين كان والياً على قلهات من قبل إيران، والصحيح أنه كان والياً من قبل هرمز، ومنها كذلك قوله بأن نور الدين بن شرف الدين قد ترأس الأسطول البرتغالي في حملته على القطيف سنة ١٥٤٥، ثم تولى حكم البحرين بعد ذلك، والصحيح هو أن نور الدين هذا لم يكن يترأس الأسطول البرتغالي، وقد سبق ذكر جملة من المصادر التي أكدت وجود مراد شاه حاكماً على البحرين قبل هذه الحملة وبعدها، بل إن قائد الحملة البرتغالي: برنالدو دو سوزا، لم يذكر في تقريره تولية نور الدين حاكماً على البحرين، بل أكد بأن نزول قواته بها كانت لفترة قصيرة للغاية، ولا يمكن أن يغيب عن القائد البرتغالي في تقرير تفصيلي أن يذكر تولية حاكم جديد من قبله على البحرين إن كان ذلك قد وقع بالفعل. والحقيقة هي أن المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة لا تذكر أي صلة لركن الدين محمود مع وزراء هرمز، بل تربطه مع خضر شاه ومراد شاه، كما سيأتي.

(2) Ozbaran S (1989) «Bahrain in the Sixteenth Century», *Al-Watheekah*, vol 15, (July 1989), p. 221. نقلًا عن: أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، دفتر المهمة ٣، ص. ٣٥٣.

٢- الخطاب الهمايوني العثماني المؤرخ في شهر جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/ أغسطس ١٥٧٨م

وهو خطاب موجه من الديوان الهمايوني إلى بيلربي الأحساء لإخباره بأن خضر شاه بن مراد شاه قد عزل من قبل وزير هرمز نور الدين، وقد خلف خضر شاه في الحكم أصغر أبنائه، وقد أمر السلطان العثماني بيلربي الأحساء أن لا يتدخل في الأحداث الجارية في البحرين. وكان العثمانيون في ذلك الوقت يعدون العدة لحملة ضد الدولة الصفوية، فقاموا بتأجيل طموحاتهم في السيطرة على البحرين.^(١)

٣- وثيقتان عثمانيتان يعود تاريخهما إلى سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م

يشير الديوان الهمايوني في هاتين الوثيقتين إلى وجود أملاك لحاكم البحرين: محمود بن خضر، في الأحساء، وكان محمد باشا بيلربي الأحساء قد أرسل خطابات إلى إسطنبول بذلك الخصوص.^(٢)

٤- إعلان وقف في نقش على حجر في مسجد الخميس يعود تاريخه إلى عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م، ونصه ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، {لمثل هذا فليعمل العاملون}، تقربت إلى الله العظيم، طلباً لثوابه الجسيم، حضرة خلاصة الوزراء الأعظم، ونخبة الأوصاف الأفاحم، وركنا الوزارة والإيالة والإقبال، حضرة محمود بن خضر عزيز...^(٣) وقرين الجنات ذو الرشد والسعادة، نور الشهادة والغفران. وشاء أن [...] برفع التوزيع والثغور وسائر خراجات الديوان عن الأوقاف، وأملاك المشهد الشريف ذي المنارتين، الكائن ببلد أوال، حرس من الوبال، رفعاً على مر الأيام، إلى الخاص والعام، ومما يشاء، ومن غير في رسم هذا الحجر من سائر العالمين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. تحريراً بشهر شعبان لسنة أربع وتسعين وتسعمائة. والحمد لله وصلاة على محمد وآله وسلم».^(٤)

(1) Mandaville J.E (1970) «The Province of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries», *Journal of the American Oriental Society*, vol. 90, (1970), p. 496.

نقلاً عن: أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، دفتر المهمة، ٣٣: ص. ٧٢٤

(٢) دفتر المهمة رقم ٤٥، الصفحة ٢١٤، رقم الحكم ٢٥٢٥، والصفحة ٣٥٥ رقم الحكم ٤٢٩٦.

(٣) الكتابة غير واضحة بسبب تعرض الحجر للتلف في الجزء الذي ذكر فيه لقب خضر والد محمود، وقد دون اسم الحاكم في النص المنسوخ بالمتحف على النحو الآتي: «محمود بن حضرة عزيز ... حضرة...»، ويرى الباحث بعد دراسة الكتابة المنقوشة على ذلك الحجر بأن القراءة الواردة أعلاه هي الأدق.

(٤) كلمة غير مقروءة على الحجر في ذلك الجزء.

(٥) نقش على حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني.

ويتضمن هذا الحجر معلومات مهمة؛ حيث يذكر فيه اسم حاكم البحرين محمود واسم أبيه خضر، كما يتحدث عن «خراج الديوان»، مما يدل على أن نظام البحرين الاقتصادي كان يدار من قبل ديوان محلي، وبأنه كان يتمتع بنظام خراج مستقل تحت إشراف حاكم البحرين، كما أن الحجر يشير بصورة واضحة إلى وجود نظام وقفي مستقل في البحرين، ويوجد في متحف البحرين الوطني حجر آخر نقش عليه نص وقف في كرانة، مما يؤكد استقلال البحرين بإدارة نظامها الوقفي عن أي سلطة خارجية. ولكن المعلومة الأكثر أهمية في ذلك الوقف المنقوش هي أن حاكم البحرين محمود شاه، قد وصف نفسه بأنه: «رکنا الوزارة والإيالة»، فأما الوزارة فتشير إلى الخضوع الرمزي لسلطة هرمز، وأما الإيالة فتشير إلى الخضوع الرمزي للسلطة العثمانية في الأحساء، لأن مصطلح «الإيالة» لم يكن يستخدم في أي نظام إداري آخر غير النظام الذي اعتمده الدولة العثمانية. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ بأن السلطة العثمانية قد اتخذت قراراً بفصل الأحساء عن البصرة أواخر عام ١٥٧٩، فعادت الأحساء بذلك إيالة مستقلة بعد أن كانت قد ضمت لإيالة البصرة عام ١٥٧٢، وتم توسيع حدود إيالة الأحساء بعد فصلها وأدرجت البحرين لأول مرة ضمن أوليتها. ويدل النقش على حجر مسجد الخميس بأن حاكم البحرين كان يسير على شاکلة سياسة جده مراد شاه في الحصول على اعتراف ضمني من القوتين الرئيسيتين في الخليج العربي لتثبيت حكمه؛ السلطة الهرمزية (ومن ورائهم البرتغاليون) من جهة، والسلطة العثمانية في الأحساء من جهة أخرى.^(١)

٥- قصيدة الشاعر أبي البحر جعفر الخطي (ت ١٦١٨) في مدح: «وزير البحرين صاحب المعظم ركن الدين محمود»

وهي أول قصيدة أثبتتها في المدح، وأنشدها إياه يوم عيد الفطر لعام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م، وهي من أشهر قصائد الخطي، ومطلعها:

ماذا يفيدك من سؤال الأربع وهي التي إن خوطبت لم تسمع^(٢)

وتتضمن هذه القصيدة معلومات مهمة عن حاكم البحرين محمود شاه، ومن ذلك قول الخطي:

(١) يمكن الرجوع إلى دراسة قيمة لحجر مسجد الخميس في كتابات عبد الرحمن مسامح، والذي أشار بوضوح إلى أن تبعية البحرين للبرتغاليين ومن يمثلهم في هرمز كانت تبعية اسمية فقط، وبأن البرتغاليين: «تركوا لأهلها قدراً من الاستقلال كانوا يتصرفون بموجبه في شؤونهم وعلاقاتهم مع الغير بشيء من الحرية»، وخرج مسامح بعد دراسة مستفيضة بنتيجة هامة مفادها أن البحرين: «كانت إمارة مستقلة تتمتع بوضع اقتصادي ممتاز تطمح فيها القوى الأجنبية». عبد الرحمن مسامح (١٩٩٨) مقدمة في تاريخ البحرين القديم، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر، البحرين، ص.ص ٣٣٩-٣٤٦.

(٢) جعفر الخطي (٢٠٠٢) ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، دراسة وتحقيق أنيسة المنصور وعبد الجليل العريض، الكويت، ص ١٠٨.

لذ بالوزير ابن الوزير كأنما
تأوي إلى الكهف الأعز الأمتع
ملك رقى درج الفخار فلم يدع
فيها لراق بعده من مطمـع
وتناولت كفاه أشرف رتبة
لو قام يلمسها السهى لم يسطع^(١)

فالشاعر الخطي يؤكد على أن محمود هو: وزير ابن وزير، وفي ذلك إشارة إلى توليه الحكم بالوراثة عن أبيه خضر شاه. وبعد أن يطلق عليه لقب الوزير نلاحظ بأنه يستخدم في حقه لقباً آخر هو: «الملك»، مما يدل على عدم توحى الدقة في استخدام الألقاب الإدارية، والمرونة التي مارسها حكام البحرين آنذاك في استخدام الألقاب وفق ما تقتضيه المصلحة؛ حيث وصفت المصادر حاكم البحرين بالوزير وبالمملك وبالأمير وبغيرها من المصطلحات السائدة في تلك الفترة. وعلى الرغم من تعدد الألقاب فإن الشاعر الخطي يؤكد بأن منصب محمود بن خضر في البحرين يعتبر: «أشرف رتبة»، أي أنه كان حاكم البحرين المطلق آنذاك.

وبعد أن يتحدث الشاعر عن كرم محمود شاه وشجاعته وتدينه وخشوعه يقول:

يا ابن الألى جعلوا مراكز سمرهم
حب القلوب بكل يوم مفضـع
واستبدلوا للبيض من أغمادها
في الحرب هامة كل ليث أروع
النازليين من العلا في رتبة
هام السهى منها بأدنى موضع
ما حدثت نفس امرئ ببلوغها
إلا ومات بغلة لم تنقـع^(٢)

إذ تؤكد هذه الأبيات بأن محمود شاه قد ورث حكم البحرين أباً عن جد، وبأنه من سلالة حاكمة في البحرين، كما تشير بصورة واضحة إلى وجود بعض الطامعين في الإطاحة بحكم محمود وتولي الحكم مكانه، إلا أن هذه الخطط قد فشلت، ولعل الشاعر يشير إلى حادثة اغتيال مراد شاه، وعزل خضر شاه عام ١٥٧٧.

٦- قصيدة الشاعر الخطي التي مدح فيها الوزير ركن الدين محمود وأنشده إياها بعيد الفطر عام ١١٠٢هـ/١٥٩٣م

ولهذه القصيدة أهمية كبرى من حيث إشارتها لأصول محمود شاه، حيث يتحدث الخطي عن هجرته من مدينة الخط بالأحساء ونزوله في البحرين، ولجوئه إلى كرم حاكمها الذي وصفه بأنه:

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.

من معشر سنّ المكارم يافث
لهم وأسس مجدهم وأشادا

ويافث من أبناء نوح، ومن نسله الترك والمغول، وبذلك فإنه لا يمكن أن تكون سلالة محمود شاه من أصل فارسي، بل الأرجح أن يعود أصله إلى بعض الأسر الأرستقراطية التي استوطنت البحرين في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شهدت منطقة الخليج العربي سلسلة هجرات قادمة من الشرق آنذاك. ويعود الخطي لتأكيد هذه الحقيقة بقوله:

يا ابن الأولى بذوا جيادهم إلى
أمد العلاء يوم السابق طرادا

فالناس بين اثنين إما مادح
لهم وإما مضمّر أحقادا

نالت بهم هام السهى يد يافث
طولا لكونهم له أحقادا^(١)

وفي ذلك تأكيد على ما ورد في القصيدة السابقة من وجود مؤيدين لحكم محمود شاه وأسرته، وكذلك وجود معارضين يضمرون لهم الحقد والكراهية، كما يؤكد مرة أخرى على أن حاكم البحرين هو من سلالة يافث.

٧- القصيدة الثالثة للخطي في مدح الوزير ركن الدين محمود يهنئه بعيد الأضحى عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م

وقد ذكر في مقدمة هذه القصيدة بأن ركن الدين محمود قد وقع في يده بيتان أعجميان، في كل شطر ذكر خمسة أشياء، وهي: يوم من الأيام الأربعة وهي ما قبل أمس وأمس واليوم وغد، وشيء من الرياحين، وشيء من الجواهر، وشيء من السلاح، وأحد الأربعة: من النار والماء والهواء. والتمس ممن أنس بالنظم أن يأتي بمثلها، فكتب الخطي في ذلك بيتان، ثم ذكر القصة في قصيدته التي مدح فيها ركن الدين وورد فيها قوله:

إن الوزير أدام الله دولته
لواحد ما له في الناس من ثاني

وبعد أن يذكر كرمه وشجاعته، يذكر كثرة جنوده ولبسه للعمّة، والاستقرار الذي نعمت به البحرين في عهده بقوله:

ما سار في موكب إلا وحف به
من الوحوش وطير الأفق جيشان

كأن عمته ليث على قمر
داني التألّق يغشى مقلة الراني

أنام سرب الرعايا في ذراه فما
تتفك نائمة في ظل يقضان

(١) المصدر نفسه، ص. ١١٢-١١٦.

ثم يشير إلى إتقان الحاكم للغة العربية، واهتمامه بالشعر، ودعوة شعراء البحرين لنظم أبيات باللغة العربية على شاكلة ما وردته بالفارسية، فيقول:

وألزم الناس أن يأتوا بمثلهما معنى ووزناً من القاصي إلى الداني
فظل يرسل كل طرف فكرته فمن عثور على الغايات أو واني^(١)

٨- القصيدة الرابعة للشاعر الخطي يهنئ الوزير ركن الدين محمود بمولود له لم يكن له غيره، وأنشدها إياه بعيد الفطر عام ١١٠٩هـ/١٦٠٠م

تتضمن هذه القصيدة معلومات مهمة عن محمود شاه، منها بقاءه في الحكم حتى نهاية القرن السادس عشر، ومنها أنه لم يرزق بولد يخلفه إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الحكم، وربما يفسر لنا ذلك انقطاع حكم آل مراد الذي استمر لأكثر من سبعين عاماً في القرن السادس عشر. حيث يقول الخطي في الوليد الجديد:

شدّ أزر الملك العقيم كما يك نف نور الهلال ضوء برّاح
جاءها بعدما استمرت على الع قم وضافت أم اللقى باللقاح

ثم يخاطب محمود شاه بقوله:

يا ابن من شيدوا مباني العلا بالسد سعي لا بالأجر والصّفاح^(٢)

وتقع هذه القصيدة في ٤٨ بيتاً يطول المقام بذكر التفاصيل التي وردت فيها، إلا أنها تضمنت إشارات عديدة إلى مكانة حاكم البحرين، وما وصفه به الخطي من الكرم والشجاعة وحسن التدبير مع طول المكث في سدة الحكم.

والحقيقية هي أن محمود شاه قد حظي بما لم يحظ به والده وجده من تخليد ذكراه في القصائد الأربع التي نظمها الخطي في مدحه، وذكر فيها الكثير من التفاصيل المهمة حول حكمه وسيرته وأهم مناقبه، مع ضرورة توخي الحذر في المبالغة التي درج عليها الشاعر الخطي في مجال المديح.

(١) المصدر نفسه، ص.ص ١١٧-١٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص.ص ١٢٤-١٢٩.

المبحث الثاني

العلاقات الخارجية للبحرين في عهد ركن الدين محمود

في أعقاب وفاة مراد شاه، وتولي حفيده محمود شاه الحكم عام ١٥٧٧، أخذت منطقة الخليج العربي تشهد متغيرات كبيرة، فقد جددت الدولة العثمانية اهتمامها بالسيطرة على البحرين، وأخذت التقارير ترد تباعاً إلى إسطنبول حول خطط إخضاع البحرين للحكم العثماني.

وفي عام ١٥٨١ خضعت البرتغال للتاج الإسباني مما أدى إلى وقوع متغيرات كبرى على الصعيد الإداري في الخليج العربي.

وفي العام التالي تولى تورانشاه السادس (١٥٨٢-١٥٩٨) الحكم في هرمز، فتحالف مع القوات البرتغالية لقمع الثورات التي وقعت ضد سلطته في الخليج العربي، وخاصة تمرد حاكم لار عام ١٥٨٣.

أما التطور الأبرز فكان يتمثل في تولي الشاه عباس الأول سدة الحكم في البلاط الصفوي عام ١٥٨٧، فبعد أن تخلص من منافسيه على العرش ومن نفوذ طوائف القزلباش الذين كانوا يشكلون طبقة إقطاعية في البلاد، قام بإعادة تشكيل جيشه النظامي، وأدخل الأسلحة الحديثة، ثم تبنى سياسة الانفتاح الواسع على العديد من الدول الأوروبية، مدركاً بأنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوروبيين، خاصة إنجلترا وهولندا، وقد تالقت مصلحة الشاه عباس مع مصالح التجار الإنجليز في الإطاحة بالنفوذ البرتغالي في الخليج العربي، وقدر للبحرين أن تكون أول محطة للتصادم بين القوات البرتغالية والصفوية عام ١٦٠٢.^(١)

(١) بديع محمد جمعة (١٩٨٠) الشاه عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت. ص.ص ٤٠-٤٥.

الحملة الرئيسية ضد البحرين في القرن السادس عشر:

| تاريخ الحملة | الجهة | قائد الحملة |
|--------------|-----------------------|--------------------------|
| ١٥١١ | هرمز | خوجه عطار |
| ١٥١٤ | البرتغاليون | بيرو دلبوكيرك |
| ١٥٢٠ | البرتغاليون والهمزيون | جومز سوتومايور |
| ١٥٢١ | البرتغاليون والهمزيون | أنطونيو كوريا وشرف الدين |
| ١٥٢٩ | البرتغاليون | سيماو دا كوفها |
| ١٥٥٩ | العثمانيون | مصطفى بيلري |
| ١٥٧٣ | البرتغاليون | غير معروف |
| ١٥٧٧ | هرمز | نور الدين |
| ١٦٠٢ | الصفويون | إمام قلي خان |

وفي خضم تلك التطورات المتسارعة، واجه محمود شاه تحديات كبرى منذ مطلع حكمه عام ١٥٧٧، وأطيح بحكم والده خضر شاه على يد وزير هرمز الذي قام بهجوم خاطف على البحرين، وفي السنوات الثلاثة والعشرين من حكمه سار محمود شاه في سياسته الخارجية على نمط جده مراد شاه، فقد قام بالمحافظة على توازن صعب في العلاقات مع القوى الرئيسية في المنطقة متمثلة في: الهمزيين والبرتغاليين والعثمانيين، فحرص على زيادة التمثيل البرتغالي في البحرين من خلال وجود مكتب للجمارك بها، كما التزم بدفع الضريبة السنوية لهرمز لتفويت فرصة تشكيل حلف هرمزي-برتغالي ضده، وفي الوقت نفسه حرص على توطيد علاقاته مع السلطة العثمانية التي اعتبرت البحرين ضمن ولايات إيالة الأحساء في تلك الفترة. ويمكن تفصيل سياسة محمود شاه الخارجية في المحاور الثلاثة الآتية:

علاقات البحرين مع مملكة هرمز

نظراً لما كانت تمر به لشبونة من مرحلة ضعف وتشتت بسبب سياسة الملك سياستيان فإن المصادر البرتغالية حول الأوضاع في الخليج العربي أصبحت شحيحة، ولم تتعرض المصادر البرتغالية لذكر أي معلومات حول التطورات التي طرأت في البحرين عام ١٥٧٧.

وفي هذه الأثناء انشغل العثمانيون بتوطيد سلطتهم في البصرة وبغداد، وبالتالي فإنه لا يمكن العثور إلا على مصادر قليلة حول العلاقات بين الدول الرئيسية في الخليج العربي في نهاية العقد السابع من القرن السادس عشر، إلا أن المصادر العثمانية تتحدث بصورة مقتضبة عن قيام الهرمزيين بشن حملة خاطفة ضد البحرين إثر مقتل مراد شاه عام ١٥٧٧، حيث استفاد الهرمزيون من حالة الفراغ السياسي التي أعقبت اغتيال الحاكم وتولي ابنه السلطة، وأرسل ملك هرمز فرخ شاه (١٥٦٥-١٥٨٢) وزيره نور الدين بقوة عسكرية قامت بعزل خضر شاه في العام نفسه، ويبدو أن نور الدين لم يكن قادراً على بسط نفوذ هرمز المباشر على البحرين، فقد عادت القوات الهرمزية أدراجها، وتولى محمود شاه الحكم، ونجح في الحصول على اعتراف السلطة الهرمزية بحكمه فيما بعد.

وفي هذه الأثناء توترت العلاقات بين العثمانيين والبرتغاليين بعد هدنة قصيرة في منتصف القرن السادس عشر، فاستفاد العثمانيون من ضعف الوجود البرتغالي في المحيط الهندي وبحر العرب، وقاموا بنشر سفنهم في البحر الأحمر وسواحل اليمن، وهاجموا مسقط عام ١٥٨١.

ولدى تولي تورانشاه السادس الحكم عام ١٥٨٢ كان عليه أن يواجه تحدياً كبيراً لسلطته؛ فقد تحركت بعض القوى المحلية في الخليج العربي للتخلص من نير السيطرة البرتغالية-الهرمزية، وعلى رأسهم حاكم مدينة لار الذي أعلن الثورة على الحكم الهرمزي-البرتغالي سنة ١٥٨٣، وامتدت الثورة إلى جزيرة قشم، ولم يتمكن الهرمزيون من إخماد ذلك التمرد إلا عقب وفاة حاكم لار واختلاف ولديه على الحكم.^(١)

وبعد أن نجح تورانشاه في إخماد ذلك التمرد قام في العام نفسه بتجهيز جيش مكون من ٣٨٠٠ مقاتل هرمزي، يساندهم ٨٠٠ مقاتل برتغالي، في حملة شاملة في المنطقة بهدف استعادة هيبة هرمز ومكانتها في الخليج العربي، وتشير المصادر البرتغالية إلى أن حاكم البحرين قد التزم بدفع إتاوة سنوية قدرها: «أربعة آلاف دكنا ضرائب من إيرادات اللؤلؤ فيها».^(٢)

(1) Sousa, M. F. (1971) *The Portuguese Asia*. 370-372.

(2) عيسى أمين (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينيسيرا. مؤسسة الأيام، البحرين. صص ١٠١-١٠٣.

وقد استمر محمود شاه في سياسته تجاه هرمز والمتمثلة في إظهار الخضوع الشكلي لملكها حتى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، حيث ورد في ديوان الخطي بأنه عندما توفى أحد قضاة البحرين، تمت تولية ابنه مكانه، وحصل الحاكم على إقرار بذلك من هرمز: «ثم أفرغت على القاضي الجديد الخلع من الديوان، وكان بالمشهد المعروف بذي المنارتين في أوال ثالث عشر شهر صفر للسنة السادس بعد الألف» (١٠٠٦هـ/١٥٩٧م).^(١)

علاقات البحرين مع البرتغاليين

تدهور وضع الإمبراطورية البرتغالية بصورة كبيرة عقب هزيمة الملك دوم سيباستيان ومقتله في معركة وادي المخازن عام ١٥٧٨، إذ قدرت خسائر البرتغاليين بأربعة عشر ألف قتيل وعشرون ألف جريح، وسرعان ما أوكلت الأمور إلى الكاردينال دون هنريك وهو أخو جد سيباستيان وكان عجوزاً طاعناً في السن، وذلك في ٢٩ أغسطس ١٥٧٨، وقد شهدت أيام هنريك بوادر الانهيار العسكري والسياسي والاقتصادي للبرتغال، وخاصة في المستعمرات التابعة لها؛ فقد انتشر الفساد في صفوف الضباط البرتغاليين في الشرق، وتفشت مظاهر التسبب السياسي والاجتماعي، وأخذت تتناقص كميات التوابل التي حملتها السفن البرتغالية إلى لشبونة.

وما لبث هنريك أن توفى في شهر فبراير ١٥٨٠، وظهرت أزمة وراثه العرش البرتغالي بعد موته، فقد أوصى الكاردينال أن يؤول عرش البرتغال بعد موته إلى الملك الإسباني فيليب الثاني ملك إسبانيا، وعندما اعترض رجال البلاط البرتغالي سارع ملك إسبانيا بإرسال جيشه لإخماد المعارضة، ودخلت قواته لشبونة في ١٦ إبريل ١٥٨١، وأعلن انضمام عرش البرتغال إلى عرش إسبانيا، وهكذا صار سقوط البرتغال بيد إسبانيا الإسفين الثاني الذي دق في نعش الامبراطورية البرتغالية بعد الإسفين الأول وهو معركة وادي المخازن.

أما الإسفين الثالث فكان ظهور إنجلترا على مسرح الأحداث، وما أبدته الملكة إليزابيث من رغبة في أن تحل محل إسبانيا والبرتغال في الاستحواذ على تجارة الشرق، وهي السياسة التي قدر لها أن تتجح وأن تحل بريطانيا محل البرتغال في ممتلكاتها الشرقية، حيث كانت معركة الأرمادا عام ١٥٨٨ بداية العد التنازلي للوجود البرتغالي-الإسباني في الشرق.^(٢)

(١) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص ٢٢٥.

(2) Danvers, F.C. (1966) *The Portuguese in India*. 2/24-25.

وفي العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر حاول الملك الإسباني فيليب أن يتخذ إجراءات عدة للمحافظة على المستعمرات البرتغالية في الشرق، وخاصة في هرمز وسواحل الخليج العربي، فاستحدث تغييرات في المناصب القيادية في جوا، إذ عين دون فرنسيسكو ماسكرينهاس بمنصب نائب الملك في الهند، كما تم تعيين دون كونزالا دي منزيس حاكماً على هرمز ومسؤولاً عن القاعدة العسكرية البرتغالية في مسقط.

وقد أظهر البرتغاليون شراسة كبيرة في التعامل مع القوى المحلية التي تمردت ضدهم، فاستهل نائب الملك الجديد عهده بتجهيز حملة عسكرية هاجم بها مدن وقرى في الهند محلاً بهم أنواعاً من القتل والحرق والتدمير، وكان هذا الاستهلال الدموي للعهد الإسباني-البرتغالي المشترك في حكم الهند وهرمز والسواحل العربية، انعكاساً للخوف ولانهايار المعنويات الذي أصاب الوحدات والقواعد العسكرية هناك، وقد تزامن ذلك مع تفشي الرشوة بين القادة العسكريين وظهور طبقة من السياسيين الذين كانوا يهتمون بتجارتهم الخاصة مستغلين مناصبهم الحكومية، وقد انعكس ذلك بدوره على الأوضاع في البحرين؛ إذ حرص محمود شاه على كسب ود البرتغاليين بهدف تجنب ردود فعل عنيفة من قبل قادتهم في هرمز، فأصبحت وظيفة قائد قلعة هرمز من أهم مناصب الامبراطورية، وذلك لأن دخل الحاكم البرتغالي بها من جراء وظيفته كان مرتفعاً، حتى إن هذه الوظيفة صارت تباع وتشترى بعلم المسؤولين أنفسهم، وكان القادة البرتغاليون في هرمز يتسمون بالغرسة والقسوة ضد السكان المحليين.^(١)

ونظراً لما كانت تمثله البحرين من أهمية تجارية فقد حرص البرتغاليون على تأسيس وكالة خاصة بهم فيها، ويظهر لنا بأن إقامة ممثليهم كانت في القلعة حيث يمكن العثور على بعض آثار الاستيطان البرتغالي المحدود فيها، ومن ذلك وجود كنيسة صغيرة لأداء الصلوات بها، كما كان البرتغاليون يتجنبون الاحتكاك بالسكان المحليين في البحرين، وذلك بسبب الكراهية التي كان يكنها السكان المحليون لهم.

وقد تحدث عن وجود التمثيل التجاري البرتغالي في البحرين الرحالة جون هيوجن فان لينخوتن الذي كتب عام ١٥٩٨، قائلاً: «وهناك جماعة تابعة لملك البرتغال موجودة في البحرين بصورة مستمرة لنقوم بصيد اللؤلؤ كما توجد أماكن أخرى لهذا الغرض».^(٢)

(١) فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٤٨٢.

(٢) عيسى أمين (١٩٩٦)، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوارتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة تشالز بوكر، مؤسسة الأيام البحرين. ص ٩٢ و ٩٨. وانظر كذلك: الوثيقة (١٩٨٢) «وصف شاهد عيان يرجع لعام ١٥٩٨»، العدد الأول، يوليو ١٩٨٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص. ١٥٢-١٥٥.

وفي تقريره حول مهنة الغوص في نهاية القرن السادس عشر أشار الرحالة البرتغالي بيدرو تنحسيرا إلى مبالغة السلطة البرتغالية-الهرمزية في تقدير الضرائب على مهنة الغوص بقوله:

«إن قيمة تجارة اللؤلؤ سنوياً في اللآلئ الصغيرة والعادية تبلغ ٥٠,٠٠٠ دوكات دون أن نأخذ في الاعتبار قيمة اللآلئ المهرية وهي حوالي ١٠٠,٠٠٠ دوكات لأن التهريب يتم خوفاً من اغتصاب المندوب البرتغالي في البحرين».^(١)

علاقات البحرين مع الدولة العثمانية

تشير الوثائق العثمانية في مطلع العقد السابع من القرن السادس عشر إلى وجود خطط لدى حاكم الأحساء بإخضاع البحرين للحكم العثماني، إلا أن هذه الخطط لم توضع حيز التنفيذ، فقد بادر البرتغاليون في تلك الفترة إلى تصعيد الموقف العسكري، ومهاجمة سواحل الأحساء بالإضافة إلى الإغارة على سفن البحرين وأسر بحارتها، ونتيجة لذلك فقد انشغل العثمانيون في مواجهة أعمال القرصنة التي تسبب بها البرتغاليون في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية.

ويستشف من وثيقة تعود إلى سنة ١٥٧٧ أن العثمانيين تخلوا عن خطة الاستيلاء على البحرين واكتفوا بالسيطرة على الموانئ التي في أيديهم، حيث عين محمود كتحدا قائد الأسطول العثماني في البصرة قيوداً على الأحساء، أي قائداً على القوة البحرية فيها.^(٢)

ومما يدل على تزايد الاهتمام العثماني بالبحرين أنهم اتخذوا قراراً بفصل الأحساء عن البصرة أواخر عام ١٥٧٩ فعادت بذلك إيالة مستقلة بعد أن كانت قد ضمت لإيالة البصرة عام ١٥٧٢، وتم توسيع حدود إيالة الأحساء بعد فصلها وأدرجت البحرين لأول مرة ضمن ألويتها، إلا أن الوثائق العثمانية لا تتحدث عن كيفية إلحاق البحرين ضمن ألوية الأحساء، ولا تذكر أسلوب إدارتها، ويستدل من عدم وجود اسم من يتصرف بها أن أميرها كان من الزعماء المحليين.^(٣)

ونظراً لموقعها الاستراتيجي ونشاطها التجاري، فقد أبدى العثمانيون اهتماماً كبيراً بالبحرين، وكان محمود شاه يدرك حجم الأطماع العثمانية في بلاده فقام بالحصول على

(١) عيسى أمين (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا. مؤسسة الأيام، البحرين. ص ١٠١-١٠٣.

(٢) دفتر المهمة ٢٢، ص ٣١٧، رقم الحكم ٣٢٢.

(٣) فاضل بيات (٢٠٠٧) مرجع سابق، ص ٥١٥.

اعتراف ضمني منهم بسلطته كما فعل جده مراد شاه من قبل، وأخذ محمود شاه يستخدم الألقاب العثمانية للدلالة على اعتراف السلطنة العثمانية بحكمه، فكان مما ورد في النقش على حجر مسجد الخميس وصف محمود شاه بأنه: «رکنا الوزارة والإيالة». كما سبقت الإشارة إلى وجود مراسلات بين محمود شاه وبيبري الأحساء بخصوص أملاك له في القطيف.

وعلى الرغم من التقارب الذي أظهره العثمانيون تجاه محمود شاه إلا أن المصادر تشير إلى أنهم كانوا يبيتون النية لاحتلال البحرين وتحويلها إلى إيالة مستقلة، وقد شعر الإسبان بجدية الأطماع العثمانية في البحرين، ففي خطاب للملك الإسباني عام ١٥٨٩ حذر فيه نائبه في الهند من خطورة أن يقوم العثمانيون بهجوم للاستيلاء على البحرين.^(١)

ويبدو أن المخاوف الإسبانية كانت في محلها؛ ففي عام ١٥٩١ أرسل الديوان الهمايوني تعليمات لحاكم الأحساء العثماني أن يشن حملة للاستيلاء على البحرين، ولكن دون تقديم أي مساعدة فعلية له، مما يدل على أنها لم تكن خاضعة للحكم العثماني خلال الفترة ١٥٧٧-١٥٩١.

وفي سنة ١٥٩٥ خاطب السلطان بيبري الأحساء بالنظر في جدوى تحويل البحرين إلى إيالة مستقلة، ولكن يبدو أن هذا الإجراء لم يتحقق فيما بعد، ولم يتغير وضع البحرين الإداري، فقد بقيت في السجلات العثمانية ضمن ألوية إيالة الأحساء، مع الاعتراف بحكم محمود شاه فيها.^(٢)

تغير موقف الدولة الصفوية من الوجود البرتغالي في الخليج العربي

شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر تغيراً جذرياً في السياسة الصفوية تجاه البرتغاليين، وبدأ ذلك التحول في عهد الشاه عباس الكبير (١٥٨٧-١٦٢٩) الذي كان أكثر إدراكاً للمتغيرات التي طرأت في تلك الفترة، حيث لاحظ بأن علاقة أسلافه الطيبة مع البرتغاليين لم تحقق لبلاده أية مكاسب. وقد شجع الشاه على إدارة ظهره للبرتغاليين ظهور قوى أوروبية أخرى وعلى رأسهم الإنجليز، فأجرى الشاه عباس اتصالات مع عدد من الدول الأوروبية تهدف إلى فتح طريق لصادراته من الحرير الفارسي خارج المناطق التي كان يحكمها العثمانيون. وفي المقابل أبدى البريطانيون اهتماماً مماثلاً بالتجارة مع الفرس، ونتج عن ذلك تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠ لتمثل بداية تنظيم العلاقة

(1) Ozbaran S (1989) «Bahrain in the Sixteenth Century», *Al-Watheekah*, vol 15, (July 1989), p. 221.
(٢) دفتر المهمة رقم ٧٣، ص ٤٨١، رقم الحكم: ١٠٥٨.

التجارية ما بين الفرس والبريطانيين، حيث اندفعت الشركة فور تأسيسها لمبادلة فائض الصوف الإنجليزي بالحرير الفارسي، وبذلك تمكنت بريطانيا من إقناع البلاط الفارسي بمنحها امتيازات تجارية، وشجعت التجار البريطانيين على التبادل التجاري مع فارس. وما لبثت هذه العلاقة التجارية أن تحولت إلى تحالف سياسي وعسكري ما بين الشاه عباس والبريطانيين لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي وكسر احتكارهم لتجارته وإنهاء السيطرة على ممراته البحرية.

ونتيجة للتقارب البريطاني-الفارسي دعم الإنجليز سياسة الشاه عندما أطلق يد حاكم إقليم فارس لهوردي خان ومن بعده ابنه ووريثه في الحكم إمام قولي خان لمناوشة البرتغاليين ومحاولة ضرب الاحتكار الهرمزي-البرتغالي للحركة التجارية والملاحية في الخليج العربي.

وقد واتت قولي خان الفرصة في العام ١٦٠٢ عندما تمرد عرب البحرين على الحاكم وقتلوه واستولوا على القلعة وأجروا بعدها اتصالات مع قولي خان لمساعدتهم في درء خطر حملة برتغالية قادمة، فاستجاب لهم قولي خان وأرسل حملة من طرفه قامت بمهاجمة البحرين، وفي هذه الأثناء وقف الإنجليز موقف المؤيد للصفويين في مواجهتهم مع البرتغاليين، ثم برزت هذه السياسة جلية في التحالف البريطاني-الصفوي لطرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢^(١).

إزاء هذه التطورات الكبيرة في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر تبنى حاكم البحرين محمود شاه سياسة تقوم على المحافظة على أكبر قدر ممكن من الحياد تجاه الأطراف المتصارعة في الخليج العربي، وسار على شاكلة جده في تقديم تنازلات شكلية لكل من البرتغاليين والعثمانيين والهرمزيين، وذلك بهدف تفادي استفزاز إحدى هذه القوى لشن حملة ضد البحرين.

إلا أن الخطر الأكبر على استقلال البحرين كان من الجبهة الشرقية، وتمثل ذلك الخطر في طموحات الشاه عباس الكبير في طرد البرتغاليين من الخليج العربي وبسط سيطرته على المنطقة بدعم من الإنجليز.

(١) بدر الدين الخصوصي (١٩٨٥) مرجع سابق، ص ١٦٤.

الملح الثالث

الأوضاع الداخلية في البحرين إبان الربع الأخير من القرن السادس عشر

الأوضاع الاقتصادية

شهدت فترة الربع الأخير من القرن السادس عشر تنامي العلاقات التجارية بين البرتغاليين والعثمانيين على الرغم من توتر العلاقات السياسية بينهما، واستناداً إلى الوثائق البرتغالية فإن مما ساعد على تطور العلاقة التجارية بين القوتين هو إقدام السلطات البرتغالية على انتهاج سياسة جديدة قوامها الاستمرار في فرض الرسوم الجمركية على السلع المصدرة مع السماح للعرب بالتجارة في الخليج العربي وعدم التعرض لسفنهم، شريطة حصولهم على تراخيص تسمح لهم بالاتجار مع هرمز، وهو ما أدى إلى انتعاش تجارة البحرين بشكل ملحوظ؛ حيث أخذت تتردد عليها السفن المحملة بمختلف البضائع، كما أصبحت البحرين تؤدي وظيفة تجارية أساسية تقوم على توزيع بضائع الشرق الأقصى في موانئ شرقي شبه الجزيرة العربية والعراق والشام.

وكان من نتائج السياسة البرتغالية الجديدة أن أخذت مدن وموانئ الخليج العربي تستعيد بعض نشاطها التجاري، وفي مقدمتها البصرة التي أصبحت المصدر الرئيس لبضائع الهند المارة بالعراق، كما أخذ التجار الأوروبيون يتعاملون مع مراكز التجارة في سواحل الشام ومصر، حيث أشار الرحالة الهولندي راوولف بأن العثمانيين كانوا يصدرون عدداً كبيراً من الخيول إلى الهند عن طريق هرمز:

«حيث يتلقى ملك البرتغال كل سنة مبلغاً كبيراً من المال بصفة رسوم تبلغ أربعين دوقة لكل رأس من الخيل»^(١).

وأورد الرحالة الإنجليزي إدريد الذي زار الخليج العربي في نهاية القرن السادس عشر:

«بأن السفن المحملة باللؤلؤ كانت تشق طريقها من هرمز إلى البصرة كما تصلها البضائع الهندية المختلفة كالتوابل والبهارات والأقمشة»^(٢).

(١) ليونهارت راوولف (١٩٧٨) رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد. ص ١٧١.

(٢) صبري الحمدي (٢٠٠٢) مرجع سابق، ص.ص ٦٩-٧٠.

وانعكس النشاط التجاري بصورة إيجابية على اقتصاد البحرين التي كانت تمثل مركزاً أساسياً لحركة الاستيراد والتصدير، وتجارة الخيول، فضلاً عن سمعتها في مجال اللؤلؤ، وقد تعرض الرحالة الهولندي لنخوتن (الذي زار البحرين عام ١٥٩٦) لوصف تجارة اللؤلؤ فيها بقوله:

«يتوفر اللؤلؤ في كافة البلدان الشرقية وخاصة بين هرمز والبصرة في الخليج في كل من البحرين والقطيف وجلفار وكاماران، وهناك جماعة تابعة لملك البرتغال موجودة في البحرين بصورة مستمرة لتقوم بصيد اللؤلؤ كما توجد أماكن أخرى لهذا الغرض... وتقع جزيرة البحرين على بعد حوالي ٨٠ ميلاً من رأس مسندم وتشتهر البحرين بصيد اللؤلؤ، وفي شمالها تقع ميناء البصرة على بعد ٦٠ ميلاً حيث يلتقي نهرا الفرات ودجلة، وتوجد بقربها آثار بابل الشهيرة ويقال بأنها كانت الفردوس في زمن قديم... وبالنسبة لصيد اللؤلؤ فليس هناك مكان أفضل من البحرين كما يوجد هناك الذهب والفضة والمعادن الأخرى، وملك الجزيرة يحافظ على هذه الثروة تحت الأرض ولا يسمح بتقريب الأرض لاستخراجها»^(١).

ويتطابق هذا الوصف مع ما ذكره الرحالة البرتغالي بيدرو تنحسيرا، الذي زار المنطقة في أواخر القرن السادس عشر، ودون رحلته في كتاب نشر عام ١٦٠٤، تحدث فيه عن مهنة الغوص وازدهار الزراعة والتجارة في البحرين بقوله:

«إن تراب البحرين خصب ومنتج وخاصة لأشجار التمر والتي توجد بكثرة في هذه الجزيرة ويوجد بها قليل من القمح وكثير من الشعير، وتعتبر الوجبة الرئيسة في البحرين الأرز الذي يستورد من الهند عن طريق هرمز. وتوجد آبار في البحرين ولكن أغلبها ليس عذبا، ومع ذلك يصلح ماؤها للشرب، وأحسن هذه الآبار «حنينية» وهذا البئر عميق ويقع في وسط الجزيرة وتأتي بعده في الجودة تلك الينابيع التي تتواجد تحت سطح البحر. وفي مدينة المنامة، المدينة الرئيسة في الجزيرة، وعلى عمق باعين أو ثلاثة من سطح البحر توجد ينابيع المياه العذبة، ويقوم بعض الرجال بملء جلد الماعز منها، ويعتبر البعض منهم هذه العملية وسيلة للرزق طول النهار، وأخبرني أحد المعمرين في البحرين أن هذه الينابيع كانت على اليابسة ولكن مع مضي الوقت غمرها البحر، وأعتقد أن من هذه الينابيع أخذت الجزيرة اسمها (البحرين) وربما يكون رمزاً لمجريين من الماء يمران في الجزيرة ولكن أعتقد أن التسمية الأولى أصح. تشتهر البحرين باللؤلؤ، وسوف أعطي إيجازاً عن طريقة صيده... يبدأ الغوص في البحرين

(١) عيسى أمين (1996)، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوراتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة تشالز بوكور، مؤسسة الأيام البحرين. ص 92 و98. وانظر كذلك: الوثيقة (١٩٨٢) "وصف شاهد عيان يرجع لعام ١٥٩٨"، العدد الأول، يوليو ١٩٨٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص. ١٥٢-١٥٥.

في شهر يونيو، وأحياناً في يوليو، ويستمر حتى شهر أغسطس، ويتكون أسطول الغوص من مائتي سفينة أو ربما أقل، مائة من البحرين وخمسون من جلفار وخمسون من نخيلو، وتتجه هذه السفن إلى ساحل قطر على بعد عشرة فراسخ جنوب الجزيرة، وبعد صيد الأصداف تفتح لإزالة اللؤلؤ منها، وتمتاز لآلئ البحرين بالجودة والوزن الثقيل، ولو قارنا لؤلؤة بنفس الحجم من مكان آخر مع لؤلؤة من البحرين نجد أن وزن البحرينية أكبر. إن قيمة تجارة اللؤلؤ سنوياً في اللآلئ الصغيرة والعادية تبلغ ٥٠,٠٠٠ دوكات دون أن نأخذ في الاعتبار قيمة اللآلئ المهرية وهي حوالي ١٠٠,٠٠٠ دوكات لأن التهريب يتم خوفاً من اغتصاب المندوب البرتغالي في البحرين»^(١).

أما في المصادر المحلية فإن الشاعر الخطي يقدم صورة أدبية بديعة لنشاط الناس في أسواق البحرين، حيث يتحدث عن حركة دؤوبة لكسب الرزق، قائلاً:

يتكاد الرزق العباد وإنه فيها على باغيه غير يسيير
سيان عيشة كادح ومرفه فيها ونعمة موسرٍ وفقير^(٢)

ثم يصف المهن السائدة في المنطقة إبان تلك الفترة فيقول مكملاً بيت صاحبه الشاعر الغنوي الذي قال فيه:

اعمل لنفسك مثقالاً ومعياراً واسرر أباك بأن يلقاك عطاراً

فقال الخطي:

أو فاتخذ لك سنداناً ومطرقة واعمل متى شئت سكيناً ومسماراً
أو فاتخذ لك منشاراً وقشطرة وكن كنوح نبي الله نجاراً
أو صائغاً يسبك العقيان تبرز من إبريزه للنسا صفاً وديناراً
أو فاتخذ لك مزماراً ودبندنة وعش لك الخير طيبالاً وزماراً
أو كن فديتك صفاراً فليس على عليك بأس إذا أصبحت صفاراً

(١) عيسى أمين (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينيسيرا. مؤسسة الأيام، البحرين. ص.ص ١٠١-١٠٣.

(٢) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص ٣١٥.

إلى أن يقول:

أو فاقتلع من رشالي الطين متخذاً
أو فاقتن الأتن واحمل فوقها حطباً
وإن سمعت مقالتي فامض متكلاً
وإن ترفعت عن هذا فحي على

منه الجرار وعش في الخط جزارا
فخير شيء إذا أصبحت حمّارا
على إلهك في الأبوام بحارا
استغفار ربك تلقى الله غفارا^(١)

فيذكر في تلك الأبيات العديد من المهن الموجودة في أسواق الخليج العربي والبحرين تشمل: الصائغ، والنجار والطار والصفار والبحار، والحمّار، والسقاء، والمغني، والمؤذن، وغيرها من المهن الأخرى.

وفي وصفه لخصوبة الأرض وكثرة الخضرة في البحرين يقول الخطي:

والماء ترسله جداوله كما
والنخل مثل عرائس ذهبية الـ
وزهت عناقد كرمه لما غدت
تبدو فتسترها كما وارىت في

جارت بين الخيل في الحلبات
أنداء فيروزية الزفـرات
بنواظر الأوراق ملتحفـات
خضر البراقع أوجه الفتيات^(٢)



عملة من الرصاص صكت في البحرين في القرن السادس عشر

ومن الحوادث المتعلقة بالعملة، كتب الخطي سنة ١٥٩٥، عن مشكلة وقعت في قيمة العملة ووزنها بالبحرين، فقام أحد وجهاء البحرين وهو خميس بن سالم التميمي بإبطال ما نقص، وأمر بضرب سكة جديدة، ثم استعمل الوزن في الحضرة الديوانية في كل درهم، فقال الخطي يمدح خميس بن سالم على صنعه:

(١) المصدر نفسه، ص. ٣٧٣-٣٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٣٠٩-٣١١.

ألست الذي قومت سكة دارنا
 وهدانت فما المحروم منها بخائب
 فلو ألقيت يوماً على الطرق لم تكن
 فسيرتها في شرقها والمغارب^(١)

وتقدم حجج البيع والأوقاف المحفوظة في قسم الوثائق التاريخية بمتحف البحرين الوطني معلومات مهمة عن الأوضاع الاقتصادية في البحرين، ومن ذلك:

١- وفرة النخيل وازدهار زراعتها في البحرين، والإيرادات الكبيرة المتأتية منها، حيث تحدد الأراضي المباعة بما جاورها من أراض زراعية أخرى شاسعة، ويتوفر لدينا مجموعة من ست حجج بيع تعود لجهة واحدة خلال الفترة ١٥٨٠-١٦٠٠، ويمكن من خلالها تتبع النشاط الزراعي والتجاري المتمثل في بيع الأراضي الزراعية بالبحرين.

٢- مشاركة النساء في تملك الأراضي الزراعية، وفي البيع والشراء، حيث تظهر أسماء مجموعة منهن في حجج البيع، ومنها ما ورود اسم «جناب المخدرة العفيفة الطاهرة بيبى نجبية بنت الرئيس أمين بن محمد الهرجي» في حجة بيع يعود تاريخها لعام ١٥٨٦.^(٢)

وكذلك اسم: «المصونة أم علي بنت المرحوم الحاج عبد الله بن محمد بن سلطان» في حجة بيع أخرى عام ١٥٩٨.^(٣) و: «المخدرة الطاهرة سعيدة بنت المرحوم المبرور عبد الله بن محمد»، في حجة بيع يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٩.^(٤)

٣- وجود نظام إدارة وقضاء محلي، ففي الفترة ١٥٨٠-١٥٩٧، يظهر في حجج البيع والوقف أسماء قضاة محليين في البحرين، مما يدل على أنه كان يوجد بالبحرين نظام وقف محلي مستقل، ونظام تسجيل للأراضي، ونظام للتوثيق، فضلاً عن مؤسسة القضاء المستقلة.

٤- تمتع البحرين بنظام وقف مستقل عن أي جهة خارجية، حيث تشير المصادر المحلية إلى قيام العديد من أصحاب الأموال بوقف بعض أملاكهم لأغراض متعددة، منها: عمارة المساجد وتوفير الماء للمصلين بها، ومنها صيانة قبور بعض المتوفين، ومنها تخصيص مبالغ لقراءة القرآن يومياً على أرواح المتوفين، كما ورد في نص وقف كرامة المنحوت على حجر

(١) المصدر نفسه، صص ٤٤٧-٤٤٨.

(٢) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٨٦، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

(٣) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٩٨، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

(٤) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٩٩، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

بها ، ويعود تاريخه إلى عام ١٥٥٨ ، ونصه :

«في تاريخ اليوم ، العشرين من شهر رجب لسنة خمس وستين وتسعمائة ، أوقف العبد المذنب ، أقل عباد الله وأحوجهم إلى رحمة ربه ورضوانه ، محمد بن ناصر بن عبد الله بن ربيع ، تمام ثلث الملك المعروف بناقص برقيب من بريعي في ديوان بوري ، على قراءة والده ناصر بن عبد الله ، كل يوم جزئين من كتاب الله العزيز ، وعلى قراءة أمه مريم بنت إبراهيم ، كل يوم جزئين من كتاب الله ، كائنة تلك القراءة في مسجد الرسان ، وأوقف تمام ثلث الملك المذكور في وجه استقاء الماء البرودة مسجد الرسان ، ولن يستقي الماء البرودة ، الواقعة في فلاة بريعي ولعمارة المسجد الواقع في فلاة بريعي يكون الثلث المذكور بين المسجد وبين البرودة ، وبين أيد أثلثاً ، وقفاً شرعياً صحيحاً»^(١).

وورد نص وقف لمحمود شاه على حجر بمسجد الخميس عام ١٥٨٦ ، وتضمن معلومات مهمة تمت الإشارة إليها في الصفحات الماضية ، كما ظهرت نصوص أخرى في حجج البيع بوقف أسهم من الأراضي المباعة ، ومنها على سبيل المثال :

«والنصف من الصرمة المزبورة وقف فراغ المرحومة سيده افتخار بنت يوسف بن ناصر عفي عنهما»^(٢).

وفي حجة يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٨ ، ورد نص الوقف كما يأتي :

«وقد أوقف جملة تمر يورد العشر من السعر الجديد يوم التاريخ المذكور لعمارة المسجد الشريف مسجد عبد الله بن محمد بن سلطان الواقع بالحمامرية ولتجديد قبره الكائن فيه ، وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها».

وذكر في حجة بيع أخرى يعود تاريخها لعام ١٥٩٩ ، ما يشير إلى أن أموال الوقف معفاة من الخراج ، ونصه :

«وقد تقرر أن في عامة النخل سهمان وقف ، ورزق الحلة عشرون فن ، عشر ما بصحبة الجديد البحراني ليس عليهما خراج»^(٣).

٥- وجود نظام خراج مستقل في البحرين ، حيث تشير حجج البيع إلى كيفية دفع أموال الخراج في حالة اقتسام الأملاك بين الأطراف ، كما ورد في نص يعود تاريخه إلى عام ١٥٩١ ، وورد فيه :

(١) نقش على حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني.

(٢) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٨٦ ، يقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

(٣) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٩٩ ، يقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

«والتوزيع الديواني ما توجه منه عليهما أثلاث، على الرئيس منه الثلث، والثلثان على رمضان، عن النخل المذكور، وما للنخل بينهما أثلاثاً كذلك، على النمط المدون»^(١)

٦- وجود نظام ري دقيق يفسر الازدهار الزراعي في البحرين إبان القرن السادس عشر، فقد تميزت البحرين في تلك الفترة بكثرة منتجاتها الزراعية، من النخيل والفواكه، ولا يمكن تصور قيام نشاط زراعي على هذه الشاكلة دون أن يتزامن مع نظام ري تشرف عليه سلطة إدارية في البحرين، ومن خلال دراسة حجج بيع الأراضي في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، يتبين وجود مثل هذا النظام بالفعل في البحرين، حيث تشير حجة البيع التي يعود تاريخها لعام ١٥٨٦، إلى وجود نظام ري دقيق، تقسم فيه الأراضي، وتحدد الأيام والساعات التي يتم فيها توصيل المياه إلى الأراضي المروية، ونصه:

«والماء المعد لسقي الشطيب المسطور التي تسقى منها يوماً من طلوع الشمس إلى الظهر يوم الأحد، وكذلك يوم الثلاثاء من طلوع الشمس إلى الظهر، ويوم الجمعة من الظهر إلى أن يصير الضياء في الشرق ثمانية وعشرون قدماً، وباقي الماء وهو من بلوغ الضياء في الشرق القدر المزبور سابقاً إلى الغروب يوم الجمعة الذي كان في القديم للشطيب تسقى به الصرمة المزبورة، وللصرمة المزبورة ماؤها القديم أيضاً، وهو من الظهر إلى الغروب يوم الأحد أيضاً، وأنيتها في صرمة الموالي بها من كل أسبوع وعلى الشطيب من التوزيع الديواني اثنتا عشر قطعة وعلى الصرمة قطعتان، هكذا قانونه والمقرر من السابق، ولذلك أصبح لازماً»^(٢)

٧- انتشار الشريفة المحمدية بصفتها العملة السائدة في التعامل الرسمي بالبحرين وكانت الشريفة المحمدية عملة سائدة في الخليج العربي آنذاك، وتبين المصادر بأنها كانت تصك من قبل السلطة العثمانية في البصرة، ويدل ذلك على أن البحرين قد استقلت في نظامها النقدي عن سلطة البرتغاليين والهرمزيين على حد سواء، فكان لها معايير مستقلة، وكانت تعتمد على النقد العثماني، في حين تتحدث المصادر كذلك عن سك بعض العملة في البحرين إبان القرن السادس عشر، ويمكن ملاحظة استخدام العملة المحمدية في حجة بيع عام ١٥٨٠، ونصها:

«بئمن صحيح شرعي مسلم من مال المشتري المزبور، مقبوض بيد البائع المذكور، قدره ثلاث مائة محمدية فضلية شاجية، من أم مثقال ودانق شيرازيين من ضرب البصرة».

وكذلك في حجة عام ١٥٨٦، ونصها:

(١) المصدر السابق.

(٢) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٨٦، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

«ومال الصرمة المذكورة بتمامه وكماله مقبوض بيد محمد البائع بتمامه كذلك، قدره مائة وخمس وثمانون محمدية بصرية وزن الواحدة من مثقال ودانق بالمثاقيل الشيرازية، بصفة ضبط الأصل، اثنان وتسعون محمدية ونصف محمدية، من المحمديات الموصوفة».

ووصفت عملية بيع في حجة عام ١٥٩٨، بأنها عملية:

«بيع صحيح شرعي مسلم من مال المشتري لها مقبوض بيد المبيعة المسطورة بتمامه وكماله، قدره سبع وتسعون محمدية ونصف محمدية، من ضرب البصرة من أم مثقال ودانق شيرازيين، بصفته حفظاً لأصله، ثمان وأربعون محمدية وثلاثة أرباع محمدية».

وكذلك في حجة عام ١٥٩٩، ما نصه:

«بثمن شرعي قدره مائة وثلاثون محمدية بصرية سامية من أم مثقال ودانق شيرازيين، بصفته تأكيداً له خمس وستون محمدية».^(١)

الأوضاع الاجتماعية والثقافية

تسبب انتشار أعمال القرصنة في الخليج العربي، وتمرد قبائل العربان في الأحساء ضد الدولة العثمانية إلى انتشار التعدي وتدهور الأوضاع الأمنية، وقد استمرت البحرين في الربع الأخير من القرن السادس عشر تمثل ملجأً للشعراء والأدباء وكبار التجار من أهل القطيف وغيرها من مدن الأحساء؛ ففي عام ١٥٧٧ تحدثت المصادر العثمانية عن وقوع هجرات واسعة من الأحساء باتجاه البحرين، إذ تكشف وثيقة مؤرخة في ٢٣ رجب ٩٨٥هـ/ ٦ أكتوبر ١٥٧٧، وموجهة إلى بيلربي البصرة؛ أن غارات القراصنة قد تسببت بأضرار كبيرة في الأسواق المحلية بالقطيف الأمر الذي أدى بالتجار أن ينتقلوا إلى البحرين.^(٢)

وقد استمرت الهجرات من إقليم الأحساء إلى البحرين، بسبب انعدام الأمن وكثرة تعدي العربان من جهة، والقراصنة في البحر من جهة أخرى، ففي ١٥٩٠ هاجرت مجموعة من أعيان القطيف بزعامة عبد الله بن ناصر بن حسين بن المقلد من بني وائل، واستقر بهم المقام في البحرين، حيث توفي عبد الله بن ناصر بها عام ١٥٩٢، وكتب الخطي قصيدة يرثيه بها.^(٣)

(١) انظر حجج البيع المحفوظة في قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني خلال الفترة ١٥٨٠-١٥٩٩.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، دفتر المهمة: ٣١، ص ٣٣٨.

(٣) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص ٢٠٨-٢١١.

وقد نتج عن هذه الهجرات المتتالية إلى البحرين، انتعاش الحياة الاقتصادية والثقافية، فقد وفد إليها مجموعة من الشعراء والأدباء والعلماء الذين زخرت بهم الحياة الأدبية في البحرين إبان السنوات الأخيرة من القرن السادس وعشر، وتشير المصادر إلى أن محمود شاه كان يتكلم العربية، وكان له اهتمام بالشعر، فكان يستدعي الشعراء ويطلب منهم نظم الشعر، وقد سبق ذكر القصائد التي مدحه بها الخطي في ديوانه.

وذكرت كتب التراجم جملة من وجهاء البحرين وعلماءها في نهاية القرن السادس عشر ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

الشيخ خميس بن سالم بن أبي سرور التميمي، وقد كان خميس من أبرز تجار البحرين ووجهائها، ويذكر الخطي دوره في تلافي أزمة العملة في البحرين، كما تحدث البرتغالي فونسيكا في تقرير له عام ١٦١٠ عن منزل خميس بن سالم الذي كان يمتاز بقوة بنائه واتساعه لإيواء عدد كبير من الناس والمدفعية.^(١)

وكذلك الشيخ إبراهيم بن سالم التميمي، شقيق الشيخ خميس، وقد غادر هذان الوجهان البحرين إلى تاروت عام ١٥٩٧، بسبب وشاية بهما أفسدت العلاقة بينهما وبين أولي الأمر، فأنشد الخطي قصيدة يمدحهما ويعرض بمن سعى فيهما.^(٢)

وورد كذلك اسم الوجيه عبد الله بن ناصر بن حسين بن مقلد من بني وائل، الذي وصف بأنه شيخ القطيف وزعيمها، وقد ترك موطنه في القطيف ونزح إلى البحرين عام ١٥٩٠، وتوفي فيها عام ١٥٩٢، ورثاه الخطي في إحدى قصائده.^(٣)

كما تحدثت المصادر عن وجهاء آخرين في البحرين، ومنهم ناصر بن سليمان القاروني، وجملة من وجهاء أسرة القاروني الذين ربطتهم علاقة ود مع الشاعر الخطي. وكذلك جعفر بن عبد الجبار بن الحسين، والقاضي عبد الرؤوف بن الحسين الموسوي المتوفى عام ١٥٩٧، وابنه حسين بن عبد الرؤوف الذي ارتبط بعلاقة صداقة مع الشاعر الخطي.^(٤)

(١) نقلاً عن مونيك كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص. ١١١-١١٢.

(٢) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص. ١٣٥-١٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٢٠٨-٢١١.

(٤) المصدر نفسه، ص. ٤٩١.

المبحث الرابع

نهاية حكم ركن الدين محمود شاه

تغيرت الأوضاع السياسية في الخليج العربي في مطلع القرن السابع عشر، ففي عام ١٦٠٠ انتهى حكم ركن الدين محمود شاه بطريقة لا تزال مجهولة بالنسبة إلينا، ولم يكن لدى محمود شاه سوى ابن واحد ولد في العام الذي انتهى حكمه فيه، وبالتالي فقد انقطع حكم آل مراد شاه بعد ما يربو على سبعين سنة من حكم البحرين، وأعقب ذلك فراغ سياسي استغله الهرمزيون ليسط هيمنتهم المباشرة على البحرين، وذلك في عهد حاكم هرمز فيروز شاه (١٦٠١-١٦١٠)، الذي تولى الحكم عقب وفاة والده فرخ شاه الثاني (١٥٩٨-١٦٠١).

وتشير المصادر إلى أن فيروز شاه استوزر شرف الدين لطف الله فالي، فقام هذا الوزير بتعيين أخيه ركن الدين مسعود فالي حاكماً على البحرين، وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور شعر بأن القوات البرتغالية والتجار البرتغاليون هناك يتدخلون في كل الأمور ففكر في التخلص منهم والاستقلال بحكم البحرين، فأوفد موفداً اسمه معين الدين فالي إلى حاكم منطقة فارس لهوردي خان (١٥٩٥-١٦١٤) يطلب منه المساعدة في التخلص من النفوذ البرتغالي-الهرمزي في البحرين.

وقد وافق هذا الحاكم بعد مشاورة الشاه الذي كان يرغب في ضم البحرين إلى السلطة الصفوية، ثم تقدمت الجيوش الصفوية فباغتت البحرين وألحقت هزيمة بالقوات البرتغالية ودخلها لهوردي خان فاستقبله ركن الدين مسعود الذي كان يطمع في تولي منصب الملك على الجزيرة إلا أن لهوردي قبض عليه وقطع عنقه وسيطر بصورة مؤقتة على البحرين، وعندما حاول البرتغاليون تشكيل أسطول لاستعادة البحرين قام لهوردي بالإغارة على قاعدتهم العسكرية في جمبرون مما جعل البرتغاليين يفرون إلى هرمز ويتركون البحرين. وقد حاول الملك الإسباني فيليب استعادة البحرين لكنه لم يتمكن من ذلك أبداً.^(١)

وقد وردت الإشارة إلى وفد البحرين الذي ذهب إلى شيراز في ديوان الخطي، وكان بمعيته؛ كمال الدين بن يحيى الكردي الفيروزآبادي، وحسين بن عبد الرؤوف الجد حفصي، وقد كتب الخطي عدداً من القصائد أثناء إقامته في شيراز، وتشير مصادر أخرى

(١) فالج حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٤٨٩-٤٩٠.

إلى أن هذا الوفد كان الوفد الثاني الذي يزور شيراز. وكان قد وقع فراغ سياسي في البحرين عقب مغادرة لهوردي خان البحرين عام ١٦٠١، فانعدم الأمن واضطربت الأوضاع، فذهب وفد آخر من أهل البحرين برئاسة الفيروزآبادي إلى شيراز لمطالبة حاكمها بالتدخل مرة أخرى.^(١)

وتقدم المصادر البريطانية من جانبها رواية أخرى، تحدثت عن وقوع اتصالات بين حاكم البحرين ركن الدين مسعود مع لهوردي خان حاكم فارس من أجل طرد البرتغاليين، فبعث لهوردي خان بقواته إلى البحرين بقيادة معين الدين فالي عام ١٦٠١، مما دفع بحاكم قلعة هرمز البرتغالي إلى إرسال حملتين عسكريتين لحصار الجزيرة، غير أن حاكم فارس أرسل بعض قواته إلى ميناء جمبرون لإجبار البرتغاليين على رفع حصارهم عن البحرين لكي يتسنى له التصدي لتلك القوات، وقد أفاد لهوردي من فرصة انسحاب البرتغاليين من البحرين واشتباكهم مع القوات الفارسية أمام ميناء جمبرون فقام بإكمال سيطرته على البحرين وتخليصها من أيدي البرتغاليين عام ١٦٠٢.^(٢)

وحسب ما أورده تنحسيرا -الذي زار البحرين في أواخر القرن السادس عشر- فإنه قد تم تعيين وزير فارسي لإدارة البحرين فور سقوطها بيد قوات لهوردي خان مع تزويده بفرقة عسكرية يبلغ تعدادها ٨٠٠ رجل.^(٣)

ويقدم مؤرخ الدولة الصفوية نصر الله فلسفي رواية أكثر تفصيلاً بالاعتماد على المصادر الفارسية، حيث ذكر ظروف التدخل الصفوي في البحرين فيما يأتي:

«كانت جزر البحرين تابعة لحكومة هرمز وفي دائرة نفوذ الحكومة البرتغالية، وفي عام ١٦٠١ عندما توفي فرخ شاه أمير هرمز وتولى ابنه فيروز شاه الإمارة، كان حاكم البحرين هو ركن الدين مسعود الذي كان أخاً للرئيس شرف الدين لطف الله وزير هرمز، فأعلن الاستقلال وشق عصا الطاعة عن أمير هرمز، ولكن خوفاً من قيام السفن البرتغالية بمساعدة فيروز شاه، فإنه طلب مساعدة أحد كبار رجال فارس واسمه معين الدين فالي وكان على صلة قرابة به، فقام معين الدين بإخطار إمام قلي بيك بن لهوردي خان أمير أمراء فارس الذي كان يحكم ذلك الإقليم، وكان إمام قلي يطمع في السيطرة على البحرين فانتهاز الفرصة وأرسل معين الدين فالي مع بعض الجند لمساعدة ركن الدين مسعود في الظاهر، ولكن في الحقيقة للاستيلاء على البحرين.

(١) جعفر الخطي (٢٠٠٢) مصدر سابق، ص. ١٢-١٣ و ٤٩١.

(٢) لوريمر، ج. ج (١٩٦٧) دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة الديوان الأميري بقطر، الدوحة. ١٢٦٧/٣.

(٣) عيسى أمين (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تنحسيرا. مؤسسة الأيام، البحرين. ص ١٠٢.

حينما وصل معين الدين بجيشه إلى البحرين وبقي بها بعض الوقت ذهب فجر ليلة من الليالي مع ابن عمه الرئيس منصور إلى منزل ركن الدين مسعود وقتله في منزله، وحين علم جند ركن الدين هبوا لمحاربة معين الدين انتقاماً لأبيهم وتمكنوا من تضييق الخناق عليه، إلا أن حملة فارسية، كانت بالجوار بقيادة يوسف شاه، ساعدت معين الدين الذي انتصر على جيش البحرين.

وعندما ذاع خبر استيلاء الفرس على البحرين أرسل ملك هرمز فيروز شاه والحاكم البرتغالي جيشاً وبعض السفن، واندلعت الحرب بين الطرفين لبعض الوقت، وقتل معين الدين ويوسف شاه في هذه المعارك إلا أن النصر كان للفرس واضطرت السفن البرتغالية والهرمزية للعودة أدراجها، وذلك في شهر رمضان ١٠١٠هـ/فبراير ١٦٠٢م.^(١)

وبعد مهاجمة الفرس للبحرين عام ١٦٠٢ أرسل الحاكم البرتغالي لجزيرة هرمز تقريراً في هذا الصدد إلى ملك إسبانيا فيليب الثاني واشتكى من السلوك العدائي للصفويين، فأرسل فيليب سفارة برئاسة أنطونيو دي جوفيا سنة ١٦٠٥ إلى الشاه عباس الأول ومعه رسالة يشكو بها من حملة خان فارس على البحرين وممتلكات البرتغال على ساحل الخليج العربي.^(٢)

وعندما قابل السفير الإسباني الشاه ونقل له شكوى الملك فيليب الثاني من: «الاستيلاء على البحرين مركز صيد اللؤلؤ وقلعة جمبرون ومينائها»، أجابه الشاه:

«إننا أخذنا جزيرة البحرين من أمير هرمز الذي كان منذ القدم تحت حمايتنا ويدفع الخراج لنا، ولم يكن هذا الأمر يرتبط بالبرتغاليين رعايا ملك إسبانيا، ولهذا فلا موجب لشكوى ملك إسبانيا أو عتابه، وعلى عكس ما يتصوره السفير فليس للحكومة الإسبانية أية حقوق على جزيرة البحرين».^(٣)

ومن خلال قراءتها للمصادر الإسبانية تؤكد مونيكا كيرفران بأن الرسائل المتبادلة ما بين المسؤولين البرتغاليين في هرمز والبلاط الإسباني تشير إلى بذل البرتغاليين محاولات عديدة لاستعادة الجزيرة دون اللجوء إلى مواجهة الشاه، فقد كان البرتغاليون يخشون من عدم القدرة على التدخل في البحرين بحرية في حالة قيام العثمانيين بالسيطرة عليها لكون أهالي الجزيرة يعتقدون المذهب السني، فإن الجزيرة ستكون عرضة لقبول سيطرة الأتراك الذين كانوا يشاركونهم المعتقد.^(٤)

(١) نصر الله فلسفي (١٩٨٩) إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي ١٥٠٠-١٧٣٦، تعريب محمد فتحي يوسف الريس، دار الثقافة، القاهرة، ص ٣٨-٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٤) مونيكا كيرفران (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٥٢.

روايات غير دقيقة حول خضوع البحرين للحكم الصفوي:

ظهرت في الربع الأول من القرن العشرين مجموعة من المؤلفات التي دونت تاريخ البحرين عبر مختلف العصور، ومن أبرزها:

١. محمد بن خليفة النبهاني؛ التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، الذي يتناول تاريخ البحرين حتى عام ١٩٢٢.^(١)

٢. ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري؛ قلائد النحرين في تاريخ البحرين، الذي يتوقف عند أحداث سنة ١٩٢٣.^(٢)

٣. محمد علي التاجر؛ عقد اللال في تاريخ أوال، الذي يتوقف عند أحداث سنة ١٩٢٣ مع بعض التعليقات على أحداث تصل إلى عام ١٩٣٢.^(٣)

وقد تعرضت هذه المصنفات للحديث عن خضوع البحرين للحكم الصفوي، وذكرت روايات متشابهة فيما بينها لكنها مغايرة للروايات التي سبق ذكرها حول الأحداث التي أعقبت نهاية حكم محمود شاه عام ١٦٠٠؛ فقد ذكر النبهاني نقلاً عن "التحفة الحليمية" لصاحبها عبد الحليم الفارسي، بأن العثمانيين هم الذين قاموا بطرد البرتغاليين من الخليج العربي وبأن الشاه عباس قام بالاستيلاء على البحرين من يد العثمانيين عام ١٦٢٢/١٠٣١م، ثم في عام سنة ١٦٢٩/١٠٣٩م، حصل اختلاف شديد بين أمراء البحرين، فرفعوا شكواهم إلى الشاه عباس الأول، وطلبوا منه الحماية، فقام الشاه بإرسال جيش بقيادة إمام قولي خان الذي احتل البحرين سنة ١٦٢٩/١٠٣٩م، "وانضمت البحرين إلى الممالك الصفوية".^(٤)

أما ناصر الخيري فقد ذكر بأن بعض أهل البحرين استغاثوا بالشاه عباس الكبير، لتخليصهم من الاحتلال البرتغالي عام ١٦٢٢/١٠٣١م، وذكر مقتطفات من خطاب لشخص اسمه عبيد آل مذكور أرسله إلى الشاه عباس الأول، نقلاً عن جريدة مظفري الفارسية الصادرة في بوشهر سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م، وعندما ورد الكتاب إلى الشاه عباس الكبير استدعى عبيد آل مذكور للقدوم إلى أصفهان، واستفسر منه عن الأحوال في

(١) محمد بن خليفة النبهاني (٢٠٠٤) التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، بالاشتراك مع المكتبة الوطنية بالبحرين.

(٢) ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري (٢٠٠٣) قلائد النحرين في تاريخ البحرين، تقديم ودراسة عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين.

(٣) محمد علي التاجر (١٩٩٤) عقد اللال في تاريخ أوال، إعداد وتقديم إبراهيم بشمي، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين.

(٤) محمد بن خليفة النبهاني (٢٠٠٤) التحفة النبهانية، مرجع سابق، ص.ص ٧٣-٧٤.

البحرين، ولما علم بأن إيراداتها كبيرة من الزراعة واللؤلؤ والمعادن، قام بإرسال حملة بقيادة إمام قلي خان، فطردوا البرتغاليين من البحرين عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، ثم استدرك الخيري بأنه لا بد أن يكون طرد البرتغاليين من البحرين كان في عهد الشاه صفي وليس في عهد عباس الأول الذي توفي عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م.^(١)

ونحنى محمد التاجر منحى سابقه بقوله:

«ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرموز، كما قدمنا، أرسل عساكره في المراكب سنة ١٠٣٩هـ، سنة ١٦٢٢، تحت قيادة إمام قليخان إلى جزيرة البحرين، فقاتلهم فيها، فقهرهم واسترجع بلاد البحرين منهم، واستلم إدارتها، وسقط عنها حكم البرتغال».^(٢)

وتتضمن هذه الروايات جملة من الأخطاء التاريخية من أبرزها: الادعاء بأن البحرين قد خضعت للحكم العثماني وبأن الفرس قد أخذوا البحرين من السلطة العثمانية في الأحساء، وهذه شبهة تدحضها الوثائق العثمانية، التي لم تذكر خضوع البحرين للحكم العثماني، بل تضمنت دفاتر المهمة مجموعة من الخطط التي أعدها العثمانيون للسيطرة على البحرين دون طائل.

كما يمكن ملاحظة عدم توخي هذه المصنفات الدقة في ذكر تاريخ مهاجمة الفرس للبحرين، ففي حين تجمع المصادر الفارسية والإسبانية والبريطانية على أن التدخل الصفوي في البحرين وقع عام ١٦٠٢، تتراوح تقديرات الخيري والنيهاني والتاجر في الفترة ما بين عام ١٦٢٢ و١٦٢٩، ويمكن أن يكون بعض أهل البحرين قد قاموا بإرسال وفد آخر إلى البحرين في تلك الفترة لمطالبة السلطة الفارسية بإحلال الأمن والنظام في البحرين بسبب الفراغ السياسي وعجز سلطة شيراز أن تسيطر على الأمور في البحرين كما ذكر في بعض المصادر الفارسية، ولكن يجب عدم الخلط بين مهاجمة الصفويين للبحرين عام ١٦٠٢، والوفود التي قدمت إلى البلاط الصفوي للمطالبة بالتدخل لتحسين الأوضاع في البحرين بعد ذلك، مما يطرح تساؤلات عدة حول مصداقية ما تورده بعض المصنفات من خضوع البحرين للحكم الصفوي المباشر آنذاك.

(١) الخيري (٢٠٠٣) مرجع سابق، ص ١٩٧-٢٠١، والصحيح هو أن الشاه عباس الكبير قد توفي سنة ١٦٢٩، وليس سنة ١٦٢٥ كما ذكر المصنف.

(٢) التاجر (١٩٩٤) مرجع سابق، ص ٩٦. والصحيح أن عام ١٠٣٩ هـ يوافق عام ١٦٢٩م، وليس ١٦٢٢ كما ذكر التاجر.

الفصل السادس



شهادات معاصرة ووثائق حول البحرين في القرن السادس عشر

الفصل السادس

شهادات معاصرة ووثائق حول البحرين في القرن السادس عشر

ينقسم هذا الفصل إلى قسمين رئيسيين: يحتوي القسم الأول على مجموعة من شهادات الرحالة والجغرافيين والمسؤولين البرتغاليين والعثمانيين، بالإضافة إلى بعض المصادر المحلية وعلى رأسها الكتابة المنقوشة على الحجارة في قلعة البحرين وفي مسجد الخميس وقرية كرامة.

أما القسم الثاني فيتضمن مجموعة من المراسلات والتقارير البرتغالية والعثمانية، المترجمة إلى اللغة العربية، والتي تم نشرها سابقاً، بالإضافة إلى بعض الوثائق الهرمزية التي دونت باللغة العربية، وكذلك مجموعة من حجج البيع والوقف المحلية والتي ينشر بعضها لأول مرة.

وعلى الرغم من وجود العديد من الأخطاء في بعض المعلومات الواردة كالأسماء والألقاب والتواريخ في جملة من الوثائق المرفقة إلا أن الباحث أثر إيرادها دون أي تعليق أو تصويب، باعتبارها مادة خامة يمكن لأي باحث أن يستفيد منها ويبيدي ملاحظاته الخاصة عليها.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الوثائق المنشورة تحتوي على أخطاء لغوية وأخطاء أخرى في الترجمة، فقد وردت ترجمة بعض النصوص بالمعنى دون الالتزام بالترجمة الحرفية للنص، ولكن تم تضمينها في هذا البحث نظراً لأهميتها، وما يمكن أن تمثله من إسهام في تدوين الأحداث التي وقعت في البحرين إبان القرن السادس عشر.

كما تضمن الفصل مجموعة وثائق محلية تم الحصول عليها من قسم الوثائق والمخطوطات بمتحف البحرين الوطني، كحجج البيع والوقف التي ينشر بعضها لأول مرة، وتتضمن هذه الوثائق معلومات ذات قيمة تاريخية عالية من حيث دقة معلوماتها ومصداقيتها. ويأمل الباحث من خلال نشرها أن يساهم في تشجيع البحث العلمي في المصادر البحرينية المحلية والتي يمكن أن تشكل حجر الأساس في كتابة تاريخية جديدة تكشف الغموض عن مراحل أخرى من تاريخ البحرين الحديث.

أولاً: البحرين في القرن السادس عشر من خلال كتابات الرحالة والمعاصرين

١- وصف شهاب الدين أحمد بن ماجد للأوضاع في البحرين عام ١٤٩٨

«الجزيرة الثامنة وهي البحرين، وتسمى أوال، وفيها ثلاثمائة وستون قرية، وفيها الماء الحالي من جملة جوانبها، وأعجب ما فيها مكان يقال له القصاصير يغوص الإنسان في البحر المالح بالقرب ويملؤها من الماء الحالي وهو غرقان في الماء المالح وما حوالها معادن اللؤلؤ يأوي إليها قريب ألف مركب، وفيها جملة قبائل من العرب وجملة تجار، وفيها جملة من النخيل المثمرات اللواتي تضرب بها الأوصاف والخيل والإبل والبقر والأغنام، وفيها عيون جارية وorman وتين واطرنج وليم، وهي في غاية العمارة، وهي في تاريخ هذا الكتاب لأجود بن زامل بن حصين العامري، أعطاه لها هي والقطيف السلطان سرغل بن نور شاه أن يقوم بنصره على إخوته ويملكه جزيرة هرمز المتقدم ذكرها، وكتب بها عليه حجج واستثنى بعض بساتينها ففعل له ذلك وقام بنصره وملكه جرون، وأخذ البحرين والقطيف في عام ثمانين وثمانمائة»^(١).

٢- وصف الرحالة فارتيماء لطريقة الغوص في البحرين عام ١٥٠٣

«أما طريقة صيدهم فسأروها لكم فيما يأتي: هناك صيادون اختصاصيون في صيد اللؤلؤ يركبون قوارب صغيرة، ويقذف الواحد منهم بحجر كبير مربوط بحبل سميك من ناحية مؤخرة القارب، وبحبل آخر من ناحية مقدمة القارب، وذلك ليبقى -أي القارب- ثابتاً، ثم يقذفون بحبل آخر معلق به حجر أيضاً إلى قاع الخليج، وفي وسط القارب يقبل أحد صيادي اللؤلؤ يعلق حقيبتين حول عنقه ويربط إلى قدميه حجراً ثقيلاً، ويغوص خمسة عشرة خطوة، ويبقى تحت الماء بقدر ما يستطيع ليجمع الأصداف الحاوية على اللؤلؤ، ويضعها في الحقيبة المعلقة حول عنقه، ثم يتخلص من الحجر المربوط إلى قدميه ويصعد إلى ظاهر الماء مستخدماً الحبال التي ذكرناها آنفاً، وفي بعض الأحيان تتجمع سفن كثيرة تبلغ الثلاثمائة، تابعة لبلدان ومناطق مختلفة في هذه الجزيرة التي يحكمها سلطان مسلم»^(٢).

(١) إبراهيم خوري، تحقيق وتحليل (١٩٨٩) شهاب الدين أحمد بن ماجد؛ الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول، مركز الدراسات والوثائق، راس الخيمة، ص ٦٩.
(٢) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ترجمة وتعليق (١٩٩٤) رحلات فارتيماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٩٥.

٣- تعليق الرحالة البرتغالي تومي بيريز عن اللؤلؤ في البحرين عام ١٥١٢

«إن الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها ويشكل جزءاً مهماً من تجارة هرمز»^(١).

٤- خطاب من أفونسو دلبوكيرك إلى الملك مانويل حول البحرين في ٢٠ أكتوبر ١٥١٤

«إن البحرين أهم ما يمكن أن يهتم به الإنسان، ذلك أن عدداً كبيراً من المراكب تنطلق منها في اتجاه الهند محملة بعدد كبير من الخيول وكذا بكميات مهمة من اللؤلؤ، إن الاستيلاء عليها والتحكم فيها أمر هين إذا ما ساعدنا الإله في ذلك وتوفر لنا الوقت، لقد تمكنا من السيطرة على كل المناطق التي تتحكم بها مملكة هرمز عدا البحرين التي جاء إليها العرب بعد موت خوجه عطار وسيف الدين واستولوا عليها وطردها منها جنود الملك»^(٢).

٥- تقرير لأفونسو دلبوكيرك حول ثروات البحرين عام ١٥١٥

«وفي الخليج توجد أيضاً جزيرة يقال لها البحرين كذلك مشهورة بإنتاج الخيول بكثرة، كما تشتهر بمحصول الشعير وبتنوع فواكهها، ويحيط بها من كل جانب مصائد اللؤلؤ الذي يتم إرساله إلى ممالك البرتغال، لأنه أجود من اللؤلؤ الموجود في أي مكان آخر في هذه الأنحاء وهو أكثرها نقاء»^(٣).

٦- وصف أهمية لؤلؤ البحرين للرحالة البرتغالي دوراتي باربوسا عام ١٥١٨

«يعتمد أهل البحرين على صيد اللؤلؤ، ويحصل الملك فيها على القسط الخاص به من عائدات هذه التجارة، يأتي تجار هرمز إلى البحرين لشراء حبات اللؤلؤ ليقوموا بإعادة بيعه في الهند، ويجنوا من ورائه أرباحاً طائلة، ويذهبون كذلك إلى مملكة نارسنجا عبر الجزيرة العربية وفارس لشراء اللؤلؤ أيضاً، ويوجد اللؤلؤ وبذوره في جميع أنحاء بحر فارس، غير أن البحرين هي المكان الذي يتسم بكثرة وجوده»^(٤).

(1) Hakluyt Society, (1944) *The Suma Oriental of Tome Pires, An Account of The East, From the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515*, 2 Vols, London.

(2) *Cartas de Afonso de Albuquerque*, Tome 1/373-374.

(3) ترجمة عبد الرحمن الشيخ (٢٠٠٠) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المجمع الثقافي، ٤ أجزاء، أبو ظبي. ٦٥٣/٢.

(4) عيسى أمين، ترجمة (١٩٩٦) تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي، مذكرات دوراتي باربوسا وجون هيوفان لينخوتن ومقالة تشالز بوكز، مؤسسة الأيام، البحرين. ص ٥٨. وانظر النص الإنجليزي في:

Dames M. L. (1918) *The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.* Translated from the Portuguese Text by Mansul Longworth Dames, Vol. 1, Hakluyt Society, London.

٧- وصف المؤرخ محمد بن إياس (ت ١٥٢٣) للأحداث التي وقعت بالبحرين عام ١٥٢١

«وأشيع قتل الأمير مقرن أمير عرب بني جبر، متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى، وكان أميراً جليل القدر معظماً ميجلاً في سعة من المال، مالكي المذهب، سيد عربان المشرق على الإطلاق، وكان قد أتى إلى مكة وحج في العام الماضي، وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة من المسك والعنبر والعود القماري والحريير الملون، وغير ذلك من الأشياء التحفة. قيل إنه لما دخل مكة والمدينة تصدق على أهلها بنحو خمسين ألف دينار، فلما حج ورجع إلى بلاده لاقته الفرنج في الطريق، وتحاربت معه فانكسر الأمير مقرن، وقبضوا عليه باليد وأسروه، فسألهم أن يشتري نفسه منهم بألف ألف دينار، فأبوا الفرنج ذلك، وقتلوه بين أيديهم ولم يغن عنه ماله شيئاً، وملكوا قلعته التي هناك واستولوا، على أموال الأمير مقرن وبلاده، وكان ذلك من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها، وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ البحر الأحمر وسواحل المحيط الهندي، والأمر لله تعالى»^(١).

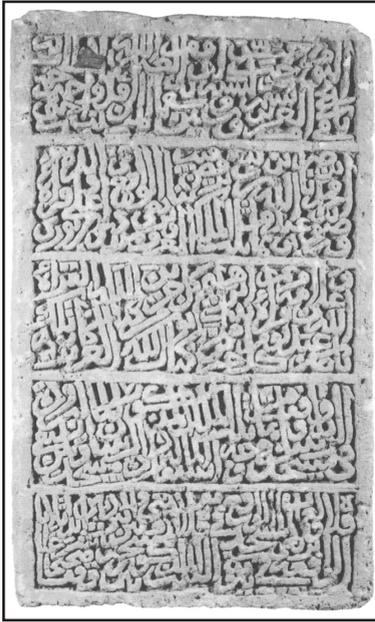
٨- وصف البحار العثماني سيدي علي لينايع المياه العذبة في البحرين عام ١٥٥٤

«وصلت إلى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الأحساء وهناك وجدنا دليلاً فسألناه عن العدو البرتغالي ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن، فاجتزنا البحر إلى البحرين حيث التقينا بمراد ريس، وهو حاكم البحرين، فسألناه عن العدو فقال أيضاً إن العدو ليس في البحر، وفي البحرين وجدنا -ويا لها من حكمة عجيبة- الغواصين وكل واحد منهم يمسك بيده زقاً ويغوص في البحر حوالي ثمانية باعات أو أكثر ثم يملأ ما بيده من زق بماء عذب من القاع، وكان هؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب إلى ريس مراد دائماً، وفي أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضاً، وحيث إنه كذلك فقد كان ريس مراد يكثر الشرب منه، وقد أرسل ريس مراد إلى هذا العبد (يقصد نفسه) من هذا الماء كنوع من مظاهر الاحترام، والحقيقة إن هذا الماء كان جيداً، وإن الآية الكريمة: {مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان} إنما تتحدث عن هذا، وهم يعتقدون أن الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على البحرين»^(٢).

(١) محمد بن أحمد بن إياس (١٦٦١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق وتقديم محمد مصطفى زيادة، القاهرة. ٤٣١/٥.

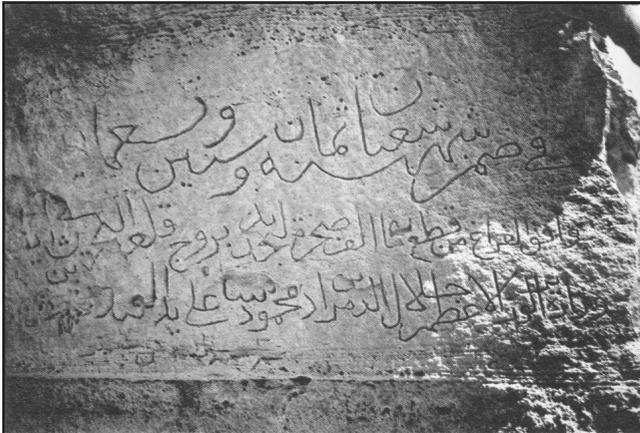
(٢) سيدي علي (١٨٩٥) مرآة الممالك، إقدام مطبعة سي، اسطنبول. ص.ص ٣٧-٣٨.

٩- وقف كرانة، نقش على حجر عام ١٥٥٨



«في تاريخ اليوم، العشرين من شهر رجب لسنة خمس وستين وتسعمائة، أوقف العبد المذنب، أقل عباد الله وأحوجهم إلى رحمة ربه ورضوانه، محمد بن ناصر بن عبد الله بن ربيع، تمام ثلث الملك المعروف بناقص برقيب من بربعي في ديوان بوري، على قراءة والده ناصر بن عبد الله، كل يوم جزئين من كتاب الله العزيز، وعلى قراءة أمه مريم بنت إبراهيم، كل يوم جزئين من كتاب الله، كائنة تلك القراءة في مسجد الرّسان، وأوقف تمام ثلث الملك المذكور في وجه استقاء الماء البرودة مسجد الرسان، ولن يستقي الماء البرودة، الواقعة في فلاة بربعي، ولعمارة المسجد الواقع في فلاة بربعي، يكون الثلث المذكور بين المسجد وبين البرودة وبين أيداً ثلاثاً، وفقاً شرعياً صحيحاً»^(١).

١٠- تاريخ ترميم قلعة البحرين في نقش على حجر في القلعة عام ١٥٦١



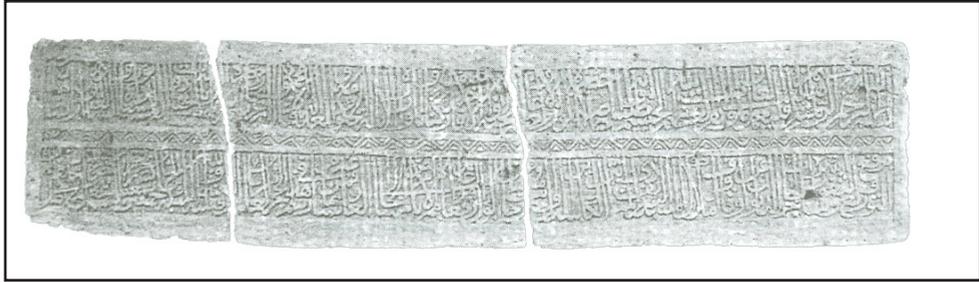
«في ضمن شهر شعبان من سنة ثمان وستين وتسعمائة، وافق الفراغ من قطع مائة ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين، وذلك إبان وزارة الوزير الأعظم جلال الدين محمود شاه على يد العبد فيروز»^(٢).

(١) نقش على حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني.

(٢) مونيك كيرفران (٢٠٠٤) البحرين في القرن السادس عشر جزيرة حصينة، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٨٥. وقد تحدث عنها ناصر الخيري (٢٠٠٣) مرجع سابق، ص ١٩٦-١٩٧، وأشار إلى معلومات لم ترد في كيرفران وهي أن العبد اسمه فيروز، وأشار إليها بصورة عابرة وغير دقيقة النبهاني (٢٠٠٤) مرجع سابق، ص ٧١.

١١- إعلان وقف في نقش على حجر بمسجد الخميس عام ١٥٨٦

«بسم الله الرحمن الرحيم، {لمثل هذا فليعمل العاملون}، تقربت إلى الله العظيم، طلباً لثوابه الجسيم، حضرة خلاصة الوزراء الأعاظم، ونخبة الأوصاف الأفاحم، وركنا الوزراة والإيالة والإقبال، حضرة محمود بن خضر عزيز... وقرين الجنات ذو الرشد والسعادة، نور الشهادة والغفران. وشاء أن... برفع التوزيع والثغور وسائر خراجات الديوان عن الأوقاف، وأملاك المشهد الشريف ذي المنارتين، الكائن ببلد أوال، حرسست من الويال، رفعاً على مر الأيام، إلى الخاص والعام، ومما يشاء، ومن غير في رسم هذا الحجر من سائر العالمين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. تحريراً بشهر شعبان لسنة أربع وتسعين وتسعمائة. والحمد لله وصلاة على محمد وآله وسلم»^(١).



١٢- وصف ازدهار تجارة اللؤلؤ بالبحرين للرحالة جون هيوجن فان لينخوتن عام ١٥٩٨

«يتوفر اللؤلؤ في كافة البلدان الشرقية وخاصة بين هرمز والبصرة في الخليج، في كل من البحرين والقطيف وجلفار وكاماران، وهناك جماعة تابعة لملك البرتغال موجودة في البحرين بصورة مستمرة لتقوم بصيد اللؤلؤ كما توجد أماكن أخرى لهذا الغرض... وتقع جزيرة البحرين على بعد حوالي ٨٠ ميلاً من رأس مسندم وتشتهر البحرين بصيد اللؤلؤ، وفي شمالها يقع ميناء البصرة على بعد ٦٠ ميلاً حيث يلتقي نهر الفرات ودجلة، وتوجد بقربها آثار بابل الشهيرة ويقال بأنها كانت الفردوس في زمن قديم... وبالنسبة لصيد اللؤلؤ فليس هناك مكان أفضل من البحرين، كما يوجد هناك الذهب والفضة والمعادن الأخرى، وملك الجزيرة يحافظ على هذه الثروة تحت الأرض ولا يسمح بتقريب الأرض لاستخراجها»^(٢).

(١) نقش على حجر محفوظ في متحف البحرين الوطني، ويعود تاريخه إلى يوليو ١٥٨٦.
(٢) عيسى أمين (١٩٩٦)، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوراتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة تشالز بوكر، مؤسسة الأيام البحرين. ص.ص ٩٢ و ٩٨. وانظر كذلك: الوثيقة (١٩٨٢) «وصف شاهد عيان يرجع لعام ١٥٩٨»، العدد الأول، يوليو ١٩٨٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص.ص ١٥٢-١٥٥.

١٣- وصف البحرين في مطلع القرن السابع عشر للرحالة البرتغالي بيدرو تنحسيرا عام ١٦٠٤

«إن تراب البحرين خصب ومنتج وخاصة لأشجار التمور والتي توجد بكثرة في هذه الجزيرة، ويوجد قليل من القمح ولكن كثير من الشعير، وتعتبر الوجبة الرئيسة في البحرين الأرز ويستورد من الهند عن طريق هرمز. وتوجد آبار في البحرين ولكن أغلبها ليس عذبا، ومع ذلك يصلح ماؤها للشرب، وأحسن هذه الآبار: حنينية، وهذا البئر عميق ويقع في وسط الجزيرة، وتأتي بعده في الجودة تلك الينابيع التي تتواجد تحت سطح البحر. وفي مدينة المنامة -المدينة الرئيسة في الجزيرة- وعلى عمق باعين أو ثلاثة من سطح البحر توجد ينابيع المياه العذبة، ويقوم بعض الرجال بملء جلد الماعز منها، ويعتبر البعض منهم هذه العملية وسيلة للرزق طول النهار، وأخبرني أحد المعمرين في البحرين أن هذه الينابيع كانت على اليابسة ولكن مع مضي الوقت غمرها البحر، وأعتقد أن من هذه الينابيع أخذت الجزيرة اسمها: البحرين، وربما يكون رمزا لمجريين من الماء يمران في الجزيرة ولكن أعتقد أن التسمية الأولى أصح.

تشتهر البحرين باللؤلؤ، وسوف أعطي إيجازاً عن طريقة صيده. توجد في الشرق مصائد اللؤلؤ، وأشهرها تلك التي في الخليج والأخرى في منار في الهند، وذلك الموقع هو الذي بين جزيرة سيلان وجزء من شبه القارة الهندية يسمى توتان كوري باللهجة المحلية، ولكن نسميه نحن البرتغاليين كوموري، ويلى هذا المكان بندر كورو منه تصدر أنواع الأرز في البنغال.

يبدأ الغوص في البحرين في شهر يونيو وأحيانا في يوليو، ويستمر حتى شهر أغسطس ويتكون أسطول الغوص من مائتي سفينة أو ربما أقل، مائة من البحرين وخمسون من جلفار وخمسون من نخيلو، وتتجه هذه السفن إلى ساحل قطر على بعد عشرة فراسخ جنوب الجزيرة، وبعد صيد الأصداف تفتح لإزالة اللؤلؤ منها، وتمتاز لآلئ البحرين بالجودة والوزن الثقيل، ولو قارنا لؤلؤة بنفس الحجم من مكان آخر مع لؤلؤة من البحرين نجد أن وزن البحرينية أكبر.

إن قيمة تجارة اللؤلؤ سنويا في اللآلئ الصغيرة والعادية تبلغ ٥٠,٠٠٠ دوكات، دون أن نأخذ في الاعتبار قيمة اللآلئ المهربة وهي حوالي ١٠٠,٠٠٠ دوكات لأن التهريب يتم خوفاً من اغتصاب المندوب البرتغالي في البحرين»^(١).

(١) عيسى أمين (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا. مؤسسة الأيام، البحرين. ص ١٠١-١٠٣.

ثانياً: وثائق تناول الأوضاع في البحرين

إبان القرن السادس عشر

١- رسالة من حاكم البحرين إلى نائب الملك البرتغالي أفونسو دلبوكيرك عام ١٥١٥

«إلى الملك العظيم، أعظم من أي ملك في زماننا، الذي يطلق عليه في جميع اللغات: ملك البحار وسيد البلاد، إلى القائد العظيم - أطلال الله في عمره - بعد التحية:

ليكن معلوماً بأنني في صحة جيدة وراحة بال، وليصل إلى علمكم بأننا والملك المشرف أمير هرمرز على يد واحدة، وكنا على هذه الحال لمدة طويلة حتى الآن، فنحن نعلم أنكم جئتم إلى هرمرز وأنكم ملك رحيم وعادل، وأن سمعتكم قد طافت أرجاء العالم وأنكم لذلك سعداء، وحيث أننا وملك هرمرز نتبادل الرسائل بيننا، فإنني أبعث لكم رسولنا، خادمكم، ليجلب لكم ثلاثة خيول، بالرغم من أنها غير جديدة بمقامكم. فإذا صادف أن وجدنا ما هو أفضل منها فسنبعث بها إليكم، وإذا ما رغبتم في شيء فاطلبوه وسنقوم بتنفيذه من أجلكم، ونبلغكم السلام»^(١).

(1) De Bularo Pato R.A ed. (1884-1935) *Cartas de Afonso de Albuquerque seguidas de documentos que elucidativos*, 7 vols., Lisbon. 2/254.

نشرت هذه الرسالة في: مونيك كيرفران (٢٠٠٤) *البحرين في القرن السادس عشر جزيرة حصينة*، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص.ص ١٩-٢٠.

٢- كتاب من الأمير محمد أبو النصر شاه وهو أحد أبناء شرف الدين في هرمز إلى الملك دون جوان (١٥٢١-١٥٥٧) يعرض عليه مشاكله مع الحكام البرتغاليين وجورهم وطمعهم، كما يذكر فيه أخبار البحرين وجليفار،

بتاريخ ٢ شوال ٩٢٩هـ/ ٨ أغسطس ١٥٢٣م:

«إلى السلطان دون جوان:

فالأولى أن نعرض كل ما يستوي في بلادنا على السلطان الأعظم والمأمول من إحسانه أن يرد لي جواب لأتشرف به.

فأول ما أعرض على جنابك السامي بأن لما جاني أخبار الخصام الآخر، عملت برج على باب كلكوت لأجل حفظ البلاد وخرجت على عمارته مبلغ كثير، وفي زمان أبي وأخي تهدهم الله برحمته أرادوا أكابر الإفرنج أن يأخذوا بيت السلطنة من عندهم ليهدموه، وقالوا للوارثين أن يعطوهم بيت غيره لأنه مضر على حصار السلطان، فالوارثين قالوا لهم لا نعطيه لكم لأن هذا بيت أبانا، طلبتها منه مع المال الذي صرفته على عمارة البرج وخرجته عليه مرات كثيرة، فطلبتها منه يوم الذي أتى لعندي وحصرته عليها قدام الحاضرين، وكانوا فرنندو وديوكو دمسكية أفلاك، خرج من داري وما أخذ بكلامي، فبعد ما خرج أخبروني بأن السلطان قتل وزيره فلما سمعوا الذين كانوا حاضرين بعثوا وأخبروا مرتيون أنفسو، ولما عرف جاء للوقت إلى بيتي مع أكابر الفرنج وعمل معي أعمال القبيحة وقلل وقاري وهتك حرمتي، كما يشهدون جميع الفرنج، وبعد هذا سلم حكم هرموز وباقي بنادره إلى أقرباه، وحكم جليفار أعطاه إلى أخوه على ثلاثة سنين ضد عادة بلادنا، لأن كل حاكم يحكم سنة، وحكم بحارين أعطاه لريس محمد نسيب شرف، وكل هذا لمنفعته وعلى هذا الحال تراني قليل الحرمة بين أكابر الفرنج، وبعد ما أعطى حكم بحرين إلى ريس محمد أعدها غاية العدة والآن ما يقدر أحد يأخذها من يده لأن فيها برج عالي.

والوزير الجديد في هذا الوقت كل معاشه من القوافل التي تجيء إلى هرموز وينتفع منها كثيراً، ويبعث بعض القماش إلى بيته، وبعض إلى البنكسال ومن هناك يشتريه مع القبطان والفيطور بالثمن الذي يريده وهم كلهم متفقين على ذلك، وعوايد القديمة في هذه البلاد ولا سيما على زمان سلطان المتوفي كانت أن القبطان ما له إلا حصان وسيف وبرطاق من ذهب وخلعة، وفي هذا الوقت يأخذ مني ألف أشرفي دراهم ولا يترك في طويلتي من الخيل الجيد ولا راس، ومن حد هرموز إلى قلهاة كلما رأوا حصان مليح يأخذوه بالثمن الذي يريده ولا يأخذون بصياح أصحابهم، وبعد هذا هم يقبضون الرشوة والبرطيل، وبهذا

الفضل يخالفون أمر دون بيدرو وقاضي إفرنج، ولما أتى دون بيدرو إلى هرمز في القبطانية حساب لي مكتوب من ألبير نادور طالبني إلى جوا، وأنا لأجل طاعتي لأمرك العالي ما أبيت بذلك.

وأرتجي من الله منكم ألف مغفرة عن المذكور، والسلام.

في ٢ من شوال سنة ٩٢٩ للهجرة.

من الأمير محمد أبي النصر شاه»^(١).

(1) *Arquivo Nacional da Torre do Tombo*, (1960-1977), *As Gavetas Da Torre Do Tombo* Lisboa, 5/38-40.

Joao De Sousa, (1789) *Documentos Arabicos Para A Historyia Portucueza*, Lisboa.

الأب جواو دي سوزا (١٧٨٩) ووثائق عربية تسهم في كتابة التاريخ البرتغالي، لشبونة. ويحتوي على مجموعة مهمة من الرسائل المكتوبة باللغة العربية بعثها حكام الأقاليم العربية الخاضعة للنفوذ البرتغالي إلى ملوك البرتغال. نشر هذا الخطاب في: فالخ حنظل (١٩٩٧) *العرب والبرتغالي في التاريخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي*. ص.ص ٤٢٣-٤٢٤.

٣- خطاب من حاكم قلعة هرمز: كريستاو دو مندوسا إلى نائب الملك في جوا نونودا كونها (١٥٢٩-١٥٣٨)، بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٥٢٩

«مولاي:

لقد أخبرت جلالتكم بواسطة منويل دو مسيدو عن بعض أحوال مملكة هرمز هذه، وبما أنه بعد ذهاب الوالي من هنا، التحق سيماو كونها بالبحرين فإنني سأخبر جلالتكم بما حدث هناك.

لقد سبق لملك هرمز أن عين الرئيس بدر الدين -أحد أقارب الوزير شرف- عاملاً على البحرين، ولما أمرت جلالتكم باعتقال الرئيس شرف، أراد الوالي عزل الرئيس بدر الدين وإبعاده عن البحرين لما كان يلحقه بالبلاد من أضرار. وهكذا أوفد بلشيبور دو سوزا قبطان البحر بذلك الساحل على رأس ثلاثة أو أربعة مراكب مرفوقاً بوزير مسلم ومعه رسائل وظهائر ملكية موجهة إلى الرئيس بدر الدين تأمره بتسليم الحصن إلى الوزير الذي أوفده إلى هناك، كما أمر الوالي بلشيبور دو سوزا بإلقاء القبض عليه والإتيان به أسيراً، وبما أن بلشيبور دو سوزا علم باكتشاف أمره من لدن بدر الدين فإنه ما إن وصل حتى سلمه الرسائل، غير أنه رفض تسليم الحصن واحتاط منه كثيراً، فأخبر دو سوزا الوالي بذلك.

قرر الوالي قبل ذهابه بخمسة عشر يوماً إرسال سيماو كونها لاحتلال الحصن وأسر بدر الدين إن أمكنه ذلك، فاصطحب معه ٤٥٠ محارباً كان ضمنهم كل الفرسان الذين نجوا بمنبسة وآخرون وجدوا آنذاك هنا بهرمز.

وبعد وصوله إلى البحرين، بعث له الرئيس بدر الدين خطاباً يخبره فيه أنه يعتبر نفسه تحت حماية ملك هرمز، وأنه لا يرغب في الحرب، وذلك على الرغم من أن الذين لا يشاطرونه هذا الرأي كانوا كثيرين.

ولما نزل سيماو كونها إلى الأرض لاحظ أن الحصن منيع جداً، وذلك بخلاف ما بلغه عنه إذ ذكر له أنه عبارة عن ركام، ولما نزل المحاربون نصبوا مدفعيتهم التي سرعان ما شرعت في إطلاق النار وذلك إلى أن نفذ البارود، فأرسل إليّ يطلب المزيد منه، ولما وصله كان جل مرافقيه مرضى، وما أن طلع اليوم التالي حتى تفاحش المرض حتى انعدم من يقوى على حمل المدفعية إلى المراكب، بل إنهم لم يعودوا قادرين حتى على المشي للوصول إلى المراكب، الأمر الذي حتم إرسال مراكب كثيرة ومحاربين من هنا لإرجاع المراكب لأنه من مجموع ٤٥٠ أو ٤٥٥ شخصاً ذهبوا إلى هناك لم يبق على قيد الحياة شخص لم

يصبه الوباء، وقد توفي منهم ما يقارب المائتين، وما يقرب هذا العدد في طريق الموت.

لقد مات من الحمى سيما كونها، وكذا مانويل دو مندوسا وكثير من الفرسان، وبالنظر إلى عدد المرضى فإن نجاة مائة من المشاركين في الحملة من الموت سيعتبر معجزة بحق.

أما ما يتعلق بهذا الحصن وهذه المدينة، فأعتقد أن جلالتمكم قد اطلع على أحوالها بواسطة منويل دو مسيدو، فبعد ذهابه تم اعتقال خوجة إبراهيم كما كتبت لكم من قبل، ويوجد في المدينة عدد من الرجال الذين طلب ملك هرمز من الوالي اعتقالهم، ويقول الملك إن الوالي قد أمر بتقديم عرائض له بهذا الشأن، ومن المؤكد يا سيدي بأن الهدف من اعتقال هؤلاء هو قطع رؤوسهم وليس الاستيلاء على أموالهم كما كانوا يعتقدون، لأن هذا ما كان يفعله من قبل.

لقد ذهب ديوغو دو ميلو من هنا رفقة الوالي دون أن يدفع أي شيء مما يدين به للملك، وكذلك فعل باقي الأشخاص كما سبق لي أن كتبت لجلالتمكم، وقد قمت في هذا الأمر بما أدين به لربي و لجلالتمكم قصد نشر العدالة والأمن، وقد سبق لي أن أخبرت جلالتمكم بواسطة أشخاص ذهبوا من هنا بالأضرار التي ألحقها بمصالح جلالتمكم، ونقلوا لجلالتمكم نسخة من حكم أصدرته في حقه لصالح ملك هرمز، ولا أدري ما إذا كانت ستصلكم دون أن تزور، وأتمنى أن أحملها إلى جلالتمكم حينما ألتقي بكم، وكذا التحقيق الذي بعث به إلى هنا لوبو فاش سنبايو، والذي يوجد في حوزة الكاتب الذي لا يزال يقوم بمهمته.

أما عن التحقيق الذي قام به الوالي والكاتب فإنه في حالة ما إذا لم يتم على الشكل القانوني فإن على جلالتمكم أن تحملهما مسؤولية ذلك كما تريد، أما عن ضرائب هذه المملكة فإني أعمل كل ما أستطيعه في خدمة جلالتمكم حتى يتم تحصيلها، إلا أنه بالنظر إلى المبلغ المتوجب تحصيله، والذي كان قبل أن يرفع الوالي من قيمته أربعين ألفاً أشرفي فإني أعتقد أن جمع المبلغ سيكون صعباً إلا إذا أمرت جلالتمكم بعدم التضيق على الملك أكثر، وأعني بالتضيق عليه أن لا تمتد الأيدي إلى جبايته وأن تؤخذ مصاريفه بعين الاعتبار، الأمر الذي لا يمكنني القيام به دون أمر من جلالتمكم، وإذا ما ارتأيتم إبقائي هنا لبضع سنوات أخرى، كما طلب منكم الدوق ذلك، فإني أتعهد بتحصيل الضرائب قبل نهاية السنة إذا ما حصلت على تكليف من جلالتمكم لي بذلك.

أما تحصيل الضرائب بصورة أخرى فإنه يتطلب جهوداً كبيرة، وقد يكون الأمر

مستحيلاً، لأن البحرين التي تعد أهم منطقة بالمملكة في حالة عصيان، وبما أنها لا تؤدي أي مردود حتى الآن فإن احتلالها وفرض تحصيل المبلغ وفق ما هو محدد لها سيخفف من وطأة الأمر.

إن الشيخ رشيد يقوم بمهمة الوزير كما هو في علم جلالكم، وهو رجل طيب، وفي نظري شديد الإخلاص، إلا أنه ضعيف الشخصية بالنسبة لمسألة في مثل خطورة هرمز، لأنه يا سيدي إذا ما استثنينا إشكالية قلة إخلاص شرف الدين لكم مقارنة بالشيخ رشيد، فإن مثل هذا المسلم لم يولد في تلك البلاد ليقوم بمهمة حكم المملكة وهو شديد الخجل والخوف، ولا يمكن تحصيل الضرائب بواسطة شخص بهذا المستوى من الضعف.

لقد وصلتني أخبار عن الروم فور مغادرة الوالي للمدينة، حيث أخبرني رجل مسلم كان هناك بأنه قد وقع خلاف حاد بينهم عندما قتل الملك سليمان وأدى ذلك إلى وقوع معركة عنيفة، غير أنهم عادوا إلى التصالح وانتخبوا مير حسين الذي كان والياً على جزر القمر رئيساً أكبر لهم، وانطلقوا بعد ذلك لمحاصرة عدن التي استولوا لها على خزان الماء اعتماداً على عدد كبير من المحاربين وعلى هجمات شاركت فيها الغليونيات والمشاة، ويقال إن عدد المحاربين بلغ ألفاً وخمسمائة وعدد السفن ثلاثة عشرة ما بين كبيرة وصغيرة غير أن جل محاربيهم قد تفرقوا، وذلك بعد معارك حادة مع المدافعين عن عدن الذين بعد فقدانهم لخزان الماء وللميناء شنوا عدة هجمات استطاع العرب خلالها قتل البعض منهم وإلحاق أضرار بليغة بهم، الأمر الذي أرغمهم على الانسحاب والالتجاء إلى مكان قريب من عدن يتوفر على مياه عذبة وكثيرة يسمى (Aguff)، وهم إلى الآن هناك دون أن يعملوا على إعادة جمع المتفرقين منهم، وقبل أن يصلني هذا الخبر وصل خبر قبله مفاده أن رئيس الروم (مير حسين) قد استولى على عدن وأنه استولى على المراكب بها وحال دون مغادرتها الميناء لكي لا تصلنا أي أخبار بذلك، وأن أربعة غليونيات وصلت إلى ظفار قصد حراستها. إن عدداً كبيراً من سكان تلك الجهات يعتبرون عدن في أيدي الروم، إلا أن ما أقوله لجلالكم هو الواقع، لأن هذا المسلم أكد لي أن غيره قد كذب لأنه كان بعين المكان وعان كل ما حدث في عدن.

إنني أبعث على رأس كل سنة من يطلع على أحوال الروم، وأرجو من الله أن يبقوا على ما هم عليه، وللحصول على تلك الأخبار بعثت إلى المكان الذي يتواجدون فيه مركباً ليطلع على أحوالهم ويعرف حقيقة الأمر، وسأكتب إلى والي الهند فور عودة المركب.

أما عن البصرة فإنني لحد الساعة في حرب معها لرفض سكانها تسليمي المراكب

الموجودة عندهم، ولو كان الولاة السابقون لهذا الحصن قد فعلوا معهم مثل ما فعلت لوجدوا أنفسهم مضطرين لتسليمها، ولكننا الآن في حالة سلم، ولن أسألمهم أبداً طالما بقيت بهذه البلاد، وذلك إلى أن يسلموني المراكب التي تضر بمصالح جلالتيكم. أما عن الشيخ إسماعيل فإنه لم يصلني أي خبر عنه حتى الآن عدا كونه في حالة سلم.

أما عن هذه القلعة، فقد أصلحها الولاة السابقون إصلاحاً سيئاً حسب ما سبق أن كتبت لجلالتيكم، ولا يتوفر لدي الآن سوى أربعة أو خمسة براميل من البارود، وعلى مدفعية قليلة جداً، وذلك على الرغم من ضرورة توفير أكثر مما يوجد في رودس لأن جلالتيكم تعلم بأن أقواماً عديدة تفد إليها من كل بقاع العالم من جنويين وبنادقة وأتراك ويهود وأرمن، ومن شعوب أخرى، وأول ما يقومون به فور وصولهم هو التعبير عن رغبتهم في زيارة القلعة، وبالطبع لا يمكن السماح لأحد بذلك لأن داخل القلعة لا يختلف عن مخزن تبين.

وأهم ما يجب قوله لجلالتيكم هو أنه إذا كان للروم أن يستولوا في هذه السنة على منطقة ما فستكون هذه هي الأولى (لا قدر الله) لكونها شديدة القرب من المضيق، ولكونها كذلك أهم مدينة بيد جلالتيكم تستفيدون منها فائدة عظيمة في هذه الربوع، لذا يجب عليكم تزويدها بما تحتاجه وذلك عن طريق توجيه الأوامر للولاة صراحة بما يتوجب عليهم فعله.

لقد أتممت نصف (Chapa) إلا أن الوالي لأمني كثيراً على عدم إتمامها، فهو يريد توسيع القلعة دون أن يخصص لها أكثر من أربعمئة مقاتل، وأعتقد بأنه لا داعي لتوسيعها أكثر من ذلك ما دام الوالي لا يرغب في زيادة عدد الحامية، لأن وجود حامية صغيرة في قلعة كبيرة يمثل نقطة ضعف.

لقد سبق لي إشعار جلالتيكم بالضرر الذي ينتج عن مجيء الولاة إلى هنا فمنعتم ذلك عليهم، ولم تسمحوا بمجيئهم إلى هرمز إلا في حالة الضرورة، لذا فإنهم يأتون إليها جميعاً. أعود مرة أخرى لتذكير جلالتيكم أنه لا يوجد شيء أخطر على مصالحكم من ذلك، لأن مجيئهم هذا يؤدي إلى إفراغ هرمز من جل سكانها لأنهم يستولون على الدور التي ما إن يدخلوها حتى يحرقوا أبوابها ويخربوها وكلما تحطم شيء ما، لا يهتمون بإصلاحه قط، فضلاً عما يلحقونه بالمسلمين من أضرار وأذى، الأمر الذي ينبذه كل الأجانب، إلا أن أي أحد لا يقدر على معاقبتهم لكثرتهم.

أرجو من جلالتيكم أن تتأكد من أنني بصفتي قبطان هذه القلعة، يؤلمني مجيء الوالي إليها، لقد أنهيت المدة التي أنعمت بها علي جلالتيكم، ولا يضرني في شيء مجيئه

مستقبلاً، وأعتقد أن الوالي (نونو كونها) الذي جاء إلى هنا مؤخراً قد عرف مدى خدمتي لكم، وذلك رغم أنه يؤلمه كثيراً إخباركم بذلك لكونه يمجّد أكثر أعمال ديوغو دوميلو، وستعرف جلالتم كل هذا بتفصيل فور وصولي. أقول هذا لاعتقادي أن فيه خدمة لجلالتم.

إن من الواجب أن يكون مترجمو هذه القلعة رجالاً أكفاء وعقلاء، وذلك نظراً لخطورة هذا المنصب، فحين مجيء نونو كونها كان يقوم بمهمة الترجمان أنطونيو دو لورونها الذي التحق بجلالتم وعوضه شاب لا يعرف الفارسية ولا أية لغة أخرى، فضلاً عن كونه لصاً كبيراً.

لقد اشتكى مني هذا الوالي ديوغو دو دوميلو الذي ادعى أنني أتوخى من إصدار أحكام في حقه إلحاق الضرر به، وقدم لذلك طعوناً في أحكامي عارضتها بما يتوفر لدي من براهين. لقد أمر الوالي بالقيام بتحقيق سري وتسجيل الشهادات وإرسالها إلى جلالتم. وبما أنني أعتقد أن الوالي نفسه غير محايد في هذه القضية لكون الكاتب لا يغادر قط بيت ديوغو دو ميلو طوال الليل، وبما أن الوالي قال أن لوبو فاش قد أخطأ بتكليفه بالقضايا عوضاً عنه فإنني أرجو من جلالتم أن تتحقق من هذه الأمور، وأن تعلم أنه لا يوجد لدي أي مبرر لظلم ديوغو دو ميلو لأنه قريبي كما تعرفون، وبأن ما يلزمي للقيام بذلك هو الرسالة شديدة اللهجة التي بعثتها جلالتم للولادة عن المظالم والأضرار التي يتعرض لها سكان هرمز (والتي ما تزال في حوزتي وأطبقتها حرفياً في كل المناسبات)، كما أن التزامي بخدمة الإله وخدمة جلالتم يفرض علي إحقاق العدل دون أي اعتبار آخر.

إن ما قمت به لم تمله علي سوى رغبتني في خدمة جلالتم التي أعتبرها فوق جميع الاعتبارات الأخرى، وأرجو من جلالتم أن تفهموا ذلك جيداً.

حرر في هرمز في ١٨ نوفمبر ١٥٢٩.

أقبل الأيدي الملكية لجلالتم

كريستاو دو مندوسا^(١).

(1) Arquivo Nacional da Torre do Tombo, (1960-1977), As Gavetas Da Torre Do Tombo Lisboa. 5/299-302. نشر هذا الخطاب في: أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، الوثيقة، العدد الرابع (يناير ١٩٨٤)، ص.ص ١٢٨-١٣٢. كما نشر كذلك في: فالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٤٠٢-٤٠٧.

٤- رسالة من وزير هرمز راشد ركن الدين إلى ملك البرتغال دون جوان الثالث، يتحدث فيها عن إيراد هرمز من خراج البحرين

مؤرخة عام ٩٣٧هـ/١٥٣٠م

«السلطان الأعظم دون منويل سلطان برتغال:

أعطر خدمات تعطر من نسائهما مشام الروحانيين وتلتف بلفائف الصدق، وتحفظ في حزب الخلاص، وتهدى إلى من خصه الله تعالى بالسعادة الكاملة السلطان الأعظم والخاقان الأفخر مالك البر والبحر، حامى العرب والعجم، أعدا ملوك الأكناف وأشجع ولاية الأطراف، مسخر الأقاليم الطوال، خلد الله سبحانه في بسيط الأرض ملكه وسلطانه، وبه يظلل كافة البرايا.

وبعد تقبيل الأقدام الشريفة، الخادم نعرض لمولاي ما هو لازم عن أخبار الشام، وهو أنه جاءنا رجال من صحبتهم من الشام، ومن يوم خروجهم إلى تاريخ هذا له ثلاثة أشهر، وخبرونا عن المضي لمحاربة الفرنج بعسكره إلى نواحي السويس، وكان عدده خمسة وعشرين ألف رجل وستين غراب، وبعد ما طلع لمحاربة الفرنج حصل عليه قصور في المحاربة وأخذوا الموضع ورجع، فبعد ذلك عين سليمان باشا أمير مصر يكون باشا على العسكر ويسير به إلى نواحي الهند بالغرابات، وأمير سليمان قيل على نفسه هذه الخدمة وهذا خبر محقق ممن هو معتمد عليه، وأيضا عام الأول سار عسكر الشاه على ديار بكر وأسروا عسكر الروم وهزموهم حتى إنهم تركوا خيامهم وأسلحتهم وأموالهم وركبوا الخيل بغير سروج، وكان ملك الروم غائب في حرب الفرنج، فبعد ما وصل قبض باشين واحد حاكم حلب والآخر حاكم حميد وقتلهم، وعين إبراهيم باشا يقبض ديار بكر ويقابل الشاه، وأنا أرسلت رجالاً من طريق البحر ليفحصوا عن الأخبار ويصلوا إلى السويس، والذين أرسلتهم ما قدروا يصلوا وردهم زود الطوفان من بندر قسن، وكانوا طالبين جدة، وأيضا أرسلت الجواسيس إلى كل ناحية ليفحصوا أمور العدو، وأنا ليس متغافل عن فحص الأخبار المفيدة لخدمة سيدي.

وأما أخبار أمور البحر فهي كما كانت، ومن وجهة أمير الأرمن من مدة ثلاث سنين كل سنة يرسل شردمة من عسكره إلى نواحي هرموز، وهذه السنة أرسل عسكر إلى رستان وخربوا سواحلها وحرقوا بعض أماكن، ويوم تاريخ هذه جاءنا خبر أن الأمير راشد أتى بألفين قواس ومر بهم على قلعة تزرج ويريد أخذ البلاد وهذا غير مخفي عن سيدي، فإن قبض حوالي هرموز ومستغان وباقي حوايلها يمتنع دخول التمر والسمن

واللحم والفواكي للذين هم عمدة معاشهم وتضييق الرعية ويقل محصول هرموز، وإن من مدة سنين ما لها محصول لسبب قلة بضاعة جوزرات والقفايل الذين يأتون بالحرير والقوة والقماش وغيره، وهذه السنين امتنعوا عن مجيبة الجهازات إلى هرموز والرعية في ضيقة شديدة لسبب ذلك، ومن قلة محصول البندر السلطان أيضاً مستضييق وأنا خادمك من قلة المدخول كذلك، فالمأمول من مولانا أن لا يغفل عن مملكة هرموز لأن خراجنا كثير ولا يقوم الملك إلا بالخراج، فإن لم يكن له مدخل ويكفي الخراج يقع خلل في الملك، وأنا يا سيدي لي أربع سنين في خدمتك بأمر القبطان مور وجابني وحطني في وكالة الوزارة وقمت بها بالجهد والخلاص كما شاهدوا خدام حضرتك، من غير طمع لأن الوزارة المتقدمة كانت لهم محاصيل كثيرة على قدر طمعهم، وأنا خراجي أكثر من مدخلي، وهذا ما يخفى عن حضرتك، وقبل مني كان رئيس شرف يخزن مدخل البحرين وجلفار ومستغان وبيرونات، وكان يحصل له ستين ألف أشرفي ولا يعطي إلا أربعين ألف أو خمسة وأربعين والباقي يحطها في كيسه، ولا تخرج بقجة من الديوان إلا يأخذ عليها خمسة آلاف طرنبات، والغرايم يأخذها من التجار والرعية، وأنا يا سيدي يدي قصيرة عن هذه الأفعال ولا أريد شيء إلا الذي يرضي الله ومولاي، وفي زمان حكمني رفعت هذا البدع ومظالم العوائد القديمة والجديدة، ولهذا يا سيدي مدخلي ما يسد خراجي، وأنا أفتخر بخدمتك لأنه محسوب علي مولاه، وأن قبطان هرموز أنطونيو دسيرويرا وقبطان لويس وباقي الرعية يشهدون بصحة عريضتي لأن جميعهم يعرفون حال سيرتي والسلام.

في ٢٤ من جماد الأول سنة ٩٣٧ هـ، من خادمكم راشد ركن وزير هرموز.^(١)

(1) Joao De Sousa, (1789) *Documentos Arabicos Para A Historyia Portucueza*, Lisboa.

وقد نشر نص هذا الخطاب في: فالج حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠٢. وراشد ركن من أصل عربي من مسقط، تولى وزارة هرمز عقب اتهام الوزير شرف الدين باغتيال ملك هرمز الشاب محمد شاه سنة ١٥٢٩، مما أدى إلى عزله وإرساله مخفوراً إلى لشبونة، وعين راشد ركن الدين وزيراً لهرمز خلفاً له.

٥- رسالة من ركن الدين وزير هرمز إلى شرف الدين وزير هرمز المعزول، حول محاولات مانع بن راشد بن مغامس السيطرة على البحرين والبصرة عام ١٥٤٤^(١)

«لقد فهمت يا سيدي كل ما كتبتكم لي، وكلنا نرفع أيدينا متوسلين إلى الله أن ينعم عليكم بالصحة وأن يحقق أمانيتكم لأن رعاية الله وخوارقه كبيرة، وأسأل الله أن يجمعنا كما كنا من قبل، وكما نتمنى جميعاً، كما نرجو منه أن يطيل عمرنا حتى ننعيم بتلك الفرحة التي نتمناها جميعاً. لقد علمت من رسالتكم التي أرسلتموها إلي بأنكم تتمنون المجيء في أول أسطول يأتي وأتمنى أن يتم ذلك.

وبعد هذا أخبركم أن كل المناطق هادئة، وأن أخبار وأحوال هرمز لا تستدعي الكتابة، أما ما أمرتموني به من خدمة ملك هرمز، فإن الله يعلم كيف خدمته ونصحته وذلك بحب كبير، إلا أن طبعه يحول دون اعتبار نصائحي ونصائح غيري إذ أنه لا يعمل إلا برأيه الخاص، ويبدو لي أنه لن يتفاهم مع أي أحد أبداً، ومع ذلك فأنتم تعلمون أنه يتحمل مسؤولية ذلك، وأرجو من الله أن يتم قدومكم كما ذكرتم في رسالتكم، وأن تقفوا بجوا على أخباره وأموره وأحواله.

إنني منذ سنتين ونصف في خدمة ابنه الذي ينوب عنه اليوم وأحمد الله على أنني لحد الساعة لم أختلف معه.

أما ما طلبتم مني كتابة، من اعتنائني ببيتكم وأبنائكم فإني أقوم بذلك فعلاً وعلى أحسن الوجوه، وأدعو لكم بالعودة السالمة عما قريب لتلوهم وتولنا نفس العناية التي أخصهم بها.

اعلموا بعد هذا أن الملك محمود حاكم البحرين في صحة جيدة، وأن ملك الأحساء الشيخ مانع بن راشد مقبل على القطيف وعازم على الاستيلاء على البحرين، وأنه تم تبادل عدة رسائل بينهما حتى إن سعيد بن عبد الله وهو من سكان الأحساء توسط بينهما فأضيا هدنة، إلا أن ملك الأحساء جمع عدداً كبيراً من المحاربين وعاد للاستقرار بالقطيف داخل قلعة جديدة أمر ببنائها بعد أن أمر بهدم القلعة القديمة. وما إن علم رجاله وباقي مرافقيه من سكان المنطقة بنواياه الرامية إلى محاربة مسلمي البحرين حتى فر عنه أغلبهم بصحبة أبنائهم وزوجاتهم، وكان أول الفارين محمد بن رحال وذويه الذين رحلوا جميعاً مع آخرين

(١) أغفل تاريخ هذه الوثيقة، ولكن ركن الدين يتحدث عن التجهيزات التي قام بها مانع بن راشد بن مغامس لمهاجمة البحرين، علماً بأن هذه الأحداث قد وقعت سنة ١٥٤٤، وحيث إنه لم يتعرض للحديث عن الحملة البرتغالية التي شارك فيها بنفسه ضد قلعة القطيف عام ١٥٤٥، فقد قدرنا بأن تاريخ الرسالة يعود إلى عام ١٥٤٤، خاصة وأن تنصيب الشيخ يحيى حاكماً على البصرة كان عام ١٥٤٤.

لوضع أنفسهم تحت حماية والي البحرين، كما أن أحد أعيان المسلمين المسمى الشيخ محمد بن مسلم قدم بدوره إلى البحرين صحبة قومه وذلك رغم أنه من أهل الأحساء.

ولما رأى الملك ذلك انتقل إلى البصرة، وبينما كان مخيماً بجوانبها انقض عليه سكانها في أعداد كثيرة وهزموه وقتلوا له عدداً كبيراً من المحاربين بينما تمكن هو من الفرار على ظهر فرسه، وذلك بعد أن تعرض لجروح بليغة، ثم عاد إلى الأحساء وجمع بها عدداً كبيراً من الرجال من ضمنهم أعراب كثيرون، وحينذاك وصله خبر موت ملك البصرة الذي كان أحد أقاربه، والذي كان يدين للأتراك بالولاء، وخلفه صبي بايعه أهل البصرة ملكاً على مدينتهم، فاستغل حاكم البحرين الرئيس محمود ذلك وجمع عدداً كبيراً من الفرس والعرب وهاجم القطيف حيث أحرق له مائة وخمسين مركباً ما بين صغير وكبير كانت من قبل في ملكية عاهل هرمز قبل أن تخونه وتصيح في حوزة ملك الأحساء.

ولما وصل ملك الأحساء إلى البصرة فتح له أعيان المدينة الأبواب وبايعوه ملكاً، وفور تلك البيعة بالبصرة علم بإحراق حاكم البحرين لمراكبه، فأمر بمصادرة كل مراكب تجار البحرين الموجودة بالبصرة والاستيلاء على سلعهم، غير أن أعيان المدينة استعاضوا من ذلك وطردوه من مدينتهم وبايعوا عوضاً عنه أحد أقاربه المسمى الشيخ يحيى، وأعادوا السفن والسلع لمسلمي البحرين، وعوضوا لهم ما كانوا قد فقدوه.

والشيخ يحيى هذا رجل فاضل يرغب كثيراً في مصادقة البرتغاليين، أما ملك البصرة المذكور الذي طرده السكان منها فإنه عاد إلى الأحساء وهو لا يزال يحلم في الاستيلاء على البحرين، ويعد بالقيام بذلك في أقرب وقت، ولن يصعب ذلك عليه لشدة قوته وكثرة جنوده.

ولما علمت بهذه الأحداث التحقت بالقبطان مرتين أفونسو دوميلو لإشعاره بها، وكذا الكاتب وأعيان البرتغاليين، وقلت لهم أن عليهم إرسال أسطول لحماية البحرين أو بناء قلعة بالقطيف لضمان أمن البحرين، إلا أن القبطان أجابني منذ ثلاثة أيام أن مولانا الملك يتحمل مصاريف ضخمة بالهند وبهرمز الأمر الذي يحول دون إرسال أسطول إلى البحرين، واقترح أن يجمع حاكم البحرين كل محاربيه وأقاربه وأن يستولي لمدة سنة على الجبايات التي قد تكون هناك للفرس وذلك بقصد تجهيز أسطول يمكنه من الاستيلاء على القطيف. لذا بعث إليه القبطان برسالة موقعة من طرفه وكذا من لدن الكاتب يخبرانه فيه أن العمل باقتراحهما يمثل خدمة لملك البرتغال. وإنه في حالة استيلائه على القطيف فإنه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها أحد، وأكد له أن ملك هرمز موافق على ذلك بدوره،

وبعث له ملك هرمز بدوره خطاباً آخر، إلا أن الحاكم لم ينفذ هذا الاقتراح بعد. وقد تطوع محمد بن رحال ومحمد بن مسلم بالمساهمة في نفقات تجهيز ذلك الأسطول.

أخبركم أن الشيخ إسماعيل ذهب إلى (Gulilao) لمحاربة بعض السكان الثائرين، كما أذكركم بخدمتي الصادقة التي لا تختلف عن خدمتي لملك البرتغال، وإن أول دليل على ذلك هو أنني أبعث على نفقتي، وعلى رأس كل سنة أشخاصاً إلى القاهرة وإلى عدن وإلى أماكن أخرى للاطلاع على أحوال وأخبار السلطان التركي وضباطه، وحتى الساعة لم أتوصل إلى أي خبر يرتبط بما كاتبتموني بشأنه، وسأسارع بإبلاغ قبطان الحصن بكل ما يصلني من أخبار.

أرجوكم أن تثقوا بي إذا ما قلت لكم بأنني مسرور لخدمة ربي وخدمة ملك البرتغال وأظن أن سعادتكم يعلم ذلك.

أتمنى أن يطيل الله عمركم وأن يضمن لكم الرفاهية، كما نرجو ذلك جميعاً»^(١).

(1) Arquivo Nacional da Torre do Tombo, (1960-1977), As Gavetas Da Torre Do Tombo Lisboa. 4/357-359.

وقد نشرت هذه الرسالة في: أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...»، مرجع سابق، ص.ص ١٣٣-١٣٥. ونشرت كذلك في: فالح حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص.ص ٣٩٩-٤٠٢.

٦- تقرير كتبه أحد قادة الأسطول البرتغالي: برنالدو دو سوزا، إلى الملك دون جوان الثالث
حول الحملة التي قادها ضد القطيف عام ١٥٤٥

«سبق لي أن أطلعت جلالتك عدة مرات على خدماتي التي أقدمها لكم هنا ، وطلبت منكم في كل رسائلي أن تقوموا بتحريات لمعرفة مدى صدق ما أدعيه ، إذ بالرغم من أن خدمات الذين يعملون هنا تبدو مخالفة لبعضها البعض عبر الرسائل والطلبات ، فإنني أعلم أننا جميعاً سواء ، ولكنني حينما ألح في هذا الطلب فإن ذلك يعود إلى تأكدي من أن جلالتك لا تسعى إلا إلى إعطاء كل واحد منا ما يستحقه من رعاية وكرم.

ورغم أنني علمت بواسطة أخي ديوغو لوبيز أنكم لم تمنحوني أي عطاء كما فعلتم مع غيري خلال هذه السنة ، وأن ما منعكم من ذلك هو أن مصلحتكم اقتضت أن لا تتعموا علي بأية قلعة من القلاع التي طلبتها منكم ، فإنني لم أياس من أن أرى جلالتك تتعم علي بذلك لكوني متأكداً منذ عدة سنوات بأنه لم يقدم أي أحد من الخدمة مثل ما أقدمه لكم ، وبالتالي ليس هناك من يستحق ذلك أكثر مني.

علم الوالي مرتين أفونسو بعد عودة المراكب خلال السنة الماضية بقرب قدوم الأتراك إلى هرمز وذلك بواسطة بندقي وصل من القاهرة خصيصاً لإشعارنا بذلك ، مع العلم أنه لم يأت إلى هناك إلا من أجل اقتراض الأموال ، وأداء رواتب الجدافين المتوجهين إلى السويس. ونظراً لكون الوالي قد علم من طرفه بما وقع من خلال ثلاثة من الأسرى كانوا قد فروا من السويس فإنه صدق الخبر ، خصوصاً وأن لويس فلكاو كان قد كتب إليه يخبره أنه قد علم عن ذلك بطرق أخرى. وطلب منه إرسال إمدادات للقلعة بسبب قلة من كان بها من المحاربين.

ولما تبين للوالي شدة احتياج فلكاو للمزيد من المحاربين ، فقد استدعاني وقال لي بأن خدمة جلالتك تقتضي الذهاب برفقة أخي جورج دو سوزا ، لأن وصول الأتراك قد يحول دون إمدادها بالقوات والرجال التي تحتاج إليه حاجة ماسة ، وذلك قبل حلول شهر نوفمبر الذي يأتي بعد ثمانية أشهر من ذهابي ، لقد كانت هذه المهمة خطيرة علي ، إلا أن ما فيها من منفعة لكم أشعرنني بالغبطة واعتبرت ذلك شرفاً لي ، وذلك على الرغم مما تكلفني هذه المهمة من مصاريف باهظة نظراً لكثرة من رافقني فيها ، ولكون الأثمان في تلك البلاد أغلى من أي مكان آخر هنا. ورغم أنني لم أكن يا سيدي قادراً على تحمل تلك المصاريف فإن الرغبة في خدمة جلالتك قد فرضت علي الالتجاء إلى أصدقائي لتسديد بعض ما أدين لكم به من فضل ، نظراً لأنني لا يمكن أن أقوم بخدمة جلالتك دون فعل ذلك.

وبعد الوصول إلى هرمز وردتنا أخبار في غضون سبعة أو ثمانية أيام تؤكد بأن الأتراك لن يأتوا خلال هذا الشتاء، وقد أكد لنا البحارة الذين أطلعونا على الخبر بأنهم قد حصلوا على روايتهم وبأن الاستعدادات قد تمت بالفعل، حيث تم تجهيز وإرسال ٢٥ أو ٣٠ غليوناً من السويس باتجاه (Azebibi) لإنقاذها بعد أن حاصرها ملك المنطقة.

وفور تأكدنا من عدم مجيء الأتراك، أخبرني لوبز فلكاو أن ملك الأحساء الشيخ مانع كان قد انتزع من مملكة هرمز قلعة ومدينة القطيف منذ ست سنين، وبأنه منذ ذلك التاريخ وملك هرمز ووزيره يطلبان من القباطنة السابقين وكذا منه أن يمدهم بالعون اللازم لاسترجاعها، وذلك طبقاً لما نحن ملتزمون به بشأن جميع الحصون التابعة لملك هرمز، وليس فقط هذا الحصن الذي استولينا عليه في عهدنا هذا. لكن القباطنة السابقين كانوا يتملصون باستمرار مدعين عدم توفر الجنود القادرين على الذهاب إلى تلك المنطقة، الأمر الذي لا يمكننا التذرع به الآن لوجودي برفقة رجال لا أحتاج إليهم بصورة مباشرة نظراً لعدم قدوم الأتراك، ولكون ملك هرمز ووزيره قد تعهدا بتحمل مصاريف الحملة، مع أنهما غير ملتزمين بذلك. ولم يطلبوا مني سوى مرافقة الجنود البرتغاليين القادرين على ذلك وكذلك المدفعية والبارود اللازمين.

وبعد أن تأكد لوبز فلكاو من أن استرجاع تلك القلعة والمدينة يمثل فائدة وخدمة لجلالتكم، وبأنه سيرد لنا الاعتبار، وبعد أن وضعت جميع هذه الأمور نصب عيني، وجدت أنه من الأفضل الذهاب إلى هناك خاصة وأن الأمر لا يمثل أي مغامرة، وأنه لا يتطلب أكثر من إشغال جنودنا، وقد فضلت ذلك على بقائهم خاملين في هرمز.

وعلى إثر اتخاذ ذلك القرار، أتممت الاستعداد بسرعة وانطلقت برفقة مائتي برتغالي وستة أو سبعة آلاف فارسي وعربي أمرهم ملك هرمز ووزيره بمرافقتي، وجعل على رأسهم الرئيس نور الدين ابن الرئيس شرف الدين الذي يعد من أهم الشخصيات في خدمته.

وبعد مغادرتنا لهرمز وصلنا بعد أيام قليلة إلى البحرين حيث مكثنا أياماً قليلة لإنهاء جمع قطع الأسطول وتوفير بعض الحاجات اللازمة للحصار لكوننا لم نكن إلا على بعد تسعة لغوات من القطيف.

وفور جمعنا التجهيزات الضرورية، انطلقنا من جديد، وفي اليوم التالي اقتحمنا الميناء الذي دخلناه خلال الليل، ووطئت أقدامنا الأرض قبل الفجر، فكان في انتظارنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف محارب بالمدينة، وقد تمكنوا من قتل حوالي ثلاثين أو أربعين فارسياً

من فرقتي وبرتغاليين اثنين. وقتلنا بدورنا عدداً أكبر منهم مما أرغمهم على الابتعاد عن المدينة التي كان سكانها قد فروا منها. وبما أن اليابسة قد أصبحت آمنة فقد قمنا بإنزال المدفعية التي شرعت على الفور في قذف الأسوار من الجهة التي لم يكن فيها خندق، واستمر قصفنا لمدة أربعة أيام أي أكثر مما يمكن للمدفعية تحمله، وبما أننا لم نتمكن إلا من إسقاط قسم منه على علو يسمح لنا باستعمال السلالم فقد قررت اقتحام المدينة قبل إسقاط قسم أكبر وذلك نظراً لمناعة تلك الأسوار، ولكون ذلك سيتطلب منا أياماً أخرى لتحقيق ذلك، خصوصاً بعد أن علمت أن الملك قادم بنفسه للدفاع عن المدينة وذلك لتواجده في الأحساء التي تبعد عن القطيف مسيرة ثلاثة أيام، ويرافقه في ذلك أربعة عشر أو خمسة عشر ألف محارباً، وعدد كبير من الفرسان وضاربي البنادق، فضلاً عما سببته لنا مدفعية القلعة وبنادقها من متاعب. وبسبب حالات الاستنفار التي كنا نعلنها باستمرار بسبب هجمات الثلاثة أو أربعة آلاف من المحاربين الذين واجهناهم لدى قيامنا بإنزال جنودنا، وقد أتعب هذا الأمر محاربينا خصوصاً وأن الفرس منهم لم يكونوا معتادين على بذل هذا القدر من المجهود.

ورغم ما يمثله دخول المدينة من خلال استخدام السلالم من خطورة إلا أنني فضلت ذلك على البقاء في انتظار هجمات أخرى، إلا أنهم ما إن علموا باستعدادنا لنصب تلك السلالم حتى شرعوا في إزالتها في منتصف الليل، وأعترف لجلالتم أن ذلك قد أحدث فرحاً كبيراً في الحملة، ولكي يحول البرتغاليون دون فرار أكثرهم فقد تسلقوا الأسوار خلال الليل فقتلوا بعضهم وأسروا عدداً أكبر، الأمر الذي أدهش المسلمين المرافقين لنا أكثر مما أدهش الأعداء الخائفين لكونهم غير معتادين على اقتحام الخصم لقلاعهم في جنح الظلام. وفور ذلك علمت في اليوم التالي بأن الشيخ مانع قد وصل إلى منطقة تبعد عن القلعة لغوتان فقط، وهو على رأس الجيش الذي هب به للدفاع عن المدينة، وبأنه، حسب ما وردني، ما إن علم بسقوطها حتى عاد من حيث أتى، ولم يصلنا منه أي أذى، وبعد تحطيم ما استطعت تحطيمه من القلعة سلمتها للرئيس نور الدين على الصورة التي سلمت لهم به باقي القلاع التابعة لمملكة هرمز، وتوجهت نحو هرمز بسبب دنو موعد رجوعي إلى الهند. وبما أن جميع الذين رافقوني قد عادوا سالمين باستثناء اثنين قتلا خلال المعركة، ووفاة آخر بسبب المرض، فقد أحاطتنا العناية الإلهية في البحرين لأن أرضها غير صحية كما سبق لجلالتم معرفته، عندما توفى الجنود الذين رافقوا سيماو كونها، ولأن البحرين لا توفر للقطيف في هذا المجال أي امتياز على الرغم من كثرة الخضرة وكثافة الغطاء النباتي فيها إذ أنه لا يمكن رسم مكان أجمل منها في العالم كله.

ساهم إلى جانبي في هذه الأعمال جورج دو سوزا وقدم لجلالتكم فيها خدمات، وعلى الرغم من كونه أخي إلا أن ذلك لا يمنعني من القول بأنه صالح جداً لخدمة جلالتكم في كل المهام والمخاطر، وعلى جلالتكم أن تصدقني في هذا لأنه أخي بل إنه بالنسبة لي أكثر من أخ، ولن أقول عنه هذا ما دمت غير متأكد من ذلك ما دمت غير ملتزم بقول ذلك تجاه أبيه وأمه. وبعد اثني عشر يوماً من وصولي إلى هرمز توجهت إلى الهند حيث وجدت دون جواو كاسترو والياً عليها حيث بقيت برفقتها.

أتمنى أن يطيل الله عمر جلالتكم كما نتمنى ذلك جميعاً. وحرر في جوا في ٢٠ نوفمبر ١٥٤٥.

برنالدين دو سوزا^(١).

(1) *Arquivo Nacional da Torre do Tombo*, (1960-1977), *As Gavetas Da Torre Do Tombo* Lisboa. 5/915-918.

وهو كتاب يتضمن مجموعة من الوثائق التي تندرج تحت اسم «أدراج أرشيف حصن القبر»، نشر فيه المؤرخين الفرنسيين سينيفال وريكار، والبرتغالي لوبيز، العديد من الوثائق المتعلقة بالخليج العربي والبحر الأحمر، وقد نشرت هذه الرسالة في: أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر...» مرجع سابق، ص ١٣٦-١٣٩. وكذلك في: فالخ حنظل (١٩٩٧) مرجع سابق، ص ٤٠٨-٤١١.

٧- رسالة من قائد الأسطول البرتغالي في هرمز نورونها إلى قريبه نائب الملك البرتغالي بجوا: غارسيا دا نورونها (١٥٣٨-١٥٥٠)، حول حملة الريس بييري في الخليج العربي، ويتعرض فيها لذكر البحرين، في أكتوبر ١٥٥٢

«سيدي:

سلمني فيرناو فارتو من سيادتكم رسالة وصلت في وقت مناسب جداً ، فقد بينت دون أدنى شك اهتمام سيادتكم بهذه البلاد وكذلك بخدمة سيدنا الملك. فهذه البلاد كانت قد تعرضت للخراب وفقدت كل شيء ، وعلى أية حال فإننا نعتقد بأن سيادتكم سيرسل الإمدادات الكافية لسد الاحتياجات الضرورية بما ينسجم وفق المعلومات التي وردتنا في الوقت الحاضر ، ومفادها بأن سيادتكم على استعداد لإرسال أسطول كبير لهذه البلاد عندما تشتد الحاجة لذلك ، وأرجو أن تكون واثقاً من تحررنا من أي تخوف من المصاعب المتوقع بسبب شعورنا بتفكير سيادتكم بنا .

لقد كتبت لسيادتكم عن طريق روي لوبيز كيف كنا قد حوصرنا من قبل الأتراك براً وبحراً ، وقد نصب الأتراك أثناء الحصار ست قطع من المدافع الثقيلة ، أربعة مدافع من نوع (basalisks) ومدفع من نوع (espalhafato) ومدفع آخر من نوع (salvage) ، بالإضافة إلى عدد من القطع الصغيرة التي نصبت على سطوح بعض المباني العائدة للملك ، وقد قذف الأتراك الحصن بالمدافع لمدة أحد عشر يوماً ، غير أنهم لم يسيبوا سوى أضراراً بسيطة نظراً لمتانة الحصن وقوته. كما دمر الأتراك أحد مدافعنا من (Camello de ferro) ، ودمرنا بضربة واحدة من داخل الحصن مدفعهم من نوع (espalhafato) ، وقد نتج عن المعركة مقتل أربعة برتغاليين وجرح مابين عشرة إلى اثني عشر ، وقد ظهر لنا بعد رحيلهم أنهم قد تكبدوا أضراراً فادحة من ضربات مدافعنا التي كنا نوجهها ضد الأوقية التي كانت تقيهم أثناء هجومهم وحصارهم.

وفي الليلة الأخيرة التي فك فيها الأتراك حصارهم وجمعوا مدافعه جاءوا بمدفعي برتغالي كانوا قد أسروه في حصن مسقط إلى الأسوار ليتحدث مع الرجال الذين كانوا على الحصن طالباً منهم أن يقوموا بإنقاذه والأسرى الآخرين ، ولم نكن نعرف شيئاً عن ذلك حتى تلك الفترة ، علماً بأن رجالنا كانوا ينادون عدة مرات على المرتدين (الموجودين في المعسكر التركي) ، طالبين منهم أن يأتوا ليتحدثوا مع الجنود الواقفين على السور غير أن المرتدين لم يستجيبوا إلى ذلك الطلب. وقد ترك الأتراك في اليوم الذي غادروا فيه اثنان من المسيحيين أحدهم روسي الأصل والآخر إيطالي ، وعن طريق هذين الرجلين علمنا بكل

ما حدث في مسقط، حيث إن القائد الأعلى للأسطول العثماني محمد بيك بن بييري بيك قد هاجم القلعة لمدة ستة أيام، وبعد ذلك وصل والده بييري بيك برفقة ثلاثين سفينة من نوع (Galley) وبدأ محمد بيك قصفه بالمدافع من ست سفن من نوع (Galley).

وفي اليوم التالي لوصول بييري بيك أعلن جواو دي لزيوا وجميع البرتغاليين استسلامهم بشرط السماح لهم بالمغادرة إلى هرمز آمنين، غير أن بييري بيك دبر الأمر بمهارة، وذلك عن طريق وضعهم في سفينة للعبيد من نوع (Galley) وشدهم إلى مقاعدهم بسلاسل حديدية وعرضهم للضرب بالسياط. إن شخصاً كجواو دي لزيوا أظهر ضعفاً كهذا يستحق العقاب. ولم يسأل القائد الأعلى للأسطول الثاني أبداً عن مسألة افتدائهم، حتى إنه قد عرض عليه عدة مرات عروضاً تتعلق بالنساء فقط لكن هؤلاء الكلاب الكفرة أخذوا القضية بطريقة بدت نتائجها غير مثمرة على الإطلاق.

وبعد هذه الحادثة وصل بييري بيك يوم الاثنين ١٩ أيلول إلى هذه الجزيرة (هرمز) وبرفقته خمس وعشرون سفينة من نوع (Galley) وواحدة من نوع غليون التي ارتحل بها من السويس، وغليون آخر كان قد جلبه مع اثنين من المدافع القديمة من نوع (Quartao)، بالإضافة إلى عدد كبير من البنادق والبارود والقذائف والمدافع والمؤن. وقد فقدت هذه السفينة في المياه الضحلة في عدن. وبعد أن بدأ بييري بيك رحلته إلى هرمز استولى على سفينتين، وبالإضافة إلى سفينة ثالثة من نوع (Catur) في مسقط. وقد كتبت لسيادتكم عما قام به هنا في هرمز. وبالإضافة إلى ذلك فإنه أسر سفينة كبيرة تعود إلى شخص يدعى جواو نونيز وهو رجل من (Chaul).

وبعد أن مكث الأتراك في هرمز ستة عشر يوماً، ساروا باتجاه مدينة قشم التي تبعد ثلاثة فراسخ من هنا، ويقطن في قشم وجهاء هرمز وتجارها هناك ومعهم بضائعهم الكثيرة من الذهب والفضة والنقد، حيث قام الأتراك بسلب جميع هذه الأشياء ولم يفلت من أيديهم أي شيء، وليكن من المؤكد لجلالتكم بأنها كانت غنيمة دسمة جداً لا يوجد لها مثيل في العالم.

وقد قام بييري بيك بكل هذه الأمور ومعه سبعمائة مقاتل وألفين وخمسمائة بحار وملاح لسفنه من نوع (Galley)، وكان في مواجهتهم في هذا الحصن بهرمز سبعمائة جندي، كلهم قديرون جداً ويعتبرون من أمهر حاملي الأسلحة والرماة.

ربما لو كانت معرفتنا عن الأتراك أكثر لكان باستطاعتنا الاستيلاء على مدافعهم

وإلحاق ضرر كبير بهم، وبلا اعتماد على ما بلغنا من أخبار فإن التركي العظيم (السلطان) قد أمر بييري بيك أن لا يجد بأخذ هرمز قبل أن يذهب إلى البصرة ليأخذ جنوداً آخرين منها، غير أنه نتيجة لما وجده من ضعف في مسقط اعتقد بأن الحالة في هرمز ستكون مشابهة، ولذلك فإنه استطاع بالبارود الذي جلبه من مسقط أن يخضعنا لقصف المدافع.

وقد وردت الأخبار من لاروشيراز بأن السلطان طهمااسب قد زحف داخل أراضي السلطان العثماني عبر حدود تبريز، ولم تردني أنباء عن هذا الموضوع بعد ذلك، وحالما تصلني أخبار جديدة فسأكتب لسيادتكم وأرسلها لكم بالسفن المغادرة على تلك الناحية.

لقد أرسلت سفينة من نوع (terquim) إلى جزيرة قشم لجمع الأخبار بشأن نوايا الأتراك، وحيث إنني أكتب لسيادتكم اليوم بعد الظهر في ٣٠ تشرين الأول فقد علمت من خلال سفينة قدمت إلينا من نوع (terquim) بأن جميع الأسطول التركي قد تجمع اليوم في مكان من جزيرة قشم ثم ارتحل من ذلك الموضع حيث كانوا مرابطين به طيلة الفترة التي أعقبت مغادرتهم هذا المكان (هرمز)، وقد ساروا باتجاه البصرة في هذه الليلة، وثق بالله بأن كل هذه الأعمال ستسبب الدمار لهؤلاء الناس، خاصة عندما تقدم جلالتم إلى هذه البلاد وتذهبون باتجاه البصرة. وبهذا فإن بييري بيك لن يفلت من الشرك.

إن الرسالة التي بعثها سيادتكم لي والموجهة إلى مراد رئيس (حاكم البحرين) قد حولتها إليه على الفور وكتبت إليه أن يستجمع قواته في حال مجيء الأتراك للاستحواذ على البحرين، وذلك لكي يتمكن من الدفاع عن نفسه، مما يمثل خدمة لمولانا.

أطال الله في عمرك وأعمالك لسنين كثيرة.

الرئيس نورنها قائد قلعة هرمز، في ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢^(١).

(1) Da Torre Do Tombo CC, Parte la, Maco 89, Doc-9 fol 3 (v) 5r. نشرت هذه الرسالة في: صالح أوزبران (١٩٧٩) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عبد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة. ص.ص ٧٦-٨٠.

٨- «خط شريف» من السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) بتعيين الرئيس مراد صنجقاً على: «ولاية البحرين» عام ١٥٥٨

«بناء على ما عرضه الأمير جلال الدين مراد خان حاكم ولاية جزر البحرين من الولاء للسدة العلية العثمانية، وطلب أن تكون تلك الأيالة في حوزة ولايته، لذلك فقد قلدها له وفوضناها إليه، ونفذنا كلامه بأن تكون مسؤولية تلك الأيالة في يد الأمير جلال الدين مراد خان، ومن بعده يقلدها أخاه شهاب الدين خان أبو النقا، ولأبناء مراد خان من بعده، ومن عقبه، على أن يسيروا بحكم الشرع القويم ٩٦٦هـ»^(١).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم: ٣، ص ١٣٩، رقم الحكم: ٣٦٤. وكذلك دفتر المهمة رقم: ٣، ص ١٤٠، رقم الحكم: ٣٦٦.
نقلًا عن: فاضل بيات (٢٠٠٧) *الدولة العثمانية في المجال العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص ٥٠٥. وقد نشر هذا الخطاب كذلك في: الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٧٩.

٩- تقرير عن حملة حاكم الأحساء العثماني مصطفى بيلربي على البحرين عام ١٥٥٩

في ١٣ رمضان من عام ٩٦٦ بوشر بحصار قلعة البحرين، وفي ٢٦ من رمضان ظهرت إلى العيان ٢٢ سفينة برتغالية من نوع غراب، منها عشرة سفن متجهة نحو البصرة، أما السفن الإثنا عشر الأخرى فقد واجهت سفينتان حربيتان عثمانيتان قادمتان من البصرة بقيادة محمد بيك، فتظاهرت السفن البرتغالية بالانسحاب في مناورة حربية منها، واستمر محمد بيك في تعقبها، ثم اضطر إلى الانسحاب دون أن يحقق مقصده، وفي هذه الأثناء اقتربت إحدى السفن البرتغالية سراً من الساحل وأشعلت النيران في السفن العثمانية المحملة بالذخائر، فالتهمت النيران هذه السفن بما تحمله من ذخائر، وعندما تراجع محمد بيك نزل الأفراد إلى البر ليتزودوا بالماء فانقضوا باثنتين وعشرين سفينة على السفينتين الحربيتين وأسروهما وقتلوا رباناً وأسروا عدداً من الأفراد.

كان مصطفى باشا في هذه الأثناء يشدد الحصار على قلعة المنامة قاعدة البحرين، لكنه وقع على أثر هذه الحادثة البحرية في حصار البرتغاليين من جانب البحر وذلك بعد أن فقد سفنه، واستتبع هذا الحادث أن عقد مصطفى باشا اجتماعاً مع قادة قواته واستعرضوا الحالة التي آلوا إليها، وبعد دراسة الموقف استقر رأيهم على أن ينتظروا قوات مكونة من الجنود المتطوعين قادمة من بغداد بقيادة أحد البكوات، وفي الوقت نفسه شرع مصطفى باشا في التفاوض مع حاكم البحرين الرئيس مراد، لمواجهة الموقف المتأزم وذلك من خلال مطالبته بنقل القوات العثمانية إلى الساحل المقابل لقاء مبلغ من النقود الأجنبية، أما كاتب التقرير فقد وقف من هذا التكليف موقف المعارض خشية وقوع اتفاق بين الرئيس مراد وبين البرتغاليين لتدمير ما تبقى من القوات العثمانية، فلقى هذا الاقتراح القبول لدى بيلربي الأحساء والبكوات الآخرون الذين لم يعودوا مصرين على تحقيق الفكرة السابقة.

ونتيجة لهذه الأحداث فقد قام العثمانيون برفع الحصار عن قلعة المنامة وانسحبت القوات إلى موقع لا تصل إليه نيران المدافع، وبعد ثمانية أيام وصل قارب بحري برتغالي يحمل مجموعة من المقاتلين البرتغاليين الذين توجهوا برفقة جمع من الجنود العجم تحت إمرة الرئيس مراد نحو القوات العثمانية، يرافقهم القائد العربي التابع لحاكم البحرين والمسمى ابن رحال بقيادة فرقة من المقاتلين العرب. أما مصطفى باشا فقد كان من جانبه يحاول إيقاف تقدم القوات المعادية مع المقاتلين الذين كانوا تحت إمرته، في حين نصبت القوات المعادية كميناً وقع فيه كاتب التقرير مع مائتين من الفرسان البغداديين.

وعندما اندلع القتال بين الطرفين لم يتمكن مصطفى باشا من الصمود أمام القوات المعادية فاضطر للتراجع، وشعرت قوات الأحساء بالهزيمة، إلا أن الموقف شهد بعض التحسن عندما تمكنت قوات الانكشارية من بغداد من اتخاذ موقع حصين نصبوا فيه المتاريس وأخذوا يدافعون عن أنفسهم، مما مكن كاتب التقرير من الخروج من الكمين برفقة الفرسان الذين كانوا تحت قيادته، فباغتوا الأعداء وانتصروا عليهم وأسروا منهم عدداً كبيراً، وقد شارك في هذه العملية مائتا فارس من بغداد وأربعمائة مسلح آخر.

ولكن لم تلبث المجاعة أن دبت في صفوف العساكر بسبب قلة المؤونة، وعلى إثر ذلك قام بيلربي الأحساء بإيفاد شخص من قبله للتفاوض مع الأعداء، على نقل القوات العثمانية إلى الأحساء نظير الإفراج عن الأسرى لديه، ولما عاد الشخص الموفد من مهمته أخبرهم بأن الأعداء يريدون تسليم المدافع والأموال والخيول التي كانت بحوزة العثمانيين بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى. وبينما كان الطرفان على وشك الوصول إلى اتفاق ينص على تقديم ٣٥ فرساً، وتسليم بيلربي الأحساء ٢٤٠.٠٠٠ آقجة، إذا بأمر البحر البرتغالي الموجود في هرمز يخبر حاكم البحرين بأنه قادم بسفينة حربية وبصحبه حاكم هرمز ومعه ثلاثمائة من العجم، ويطلب منه التريث وانتظار وصوله قبل أن يبرم أي اتفاق مع العثمانيين. ويبدو أن المسؤول البرتغالي في هرمز قد أطلع لشبونة على هذا الحادث وأنه كان ينتظر وصول تعليمات بهذا الشأن.

أما الجيش العثماني في الجزيرة فقد أحكم الحصار حوله، وتفاقت ضائقته أكثر من قبل، ولم يعد متوفراً له سوى التمر، مما أضطر الجنود لأكل لحوم الحمير. وفي هذه الأثناء انعقد اجتماع في القلعة حضره ممثل برتغالي برتبة كبيرة قدم من لشبونة كما حضره ممثل من هرمز وآخر يمثل الجيش العثماني في الجزيرة وبيلربي الأحساء، وكان كاتب هذا التقرير مبتعثاً كذلك لتمثيل القوات العثمانية في الاجتماع.

وفي المحادثات التي دارت بين هذه الأطراف تعرض الممثل العثماني لموقف حرج، حيث قال له الرئيس مراد إن السلطان سليمان قد منحه كتاب العهد وأنه بهذه الحملة يكون قد نقض عهده وخالف وعده، وعلى ذلك فإنه -أي الرئيس مراد- سينشر قصة هذا الحدث بين أمراء الهند كافة ويطلعهم على حقيقة سلطنته، فأجابه الوفد العثماني بأن السلطان لم يقم بأي عمل يخالف عهده، لأن السلطان لا يعلم بأمر هذه الحملة شيئاً، فإذا عمل الرئيس مراد جهده وجد في إنقاذ الجيش العثماني فإن السلطان سيغمره بإحسانه الواسع، وعندئذ أجاب حاكم البحرين بالموافقة وتعهد بأن لا تتعدى أخبار هذه الحملة منطقة البصرة.

وبعد العودة من القلعة وإطلاع البيلربي على ما دار في الجلسة لم يسفر الموقف عن أي نتيجة، بل اندلع القتال من جديد.

وفي تلك الأثناء وصل أربعمائة مقاتل من فارس لتقوية حاكم البحرين فكان لهذا الحدث أثره في تغيير موقف الريس مراد الذي قوي جانبه عندما انضم لهذه الفرقة عدد ممن كانوا مرابطين في القلعة.

ولصد هذا الهجوم كلف بيلربي الأحساء كاتب التقرير أن يتدارك الموقف من خلال مباغته الفرقة الفارسية، التي تمكن من الظفر عليها، وبعد هذا الحادث بشهر وصلت تعزيزات من المقاتلين من هرمز على سفن برتغالية.

ولكن الحال تغير عقب وفاة بيلربي الأحساء حيث عقد القادة العثمانيون اجتماعاً واختاروا كاتب التقرير لتمثيلهم في مفاوضات جديدة مع الأعداء في قلعة البحرين.

حضر أمير البحر البرتغالي في هرمز جلسات التفاوض، وحدثت المزيد من المواقف المحرجة في حق المندوب العثماني أثناء المفاوضات، حيث إن الطرف المقابل قد علم بوفاة قائد القوات العثمانية بيلربي الأحساء عن طريق بعض الجواسيس، وهو أمر حرص العثمانيون على إخفاءه، مما اضطر الوفد العثماني لإنهاء التفاوض دون تحقيق أي نتيجة.

وبعد وقت قصير أخذت الأمور تتحسن، حيث نجحت الجهود المبذولة من قبل سلطان علي بيك صنجق القطيف لإنقاذ القوات العثمانية المحاصرة في الجزيرة، حيث حصل على صلاحية لإبرام اتفاق مع أمير البحر البرتغالي في هرمز للإفراج عن القوات المحاصرة على أن يدفع عشرة أحمال آقجة الباشا وأن يتخلى المقاتلون عن جميع خيولهم.

وعلى هذا الأساس نقلت القوات العثمانية إلى ميناء القطيف بالسفن البرتغالية في خمس دفعات.

وفي هذه الحملة عانت العساكر العثمانية ضائقة الجوع لمدة أربعة أشهر^(١).

(١) توجد هذه الوثيقة في أرشيف متحف طوب قابي رقم (NE ٢٠٠٤)، وهي مكتوبة بخط أحد المشاركين في الحملة العثمانية في أربع صفحات، ولكن لا يذكر فيها اسم الكاتب ولا تاريخ الانتهاء من كتابة التقرير وإن كان يتحدث بصورة واضحة عن تفاصيل حملة ٩٦٦هـ/١٥٥٩م العثمانية على البحرين. وقد نشرت هذه الوثيقة باللغة التركية في مجلة التاريخ الصادرة عن كلية الآداب بجامعة اسطنبول في عددها السابع عشر الصادر عام ١٩٦٨، ثم ترجمها إلى العربية حسين علي الداغوق ونشرها في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في العدد ٢٤، أكتوبر ١٩٨٠، ص.ص ٢١١-٢٢٠.

١٠- «خط شريف» من السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) إلى حاكم البحرين جلال الدين مراد شاه في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م

«أمر سلطاني إلى مراد شاه حاكم البحرين:

إنك أرسلت أشخاصاً مرات عديدة إلى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا، ومنحك شهادة إثبات بأننا قلدناك ولاية البحرين، وأخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين، وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا محافظ الأحساء قد قام بغزو البحرين دون إذن منا وأنت اتخذت بعض الإجراءات ضده، وكذلك حجز البرتغاليون بعض السفن العثمانية، ولذلك فإننا قد قررنا عزل مصطفى باشا عن منصبه بسبب ما قام به من اعتداء، وعينا محافظاً جديداً محله، وعليك أن ترد الجنود إلى المحافظ في الأراضي العثمانية، وسننزل عليهم العقاب الذي يستحقونه، وسيكون محافظونا وجميع موظفينا في الأحساء مجمعين على تنفيذ إرادتنا حتى لا يتمكن العدو من إلحاق أي ضرر بذلك الإقليم»^(١).



(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية باسطنبول، دفتر المهمة رقم: ٣، ص ١٣٩، رقم الحكم: ٣٦٤، مؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٦هـ.

نشرت في: مجلة الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص. ٧١. وكذلك في: فالج حنظل (١٩٩٧)، مرجع سابق، ص.ص ٤١١-٤١٢.

١١- حكم سلطاني مؤرخ في ٩٦٧هـ/١٥٦٠م، حول هجرة بعض تجار القطيف إلى البحرين

«إلى بيلربي الأحساء:

إن الأمير المذكور بعث بدفتر القضايا المختوم إلى مقام السلطان يقول فيه إن أمير الأحساء السابق مصطفى بيلربي قد استولى على أموال جمعة رحال الموجود في القطيف رغم الأمر السلطاني الصادر إلى أمير الأحساء السابق محمد بيلربي حول منع الاعتداء على أموال رحال وأقربائه بعد أخذ حقوق الديوان منها ، وجمعة بن رحال هو من كبار التجار في القطيف ، وعندما استولى مصطفى بيلربي على أمواله هرب على البحرين واستقر فيها وأخذ معه ما يملكه من السفن والغواصين واللؤلؤ، مما أدى إلى ركود اقتصادي في الأحساء ، ولم يعد يذكر اسم اللؤلؤ فيها.

وبالنسبة لسؤالكم حول كيفية التعامل مع الأموال المصادرة من قبل مصطفى بيلربي ، فإننا نأمر بإرجاع أموال عائلة آل رحال إليهم بعد قبض رسوم الدولة من المبلغ وتضمينه في الخزينة الخاصة بإسطنبول»^(١)

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم: ٣، ص ٣٧٩، رقم الوثيقة ١١٢٣. بتاريخ ١٨ شعبان ٩٦٧هـ. نشرت ترجمة هذا الحكم في مجلة الوثيقة، العدد ١٠، يناير ١٩٨٧، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ١٢١.

١٢- خطاب من السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) إلى وزير مصر

حول معلومات وردت من البحريين عن النشاط العسكري البرتغالي في الخليج العربي
عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م

«أفادت المعلومات الواردة من البحريين أن الكفرة البرتغاليين لا يزالون يغيرون على جوانبها بسفنهم فيفسقون فيها بأسر المسلمين ونهب أموالهم، وقد يصل ضررهم إلى جوانب مخا وعدن، فقبطان مخا ليست لديه سفينة مطلقاً، والدفاع عن تلك البقاع من مهماتك، فعليك تجهيز سفينتين حربيتين من السفن المتواجدة في السويس تجهيزاً كاملاً بالآلات والمعدات الحربية والرجال، وإرسالهما إلى قبطان مخا لاستخدامهما في الدفاع عن نواحي عدن ومخا، ومتابعة الأحوال والأوضاع في اليمن بإرسال من يأتيك بأخبارها في كل حين، فلا ينبغي أن يلحق ضرر من الكفرة في المدن أو أي مكان آخر، فلا تهمل مهمة الدفاع عن تلك النواحي والأصقاع، وعليك اتخاذ جميع التدابير اللازمة لحراستها، ولا تفوت لحظة واحدة في باب الاهتمام بها.

كما يتعين عليك إخبارنا عن كيفية تجهيزك للسفن وتاريخ إرسالها وما تحصل عليه من أخبار ومعلومات صحيحة عن الأوضاع السائدة في اليمن والبنادر الواقعة فيها»^(١).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم ٩، ص ٨. نشر هذا الحكم في: الوثيقة، العدد ١٥، سنة ١٨، (يوليو ١٩٨٩)، مركز الوثائق التاريخية، البحريين. ص ٦١-٦٢.

١٣- خطاب من السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) إلى بيلربي البصرة يأمره بالاستعداد لحملة برتغالية مرتقبة في المنطقة عام ١٥٧٣

«أمر إلى بيلربي البصرة:

إن والي بغداد علي باشا أطال الله عمره وأدام إقباله قد كتب إلينا رسالة ورد فيها أن الكفار البرتغاليين الحقيرين لعنهم الله قد جاؤوا في اثنتي عشر سفينة (قادرجة) وسفيتين (غليون) ووصلوا إلى البحرين وأخذوا يتجسسون على سفن التجار ويضرون بالسواحل القريبة من البحرين ومن أراضينا المحروسة ويتعدون على بعض قلاعنا ، فيجب أن تهتم أنت بالأمر وترسل عشر سفن إلى منطقة الأحساء لتحافظ عليها من العدوان وتدفع الشر عن أهلها ، كما يجب أن تقوم بالدفاع عن الأحساء.

وقد أمرنا بتعيين والي بغداد على محافظة البصرة ووالي شهر الزول محافظاً ببغداد ، وقمنا بإرسال هذا الأمر إلى والي بغداد في محافظة البصرة ووالي شهر الزول وأمرناهما في تلك الخطابات أن يعاونوك إذا وقع أي عدوان من الكفار لعنة الله عليهم على سواحل مملكتنا ، وأمرناهم أن يعاونوك في البر والبحر ويسوقوا الجيوش تحت أمرك ، وأن تكون السفن في البحر تحت أمرك لتدافع بصورة جيدة عن أراضينا في السواحل وعن جزيرة البحرين حسب ما تراه مناسباً ، ويجب أن تبقى في الدفاع عن المنطقة إلى أن يصل بيلربي جديد إلى الأحساء ، وإذا جاء البيلربي إلى الأحساء فلا تهتم باستقباله وتترك موقعك في القتال ، ويجب أن تضع عدداً من الجنود في القلاع حتى يحافظوا على المملكة بدقة ولا تنسى هذا أبداً ، ولله الحمد.

١٠ جمادى الأولى سنة ٩٨١ هـ»^(١).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم: ١٢، ص ٢٢٢، رقم الحكم: ٦٨٣. نشر هذا الأمر في: عبد الرحمن بن عثمان الملا (١٩٩٠) تاريخ هجر، الأحساء. ٢/٢٢٤.

١٤- حكم سلطاني إلى بيلربي بغداد حول اتخاذ التدابير اللازمة لغزو البحريين عام ١٥٧٥

«أرسل إلينا بيلربي الأحساء خطاباً يذكر فيها أن فتح البحريين سيكون أمراً ميسوراً بإذن الله، ويذكر بأن عدد المحاربين في الحصون قليل، كما أن السفن الموجودة في البصرة من طراز (Gally) غير كافية لشن الحملة، ولا يمكن في الوقت الحالي التقليل من أهمية العدو وقدراته القتالية، حيث إنه يتوجب اتخاذ جميع التدابير اللازمة للحملة.

ولذلك فإنه يتوجب عليك الاطلاع على جميع تفاصيل المنطقة بحكم خبرتك السابقة عندما كنت بيلربي بها، وعندما يصلك هذا الفرمان فإنه يتوجب عليك أن تكتب تقريراً وافياً عقب الاطلاع على كافة التفاصيل، تذكر فيه بدقة كيفية التحضير للقيام بهذه الحملة وفق معرفتك، وأن تذكر عدد السفن المطلوبة لمهاجمة القلعة، وما نوع المدافع المطلوبة لفرض الحصار عليها، وكم يتطلب الأمر من العسكر والمعدات والمؤن والتجهيزات لمهاجمة القلعة، وهل يمكن توفير المدافع والمؤن المطلوبة من بغداد والبصرة، وهل يوجد فيهما العدد الكافي من العسكر لتنفيذ هذه المهمة، وهل يمكن للعدو البرتغالي بأسطوله المتمركز في هرمز أن يقف في وجه الحملة ضد البحريين.

وعليك أن تتأكد من اتخاذ جميع الاستعدادات اللازمة حتى لا تتسبب حملة فاشلة -لا سمح الله- في الإساءة لاسم السلطنة، والحط من قدرها.

لقد أوضح بيلربي الأحساء بأنه إذا ما تم فتح الجزيرة المذكورة أعلاه فإن ربيعها السنوي سيكون بحدود ٤٠.٠٠٠ فلوري، فاكتب لنا لتأكيد أن هذا الربيع السنوي سيكون متحققاً بالفعل، وبأن هذا الإيراد سيزيد عن حجم النفقات والمصروفات، وهل يمكن أن يكون إيراد الجزيرة أكبر من ذلك.

واكتب لنا كذلك إن كانت سفن البصرة كافية لشن الحملة، أم أن الأمر يتطلب إنشاء السفن الثمانية التي كنا قد أمرنا بها من قبل، وكيف سيمكنك تزويد هذه السفن بالمدافع اللازمة، وعليك أن تشرع في بناء السفن فور وصول الأخشاب إليك.

وفي الختام عليك أن تأخذ بنظر الاعتبار جميع الظروف المتعلقة بالجزيرة المذكورة وأن تخبرنا عنها بالتفصيل»^(١).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم: ٣، ص ٨١، رقم الحكم: ٢٧. بتاريخ: ٩ صفر ٩٨٣هـ/ ٢٠ مايو ١٥٧٥م. نشر هذا الحكم في: صالح أوزبران (١٩٧٩) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عيد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة. ص.ص ٨٥-٨٦.

١٥- حكم سلطاني إلى بيلربي الأحساء حول خطة لمهاجمة البحرين وبناء قلعة في مدينة المنامة عام ١٥٧٥

«أرسل إلينا بيلربي بغداد برسالة مفصلة إلى الباب العالي بخصوص فتح قلعة البحرين، وبناء برج قوي مقابل هذه القلعة في ميناء المنامة بالبحرين، وكذلك إنشاء مبنى آخر في القطيف للمهمات العسكرية وتخزين الذخائر والمستلزمات الضرورية لإنشاء ذلك البرج في الميناء المذكور، بالإضافة إلى تأمين وتخزين ٢٠ ألف قطعة من القلف والزناجيل المصنوعة من سعف النخيل لاستعمالها في نقل المواد الإنشائية في ذلك الميناء»^(١).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، دفتر المهمة رقم: ٢٧، ص ١٩٧. بتاريخ ٩٨٣ هـ/١٥٧٥ م. نشر هذا الحكم في: الوثيقة، العدد ١٥، سنة ١٨، (يوليو ١٩٨٩)، مركز الوثائق التاريخية، البحرين. ص ٦١. وانظر كذلك: فاضل بيّات (٢٠٠٧) الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص ٥١٤.

١٦- وثيقة بيع أرض زراعية فيها نخيل بالبحرين، عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م

الحمد لله الذي أحل الحلال وحرم الحرام، وجعل العقود الشرعية موصلة البلوغ الفضيلة ونيل المرام، والصلاة والسلام على محمد وآله البررة الكرام، وبعد فهذه حجة صحيحة شرعية، يخبر مضمونها ويدل مكنونها على أنه قد باع الحاجي الأكرم حاجي محمد ابن المرحوم حاجي حسين بن قاسم العالي، معنى من الرئيس الأفخم مرضي الخصال ومحمود الشيم، ريس جمال ابن الريس محمد الهرجي مجموع حقه ومستحقه من النخل المعروف بسهم الصايغ، الواقع بسيحة غرب من قرية عالي من قرى أوال حرست عن الأهوال، المحدود غرباً بنخل مودع بن يوسف، وشمالاً بالشطيب منتهاً إلى صرمة الوقف منتهاً إلى الساقية الفاصلة، وشرقاً صرمة بيت محمد بن سعيد منتهاً إلى نخل راشد بن حسين، وجنوباً نخل راشد بن حسين المزبور منتهاً إلى الساقية، بجميع ما للمبيع المذكور من الحدود والحقوق والتوابع واللواحق، والنخيل والفسيل، والماء ومجاريه وينايبعه وأرضه وسمائه، وكل حق داخل فيه أو خارج عنه يعرف به وينسب إليه، ويتعلق عليه شرعاً أو عرفاً أو لغة، بثمن صحيح شرعي مسلم من مال المشتري المزبور، مقبوض بيد البائع المذكور، قدره ثلاث مائة محمدية فضلية (..) (١) شاجية، من أم مثقال ودانق شيرازيين من ضرب البصرة بيعاً واشترى صحيحة شرعية مرضية، مشتملين على شرائط الصحة شرعاً ولاسيما الأمر والقبول، والإقباض والقبض، والتسلم والتسليم، وبعد الرؤية التامة، والخبرة الشاملة، الدافعة والرافعة لدعوى الغرر والجهالة، وتفرق المتعاقدين عن مجلس العقد بالتراضي والإمضاء، من غير فسخ ولا إقالة، فبموجبه لم يبق للبائع المسطور في المبيع المرفق ولا بعلمه ثمن حق ولا مستحق دعوى، ولا طلب ولا حجة ولا حصّة ولا شركة ولا تعلق ولا تطرق بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب، ولا يستحق شرعاً، ولا غيرها من الأيمان المسموعة شرعاً ويمين مواطاة واستحقاق وغيرهما، بل الحق الصحيح الشرعي، والتصرف الناقل النافذ الملى فيه للمشتري المزبور من البائع المسطور، ومن يجي من جهته من سائر الناس أجمعين، يتصرف فيه كيف شاء، كما يتصرف الملاك في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم، وعلى ذلك وقع وصحح الأشهاد بتاريخ اليوم، الثامن من شهر الحجة الحرام، أحد شهور سنة ثمان وتسعمائة هجرية، على مهاجرها وآله أفضل الصلوات وأكمل التحيات، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيراً.

حرره الفقير إلى مالك الغنى عبد الرؤوف بن حسين الحسيني الموسوي سنة ثمان وثمانين وتسعمائة. (مع ختمه على نص حجة البيع) (٢)

(١) سقطت كلمة في هذا الموضع بسبب تلف في الورقة.

(٢) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

ومن الشهود:

محمد بن حسين بن قاسم

محمد بن يوسف علم

إسماعيل بن حسن بن يوسف

علي بن عبد الصمد بن حسن

(وردت أسماء أخرى غير مقروءة لبعض الشهود بسبب تلف الورقة)

١٧- وثيقة بيع أرض زراعية فيها نخيل بالبحرين، ووقف جزء منها، عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه محمد وآله الطاهرين، وبعد: فهذه حجة شرعية تشمل وتدل على أنه قد باع المفتقر لله الغني محمد بن يوسف بن علم البحراني، من جناب المخدرة العفيفة الطاهرة بيبي نجيبة بنت الرئيس أمين بن محمد الهرجي تمام الربع الشايح من النخل المسمى بشطيب سنجر، مع الثمر الشائع من الصرمة المتصلة من الشمال الواقعة بسيحة عالي من قرى البحرين حميت عن الشين، يحد الشطيب غرباً الساقية الفاصلة، وشمالاً ملك الموالي منتهياً للصرمة الساقية المزبورة، وشرقاً الطريق، وجنوباً ملك محمد أيوب قديماً، ويحد الصرمة غرباً ملك الموالي المسطور، وشمالاً كذلك، وشرقاً الطريق، وجنوباً الساقية، والصرمة المزبورة، بجميع ما لذلك من الحدود والحقوق، والتوابع واللواحق، والنخيل والفسيل والصنا، والأرض والسما، والماء ومجاره وينابيعه والتمر الموجود يومئذ على روس فيها، وما يعد من ذلك شرعاً ولغة وعرفاً، ثمن شرعي مسلم، ومال الصرمة المذكورة بتمامه وكماله مقبوض بيد محمد البائع بتمامه كذلك، قدره مائة وخمس وثمانون محمدية بصرية وزن الواحدة من مثقال ودانق بالمثاقيل الشيرازية، بصفة ضبط الأصل، اثنان وتسعون محمدية ونصف محمدية، من المحمديات الموصوفة، مبايعة صحيحة شرعية مشتملة على جميع الشرائط المعتبرة في صحة البيع ولزومه شرعاً، سيما الإيجاب والقبول، والإقباض والقبض، والتسليم والتسلم في الثمر، والمثمر، وبعد الرؤية التامة، والمعرفة الكاملة من الطرفين، الرافعة لدعوى الغرر والجهالة من كل منهما، وتفريقهما عن مجلس العقد بالرضى والإمضاء، من غير فسخ أو إقالة، فيموجبه صار المبيع المزبور مالاً وملكاً من أموال وأملاك المشتري المزبور، وانتفى للبائع المبيع، ولا بعلقة الثمر حق أو مستحق ولا دعوى ولا طلب ولا حجة ولا عين، لإسقاطه له شرعاً، ولا غيرها من الأيمان الشرعية من غير المواطأة والاستحقاق وغيرها، ولا تعلق ولا تطرق بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب، وعله من العلل، والماء المعد لسقي الشطيب المسطور التي تسقى منها يومئذ من طلوع الشمس إلى الظهر يوم الأحد، وكذلك يوم الثلاثاء من طلوع الشمس إلى الظهر، ويوم الجمعة من الظهر إلى أن يصير الفياء في الشرق ثمانية وعشرون قدماً، وباقي الماء وهو من بلوغ الفياء في الشرق القدر المزبور سابقاً إلى الغروب يوم الجمعة الذي كان في القديم للشطيب تسقى به الصرمة المزبورة، وللصرمة المزبورة ماؤها القديم أيضاً، وهو من الظهر إلى الغروب يوم الأحد أيضاً، وأنيتها في صرمة الموالي بها من كل أسبوع وعلى الشطيب من التوزيع الديواني اثنتا عشر قطعة وعلى الصرمة قطعان، هكذا قانونه والمقرر من السابق، ولذلك أصبح لازماً، وقد أسقط البائع العين

من المبيع، وأسقطت المشتريه العين من التمر كذلك إسقاطاً شرعياً، وجرا ذلك كله بتاريخ يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الثاني سنة خمس وتسعين وتسعمائة، والحمد لله وصلى الله على محمد وآله.^(١)

أضيفت ملاحظة في نهاية الحجة: (والنصف من الصرمة المزبورة وقف فراغ المرحومة سيدة افتخار بنت يوسف بن ناصر عفي عنهما)

حرره الفقير إلى مالك الغنى عبد الرؤوف بن حسين الحسيني الموسوي. (مع ختمه على نص الحجة)

الشهود:

سليمان بن عبد الرؤوف بن حسين

جعفر بن عبد الرؤوف بن حسين

محمد بن يوسف بن علم

يوسف بن علم

داود بن محمد بن عبد الله الوالي

(١) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٥٨٦هـ/١٩٩٥م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

١٨- وثيقة تقسيم أرض زراعية بها نخيل بين مالكين مشتركين في ملكيتها بالبحرين، عام ١٥٩١هـ/١٥٩١م

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد وعترته الطاهرين، وبعد: مضمون هذه الحجة الصحيحة الشرعية، ومكنون الوثيقة المعتبرة المرعية، يشتمل ويدل على أنه بعدما كان النخل المسمى بالبرهمي الشمالي، الواقع في سيحة قرية عالي من قرى أوال صانها الله في ظل واليها وحاميها من الزوال، المحدود غرباً بملك ورثة مفلح، وشمالاً بالساقية الذي تسقي رفض حيسون، وشرقاً بالساقية كذلك، وجنوباً بالبرهمي الجنوبي ملك إبراهيم بن غيث مشتركاً بين الرئيس الأفخم الأعظم ريس جمال بن المرحوم المغفور له المبرور ريس أمين بن محمد الهرجي وبين المحرم المكرم رمضان بن المرحوم المغفور عصفور بن راشد الصنمري للرئيس المذكور، من ذلك ثلث النخل للمذكور والثلاثان الباقي لرمضان، فجرت بينهما مقاسمة وصلحاً شرعياً في النخل المذكور، فانحاز الرئيس جمال المذكور وذلك النخل بثلثه، وهو السهم الشمالي الشرقي المحدود غرباً بالشارع الفاصل بين السهم الغربي وبينه ومنه إلى سهم الغربي، وشمالاً بالساقية المذكورة ساقية رفض حيسون، وجنوباً بقسميه من النخل المذكور، وباقي السهمين من النخل المذكور هو لرمضان المذكور، يحده غرباً محل ورثة مفلح، وشمالاً ساقية رفض حيسون منتهياً إلى قسميه سهم الجنوبي، والبياض كله إلى رمضان المذكور مع النخل إلى الآن في السطر مع سمتها، مغرباً مشرقاً، وشرقاً بالشارع المذكور منتهياً إلى نصف بياض الخمس النخلات المذكورة منتهياً إلى ساقية رفض حيسون المذكور، وجنوباً إلى ملك إبراهيم بن غيث المذكور، وهو البرهمي الجنوبي مقاسمة وصلحاً صحيحين شرعيين، معتبرين مشتملين على الصحة والسداد، بائنين عن نوائب البطلان والفساد، وسيما بالإيجاب والقبول، والقبض والإقباض، والتخلية الشرعية وإسقاط العرف والأيمان، وغير ذلك شرعاً وعرفاً ولغة، بحيث لم يبق لكل منهما عند صاحبه فيما عين له وكتب باسمه، حق ومستحق، ولا دعوى ولا طلب، ولا حجة ولا حصة وشركة، ولا تباع ولا تراعى، ولا تعلق ولا تطرق ولا تعلق بوجه من الوجوه، وسبب من الأسباب، وعلّة من العلل، بل كل منهما يتصرف فيما عين له، وكتب باسمه، يتصرف كيف شاء وأحب وأراد، تصرف المالك في الأملاك وذوي الحقوق في الحقوق، على سيح رمضان المذكور للرئيس جمال المزبور خمس وعشرين محمدية بصرية ساجية من أم مثقال ودانق من خالص ماله، وقد وصلت الرئيس المذكور الدراهم من يد رمضان المذكور بحيث برئت ذمة رمضان المسطور منها، براءة صحيحة شرعية، والتوزيع الديواني ما توجه منه عليهما أثلاث: على الرئيس منه الثلث، والثلاثان على رمضان، عن النخل المذكور، وما للنخل بينهما أثلاثاً كذلك، على النمط المدون،

وجرى ذلك كله على الوجه الصحيح الشرعي، المعتبر المرعي، باليوم الثاني والعشرين من شهر جمادى الأولى لسنة ألف من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة والتحية وعترته المرضية، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.^(١)

الشهود:

حسين بن عبد الله بن حسين

عبد العزيز بن عبد الله بن علي

حاجي حسن عبدل

حسن بن محمد بن عبد الله

السيد أحمد البوري

محمد بن أحمد بن سليمان العالي

(١) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

١٩- حجة بيع أرض زراعية بها نخيل بالبحرين، ووقف بعض أموالها لخدمة مسجد، بتاريخ
٢٢ جمادى الثانية ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م

مضمون هذه الحجة الصحيحة الشرعية، يدل على أنه قد باعت المصونة أم علي بنت
المرحوم الحاج عبد الله بن محمد بن سلطان الجد حفصي أصلاً، من جناب الرئيس الأعظم
الأكرم الأفخم ريس جمال الدين بن ريس محمد الهرجي، بوكالته العامة شرعاً عن أخته
المصونة المخدرة والمخفرة المطهرة بي بي نجيبة ابنة الرئيس محمد المسطور، تمام مستحق
المبايعة المسطورة، ستة أسهم من ستة عشر سهماً هي تمام سهام الملك المعروف بالشطيب
الكائن بسيحة قرية عالي من قرى محروسة أوال حرسها الله تعالى عن الأهوال، المحدودة
غرباً بالساقية، وشمالاً بملك الموالي العظام، وشرقاً بملك المشتري لها المذكورة، وجنوباً
بملك الحاج ناصر بن حسن، بجميع ما لذلك من الحدود والحقوق والتوابع واللواحق والنخيل
والفسيل والصنا، والأرض والسما، والماء ومجاريه وينايبه، وكل شيء وأصل فيه وخارج
عنه، بيع صحيح شرعي مسلم من مال المشتري لها، مقبوض بيد المبايعة المسطورة بتمامه
وكماله، قدره سبع وتسعون محمدية ونصف محمدية، من ضرب البصرة من أم مثقال
ودانق شيرازيين، بصفته حفظاً لأصله، ثمان وأربعون محمدية وثلاثة أرباع محمدية، مبايعة
صحيحة شرعية، مشتملة على جميع الشرايط والأركان المعتبرة في صحة البيع ولزومه
شرعاً، ولاسيما الإيجاب والقبول، والإقباض والقبض والمعرفة، وغير ذلك، فبموجبه لم
يبق للبايعة المسطورة فيما باعته ولا في شيء من ثمنه المزبور حق ولا مستحق ولا دعوى
ولا طلب، ولا حجة ولا حصة ولا شركة ولا تبعة ولا رجوع ولا غبن، ولا يمين من الأيمان
الشرعية من يمين مواطأة أو استحقاق وغيرها، ولا تعلق ولا قول بوجه ما، والحق الصحيح
الشرعي للمشتري لها دون البايعة ومن يأتي من جهتها وسائر الناس أجمعين، بنسب أو
سبب، تتصرف فيه لنفسها كيف شاءت وأحبت وأرادت، تصرف المالك في الأملاك
وذوي الحقوق في الحقوق، وقد أوقف جملة تمر يورد العشر من السعر الجديد يوم التاريخ
المذكور لعمارة المسجد الشريف مسجد عبد الله بن محمد بن سلطان الواقع بالحمامرية
ولتجديد قبره الكائن فيه، وفقاً صحيحاً شرعياً مؤبداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،
وجرا ذلك في تمام عشرين جمادى الثانية للسنة السابعة بعد الألف من الهجرة النبوية على
مهاجرها وآله أفضل الصلاة والتحية، وصلى الله على محمد وآله.

حرره الفقير إلى مالك الغنى جعفر بن عبد الرؤوف بن حسين الموسوي عفي عنهما. (مع)
ختمه على نص حجة البيع^(١)

(١) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

الشهود:

يوسف بن علي البوري، وقد سقطت أسماء باقي الشهود بسبب تلف الورقة في نهايتها،
ومن الأسماء التي يمكن قراءتها: عبد الباقي، ويوسف.

٢٠- وثيقة بيع أرض زراعية بها نخيل بالبحرين، بتاريخ ١ محرم ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م

مضمونه يدل على أنه باعت المخدرة الطاهرة سعيدة بنت المرحوم المبرور عبد الله بن محمد الذي من قرية جد حفص، من المصونة نجبية بنت محمد بن إبراهيم الذي من قرية سترة، واشترت منها تمام ثلاثة أسهم من ثمانية أسهم، هي تمام سهامها من النخل المعروف بصرمة علم الواقعة بسيحة قرية عالي من قرى البحرين المحروسة في ظل واليها عن الشين، المحدود غرباً بالساحة، وشمالاً بسنجر، وشرقاً ملك الرئيس الأعظم ريس جمال، وجنوباً بالعمر، بجميع ما للأسهم المباعه من الحدود والحقوق والتوابع واللواحق والمرافق، والنخيل والفسيل والصنا، والأرض والسما، والماء ومجره، وما يعد منه أو ينسب إليه أو يتعلق عليه، شرعاً وعرفاً ولغة عموماً وإطلاقاً، بثمن شرعي قدره مائة وثلاثون محمدية بصرية سامية من أم مثقال ودانق شيرازيين، بصفته تأكيداً له خمس وستون محمدية، مبايعة صحيحة شرعية معتبرة مرعية مرضية، مشتملة على جميع الأركان والشرائط المعتبرة شرعاً، وقد قبضت البائعة المزبورة جميع الثمن المسطور من المشتري المذكورة، فصارت به ذمتها، وأسقطت العين والأيمان والدعاوي وكل ملكها باعتها، فبموجبها لم يبق للبائعة المذكورة من المبيع المسطور ولا بعلمه ثمن، ولا لعين الأيمان والدعاوي لإسقاطها عنها شرعاً حق ولا مستحق، ولا دعوى ولا طلب، ولا حجة ولا متاع ولا يراع، بوجه ما وعله ما وسبب ما، تتصرف فيه كيف شاءت وأحبت وأرادت، تصرف المالك في الملك، وذوي الحقوق في الحقوق، وقد تقرر أن في عامة النخل سهمان وقف، ورزق الحلة عشرون فن، عشر ما بصحبة الجديد البحراني ليس عليهما خراج، وحرر ذلك كله على منهاج الشرع، باليوم الحادي من شهر محرم الحرام للسنة الثامنة بعد الألف، ولله الحمد أولاً وآخراً.^(١)

وردت في أسفل الحجة ملاحظة: زنة الحلة الموصى بها على الدوام في السهام المباعه عشرين فن، زنة كل فن ألف مثقال وثمانية وخمسون مثقالاً، والسهام المشاعة ثلاثة أسهم من ثمانية أسهم هي تمام سهام المبيع المذكور فليعلم.

حرره جعفر بن عبد الرؤوف بن حسين الموسوي عفي عنهم. (ويظهر ختمه على الحجة)

الشهود:

كمال بن أحمد بن سرور بن الحسين

إسماعيل بن يوسف العالي

علي بن يوسف بن علي

أحمد بن عبد الرؤوف بن حسين

(١) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

٢١- وثيقة بيع أرض زراعية بها نخيل بالبحرين، عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م

باع العبد الحقير حسين بن عبد الرؤوف الحسيني الموسوي، والرئيس الأكرم الأحشم ريس جمال بن ريس محمد الهرجي، تمام نصف حقي ومستحقي من الصرمة المعروفة بصرمة الشوارع الواقعة في سيحة قرية عالي من قرى البحرين حرست من الشين. تحد الصرمة الجنوبية منها غرباً صرمة العبد إبراهيم، وشمالاً الساقية، وشرقاً أرض بربعة ساري، وجنوباً ساقية أبو لومي، ويحد الشمالية منها غرباً ملك ورثة الحاجي عبد العزيز بن محمد، وشمالاً شطيب العساكر، وشرقاً صرمة العبد، وجنوباً الساقية، بجميع ما لذلك من الحدود والحقوق، والتوايع واللواحق الشرعية والعرفية واللغوية، بثمن قدره مائة محمدية وأربعين محمدية من المحمديات التي زنة كل واحدة مثقال ودانق شيرازيين، لأصله سبعين محمدية، مع تمام نصف حقي ومستحقي من الصرمة المعروفة بصرمة السيد سعيد الواقعة في سيحة قرية جبلة حبشي، بيعاً صحيحاً شرعياً، معتبراً مرعياً، مشتملاً على جميع مصححات البيع والقبض والإقباض، والتسلم والتسليم، وذلك بعد تورم الخبرة التامة من الطرفين، فموجبه صار تمام البيع المزبور حالاً وسائر أموال المشتري المزبور، يتصرف فيه كيف شاء وأحب وأراد، وقرى الجميع وصح عليه الشهاد، باليوم الثالث من شهر رمضان، أحد شهور السنة التاسعة بعد الألف، ولله الحمد وحده، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.^(١)

أضيف بالخط الأحمر: (والتمر الموجودة يومئذ داخله في المبيع فليعلم)

الشهود:

حرره الفقير إلى مالك الغنى جعفر بن عبد الرؤوف الحسنى الموسوي عفي عنهم. ويظهر ختمه على الحجة، ونص الختم: (الواثق بالملك الغني القوي جعفر بن عبد الرؤوف الموسوي)

عبد القادر بن عبد الرؤوف

ماجد بن هاشم الحسيني

ناصر بن محمد

حسن بن محمد بن ناصر

حسن بن قاسم

علي بن يوسف العالي

(١) حجة بيع أرض زراعية بها نخيل عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م، بقسم الوثائق والمخطوطات في متحف البحرين الوطني.

مصادر ومراجع الكتاب

أولاً؛ المصادر

أ- المصادر البرتغالية:

- ١- عبد الرحمن الشيخ، ترجمة، (٢٠٠٠) *السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك*، المجمع الثقافى، ٤ أجزاء، أبو ظبي ٢٠٠٠.
- ٢- عبد الهادي التازي (١٩٩٣) «وثيقة لم تتشر عن البحرين» الوثيقة، العدد ٤ يناير ١٩٨٤، ص.ص ٥٨-٧٣.
- ٣- عيسى أمين (١٩٩٧) «تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا»، الفصل الأول، الوثيقة، العدد ٣١، يناير ١٩٩٧، ص.ص ١٤٠-١٧٦.
- ٤- _____، (١٩٩٨) «تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا»، الفصل الثاني، الوثيقة، العدد ٣٣، يناير ١٩٩٨، ص.ص ١٣٢-١٧١.
- ٥- _____، (١٩٩٦)، *تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوراتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة تشالزبوكر*، البحرين.
- ٦- عيسى أمين (١٩٩٦) *تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تينحسيرا*. مؤسسة الأيام، البحرين.

المصادر البرتغالية المنشورة باللغات الأجنبية:

- 1- Birch, W. G. (1881), **The Commentaries of Great Afonso Dalboquerque**, Translated from Portuguese by Walter de Gray Birch, Hakluyt Society, London.
- 2- Boxer C.R. (1930) **Commentaries of Ruy Freyre Andrada**, edt. Routledge, London.
- 3- Dames M. L. (1918) **The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their inhabitants, Completed about the Year 1518 A.D.** Translated from the Portuguese Text by Mansul Longworth Dames, Vol. 1, Hakluyt Society, London.
- 4- Damiao de Gois (1949-1955) **Cronica do felicissimo rei D. Manuel**. 4 vols, Coimbre.

5- De Bularo Pato R.A ed. (1884-1935) **Cartas de Afonso de Albuquerque seguidas de docuinentos que elucidativos**, 7 vols., Lisbon.

6- Beckingham, C.F. and. Huntingford, G.W.B., editors (1961) **Francisco Alvares, the Prester John of the Indies, being the narrative of Portuguese embassy to Ethiopia in 1520**, Hakluyt Society, Cambridge.

7- Hakluyt Society (1944), **The Suma Oriental of Tom Pires, An Account of The East, From the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515**, 2 vols, London.

8- Joao de Barros (1945-46) **I Asia. Dos feitos que os Portugueses fizeram no decubrimento e conquista dos mares e terras do Oriente**. Lisbon, 7th edition.

9- Joao De Sousa, (1789) **Documentos Arabicos Para A Historyia Portucueza**, Lisboa.

10- **Portuguese Voyages 1498 – 1663**, London 1947, XX-XXI, PP. 333-360.

11- Liveros das Monoes (1880). **Docummetos Remettidos da India 1585-1631**. 14 vols. ms., , 9 vols. ed. (1986), Lisbon.

12- Manuel de Faria Sousa (1971) **The Portuguese Asia or The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese**. Translated by John Stevens Westmead. Gregg International Publishers, London.

13- Sinclair, W. (1902), **The Travels of Pedro Teixeira**, Translated and Annotated by William F. Sinclair, Hakluyt Society, London.

ب- المصادر العثمانية:

أرشيف رئاسة الوزراء العثماني باسطنبول، دفاتر المهمة:

| | | | |
|-------|-----------|------|---------------------|
| ٢٢٢. | رقم الحكم | ٢٢ : | ١- دفتر المهمة رقم |
| ٣٦٤. | رقم الحكم | ٣ : | ٢- دفتر المهمة رقم |
| ٣٦٦. | رقم الحكم | ٣ : | ٣- دفتر المهمة رقم |
| ٣٦٧. | رقم الحكم | ٣ : | ٤- دفتر المهمة رقم |
| ٧٤٧. | رقم الحكم | ٣ : | ٥- دفتر المهمة رقم |
| ١١٢٢. | رقم الحكم | ٣ : | ٦- دفتر المهمة رقم |
| ١١٢٣. | رقم الحكم | ٣ : | ٧- دفتر المهمة رقم |
| ١١٢٤. | رقم الحكم | ٣ : | ٨- دفتر المهمة رقم |
| ١١٢٨. | رقم الحكم | ٣ : | ٩- دفتر المهمة رقم |
| ١١٣٠. | رقم الحكم | ٣ : | ١٠- دفتر المهمة رقم |
| ١١٤٦. | رقم الحكم | ٣ : | ١١- دفتر المهمة رقم |
| ١٢٤٥. | رقم الحكم | ٣ : | ١٢- دفتر المهمة رقم |
| ١٤٤٦. | رقم الحكم | ٣ : | ١٣- دفتر المهمة رقم |
| ١٤٥٦. | رقم الحكم | ٣ : | ١٤- دفتر المهمة رقم |
| ١٤٠٦. | رقم الحكم | ٧ : | ١٥- دفتر المهمة رقم |
| ٦٨٣. | رقم الحكم | ١٢ : | ١٦- دفتر المهمة رقم |
| ١٧٤. | رقم الحكم | ١٩ : | ١٧- دفتر المهمة رقم |
| ٦٢١. | رقم الحكم | ٢٢ : | ١٨- دفتر المهمة رقم |
| ٦٢٢. | رقم الحكم | ٢٢ : | ١٩- دفتر المهمة رقم |
| ٦٣٨. | رقم الحكم | ٢٢ : | ٢٠- دفتر المهمة رقم |
| ٢٠٦. | رقم الحكم | ٢٧ : | ٢١- دفتر المهمة رقم |
| ٢٧٧. | رقم الحكم | ٢٧ : | ٢٢- دفتر المهمة رقم |
| ٤٥١. | رقم الحكم | ٢٧ : | ٢٣- دفتر المهمة رقم |
| ٧٠٧. | رقم الحكم | ٣١ : | ٢٤- دفتر المهمة رقم |
| ٧٢٤. | رقم الحكم | ٣٣ : | ٢٥- دفتر المهمة رقم |
| ٧٥١. | رقم الحكم | ٣٣ : | ٢٦- دفتر المهمة رقم |
| ٦٨٦. | رقم الحكم | ٣٥ : | ٢٧- دفتر المهمة رقم |
| ٦٩١. | رقم الحكم | ٣٥ : | ٢٨- دفتر المهمة رقم |

- ٢٩- دفتر المهمة رقم ٤٥ : رقم الحكم : ٤٢٩٦.
٣٠- دفتر المهمة رقم ٧٣ : رقم الحكم : ١٠٥٨.

المصادر العثمانية المنشورة باللغات الأجنبية:

- ١- الرئيس بييري (١٩٣٥) كتاب بحرية و دنيا خريطه سي ، المجمع التاريخي التركي ، إسطنبول.
- ٢- زكريا كورشون ومحمد القريني (٢٠٠٥) سواحل نجد «الأحساء» في الأرشيف العثماني ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت.
- ٣- سيدي علي (١٣١٣ هـ) مرآة الممالك ، إقدام مطبعه سي ، إسطنبول.
- 4- Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü (2000), **Başbakanlık Osmanlı Arşivi Rehberi**. 2 Baskı. Istanbul.
- 5- Sidi Ali (1899), **The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis, in India Afghanistan Central Asia and Persia, During the Years 1553-1556**, London.

ج- المصادر العربية:

- ١- أبي الحسن بن عبد الله السمهودي (١٩٠٨) وفاء الوفا بأخبار المصطفى، دار المصطفى، القاهرة.
- ٢- جعفر بن محمد بن حسن الخطي (٢٠٠٢) ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، دراسة وتحقيق أنيسة المنصور وعبد الجليل العريض، الكويت. وكذلك: تحقيق عدنان السيد محمد العوامي للديوان في مجلدين، والصادر عن مؤسسة الانتشار العربي سنة ٢٠٠٥.
- ٣- حميد بن محمد بن رزيق (١٩٧٨) الشعاع الشائع اللمعان في ذكر أئمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي، مسقط.
- ٤- شهاب الدين أحمد بن ماجد (١٩٨٩) الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة.
- ٥- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (١٨٦٨) معجم البلدان، ٦ أجزاء، لايبزك.
- ٦- عبد القادر بن محمد الجزيري (١٩٨٣) درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، تحقيق أحمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض.
- ٧- محمد بن أحمد بن إياس (١٩٦١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق وتقديم محمد مصطفى زيادة، القاهرة.
- ٨- محمد بن جرير الطبري (١٩٨٥) تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت.
- ٩- محمد بن عبد الرحمن السخاوي (١٩٣٦) الضوء اللامع في علماء القرن التاسع، القاهرة، ١٢ جزء.
- ١٠- محمود بن عمر الزمخشري (د.ت) الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف.
- ١١- يوسف بن أحمد الدرازي البحراني (١٩٦٦) لؤلؤتي البحرين في الإجازة لقرتي العين، مطبعة النجف، النجف.
- ١٢- _____، (د.ت) الكشكول، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

ثانياً؛ المراجع

- ١- إبراهيم البلوشي (٢٠٠٢) بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ٢- إبراهيم خوري (١٩٨٩) "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائج الاقتصادية في القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر الهجري"، مجلة الوثيقة، ع١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٣- إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري (٢٠٠٠)، سلطنة هرمز العربية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة.
- ٤- أحمد بوشرب (١٩٨٤) «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، الوثيقة، العدد ٤، يناير ١٩٨٤، ص.ص ١٢٢-١٢٣.
- ٥- _____، (١٩٨٧) "مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل"، الوثيقة، العدد ١٠، يناير ١٩٨٧، ص.ص ١٤٤-١٨١.
- ٦- _____، (١٩٨٩) "الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر"، الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، ص.ص ١٥٨-١٧٧.
- ٧- أحمد العناني (١٩٨٤) "البرتغاليون في البحرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، مجلة الوثيقة، ع٤، يناير ١٩٨٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٨- أحمد محمود صبحي (١٩٦٢) البحرين ودعوى إيران، الاسكندرية.
- ٩- أرنولد ويلسون (١٩٨١) تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان.
- ١٠- أنطونيو دياز فارينها (١٩٩٢) "العرب والمسلمون في عصر الاستكشاف البرتغالي"، مجلة الوثيقة، ع٢٠، يناير ١٩٩٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ١١- أورهنولو، ي. (١٩٨٠) "تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع٢٤، ١٩٨٠.
- ١٢- بدر الدين عباس الخصوصي (١٩٧٨) دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، منشورات دار السلاسل، الكويت.

- ١٣- __، (١٩٨٥) «الدولة الصفوية في مواجهة التحديات»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٤ (أكتوبر ١٩٨٥).
- ١٤- بديع جمعة (١٩٨٠) الشاه عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت.
- ١٥- بشير احمد كاظم (١٩٨٨) "حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها"، مجلة الوثيقة، ع ١٢، يناير ١٩٨٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ١٦- __، (١٩٨٨) "الاستكشافات البرتغالية، والغرض منها"، مجلة الوثيقة، ع ١٣، يوليو ١٩٨٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ١٧- __، (١٩٩٠) "التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر"، مجلة الوثيقة، ع ١٦، يناير ١٩٩٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ١٨- بشير زين العابدين (٢٠٠٦) مقدمة في مصادر تاريخ البحرين الحديث والمعاصر، مؤسسة الأوراق الجديدة، الكويت.
- ١٩- بكنجهام، س. (١٩٨١) "بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان"، حصاد الندوة العمانية، سلطنة عمان.
- ٢٠- تشارلز بيلجريف (١٩٩٧) "البرتغاليون في جزر البحرين ١٥٢١-١٦٠٢"، مجلة الوثيقة، ع ٣١، يناير ١٩٩٧، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٢١- حمد الجاسر (١٩٧٨-١٩٨١) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، أربعة أجزاء، الرياض.
- ٢٢- جاهد بلطجي (١٩٨٩) «صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٢٣- جايانتي ميترا (١٩٩٢) «العلاقات بين الخليج العربي والدولة العثمانية»، مجلة الوثيقة، ع ٢١، يوليو ١٩٩٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٢٤- جمال زكريا (١٩٧٤) دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤، دار البحوث العلمية، الكويت.
- ٢٥- __، (١٩٨٥) دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧-١٨٤٠، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٢٦- __، (١٩٨٨) «الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي»، مجلة الوثيقة، ع ١٢، يناير ١٩٨٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٢٧- حامد ربيع (١٩٨٩) «النظام الدولي الإقليمي في دول الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي»، مجلة الوثيقة، ع ١٤، يناير ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.

- ٢٨- (١٩٨٥) «تجارة البحرين منذ فتح العتوب وحتى ظهور النفط»، مجلة الوثيقة، ع٧، يوليو ١٩٨٥، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٢٩- خالد خليفة الخليفة (١٩٩١) «التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج في القرن السادس عشر»، مجلة الوثيقة، ع١٩، يوليو ١٩٩١، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٣٠- خلدون النقيب (١٩٨٩) المجتمع والدولية في الخليج والجزيرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- ٣١- راشد توفيق أبوزيد ووداد خليفة النابودة (١٩٩٨) تاريخ الخليج العربي، دبي.
- ٣٢- _____، (٢٠٠٢) دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، دبي.
- ٣٣- رأفت غنيمي الشيخ (١٩٩٣) «البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن ١٦»، مجلة الوثيقة، ع٢٣، يوليو ١٩٩٣، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٣٤- سلوت، ب.ج. (١٩٩٣) عرب الخليج ١٦٠٢-١٧٨٤، ترجمة عايدة خوري، أبوظبي.
- ٣٥- _____، (٢٠٠٣) نشأة الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت.
- ٣٦- سليمان محمد الغانم (١٩٧٩) «الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الجزء الثاني، الرياض.
- ٣٧- سهيل صابان (١٩٩٧) «الأرشفيف العثماني مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٣، ع١، مايو - أكتوبر ١٩٩٧، ص.ص ٥٤-٧٦.
- ٣٨- شارلز بورجيز (١٩٩١) «البرتغاليون وسياستهم تجاه خليج هرمز»، مجلة الوثيقة، ع١٨، يناير ١٩٩١، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٣٩- شاستري (١٩٩٣) «قرن من التبادل التجاري بين جوا وهرمز»، مجلة الوثيقة، ع٢٢، يناير ١٩٩٣، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٠- شوقي عطا الله (١٩٩٠) «البرتغاليون في شرق إفريقيا وطردهم منه»، مجلة الوثيقة، ع١٦، يناير ١٩٩٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤١- _____، (١٩٩٥) «هرمز والصراع الإسلامي الصليبي في بداية القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي»، مجلة الوثيقة، ع٢٧، يناير ١٩٩٥، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٢- صالح أوزبران (١٩٧٩) الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١، ترجمة عبد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة.
- ٤٣- صبري فالح الحمدي (١٩٩٨) «البحرين خلال السيطرة البرتغالية ١٥٠٧-١٦٠٢»، مجلة الوثيقة، ع٣٤، يوليو ١٩٩٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.

- ٤٤- ____ ، (٢٠٠٠) "السياسة الاقتصادية البرتغالية في الخليج العربي وآثارها ١٥٠٧-١٦٢٢" ، مجلة الوثيقة، ع٣٨، يوليو ٢٠٠٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٥- صلاح العقاد (١٩٧٤) التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة.
- ٤٦- طارق نافع الحمداني (١٩٨٨) "دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي" ، الوثيقة، العدد ١٢، يناير، ١٩٨٨ مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٧- ____ ، (١٩٩٠) «العثمانيون والروس في الخليج العربي، دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨-١٩٠٧»، مجلة الوثيقة، ع١٦، يناير ١٩٩٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٨- ____ ، (١٩٩٥) «التحدي البرتغالي للوطن العربي ووسائل التخلص منه»، مجلة الوثيقة، ع٢٨، يوليو ١٩٩٥، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٤٩- عباس إقبال (١٩٥٦) مطالعاتي درباب بحرین وسواحل وجزایر خلیج فارس، القاهرة.
- ٥٠- عبد الرحمن سعود مسامح (١٩٩٨) مقدمة في تاريخ البحرين القديم، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر، البحرين.
- ٥١- عبد الرحمن العاني (٢٠٠٠) البحرين في صدر الإسلام، الدار العربية للموسوعات، بيروت.
- ٥٢- عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ترجمة وتعليق (١٩٩٤) رحلات فارتيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ٥٣- عبد الرحمن بن عثمان الملا (١٩٩٠) تاريخ هجر، الأحساء.
- ٥٤- عبد اللطيف الحميدان (١٩٨٠) «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ١٤١٧-١٥٢١»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٦، السنة ١٩٨٠، جامعة البصرة.
- ٥٥- ____ ، (١٩٨٢) «مكانة السلطان أجود بن زامل الجبيري في الجزيرة العربية»، مجلة الدارة، العدد ٤ السنة ١٩٨٢، ص.ص ٦٠-٦٤.
- ٥٦- ____ ، (١٩٩٧) إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب ٩٣١-٩٦٠هـ/١٥٢٥-١٥٥٣م، الرياض.
- ٥٧- عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك يوسف الحمر (١٩٨٢) البحرين عبر التاريخ، ج١، البحرين.
- ٥٨- عبد الله بن خالد الخليفة وعلي أبا حسين (١٩٩١) البحرين عبر التاريخ، ج٢، البحرين.

- ٥٩- عبد الله بن خالد الخليفة وعلي أبا حسين (٢٠٠٥) مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٦٠- عصام سخيني (١٩٩٧) مملكة هرمز: أسطورة الخليج التجارية، ندوة الثقافة والعلوم، دبي.
- ٦١- علي أبا حسين (١٩٨٧) «وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين»، بالاشتراك مع ب.ك. نارين، الوثيقة، ع ١٠، يناير ١٩٨٧، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ص. ص ١١٢-١٤٣.
- ٦٢- _____، (١٩٨٩)، «صفحات من تاريخ البحرين خلال الوثائق العثمانية»، الوثيقة، العدد ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٦٣- _____، (١٩٩٨) «الجهاد البحري العربي الإسلامي ضد الغزاة البرتغاليين»، مجلة الوثيقة، ع ٣٣، يناير ١٩٩٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٦٤- علي أحمد الزبيدي (١٩٨٩) «أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع ١٤، يناير ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٦٥- علي الدرورة (٢٠٠١) تاريخ الاحتلال البرتغالي للقُطيف، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ٦٦- عيسى أمين (ترجمة) (١٩٩٦) تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي: مذكرات دوارتي بربوسا وجون هيونان لينخوتن ومقالة تشالزبوكر، البحرين.
- ٦٧- غانم محمد رميض (١٩٨٨) «الصراع البحري العماني-البرتغالي في البحار الشرقية»، مجلة الوثيقة، ع ١٣، يوليو ١٩٨٨، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٦٨- فاضل بيات (٢٠٠٧) الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- ٦٩- فالح حنظل (١٩٩٠) «معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع ١٧، يوليو ١٩٩٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٧٠- _____، (١٩٩٧) العرب والبرتغال في التاريخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ٧١- فؤاد شهاب (١٩٩٢) «الاستراتيجية العثمانية في الثلث الأول من القرن السادس عشر»، مجلة الوثيقة، ع ٢١، يوليو ١٩٩٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٧٢- فتحية النبراوي ومحمد نصر مهنا (د.ت) الخليج العربي، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ٧٣- فوزية الجيب (٢٠٠٣)، تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين ١٥٢١-١٦٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- ٧٤- فوزية العطية (١٩٩٤) «الأوضاع الاجتماعية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي»،

- مجلة الوثيقة، ع ٢٦، يوليو ١٩٩٤، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٧٥- محمد أحمد عبد الله وبشير زين العابدين (٢٠٠٩) تاريخ البحرين الحديث ١٥٠٠-٢٠٠٢، مركز الدراسات التاريخية، جامعة البحرين.
- ٧٦- محمد أنيس (١٩٩٣) الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- ٧٧- محمد حسن العيدروس (١٩٩٢) «عوامل سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي ١٦٢٢-١٦٥٠»، مجلة الوثيقة، ع ٢٠، يناير ١٩٩٢، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٧٨- _____، (١٩٩٦) تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، العين.
- ٧٩- محمد حميد السلطان (١٩٩٩) «ثورة عام ١٥٢١ في الخليج ضد البرتغاليين ونتاجها»، مجلة البحرين الثقافية، ع ٢٠، ١٩٩٩.
- ٨٠- _____، (١٩٩٩) «مشروعات الغزو البرتغالي للبحرين»، مجلة دلون، العدد ١٨، ١٩٩٩-٢٠٠٠، ص. ص ٣٣-٣٤.
- ٨١- _____، (٢٠٠٦) حكايات من زمن البرتغاليين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- ٨٢- محمد بن خليفة النبهاني (٢٠٠٤) التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالاشتراك مع المكتبة الوطنية بالبحرين.
- ٨٣- محمد عارف الكيالي (١٩٨٩) «الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، مجلة الوثيقة، ع ١٤، يناير ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٨٤- محمد علي التاجر (١٩٩٤) عقد اللال في تاريخ أوال، إعداد وتقديم إبراهيم بشمي، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين.
- ٨٥- محمد محمود خليل (٢٠٠٦) تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- ٨٦- محمد محمود السروجي (١٩٩٠) «المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع ١٧، يوليو ١٩٩٠، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٨٧- مصطفى عبد القادر النجار (١٩٨٩) «الإدارة العثمانية في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، ع ١٥، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٨٨- مونيك كيرفران (٢٠٠٤) البحرين في القرن السادس عشر: جزيرة حصينة، تعريب محمد الخزاعي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- ٨٩- ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري (٢٠٠٣) قلائد النحرين في تاريخ البحرين، تقديم

- ودراسة عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين.
- ٩٠- نصر الله فلسفي (١٩٨٩) إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي ١٥٠٠-١٧٣٦، ترجمة محمد فتحي يوسف الرئيس، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٩١- نتاليا تومانوفيتش (٢٠٠٦) الدول الأوروبية في الخليج العربي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، تعريب سمير نجم الدين سطاس، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي.
- ٩٢- نوال حمزة الصيرفي (١٩٨٣) النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض.
- ٩٣- نونوبي سيلفيا (١٩٨٥) «صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين»، مجلة الوثيقة، ٨ع، يناير ١٩٨٦، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.
- ٩٤- نيقولاي إيفانوف (٢٠٠٤) الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، دار الفارابي، بيروت.
- ٩٥- يلماز أوزتونا (١٩٨٨)، تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، اسطنبول.
- ٩٦- يوسف بن علي بن رابع الثقفي (١٩٨٩) "موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي"، مجلة الوثيقة، ١٥ع، يوليو ١٩٨٩، مركز الوثائق التاريخية، البحرين.

المراجع باللغة الإنجليزية:

- 1- Busharb A. (1993), “*The contribution of Portuguese sources and documents in recording the history of Bahrain in the first half of the sixteenth century*”, in A. Al-Khalifa and M. Rice, ed. (1993); **Bahrain through the ages, the History**, Kegan Paul International, London and New York.
- 2- Danvers, F.C. (1966) **The Portuguese in India**, London.
- 3- Longrigg, S. (1925) **Four Centuries of Modern Iraq**, Oxford.
- 4- Mandaville J.E (1970) «*The Province of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*», **Journal of the American Oriental Society**, vol. 90, (1970).
- 5- Miles, S. (1966) **The Countries and Tribes of the Persian Gulf**, London.
- 6- Ozbaran, S. (1989), «*Bahrain in the Sixteenth Century as Reflected in Turkish and Portuguese Sources*», **Al-Watheeka**, v.19, July 1989, Bahrain.
- 7- Serjeant, R.S. (1974) **The Portuguese off the South Arabian Coast**. Libraire du Liban, Beirut.
- 8- Sultan Al-Qasimi (1999) **The Gulf in Historic Maps 1478-1861**, 2nd Edition, Leicester, England.
- 9- Tazi, A. (1993), “*The secret alphabet on the map of an anonymous Portuguese sailor: a new document for the history of Bahrain*”, in A. Al-Khalifa and M. Rice, ed. (1993); **Bahrain through the ages, the History**, Kegan Paul International, London and New York.

رقم الإيداع في إدارة المكتبات العامة: دع 2009 /7609 م
رقم الناشر الدولي: 4-79-06-99901-978 ISBN

تمت الطباعة بمطبعة جامعة البحرين

- ٢٠٠٩